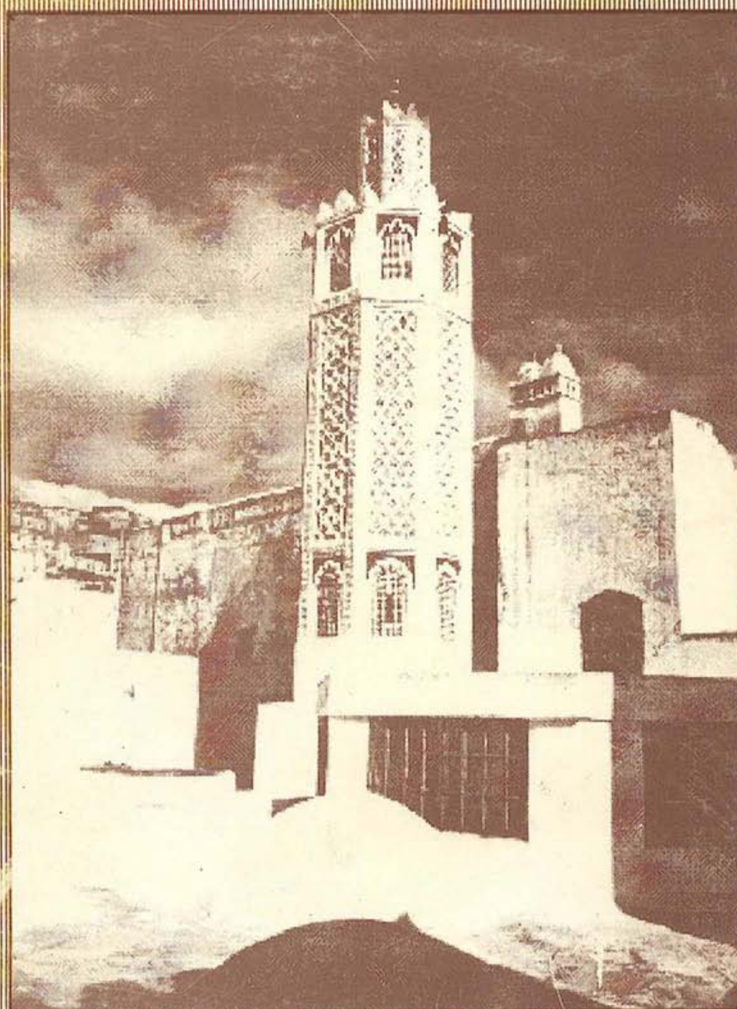
جامعة عبد المالك السعدي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
بتطوان

جامعة عبد المالك السعدي
مدرسة الملك فهد العليا للترجمة
بطنجة

مجموعة البحث في التاريخ المغربي والأندلسي

# تطوان خلال القرن الثامن عشر

## 1727 - 1822



ندوة تطوان خلال القرن الثامن عشر
نظمت أيام 21-22-23 أكتوبر 1993

1994



صورة الغلاف تمثل صومعة جامع الباشا المثمنة وهي تعود إلى القرن 18
(من محفوظات الدكتورة نادية الوزيني)

تتقدم مجموعة البحث في التاريخ المغربي والأندلسي بالشكر الجزيل لوراقة تطوان
(Papelera de Tetuan) على دعمها في نشر أعمال هذه الندوة.


رقم الإيداع القانوني : 1994/ 744
ردمك : ISBN 9981-9531-1-3
مطبعة الهداية - تطوان

# تطوان خلال القرن الثامن عشر

## 1727 - 1822

ندوة تطوان خلال القرن الثامن عشر
نظمت أيام 21-22-23 أكتوبر 1993

# الفهرس

الصفحة

# خطاب افتتاح ندوة تطوان في القرن الثامن عشر

للدكتور محمد الكتاني
قيدوم كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان

حضرات السادة

كم نحن سعداء أن نستقبل هذا الجمهور الكريم من المسؤولين والمثقفين والطلبة والأساتذة الباحثين في رحاب هذه الكلية في بداية هذه السنة الجامعية، لنجدد العهد معهم على هذه اللقاءات العلمية الهادفة إلى بث الإشعاع الثقافي والعلمي برعاية الجامعة ورعاية مؤسساتها. ولا سيما بالنسبة لكلية الآداب بتطوان التي أصبحت بفضل هذه اللقاءات تستقطب الأساتذة وتحتضن أعمال المفكرين والباحثين، وتقربهم من جمهور الطلبة وعامة المثقفين بهذه المدينة الأصيلة والعريقة في مضمار الثقافة والحضارة المغربيتين.

نعم إنه من دواعي الاعتزاز بالنسبة لكلية الآداب أن يتوالى تنظيم الندوات العلمية في رحابها، فلا تمر سنة جامعية دون أن تعقد ندوة أو أكثر. فيتلقى أساتذتها وطلبتها بهذا الجمهور الكريم من الأساتذة المتخصصين والباحثين، ومن مختلف الجامعات الوطنية والأجنبية. حيث تلقى الأبحاث والعروض وتناقش وتتلاقح الأفكار، ويستفاد من خبرة الأساتذة المتخصصين ما يستفاد من علم ومعرفة ومناهج.

في هذه الندوات إذن يتحقق تفاعل خصب في الإنتاج العلمي يتجه نحو التحليل والتقويم والنقد والتساؤل في موضوع من الموضوعات المتصلة بالعلوم الإنسانية التي تدخل في اختصاصات التكوين الاكاديمي للكلية. وفي هذه الندوات واللقاءات العلمية يتاح لأساتذة الكلية أن يسايروا حركة التطور العلمي والتطور المنهجي في التخصصات التي يمارسونها أساتذة مدرسين، وأساتذة باحثين.

ومما يزيد هذه الندوات أهمية وفعالية أنها تنظم حول قضايا البيئة والمحيط الاجتماعي والحضاري، وحول التراث القومي الذي تبلورت من خلاله الهوية الوطنية والمقومات الذاتية للأمة العربية.

أو تنظم حول قضايا "التنمية" واستثمار الطاقة الإنسانية والرصيد الوطني، المادي والبشري لبلادنا. وبذلك تندمج الجامعة في محيطها الاجتماعي والاقتصادي.

وكليات الآداب لن تكون بعيدة عن هذا الاندماج، لأنها بتخصصاتها في العلوم الإنسانية إنما تستهدف تنمية العقل الإنساني والمناهج الكفيلة باستثمار الفكر على أفضل وجه ممكن، ولا سيما في مجال التنظيم والتسيير والإدارة والتخطيط ودمقرطة الحياة الاجتماعية والسياسية وتنمية المواهب وتعميق القيم الروحية.

وهذه المطالب والقيم كلها من صميم الحياة السوية للإنسان، ومن ركائز سعادته وأمنه واستقراره.

وشعورا من أساتذة هذه الكلية بضرورة التعبئة العلمية في هذا الاتجاه، فإنهم جعلوا من البحث العلمي إلى جانب التكوين لطلبتهم هدفا يتقدم كل الأهداف الأخرى. فكونوا مجموعات في تخصصات متعددة وأخذوا على أنفسهم رسم البرامج وتنظيم الندوات التي هي المحك الحقيقي لتقديم أعمالهم. وأخذت الكلية تشجع هذا الاتجاه بغير تحفظ.

فتعمل على استقبال الأساتذة المتخصصين للمشاركة في كل لقاء علمي يقترح.

وتعمل على تشجيع إيفاد الأساتذة إلى تلك الندوات في الداخل أو الخارج. ومجموعة البحث في تاريخ المغرب والأندلس واحدة من هذه المجموعات المندمجة في البحث العلمي المتخصص في التاريخ.

وقد اختطت لنفسها منذ سنين أن تعقد الندوات المتوالية حول تاريخ "تطوان".

وهذه الندوة التي تنعقد اليوم هي الثالثة في سياق تاريخ تطوان. فقد سبق لها تنظيم ندوتين أولاهما عن تطوان في عصر الحماية، سنة 1991. والثانية عن تطوان في القرن التاسع عشر، سنة 1992. وهذه الثالثة عن تطوان في القرن الثامن عشر.

وأول ما يتبادر إلى الأذهان من تنظيم هذه الندوة الالتزام بالاتجاه العلمي المحدد للمجموعة. والوفاء بهذا الالتزام، في الآماد المحددة له. وهذا ما يجعلنا واثقين من كون السنوات القادمة ستعرف إكمال الحلقات المتبقية من عصور التاريخ لهذه المدينة.

ولعلني لست في حاجة إلى القول بأن تاريخ تطوان ليس تاريخ مدينة مغلقة على ذاتها أو مدينة تجتر ذاكرتها. وإنما هو تاريخ متفاعل مع التاريخ المغربي كله، تاريخ متحرك مع التاريخ الوطني والجهوي المتوسطي وما حوله من قوى متفاعلة. وما نشأ عن هذا التاريخ المشترك من إنجاز حضاري وتراكم ثقافي.

لن أتجاوز هذه العموميات إلى التفاصيل، لأن ذلك من اختصاص الباحثين الذين يشاركون في هذه الندوة. وإنما اكتفي بتجديد التعبير عن اعتزاز الكلية بهذه التظاهرة في سياق ما سبقها من ندوات وما يعقبها من ندوات بإذن الله.

ولذلك أوجه عبارات الترحيب للسادة الأساتذة المشاركين في هذه الندوة، والشكر على مساهمتهم الفعالة، ولا شك في أن حضورهم يمثل الرصيد العلمي الضامن نجاح هذا الملتقى العلمي.

وأرحب بصفة خاصة بالأساتذة الوافدين علينا من المملكة الإسبانية ومن فرنسا.

كما أتوجه بعبارات الإشادة إلى معهد سيرفانطيس الذي كان لدعمه المادي والمعنوي أثر كبير في إنجاز هذه الندوة.

وكذلك أتوجه بعبارات الشكر إلى السيد عامل تطوان والكاتب العام للعمالة اللذين نجد في دعمهما دائما وفي مثل هذه المناسبات ما يشجعنا على المضي في هذا الاتجاه.

ونفس الإشادة أتوجه بها إلى السيد عميد الجامعة الذي لا يدخر جهدا في الاحتفاء بهذه التظاهرات وتشجيعها.

وأخيرا أشكر الذين ساهموا من قريب أو بعيد في إنجاح هذه التظاهرة من سلطات محلية وسلطة جماعية وإعلاميين إذاعيين أو صحافيين وإداريين وأعوان، متمنيا لمجموعة البحث المزيد من التوفيق. راجيا من العلي القدير أن يوفقنا جميعا لخدمة أمتنا وإثراء رصيدها الثقافي العلمي في ظل الرعاية السامية لقائد هذه الأمة العظيم. جلالة الملك الحسن الثاني حفظه الله وأيده. وأقر عينه بولي عهده الأمير الجليل سيدي محمد وبصنوه الأسعد المولى الرشيد والحمد لله الذي بمشيئته وتوفيقه تتم الصالحات وتتحقق المقاصد والغايات.

# كلمة الدكتور امحمد بن عبود
## رئيس اللجنة المنظمة

ترحب بكم مجموعة البحث في التاريخ المغربي والأندلسي في ندوتها أو ندوتكم الثالثة حول تاريخ تطوان خلال القرن الثامن عشر (1727ـ 1828). تعتبر هذه الندوة الثالثة في سلسلة من الندوات يتجلى هدفها الرئيسي في اكتشاف تاريخ مدينة تطوان منذ إعادة تأسيسها في نهاية القرن الخامس عشر إلى نهاية الحماية الإسبانية سنة 1956.

لقد نشرت أعمال الندوة الأولى بتعاون مع المجلس البلدي لمدينة تطوان. كما نظمت مجموعة البحث في التاريخ المغربي والأندلسي ندوتها الثانية حول تطوان من 1860 إلى 1912 بتعاون مع المجلس البلدي للمدينة، وأستغل هذه الفرصة لأشكر الأستاذ سيدي عبد السلام بركة رئيس بلدية سيدي المنظري ورئيس المجلس الحضري لمدينة تطوان الذي تسلم منا مخطوط أعمال هذه الندوة ليشرف على نشرها قريبا إن شاء الله.

أما ندوتنا حول تطوان خلال القرن الثامن عشر فالهدف منها التركيزفي دراسة جوانب متعددة ومتنوعة من تاريخ مدينة مغربية أصيلة خلال فترة زمنية محددة اعتمادا على مناهج مختلفة، وانطلاقا من مواقف متنوعة، واعتمادا على مصادر ووثائق جديدة. إننا لانرغب في دراسة تاريخ تطوان خلال القرن الثامن عشر دراسة شمولية ونهائية، بل نرغب في تحديد اتجاهات جديدة في مجال البحث التاريخي ربما يمكن الاستفادة منها في إطار دراسة مدينة معينة اعتمادا على مناهج متعددة ومتنوعة في العلوم الإنسانية، مثل المناهج الاجتماعية والأدبية والاقتصادية والسياسية. ولضمان ذلك استدعينا مؤرخين محترفين، وعلماء اجتماع وعلماء سياسيين، ومختصين في الأدب العربي، والأدب الإسباني، والأدب الإنجليزي، والأدب الفرنسي، والدراسات الإسلامية. لقد ارتأينا أن يطغى طابع التكامل المعرفي في تخطيطنا لهذه الندوة. كما أن المساهمات التي ستعرض خلال الندوة ركزت على أبعاد مختلفة، منها: التاريخ السياسي والإقتصادي والاجتماعي والثقافي لتطوان ونواحيها، ثم علاقة تطوان بالمخزن، وأخيرا

علاقة تطوان السياسية والاقتصادية والثقافية بالخارج، يعني بالدول الأوروبية. وسوف يمكننا هذا الاختيار من التعمق في دراسة أبعاد تاريخية محددة من جهة مع ربطها بالإطار العام الوطني والدولي من جهة أخرى مساهمة منا في كتابة تاريخ المدن المغربية.

في هذا الإطار العام نريد أن نحقق هدفا محدودا يتجلى في طرح تساؤلات جديدة والتطرق إلى مواضيع جديدة والبحث عن محاور جديدة. إننا لا نزغم أننا سوف نجدد كتابة تاريخ مدينة تطوان، فقد يختلف الحكم في مدى تحقيقنا هذا الهدف. إلا أننا نسجل وعينا بضرورة طرح هذا الإشكال. بعبارة أخرى، لقد وقع اختيارنا على هذا الاتجاه آملين أن يأتي بثماره سواء كان ذلك في المدى القريب أو في المستقبل البعيد. لانريد أن نبالغ في أهمية النتائج التي قد تحققها هذه الندوة، ولكننا نؤكد الجدية الكبيرة التي تتصف بها مجهودات جميع أساتذة شعبة التاريخ بكليتنا، ومجهودات عدد من الأساتذة من جميع الشعب الأخرى المتمثلة جميعا في أسماء المشاركين في ندوتنا. كما أريد أن أشير إلى الحماس الكبير الذي عبر عنه جميع المشاركين من المؤسسات الجامعية والتعليمية الأخرى، مثل المدرسة العليا للأساتذة بتطوان، والرباط، وكلية الآداب، وكلية الحقوق، ومعهد الدراسات الإفريقية بالرباط. أما حماس الأساتذة الفرنسيين والإسبان للمشاركة في ندوتنا فإنه يظهر في أسماء أبرز المتخصصين في تاريخ المغرب خلال القرن الثامن عشر.

وهناك أيضا عنصر ربما لا يقل أهمية في إنجاح هذه الندوة، وهو العنصر الطلابي في كليتنا، الذي يتحمس دائما لمثل هذه التظاهرات الثقافية والعلمية. وأريد أيضا أن أشير إلى الاهتمام الذي تحظى به ندوتنا حول تاريخ تطوان في الأوساط المثقفة في المدينة، خصوصا لدى رجال التعليم.

وهذا هو العنصر الذي يعطي ندواتنا صبغة خاصة تجمع بين الالتزام بالمستوى الأكاديمي المختصص من جهة، وتعميم المعرفة لدى الجمهور العام المتنور من جهة أخرى؛ حتى أصبحت هذه الندوات التي انبثقت من شعبة التاريخ ندوات جميع الشعب وجميع الطلبة والموظفين في الكلية وسكان هذه المدينة وممثليهم.

## Palabras de Don Francisco Corral, Director del Instituto Cervantes de Tetuán

Señores Presidentes de los Consejos Municipales de Al-Azhar y El-Mandri, Autoridades Académicas, Autoridades Provinciales y Locales, colegas de otros Centros Culturales, profesores, alumnos, participantes.

Quiero en primer lugar, agradecer las amables palabras del señor Decano. Y seré muy breve en mi intervención, porque nuestra participación en este Coloquio es realmente muy sencilla. Nos limitamos a apoyar en una iniciativa cuyo mérito corresponde esencialmente a la Universidad, a la Facultad de Letras y al Departamento de historia. Nuestra participación es en este caso una obligación y un honor.

Es un honor estar trabajando en estos eventos de altura académica y de un indiscutible nivel intelectual de primera línea en las investigaciones históricas.

Y es a la vez una obligación, porque desde la visita a Tetuán de nuestro Director, D. Nicolás Sánchez Albornoz, vio claro que el Instituto Cervantes debía apoyar todas estas manifestaciones de alto nivel intelectual que enriquecen profundamente a todos los participantes e incluso a todas las Universidades interesadas en estos temas, porque después del Coloquio, la publicación de las actas con los trabajos que aquí se presenten, significará un importante aporte para todos los investigadores y los especialistas que trabajan en estos temas.

Además, Tetuán en este caso es una ciudad privilegiada para este tipo de acontecimientos. por su historia y su situación geográfica, por ser un eje de encuentro cultural y de intercambio entre países diferentes, por su rica tradición histórica que precisamente va a ser el tema de este Coloquio, pensamos que Tetuán es un lugar absolutamente idóneo para este tipo de Encuentros.

De modo que quiero asegurarles que nuestra participación es un compromiso adquirido, y que vamos a seguir haciéndolo cada vez que la Universidad llegue a organizar este tipo de acontecimientos de alto nivel.

Mi felicitación, pues, a los organizadores, a los participantes a quienes deseo los mayores éxitos y a los alumnos el mejor de los aprovechamientos en estas jornadas. Muchas gracias.

# تطوان والمخزن في عهد المولى سليمان (1792-1822)

د. محمد المنصور
كلية الآداب. الرباط

**تمهيد:**

قبل استعراض علاقة مدينة تطوان بالمخزن خلال الثلاثين سنة الممتدة من 1729 إلى 1822 لا بد من موضعة المدينة على الخريطة السياسة للبلاد بصفة عامة. فتطوان هي أولا مدينة تقع على الهامش (هذا لا يعني أنها مدينة هامشية)، أي أنها بالنسبة للمركز الموجود بالغرب (بالمفهوم التاريخي) توجد وراء جبال الريف. وأهل تطوان كذلك يديرون ظهرهم للمناطق "الداخلية" ويستقبلون البحر في جل أنشطتهم وحياتهم. وكان على المخزن المركزي أن يأخذ بعين الاعتبار هذا الموقع الذي يجعل من تطوان مدينة صعبة المنال من الوجهتين الإدارية والعسكرية.

ثم إن تطوان تمثل بمرساها الموجود عند مصب نهر مرتيل بوابة المغرب على التجارة المتوسطية، وتأتي مدينة فاس في طليعة المدن الداخلية المستفيدة من هذا المرسى. فعبر تطوان يمر قسط هام من المعاملات التجارية التي تربط تجار فاس بجبل طارق أو مرسيليا أو المشرق. وهذا الوضع أدى إلى نمو مصالح مشتركة بين المدينتين إلى درجة أن بعض الأوربيين كانوا يشيرون إلى مدينة تطوان بـ "الأخت الصغرى" لمدينة فاس ويؤكدون على روابط التآزر بين الحاضرتين في العديد من المناسبات.

لكن وجود تطوان بالقرب من البحر لم يجعل منها مدينة تجارية فقط، بل جعل منها كذلك مدينة جهادية وثغرا من أهم الثغور الشمالية. فالجهاد هو جزء من هوية المدينة وهو الذي أملى تأسيسها في المكان الذي توجد فيه. وبالنسبة لسبتة المحتلة كانت المدينة تشكل خط الدفاع الأول والحصن الذي يستقطب الطاقات الجهادية في المنطقة الشمالية. وكانت المدينة تتوفر على أسطول جهادي ينشط بصفة خاصة خلال الفترات التي تتراجع فيها السلطة المركزية. ومما زاد في أهمية المدينة في هذا الإطار توفرها على أوراش لصناعة السفن وهو النشاط

الذي لم تكن تشاركها فيه إلا مدينة الرباط على الساحل الأطلسي. أضف إلى ذلك صناعات حربية أخرى كصناعة البارود والأسلحة. وأخيرا كانت المدينة تتوفر على قوة عسكرية ربما لا تتوفر عليها مدينة مغربية أخرى. ويتجلى ذلك أولا في الطبجية المتمرسين على السلاح الناري الثقيل والرماة الذين كان عددهم يبلغ عند أواخر القرن الثامن عشر حوالي ألفين، وهو عدد هائل إذا ما قورن بعدد الرماة بفاس الذي لم يكن يتعدى بضع عشرات أو بضع مئات في أحسن الأحوال[1]. واعتبارا لهذه الوضعية لم يكن بإمكان السلاطين أن يمنعوا أهل المدينة من حمل السلاح لأنهم كانوا مجاهدين يواجهون العدو بشكل مباشر[2].

ومما يميز تطوان كذلك عن بقية المدن الشمالية بصفة عامة أنها لم تكن ثغراً وحصناً جهادياً فقط بل كانت كذلك حاضرة تضم بين أسوارها مجتمعا مدنياً معقداً، خلافاً لمدن كطنجة أو العرائش التي كانت بالأساس مدنا مخزنية تتميز بحضور مخزني قوي عبر الجهاز الإداري والحاميات العسكرية الموجودة بها. فتطوان كانت تسكنها نخبة من الأسر الأندلسية العريقة ذات التقاليد الحضرية الراسخة. وكانت المدينة تتوفر كذلك على فئة تجارية نشيطة امتد نشاطها إلى أماكن بعيدة واستطاعت أن تجمع ثروات هامة، وكانت المدينة في نفس الوقت مركزاً للإشعاع الديني والعلمي تضم مدارس وزوايا تستقطب الفقهاء والطلبة والمتصوفة. ويكفي أن نشير، على سبيل المثال، إلى بعض الأسماء التي لمعت في مجال العلم خلال القرن الثامن عشر، منها القاضي عمر لوقاش (ت. 1156/1743-1744) والعالم أحمد الورزيزي ت. (1179/1766). ومحمد بن الحسن الجنوي (ت.1200/1786) وكان لهؤلاء وغيرهم تأثير تجاوز حدود المدينة. وفي مجال التصوف نشير إلى الزاوية الريسونية

---

1 - تاريخ الضعيف، تحقيق العماري، الرباط، 1986، ص.263.

2 - في سنة 1213/1798-1799 طلب علماء تطوان والمراسي الشمالية من السلطان بأن يسمح لهم باقتناء السلاح وحمله في وقت اشتد فيه الخوف من جهة البحر، فما كان من المولى سليمان إلا أن استجاب لهذا الطلب. انظر الضعيف، ص. 313- 314.

والطريقتين الدرقاوية والحراقية، وما كان لهذه المؤسسات الدينية من حضور قوي سواء داخل المدينة أو خارجها.

وأخيرا لا بد من التأكيد على الترابط القوي الذي كان يجمع المدينة بمحيطها الجبلي. وأهم عامل ساهم في هذا الترابط هو وجود الشرفاء العلميين داخل تطوان وفي المناطق الجبلية المجاورة. ويكفي أن نذكر هنا الدور الذي قام به الشرفاء الريسونيون في هذا الربط، بحيث كانوا يشكلون قوة دينية واجتماعية حاضرة في البادية والمدينة على السواء، وهذا ما ساعد على وجود تجاوب بين الطرفين ربما كان أهم بكثير من التنافر الذي يظهر بينهما من حين لآخر.

**علاقات متوترة:**

يمكن أن نصف علاقة المدينة بالمخزن، خلال الحقبة التي تهمنا، بأنها كانت متوترة إذا اعتبرنا ما ميز هذه العلاقة من أزمات سواء عند بداية حكم المولى سليمان أو عند أواخره. والواقع أن العلاقة بين الدولة من جهة، وتطوان وناحيتها من جهة ثانية، قد ساءت حتى قبل وصول المولى سليمان إلى السلطة. فما هي أهم هذه الأزمات التي مرت بها هذه العلاقة عند أواخر القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر؟

**فتنة اليزيد وأوهام مسلمة:**

من المعلوم أن تمرد اليزيد على سلطة والده أصبحت الهاجس المقلق لسيدي محمد بن عبد الله، وخاصة خلال السنوات الأخيرة من حكمه. وفي سنة 1789 احترم هذا الأمير بضريح مولاي عبد السلام بن مشيش حيث استفاد من حماية الشرفاء العلميين. وإذا كان سيدي محمد بن عبد الله قد سخط على ولده وحذر الرعية من مبايعته، فإن الشرفاء العلميين وأهل تطوان كانوا أول من بايعه في سنة 1790.

هذه الحماية والدعم اللذان لقيهما اليزيد بتطوان ونواحيها سيشكلان سابقة سيستفيد منها المولى مسلمة في وقت لاحق. فبعد مبايعة اليزيد في ربيع 1790 احترم مسلمة بالضريح المشيشي وبقي متحصنا به إلى أن قتل أخوه اليزيد قرب مراكش في فبراير 1792. وعلى إثر ذلك خرج مسلمة من الضريح وتوجه إلى تطوان حيث بويع بدعم قوي من طرف الشرفاء الريسونيين. ولم يختلف موقف بقية الشرفاء

العلميين إذ ساندوه وبايعوه في باقي المناطق الجبلية. ومن أبرز الذين آووه ونصروه شيخ الزاوية الوزانية سيدي علي بن أحمد (ت. 1811). وهذا الدعم الذي حظي به مسلمة من طرف شرفاء الجبل كان من الأسباب المباشرة لتدهور علاقة المولى سليمان بهؤلاء الشرفاء وخاصة الوزانيين منهم.

إلا أن دولة مسلمة بشمال المغرب لم تدم أكثر من شهرين اضطر بعدهما إلى الجلاء عن المنطقة لصالح المولى سليمان. لكن الطموح السياسي لمسلمة ظل يدفع بهذا الأمير من مغامرة إلى أخرى. فبعد انسحابه إلى الجزائر في سنة 1792 ظهر من جديد بمنطقة الشاوية، حيث بايعته القبائل هناك في السنة الموالية 1793. ومرة أخرى تفشل هذه المحاولة ليظهر مسلمة من جديد بأحواز تطوان في سنة 1795. وحسب الضعيف، الذي يورد أخبار المدينة في هذه السنة فإن المولى مسلمة استعان بالقبائل الجبلية من أجل الاستيلاء على تطوان، فحاصرها نحو ثلاثة أشهر ونصف[3].

ومن جديد تنتهي مغامرة مسلمة إلى الفشل، فيستجير بالشرفاء العلميين ويقصد ضريح مولاي عبد السلام بن مشيش. ومن هنالك دخل في حوار مع أخيه المولى سليمان عن طريق الرسونيين الذين عرضوا وساطتهم لإخراج مسلمة من الضريح المشيشي وترتيب استقراره بأحدى الجهات المقبولة لدى المولى سليمان.

**تطوان في عهد المولى سليمان: انتفاضات وتمردات**

شهدت السنوات الأولى من حكم المولى سليمان عدة حركات مناوئة لهذا السلطان. ولم تكن حركة المولى مسلمة، سواء في سنة 1792 أو في 1795، الحركة الوحيدة التي شهدتها المدينة ومحيطها الجبلي. فالمصادر التاريخية تذكر جملة من الانتفاضات والثورات التي تطلب إخمادها جهدا كبيرا من طرف المولى سليمان ومخزنه الفتي. وهذه الثورات التي شهدتها تطوان خلال السنوات الأولى من حكم المولى سليمان هي التي نذكرها فيما يلي:

---

3 - تاريخ الضعيف، ص. 262.

*- انتفاضة مرتيل (فبراير 1794)*

كل ما نعرفه عن هذه الانتفاضة جاءنا عن طريق المصادر الأجنبية وخاصة المراسلات الديبلوماسية الأوروبية؛ فمراسلات القنصل البريطاني بطنجة تشير إلى هجوم القبائل الجبلية المجاورة لتطوان على مرسى مرتيل، وكانت حصيلة هذا الهجوم الذي وقع في شهر فبراير من سنة 1794 كما يلي: مقتل أربعة من البحارة الإسبان وثمانية حراس مغاربة وإحراق خمس سفن إسبانية، إضافة إلى إتلاف دار الأعشار[4]. القنصل الإنجليزي «ماطرا» يفسر هذا الهجوم كاحتجاج لسكان تطوان والقبائل المجاورة على السماح بتصدير المواد الغذائية، وهو التصدير الذي كانت تستفيد منه إسبانيا بالدرجة الأولى. فمن المعلوم أن المولى سليمان كان في هذا الوقت لا يراقب إلا جزءا من البلاد حيث كان الجنوب يخضع لأخيه هشام ومن يقف معه من قواد القبائل الجنوبية، وكان سماحه بتصدير المواد الغذائية من مراسي الشمال يستجيب لاعتبارين أساسيين، فمن جهة كان فتح باب التصدير يسمح له بجني موارد مالية كان في أشد الحاجة إليها لتوطيد سلطته ولمواجهة المتمردين بالجنوب، ومن جهة أخرى كان المولى سليمان يأمل في أن يكسب إسبانيا، بصفة خاصة، إلى جانبه في الصراع حول الحكم بالمغرب، أوعلى الأقل أن يجعلها تقف موقف الحياد تجاه الصراع القائم بين "مملكة فاس" و"مملكة مراكش". وهذا بالضبط ما حذا به إلى أن يمنح إسبانيا امتيازات تجارية هامة كان من جملتها السماح بتصدير المنتوجات الغذائية إلى سبتة. وطبيعي أن يثير هذا غضب التطوانيين وجيرانهم من أهل الجبل؛ لأن التصدير لا بد وأن يؤدي إلى ارتفاع الأسعار خاصة في منطقة تعوزها الموارد الزراعية. إضافة إلى ما اصطدم به هذا التصدير من معارضة دينية.

هذا الهجوم استدعى من طرف المولى سليمان حملة عسكرية هامة ترأسها السلطان بنفسه، وكان هدفها عقاب القبائل المتورطة في هذا الهجوم. لكن هل كان لأهل تطوان ضلع

---

4 - وثائق الخارجية البريطانية، مراسلات سنة 1794 ضمن المجموعة F.0.52/10.

في هذه القضية؟ القنصل الإنجليزي «ماطرا» يذكر أن المولى سليمان رفض دخول المدينة عندما وصل إلى المنطقة وذلك حتى يعبر عن استيائه من أهلها، الذين حسب ما قيل، كانوا وراء أعمال العنف التي قامت بها القبائل. ويذكر «ماطرا» أن السلطان اكتفى باستدعاء أعيان المدينة إلى حيث كان مقيما خارج أسوار المدينة، حيث وبخهم على موقفهم. ثم يضيف القنصل الإنجليزي:

«وكان من المتوقع أن تدفع المدينة الثمن كذلك لولا الخوف من إثارة أهل فاس، لأن المدينتين تجمعهما من الروابط ما يجعلهما متضامنتين»[5].

*-ثورة زيطان الخمسي*

حسب المؤرخ الزياني فإن المنطقة شهدت اظطرابا آخر في نفس السنة، أي سنة 1794. وبهذا الصدد يتحدث الزياني عن تمرد شاركت فيه قبائل الأخماس وبني يدر وبني حزمر[6]، والذي كلف بإخماد هذه الفتنة واستئصالها هو أخ السلطان الأمير مولاي الطيب. إن المعلومات التي يقدمها الزياني مقتضبة جدا ولا تسمح لنا بتكوين رؤية واضحة عن مجموعة من الأحداث وقعت في نفس الوقت تقريبا. فهل هناك علاقة بين ثورة زيطان والهجوم الذي تعرضت له مرسى مرتيل؟

ثم هل هناك علاقة بين هذا الهجوم والطريقة الدرقاوية، إذا علمنا بأن القمع الذي تعرض له الدرقاويون بتطوان كان كذلك في سنة 1794[7]؟

*-الثورة الدرقاوية*

ظهرت الطريقة الدرقاوية كحركة تجديدية في إطار

---

5 - نفس المرجع، رسالة ماطرا في 26 يونيو 1794.

6 - الزياني، <u>الروضة السليمانية</u>، مخطوط 1275، الخزانة العامة بالرباط، الورقة 169.

7 - حسب الأستاذ عبد الغفور بندريس الذي ألقى عرضا في هذه الندوة حول أحداث مرتيل فإن الوثائق القنصلية الإسبانية تشير بوضوح إلى علاقة الدرقاويين بهذه الأحداث. ومما يرجح هذا الاحتمال ما أقدم عليه المخزن من إجراءات ومضايقات في حق الدرقاويين بالمدينة ونواحيها بعد هذه الأحداث مباشرة.

التصوف الشاذلي بالمغرب، وكان مطمح مؤسسها مولاي العربي الدرقاوي أن ينفخ روحا جديدة في التصوف المغربي الذي طغت عليه الماديات وأصبح تجارة في يد شيوخ الزوايا. ولكن الطريقة الدرقاوية جاءت كذلك كثورة اجتماعية، أو كثورة على قيم المجتمع. وما حدث بتطوان خلال العقد الأخير من القرن الثامن عشر أسطع دليل على ذلك . فأحمد بن عجيبة، وغيره من أقطاب الدرقاوية، كانوا من الفقهاء والعلماء، وكان من المفروض فيهم أن يكونوا من خاصة المجتمع ونخبته، لكنهم تنكروا لوضعهم الاجتماعي ورموا عرض الحائط بكل القيم التي تضع كل فئة اجتماعية في المكان المخصص لها. وهكذا نزل ابن عجيبة وأصحابه إلى السوق بعد أن لبسوا المرقعات ووضعوا السبحة في أعناقهم، فمدوا اليد للسؤال وجلسوا بالمزابل وناموا بالأزقة عسى أن يتمكنوا من كسر النفس وكبح شهواتها. وكان من الطبيعي أن تقلق النخبة التطوانية وتنزعج من هذه الظاهرة الغريبة. وكان من الطبيعي كذلك أن يؤدي انتشار الطريقة الدرقاوية إلى تقارب وتحالف بين المخزن، الحريص على الاستقرار الاجتماعي والنخبة الحضرية بتطوان التي رأت هي الأخرى في هذه الطريقة حركة لا تتمشى مع ما عهدته من تصوف، أي تصوف النخبة الذي يحترم السلم الاجتماعي ولا يستدعي النزول إلى أسفل للاختلاط بالعامة. ومن هنا رأت الزاوية الريسونية، وهي زاوية الأعيان، في هذه الحركة الدرقاوية ما يتعارض مع مصالحها، بل وينسف الأسس التي تقوم عليها. أما المخزن السليماني فإنه حاول تعزيز وجوده بالمدينة وأحوازها عن طريق التحالف مع الأشراف الريسونيين من جهة، وعن طريق إحداث تغيير لصالحه داخل الطريقة الدرقاوية نفسها.

### الزاوية الريسونية: عامل استقرار بالمدينة ومحيطها

الاضطرابات التي عرفتها مدينة تطوان ومحيطها خلال السنوات الأولى من حكم المولى سليمان جعلت هذا الأخير يفكر في وسائل تمكنه من تعزيز الوجود المخزني بالمنطقة، وتضمن له ولاء العناصر المؤثرة فيها. ومن هنا جاء التقرب من الشرفاء الريسونيين، علما بأن تعاون هؤلاء الشرفاء مع الدولة لم يكن وليد العهد السليماني. فما هي العوامل التي ساعدت على

التقارب الحاصل بين المولى سليمان والريسونيين.

لابد من الإشارة أولا إلى العلاقات الجيدة التي قامت بين سيدي محمد بن عبد الله وهؤلاء الشرفاء. فهذا السلطان كان قد أوقف على الزاوية الريسونية بعض مداخيل بيت المال[8]، كما أن أحد الأشراف الريسونيين البارزين، وهو محمد بن محمد الصادق بن ريسون، كان من حاشية سيدي محمد وأحد المقربين إليه. وقد استعان به السلطان في ضبط سجل الشرفاء العلميين فكلفه بوضع تأليف في الموضوع هو فتح العليم الخبير في تهذيب النسب العلمي بأمر الأمير[9]. وهذا الشريف - الفقيه كان كذلك ممن تتلمذ عليهم المولى سليمان، إذ يذكره في فهرسته ضمن شيوخه[10]، لذلك يمكننا الحديث عن علاقة شخصية بين المولى سليمان وأقطاب الريسونيين.

ثم هناك اعتبارات سياسية حذت بالمولى سليمان إلى أن يحاول كسب الشرفاء العلميين، أو على الأقل قسما منهم إلى جانبه. ففي الوقت الذي توترت فيه العلاقة بين المخزن والزاوية الوزانية بسبب الدعم القوي الذي قدمه سيدي علي بن أحمد للمولى مسلمة،[11] اتجه المولى سليمان إلى الشرفاء الريسونيين محاولا استمالتهم لتكسير جبهة الشرفاء العلميين.

وأخيرا هناك ظهور الطريقة الدرقاوية وطرحها تصوفا جديدا لم يكن يساير لا مصلحة الزاوية الريسونية وهي التي

---

8 - عن بعض هذه الامتيازات انظر ظهيرين لسيدي محمد بن عبد الله أوردهما علي الريسوني في كتابه رجال ومواقف: دفاعا عن وحدة الأمة، تطوان، 1982، ص. 19، 21.

9 - محمد بن محمد الصادق بن ريسون، فتح العليم الخبير في تهذيب النسب العلمي بأمر الأمير، توجد منه عدة نسخ بالخزانة الحسنية بالرباط ونسخة بالخزانة العامة بتطوان (رقم 855).

10 - انظر الزياني، ألفية السلوك، مخطوط كـ 2245، الخزانة العامة بالرباط، ص. 167.

11 - انظر تاريخ الضعيف، ص 251 - 252 وكتابنا المغرب في عهد المولى سليمان.

**Morroco in the Reign of Mawlay Sulayman**, Menas Press, Cambridgeshire, U. K., 1990, pp. 89 - 91.

تمثل شكلا من أشكال التصوف النخبوي، ولا مصلحة المخزن الحريص على الاستقرار الاجتماعي. ولقد نجح المولى سليمان بالفعل في بناء تحالف لأعيان تطوان ضم العلماء والشرفاء الريسونيين لمواجهة المد الدرقاوي[12].

كل هذه الاعتبارات جعلت المولى سليمان يمنح الامتيازات المادية والمعنوية للزاوية الريسونية (فندق لوقاش الذي أصبح مقرا للزاوية) ويلجأ إلى وساطتهم ونفوذهم بالمنطقة لخدمة الأغراض المخزنية.

**تغيير الطريقة الدرقاوية من الداخل:**

بصفة عامة تميزت العلاقة بين المخزن والطريقة الدرقاوية بالتوتر. ولم يكن المولى سليمان مرتاحا للنجاح الكبير الذي حققته هذه الطريقة وانتشارها السريع في البوادي والجبال على الخصوص. وهذا ما جعل هذا السلطان يحاول إضعافها إما بفتح المجال لطرق صوفية أخرى كالتجانية الآتية من المغرب الأوسط، وإما بمحاولة تغييرها من الداخل. وهنا يدخل ظهور اتجاه معتدل ونخبوي داخل هذه الطريقة بتشجيع مباشر من المخزن. فالشيخ محمد الحراق، بحكم أصله الحضري وارتباطه القوي بالنخبة الحضرية وبالدولة، كان لا بد أن يحدث تيارا معتدلا داخل الدرقاوية قابلا للتفاهم والحوار مع السلطة السياسية أكثر من التيار الذي كان يسيطر عليه ذوو الأصل القروي كالدرقاوي نفسه أو البوزيدي. ولم يكن تعيين محمد الحراق كخطيب بالمسجد الأعظم بتطوان عاريا من الدلالة، وكان الهدف من ورائه هو تغليب هذا التيار المعتدل الذي يمثله الحراق في منطقة بالغة الحساسية.

**موقف تطوان من "فتنة" أبناء اليزيد** (1820 ـ 1822)

لا يسمح المجال هنا بتتبع أحداث وتطورات الفتنة التي ميزت السنوات الأخيرة من حكم المولى سليمان[13]. وإذا كان

---

12 ـ محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد الثالث، تطوان، 1962 ص. 216. انظر كذلك التهامي الوزاني، الزاوية، الجزء الأول، تطوان، 1942،ص. 169.

13 ـ حول الظروف والتطورات التي ارتبطت بما يعرف بفتنة فاس انظر أكنسوس، الجيش العرمرم، مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم د 339، ص. 314 ـ 344، وكتابنا المشار إليه أعلاه، ص 184-217 .

الناصري يسمي هذه الفتنة بفتنة فاس فإن الأمر يتعلق في الواقع بحركة مناهضة للمولى سليمان لعبت فيها تطوان والأقاليم الشمالية دورا أساسيا .

إن السؤال الأساسي الذي يفرض نفسه هنا يتعلق بطبيعة هذه الفتنة. إن بروز إسمي كل من فاس وتطوان قد يوحي بأن الأمر يتعلق بثورة حضرية، وهذا ما جعل بعض الباحثين الأوربيين يتحدثون عن ثورة لفئة التجار أو "ثورة بورجوازية" ضد نظام سياسي كان يعيق تطور هذه الفئة بسياسته الحمائية والانعزالية[14]. إن هذا التفسير المتسرع لا يصمد أمام التحليل التاريخي لتطورات هذه الحركة، وهو قبل كل شيء تفسير يعكس انشغالات الأوربيين وحرصهم على فتح أبواب التجارة المغربية، مما جعلهم يفسرون الأشياء انطلاقا من همومهم الخاصة.

فالقوى الاجتماعية التي وقفت وراء التمرد هي بالأساس قوى محافظة (شرفاء، زوايا) لم تكن راضية عن سياسة المولى سليمان، سواء في المجال الديني بسبب أفكاره الإصلاحية، أو في المجال الاجتماعي بتفضيله لأهل العلم والثروة. ويكفي أن نشير إلى الدور الرئيسي الذي لعبه شرفاء وزان والزاوية الوزانية لضمان الدعم والتأييد لحركة ابني اليزيد المولى إبراهيم والمولى السعيد. وبمدينة تطوان وأحوازها نجد أن مساندة الشرفاء الوزانيين كانت حاسمة، وبدونها ما كان لهذه الفتنة أن تستغرق ما يزيد عن السنة[15].

تبقى هناك العديد من الأسئلة التي تحتاج إلى مزيد من البحث، مثلا موقف الشرفاء الريسونيين خلال هذه الفتنة على الرغم من الامتيازات التي نعموا بها خلال العهد السليماني، هل كانوا تابعين فقط لـ "أبناء عمهم" الوزانيين الذين كانوا يتمتعون بنفوذ قوي في القبائل؟ موقف الدرقاويين بتطوان يحتاج كذلك إلى المزيد من التدقيق. فهل كان موقف محمد

---

14 - انظر على سبيل المثال G. Lazarev, "Aspects du Capitalisme Agraire au Maroc avant le Protectorat "in **L'Annuaire de l'Afrique du Nord**, 1975, pp. 57-90.

15 - عن موقف الشرفاء الوزانيين في هذه الفتنة انظر التهامي الوزاني، الزاوية، ص 199-200، وكذلك كتابنا المذكور أعلاه، ص 205- 206.

الحراق المساند للمولى سليمان يعكس موقف جزء كبير من الدرقاويين بالمدينة، أم أنه كان يمثل موقف فئة محدودة فقط؟ وحتى موقف تجار تطوان ربما يحتاج كذلك إلى البحث، انطلاقا من الوثائق المحلية، وذلك حتى نتوصل إلى استنتاجات أقرب ما تكون إلى الحقيقة التاريخية.

# تطوان في نهاية القرن الثامن عشر
# قراءة في رحلة بوتوكي(1)

د. فاطمة الحراق
معهد الدراسات الإفريقية
جامعة محمد الخامس - الرباط -

فن الرحلة من الأنواع الأدبية الطريفة التي تميل إليها النفس، لأن مؤلفها يطلق العنان لقلمه فيكتب ما يراه ويسمعه ويشعر به بأسلوب سهل ودون تصنع. فعندما يقرأ الإنسان كتاب رحلة يحس وكأنه يرافق الكاتب، يرى ما يراه ويشعر بما يشعر به.

لكن الرحلة ليست نوعا واحدا، بل تختلف وتتنوع في شكلها ومضمونها وأسلوبها بحسب الأسباب الداعية إليها من جهة (سياحة، حج، دراسة، استكشاف، مهمة سياسية..)، وبحسب موقع الكاتب في المجتمع الذي ينتمي إليه والذي يحدد نوعية القراء المقصودين بالرحلة (إما ملوكا أو أعيانا أو علماء أو أتباعا أو أهلا..). كما أن هناك نوعا آخر من الرحلة وهي الرحلة الخيالية، وهذا نمط أدبي خاص، وطريقة استعارها بعض الأدباء لتقريب أحوال الشعوب الماضية أو البعيدة وكذا نقد أحوال المعاصرين أو السفر المعنوي.

وإذا كان علينا أن نصنّف رحلة بوتوكي، التي هي موضوع عرضنا، بحسب الأسباب الداعية إليها فهي تجمع ما بين الرحلة السياحية والإستكشافية والسياسية. ونظرا لانتماء المؤلف إلى طبقة النبلاء وإلى الحاشية الملكية في بولونيا فقد حرر رحلته باللغة الفرنسية وضمّنها، بالاضافة إلى وصف الطبيعة والمجتمع والمؤسسات السياسية بالمغرب، ملاحظات وتأملات فلسفية حول

---

1 - نص الرحلة المغربية لبوتوكي الذي اعتمدته في هذا العرض نشر سنة 1980 بباريس ضمن رحلاته المصرية والتركية والهولندية ورحلته الخيالية وقد قدمه وعلق عليه دانيال بوفوا

(Jean Potocki,**Voyages en Turquie, en Egypte en Hollande et au Maroc.** Introduction et notes de Daniel Beauvois, Fayard, Paris, 1980).

مواضيع كانت تشغل بال الأرستقراطية الأوروبية في نهاية القرن الثامن عشر.

فمنذ صدور الرسائل الفارسية لمُونطسْكْيُو (Montesquieu) عام 1721 أصبح وصف المجتمعات الشرقية، وكذا الرحلة الخيالية، مطية ووسيلة لانتقاد المجتمعات الأوروبية. وإذا كانت رحلة بوتوكي إلى المغرب تنطلق من ملاحظات حول المغرب لمناقشة قضايا فكرية عامة، فإن الغرض من رحلة حافظ، وهي الرحلة الخيالية التي اقترنت منذ البداية بالرحلة المغربية لبوتوكي، هي نقد واضح للحضارة الأوروبية ومحاولة لصياغة مذهب أخلاقي أكثر تلاؤمًا مع روح القرن الجديد والصّعب الذي كانت أوروبا مقبلة عليه.(2)

لكن ما يهمنا في هذا المقام ليست الرحلة الخيالية بل الرحلة الواقعية التي قام بها الكونت البولوني جان دي بوتوكي للمغرب في صيف سنة 1791 والتي قضى نصف مدّتها تقريبا في تطوان. كانت الرحلة قصيرة جدا (شهران)، الشيء الذي يطرح بإلحاح قضية مبررات ودواعي هذه الزيارة الخاطفة للمغرب. لكن مناقشة أسباب الرحلة يمر بالضرورة عبر التعريف بالمؤلف.

جان دي بوتوكي (1761 ـ 1815)

الكونت جان دي بوتوكي نبيل بولوني ارتبط اسمه ببلاط السلطان المتنور ستانسلاس أوغوسط بونيا طوفسكي (حكم ما بين 1764 ـ 1795) (Stanislas Auguste Poniatowski)، لكنه اشتهر كذلك كرحالة غزير الإنتاج ومفكر متنور وأديب مبدع، خصوصا بعد صدور كتابه مخطوط وجد في ساراغوصا (Manuscrit trouvé à Saragosse) عام 1804، والذي رفعه إلى مصاف "عباقرة الأدب الفرنسي"(3).

كان جان بوتوكي يبلغ من العمر 30 سنة حين قام برحلته للمغرب. وكان في ذلك الوقت قد سبق وزار وكتب عن رحلاته لتركيا ومصر (1781) وهولندا (1787). وبعد المغرب، زار المؤلف الصين (1805) وبلاد أوروبا الشرقية وروسيا. من خلال هذه

---

2 ـ نفس المرجع، ص 311.

3 ـ Dictionnaire le Petit Robert 2

الرحلات يظهر أن بوتوكي كان ولوعا بالبلاد الشرقية. وهذا ليس غريبا، فهو قد ولد وشبّ في ولاية پودوليا (Podolie) بجنوب بولونيا، وهي منطقة محادية لبلاد التتار الذين ينتمون ثقافيا ودينيا إلى الشرق. فالمسلمون هناك كثيرون (القرآن متداول باللغتين البولونية والعربية، بل لقد عُثر هناك على مصاحف مكتوبة بالأعجمية) واليهود الذين يسكنون في تلك المنطقة من طائفة الكرايم الذين لايزالون يتكلمون اللغة التركية[4]. فولوع بوتوكي بالشرق إذن لم يكن من باب الولوع بالغريب أو بالشرق كموضة، كما لم يكن هروبا من أوروبا التي كانت تحيط بها الأخطار من كل حدب وصوب. ذلك أن بوتوكي لم يكن فقط أديبا ورحالة بل كان رجل سياسة ملتزم يهمه مصير بلاده التي كانت تتقاذفها أيدي القوى الأوروبية خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر[5]. فقد كان بوتوكي مستشارا للملك ستانسلاس وعضوا في المجلس التشريعي (Diète de 4 ans) ما بين 1788 و 1791، وكانت آخر مهمة كلف بها من طرف هذا المجلس هي صياغة مشروع دستور للبلاد يستهدف تغيير النظام السياسي في بولونيا من ملكية انتخابية نخبوية (أي خاضعة لمؤامرات وضغوطات البلاطات العظمى في أوروبا) إلى ملكية وراثية دستورية وبرلمانية تكون أكثر استقلالا عن ارستقراطيات القوى الأوروبية في ذلك الوقت (روسيا، النمسا وبروسيا). وبالفعل فقد صدر هذا الدستور في مايو من عام 1791، وهو عام الرحلة المغربية. لكن روسيا وحلفاءها كانوا له بالمرصاد[6]. وفي خضم السخط والضجة التين أثارهما دستور مايو في ڤارسوڤيا توجه بوتوكي إلى المغرب، بعد أن توقف بمدريد حيث تعرّف على السفير المغربي محمد بن عثمان.وكان

4 - بوتوكي، الرحلة المغربية، ص. 21.

5 - شهدت بولونيا ثلاثة تقسيمات بين 1772 و 1795 لصالح روسيا والنمسا وبروسيا، واختفت پولونيا من خريطة أوروبا كدولة من 1795 إلى 1807 لتظهر كدوقية ڤارسوڤيا خلال الحروب النابليونية، ثم تختفي مرة أخرى ابتداء من 1815 فتصبح أرضا تابعة لروسيا (Atlas Historique, stock, Paris, 1968).

6 - نفس المرجع.

دخول بوتوكي لتطوان يوم ثاني يوليوز من عام 1791.

*مبررات وأبعاد الرحلة*

في ظل هذه الظروف يصبح التساؤل حول الأسباب التي دعت إلى هذه الرحلة مشروعا. وقد سبقنا المحلّلون والمتكهّنون في هذا الباب، فمنهم من اعتبر أن بوتوكي، وهو أحد صانعي دستور مايو 1791، قد خرج هاربا من بولونيا، ومنهم من رأى أن بوتوكي كان يحمل رسالة إلى سلطان المغرب من الملك البولوني ستانسلاس أغوست الذي كان يبحث عن حلفاء جدد، وهناك من وجد أن الرحلة كانت بمثابة الدواء من مرض "السوداء" الذي كان يشكو منه بوتوكي كباقي نبلاء ومفكري عصره[7].

لكن، لنقرأ ما كتبه بوتوكي في رحلته حول أبعاد زيارته للمغرب:

> "أنهي هنا هذه الرحلة التي لم أكن أنتظر منها أن تغني معرفتي فقد اعتبرتها نزهة ومتعة وجولة في جزء آخر من العالم تمكنت خلالها من تغيير الجو والسماء والطبيعة، [كما اعتبرتها] مشروعا للاستماع إلى سكون الصحاري وهيجان الشواطئ والانتقال بفكري إلى هذه الأجواء التي تشكل المجال الأمثل للخيال والأحلام...فالصحاري وسكونها والبحر وأمواجه العارمة والجو الصحو والعاصفة الهوجاء والطبيعة ومشاهدها، هذه هي المجالات التي يرتع فيها الحالم المنزوي".
>
> "لا شك أن مثل هذه الأفكار تثير شفقة رجل السياسة الذي ينظر إلى الطبيعة والخيال من أعالي مشاريعه الواقعية. فلا يهمه من العواصف إلا ماتثيره الأحداث على أعمدة الصحف. أما الشعوب الإفريقية فليست بالنسبة له سوى مصدر متاعب للجمعية العامة وموطن خطر للتاجر والمسافر المعرضين

---

7 - بوتوكي، الرحلة المغربية، ص. 24.

للقتل أو الأسر. أما فيما يخص البحر فإنه كان يوما ما شاهدا على ظهور تلك الأسلحة الجميلة التي لم تترك من أثر سوى ما نتج عن انتشارها من تثقيل كاهل الشعوب تحت غطاء الإبقاء على التوازن في أوروبا"[8].

من خلال ما سبق يظهر أن بوتوكي كان وقت كتابة رحلته المغربية رجلا خائب الظن من الحياة السياسية في أوروبا ومن رجال السياسة الذين ينظرون إلى العالم "من أعالي أبراجهم وأنانيتهم" ونظرياتهم المبهمة البعيدة عن واقع الشعوب. فالرحلة إلى المغرب كانت مناسبة لاعتزال هؤلاء الناس والارتماء في أحضان الطبيعة قصد التأمل في الأزمة التي كانت تتخبط فيها المجتمعات الأوروبية والتي لم تكن في تقديره سوى أزمة قيم وأخلاق.

هذا النفس الرُّوسوي - تذكروا عنوان أحد أعمال جان جاك روسو Rêveries d'un promeneur solitaire (أحلام متنزه منزو) - هو الذي يتخلل رحلة بوتوكي المغربية. فمتنزهنا البولوني يتشبّه بروسو ويحاول من خلال رحلته هذه أن يكون رساما للطبيعة ومؤرخا للقلب البشري. فهل سينجح في هذه المحاولة؟ هذا ما سنراه من خلال وصفه للمغرب ولتطوان في نهاية القرن الثامن عشر.

*تطوان في نهاية القرن الثامن عشر*

أول ما أثار انتباه رحالتنا بعد أن وطأ أرض "إفريقيا" هو أن الطبيعة بعوالمها الثلاثة استمرار لجنوب أوروبا وخصوصا الأندلس، "فاذا كان الجغرافيون يعتبرون أن إفريقيا تبدأ عند البوغاز فإنها لا تبدأ بالنسبة لعالم الطبيعة إلا عند الواجهة الجنوبية لجبال الأطلس"[9].

وهذا التشابه بين ظفتي البوغاز يذهب أبعد من ذلك ليشمل الإنسان كذلك، سواء من حيث مظهره الخارجي أو مسكنه أو نمط عيشه بصفة عامة. فسكان تطوان ذوو "سمات جميلة" خصوصا إذا قورنوا بالعبيد أو الأعراب، وبيوتهم "أقل

8 - نفس المرجع، ص : 309 - 310.

9 - نفس المرجع، ص. 173.

إتقاناً لكنها ملائمة تماما لأسلوب قصر الحمراء في غرناطة"، أما بالنسبة لنمط العيش "فيمكن أن نملأ كتابا بأكمله حول العادات والأعراف المشتركة بين المغاربة والإسبان"[10]. وهذا - في تقدير بوتوكي - هو ما يفسر "حقد المغاربة على الإسبان... فسكان هذه المدينة (تطوان) ينحدرون في غالبيتهم من عرب الأندلس، بل أنا أعرف - يقول رحالتنا - عائلة لازالت تحتفظ بكل البيانات حول بيت أجدادها في قرطبة"[11].

هذا عن الطبيعة والإنسان في تطوان. فماذا يقول بوتوكي حول الحياة في المدينة؟

تطوان مدينة آهلة بالسكان وتعتبر "ثاني أكبر مدينة في الإمبراطورية من حيث عدد سكانها بعد فاس، وتليها مراكش ثم مكناس وسلا"[12].

زيارة السوق البلدي (القيسارية) أبان له عن ركود المدينة التجاري، لكنه اكتشف من خلالها مهارة الصانع اليدوي المغربي والجودة العالية للصناعة التقليدية، هذا "الشاهد على عظمة الحضارة المغربية حتى وإن غابت الآثار المبنية"[13].

أما فيما يخص التعليم فقد كان بوتوكي المتنور متعطشا لمعرفة المستوى الذي وصله تدريس العلوم في بلاد الإسلام. وكم كانت خيبة أمله كبيرة حين وجد بأن القلة المتنورة في هذه البلاد تجهل تماما بأن المعرفة البشرية قد انتقلت من مستوى "الكلام" والفلسفة إلى مجالات العلوم التجريبية والتطبيقية. فكتب أرسطو وابن سينا متداولة في هذه الأوساط[14]، كما أن هناك مدارس خاصة تلقن فيها مبادئ أوقليدس في الرياضيات وبطليموس في علم الفلك[15]، "والمغاربة فضوليون بطبعهم لايأنفون من الدخول في مناقشات حول مواضيع [فلسفية وعلمية] لكن، حالما تنتهي من شرح

---

10 - نفس المرجع، ص. 165 - 161 - 174.

11 - نفس المرجع، ص. 4.

12 - نفس المرجع، ص. 175.

13 - نفس المرجع، ص. 191.

14 - نفس المرجع، ص. 177 و 207.

15 - نفس المرجع، ص. 195.

الجاذبية أو كيفية تكوّن الشهب يسألونك : وكيف يستطيع سكان عفنو أن يقتلوا الإنسان بمجرد نظرة من العين اليسرى؟"[16].

لا يخفي بوتوكي انزعاجه من تفشّي العقلية الخرافية في الأوساط المتنورة، لكنه رجل متحضر يحترم معتقدات الآخرين خصوصا إذا كان هؤلاء بدورهم أناساً متحضرين كما هو الشأن بالنسبة لسكان تطوان. فهم كما يقول "des citoyens polis" أبعد ما يكونون عن "الغوغاء" التي لقيها في بطانة السلطان مولاي اليزيد[17]، "يحس بينهم الأجنبي بالراحة ولا يتعرض لأية مضايقات"[18]، إلا إذا كان هذا الأجنبي إسبانيا![19].

ولم يستثن بوتوكي من هذه الأوصاف لا الحرس التطواني (الرماة) الذي رافقه خلال رحلته داخل المغرب ـ وهم من الطبقة الدنيا من المجتمع ـ ولا رجل الشارع.

لكن بوتوكي كان ضيفا متميزاً، إذا أخذنا بعين الاعتبار رسائل التوصية التي كان محمّلاً بها من طرف السفير بن عثمان وكذا الاستقبال الذي خُصِّص له في تطوان وغيرها من المدن المغربية، وبالتالي فقد كان تعرفه على هذه المدينة أساسا من خلال أعيانها الذين يقدم لنا منهم بوتوكي في رحلته ثلاثة نماذج : القائد عبدالرحمان أشعاش، أمين المرسى محمد البروبي، والرايس السفير الحاج عبدالكريم راغون.

أ. عبدالرحمان أشعاش

لم يذكر بوتوكي اسم قائد تطوان قطّ في رحلته رغم تقديره للرجل. فهل تعمّد ذلك على سبيل التعميم وليقدمه لقرائه كنموذج لرجل المخزن في مغرب القرن الثامن عشر؟

على كل حال، فقائد تطوان على ذلك العهد هو عبد الرحمان أشعاش، عينه مولاي اليزيد سنة 1790 خلفا للمدعو عبدالرحمان قرنداش مباشرة بعد بيعته وانتقاله من الحرم

---

16 ـ نفس المرجع، ص. 96 و 195.

17 ـ نفس المرجع، ص. 283.

18 ـ نفس المرجع، ص. 154.

19 ـ هذا العداء تجاه الإسبان كانت تبرره ظروف الحرب من أجل تحرير سبتة.

العلمي إلى تطوان. وهو أول الأشاعشة، هذا البيت الذي ينتسب لتطوان والذي أنجب عددا من خدام المخزن العلوي[20].

بوتوكي يصف لنا شخصياته من خلال لقاءاته وتعامله معها. فقد وصف لنا أولا التفاتات أشعاش الطيبة عندما ما علم بوصوله (الحرس، الخيل لحمل الأمتعة، التمر والحليب) ثم أول لقاء بين الرجلين في حديقة القائد حيث وجد هذا الأخير "يرتدي لباسا بسيطا جدا ويجلس على سجاد في إحدى زوايا الغرسة. وفي كلمات قليلة توجه إليّ بالترحيب مؤكداً أنه لن ينقصني شئ (خلال مقامي بتطوان) وأنني سأرى وجه السلطان بمشيئة الله، وفي انتظار ذلك سأنزل في البيت الذي خصصه لي"[21].

الارتسام الأول الذي تركه القائد أشعاش في نفس رحالتنا كان إيجابيا : فهو رجل متواضع، بسيط في ملبسه وحديثه، طيب وعملي يتوخى الفعالية في كل ما يقوم به. وقد تأكد هذا الارتسام عند بوتوكي مع مرور الأيام وظهرت له جوانب أخرى، إيجابية كلها، من شخصية هذا القائد : فهو جواد كريم لم يبخل على المؤلف بما لديه من معلومات حول النظام السياسي والإداري في المغرب وكذا حول الطرق التجارية، الصحراوية والشرقية[22]. وهو متواضع يختلط بعامة الناس ولايخجل من التكلم عن بداياته المتواضعة في أسفل السلم الاجتماعي كسائس (palefrenier)[23]. كما أن أشعاش بدى لبوتوكي صادقا في أقواله وأفعاله، عدلا في أحكامه يقضي بين الناس أنّى شاءوا ويسهر على تنفيذ أوامر سلطانه الذي يدين له بالولاء التام[24].

فقد أعجب بوتوكي بالعقلية العملية للقائد أشعاش الذي

---

20 ـ ارتبط اسم بيت أشعاش على الخصوص بولاية تطوان وطنجة ـ لم أستطع التحقق من نسبة أهل أشعاش لتطوان هل هي سابقة للقرن الثامن عشر أم لاحقة له. حول دور هذه العائلة انظر داوود، تاريخ تطوان، المطبعة الملكية، الرباط، 1979، ج. 3، ص. 310 ـ 334.

21 ـ Potocki, Voyage, P. 154.

22 ـ نفس المرجع، ص. 79 ـ 178.

23 ـ نفس المرجع، ص. 179 و 211 ـ 212.

24 ـ نفس المرجع، ص. 179 و 211 ـ 212.

يمارس سلطاته الإدارية مباشرة وبدون وساطة بينه وبين رعيته، فهو يقضي بين الناس في كل وقت وحين ويُشرف بنفسه على بناء برج للدفاع عن المدينة. من خلال تصرف هذا القائد تأكد لبوتوكي أن "المساواة كما تمارس في المغرب لا تختلف عن مثيلاتها في أي بلد آخر"[25].

واضح من وصف بوتوكي للقائد أشعاش أنه كان يُكن للرجل عطفا وتقديرا كبيرين، ولعل القائد كان يبادله نفَس الشعور كما تجلى ذلك من خلال وصف لحظة الفراق : "ودّعني القائد مُظهرا كل علامات العطف وحسن الالتفات والتي اعتبرها صادقة خصوصا وأنني بدوري أحس بميل نحوه وقد علمت أنه كان يذكرني دائما بالخير"[26].

فهل يمثل القائد أشعاش في نظر رحالتنا المتنور نموذج الرجل البسيط الطيب الذي لم تفسده المدنية بعد، وكذا نموذج النظام السياسي البسيط المبني على العدل والطبيعة؟

ب. محمد اليروبي

كان محمد اليروبي مديرا للجمارك في مرسى تطوان منذ عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله. ونظرا لأهمية المبادلات التي كانت تتم عبر هذا المرسى وكذا أهمية تطوان في المعادلة السياسية لدولة مولاى اليزيد (باب سبتة المحاصرة، أول حاضرة بايعته)، بالإضافة إلى أصل اليروبي الأندلسي وأقدميته في منصبه، فإنه كان من أبرز الشخصيات في المدينة، بل أهمها على الإطلاق حسب تقدير بوتوكي[27].

دار الجمارك لم تكن أبدا مجالا تنشأ فيه الصداقات، ورجال الجمارك في رأي بوتوكي "هم أعداء المسافر في كل مكان"، فهل كان لهذه الأفكار المسبقة عن رجال الجمارك عند مؤلفنا تأثير على علاقته مع محمد اليروبي؟ الرحلة توحي لنا بأن مدير الجمارك لم يبدل من جهته جهدا كبيرا في التقرب من بوتوكي. فرغم رسالة التوصية التي قدمها له هذا الأخير، ورغم كونه ضيفا على القائد أشعاش، فقد أصر اليروبي على فتح أمتعة

25 ـ نفس المرجع، ص. 213.

26 ـ نفس المرجع، ص. 214.

27 ـ نفس المرجع، ص. 156.

رحالتنا لأن ذلك "إجراء شكلي يخضع له الجميع بما فيه أبناء السلطان"[28]. كان البروبي إذن يمارس سلطاته على الجمارك في استقلال تام عن القائد أشعاش، وهذا لم يكن من باب فصل السلط بقدر ما كان يعكس الصراع بين الرجلين، وهو تجسيد للصراع التقليدي في الحواضر المغربية بين خدام المخزن والأعيان المحليين. وبالفعل فقد برز هذا الصراع على الساحة بعد موت مولاي اليزيد، وبالتدقيق عام 1796، حين طلب أهل تطوان من السلطان مولاى سليمان تعيين محمد البروبي قائدا عليهم، فرفض لهم ذلك وأعاد أشعاش لمنصبه[29].

وتوحي لنا الرحلة كذلك بأن البروبي كان يعتبر بوتوكي من "أنصار" غريمه أشعاش نظرا لما كان بين هذين الأخيرين من مودة، ولعل هذا هو ما جعل معاملة آل البروبي لرحالتنا، حسب وصفه، تتسم بنوع من البرودة. لكن هذا لا يعني أن البروبي لم يقم بواجب الضيافة. فقد زار الكونت في بيته ثم استدعاه للنزهة في ضيعته، لكن هذه النزهة كانت "مملة" على عكس سابقاتها ولاحقاتها: فقد غاب البروبي عن الحفل إلى حين تقديم الطعام، وسخر آل البروبي من مترجم بوتوكي ومن المعلومات الجغرافية التي كان يمده بها القائد أشعاش وتعمدوا التكلم بالعربية طوال الوقت رغم إتقانهم لعدد من اللغات الأجنبية[30]. وعلى كل حال فقد كان السأم الذي أصاب بوتوكي في ضيعة البروبي مناسبة حلّق خلالها الكاتب بقارئه في مناقشة فلسفية حول هذا "الداء الأوروبي".

فهل كان محمد البروبي يذكر بوتوكي برجال السياسة الأوروبيين الذين "ينظرون إلى العالم من حولهم من أعالي أبراجهم وأنانيتهم"؟

ج. الحاج عبدالكريم راغون

كان الحاج عبدالكريم راغون ضابطا في البحرية وسفيرا للسلطان سيدي محمد إلى عدد من البلدان الإسلامية والأوروبية، وخصوصا الدولة العثمانية. وهو من بيت تطواني

28 ـ نفس المرجع، ص. 156.

29 ـ الضعيف، تاريخ، ص. 300.

30 ـ بوتوكي، الرحلة المغربية، ص.201.

أندلسي الأصل، لكنه، على عكس اليروبي، قد خولته مهنته كبحار وسفير أن يتفتح على العالم الخارجي ويوسع أفقه الاجتماعي والسياسي والثقافي.

يقدم لنا بوتوكي هذا الرجل من خلال وصف بيته الذي "لم أر أحسن منه على الإطلاق"، ووصف النزهة التي قضاها في معية أصدقائه الذين "كانوا يتكلمون إما الإسبانية وإما التركية". في هذا المجتمع العالمي قضى بوتوكي "وقتا ممتعا جدا" يتبادل أطراف الحديث مع المدعويين حول مواضيع الساعة : الحرب الروسية العثمانية، والتلقيح، والسياسة الداخلية، ومواضيع اجتماعية كالصيد وركوب الخيل، والنساء طبعا[31].

فالحاج عبد الكريم راغون، مثل رحالتنا، "سيد"(Seigneur) و"مواطن عالمي" (un citoyen du monde).

خلاصة

وبعد، فإن الصورة الحية التي رسمها بوتوكي للمجتمع التطواني في نهاية القرن الثامن عشر قد فندت، سواء بصفة مباشرة أو غير مباشرة، عددا من الأفكار الخاطئة التي روجها حول المغرب بعض الأسرى ورجال الكنيسة والقناصلة والتجار الأوروبيين. فبالإضافة إلى كون هؤلاء، حسب تقدير رحالتنا، كانوا "يجهلون مجموعة القيم التي تنبني عليها حضارة هذه البلاد" والتي هي "لغة التحاور الحقيقية بين الشعوب"[32] فإنهم كانوا ينظرون إلى المغرب "بنظارات أوروبية"[33].

فالجهل والتعصب يفسران الأفكار الخاطئة التي روجها هؤلاء الملاحظون، ومن بينهم القنصل الفرنسي لوي شينيي (L. chenier)، كوصفهم المغاربة بالجبرية، والكسل والكذب والجشع وعدم القدرة على الإحساس بالصداقة. فبوتوكي الذي كتب رسالة حول التاريخ الإنساني (Remarques sur l'histoire universelle) وأخرى حول المساوات (Traité sur l'égalité des hommes) يعتبر أن طبيعة البشر واحدة وتاريخ البشرية تاريخ

---

31 ـ نفس المرجع، ص.194.

32 ـ نفس المرجع، ص. 196.

33 ـ نفس المرجع، ص. 167.

عالمي والظواهر الاجتماعية والنفسية المرتبطة بالحضارة تتشابه إذا نظر إليها بنظرة علمية موضوعية مجردة من كل الخلفيات. ولكن، إذا كان ولا بد من المقارنة بين النظام الاجتماعي والسياسي في كل من أوروبا والمغرب فإن هذه المقارنة ستكون في رأي بوتوكي، لصالح المغرب. فالنظام المغربي، حسب تحليله، يحمل ملامح النظام المثالي الذي يدعو إليه مفكرو الأنوار، لأنه نظام بسيط مؤسس على العدل والطبعية وعدم التصنع.

# القرصنة من خلال وثائق القنصلية الإنجليزية بتطوان والمفوضية الأمريكية بطنجة

د. امحمد بن عبود
كلية الآداب بتطوان

سأحاول في هذه الورقة حول موضوع «القرصنة» من خلال وثائق القنصلية الإنجليزية بتطوان ووثائق المفوضية الأمريكية بطنجة أن أقدم صورة مخالفة لمصطلح القرصنة كما هو متعارف عليه عند العموم. وسأعمل على ربطه بالمغرب خلال القرن الثامن عشر، لأوضح كيف أصبح ينطبق على الأوضاع التي تميز بها ذلك القرن. وسأوضح كيف ساهمت التطورات السياسية في المغرب خلال القرن الثامن عشر في إعطاء هذا المصطلح دلالة جديدة.

لم يعد مصطلح القرصنة خلال القرن الثامن عشر يعني هجوم سفن القراصنة المغاربة على سفن النصارى قصد الاستيلاء عليها بما فيها من ذخائر وسلع وبحارة فقط، بل أصبح يطلق على ممارسة أو على علاقة بين المغرب والدول الأوروبية. لقد كان مصطلح القرصنة عموما يعبر عن ظاهرة فردية تخص مبادرة تلقائية في الهجوم على السفن النصرانية بكيفية عشوائية بدون اعتبار لطبيعة تلك السفن الحربية أوالتجارية وبدون اعتبارلجنسية الرايات التي كانت تحملها تلك السفن وبدون أي اعتبار للقانون، سواء تعلق الأمر بقانون الدولة التي انطلق منها القراصنة، أو الدولة صاحبة السفن التجارية وغيرها التي هوجمت.

أما «القرصنة» خلال القرن الثامن عشر فقد تحولت إلى مفهوم جديد يعبر عن ظاهرة جديدة تخص العلاقات الدولية بين المغرب والدول الأوروبية. لقد نتج تطور هذا المصطلح عن تحوله الجذري خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، عندما أصبحت القرصنة بالنسبة للمغاربة تعتبر بمثابة جهاد بحري. إن طرد الأندلسيين المسلمين من الأندلس أعطى «لقرصنة» سيدي المنظري طابعا شرعيا لتتحول إلى جهاد. واختلفت دلالة المصطلح حسب وجهات نظر مختلفة، فالمغاربة، أصبحوا

يعتبرون القرصنة خلال القرن السادس عشر عبارة عن واجب ديني مقدس في مواجهة العدو النصراني الذي استولى على الأندلس وطرد أهلها وقضى على الإسلام فيها ليعوضه بالمسيحية، وليفرض الحكم المسيحي بدلا من الحكم الإسلامي.

وأصبح المغاربة في القرن الثامن عشر يبررون «القرصنة» انطلاقا من مفاهيم وطنية عندما أصبحت الدول الأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية تستفيد من الشواطئ المغربية في إطار تجارتها مع المغرب ومع دول حوض البحر الأبيض المتوسط ولعبت «القرصنة» خلال القرن الثامن عشر دورا هاما في خلق أسس العلاقات السياسية الدولية بين المغرب من جهة وبين الدول الأوروبية والولايات المتحدة من جهة أخرى. وأصبح النشاط البحري المغربي الرسمي وسيلة للحفاظ على استقلال البلاد ووسيلة لمواجهة خطر الدول الأوروبية العسكري والسياسي والاقتصادي. وتحولت ظاهرة «القرصنة» خلال القرن الثامن عشر إلى عنصر من عناصر ظاهرة تطور العلاقات المغربية الأوروبية. وهكذا تحولت القرصنة من ممارسة غير شرعية لضمان علاقة سياسية وعسكرية واقتصادية بين المغرب والدول الأوربية حسب القوانين المغربية من جهة، وحسب الاتفاقيات الدولية بين المغرب وعدد من الدول الأوروبية من جهة أخرى. وغدت القرصنة أيضا بالنسبة للمغرب خلال القرن الثامن عشر ورقة ضغط استعملها في المفاوضات مع الدول الأوروبية لتحديد قوانين هذه العلاقات ولمجابهة الضغوط السياسية والعسكرية والاقتصادية التي أصبحت هذه الدول تمارسها على المغرب. لذلك أمست القرصنة في إطار علاقات المغرب الدولية مرتبطة بمفاهيم جديدة مثل الإتاوة، أوالضريبة السنوية التي فرضها السلاطين المغاربة على الدول الأوروبية وعلى الولايات المتحدة مقابل السماح لهذه الدول باستعمال الموانئ والشواطئ المغربية لأغراض تجارية مقابل ضمانة أمنهم في المياه المغربية.

إلا أن مفهوم القرصنة المغربية لم يتغير في رأي القناصل الأوروبيين في القرن الثامن عشر باعتبار أن سفنهم كانت ضحية للهجوم والنهب والتخريب عبر القرون بدون تمييز. لقد رفض القناصل الأوروبيون أداء الضريبة السنوية للمغرب

مبدئيا، باعتبار حقهم في حرية التجارة بالمنطقة وباعتبار المعاملة بالمثل. وبرغم أدائهم هذه الضريبة في كثير من الحالات فإنهم اعتمدوا القوة في حالات أخرى لرفضها. وفعلا نجحوا في خطتهم في فرض سياسة اقتصادية مهيمنة على سواحل منطقة المغرب العربي لتتوج بالهيمنة الاقتصادية المطلقة على المغرب خلال القرن التاسع عشر. لذلك ظل مفهوم القرصنة المغاربية في أعينهم يدل على قرصنة ممتدة عبر القرون. أما «قرصنتهم» الاقتصادية ضد المغرب فلقد سميت جرية وممارسة قانونية شرعية، بل ومساهمة الحضارة والتقدم في محاربة التخلف والهمجية.

يتجلى الهدف الرئيسي لهذه الورقة في مناقشة هذا التحول الجذري الذي عرفته «قرصنة» القرن الثامن عشر. وذلك من خلال نصوص وثائق القنصلية الإنجليزية بتطوان في بداية القرن الثامن عشر خلال سنتي 1727 و 1728، ونصوص المفوضية الأمريكية بطنجة في بداية القرن التاسع عشر خلال سنة 1802. ويعود اعتمادنا على تقديم النصوص وتفسيرها بالدرجة الأولى إلى تحديد هذا المفهوم انطلاقا من النصوص، يعني انطلاقا من الواقع الذي تعبر عنه هذه النصوص والذي انبثقت عنه.

**1- القرصنة «خلال عهد السلطان مولاي عبد المالك (1727-1728) من خلال وثائق القنصلية الإنجليزية بتطوان.**

إن وثائق القنصلية الإنجليزية بتطوان خلال سنتي 1727 و1728 تلقي الأضواء على عدد من المواضيع المرتبطة بالقرصنة، منها التحولات السياسية الداخلية الخطيرة التي تلت وفاة السلطان مولاي إسماعيل، والفوضى التي سادت في البلاد، والصراعات السياسية التي انفجرت إثر وفاة السلطان المذكور. وكذلك علاقات المغرب بالدول الأوروبية وعلى رأسها بريطانيا خلال هذا الظرف. لقد وصف القنصل الإنجليزي أنطوني هاطفيلد (Anthony Hatfield) ردود الفعل في تطوان إثر الإعلان الرسمي عن وفاة مولاي إسماعيل في رسالة مؤرخة في 27 مارس 1729 كما يلي:

«لقد أعلنت وفاة مولاي إسماعيل رسميا اليوم بعد أن ظل هذا الخبر مخفيا لمدة طويلة وأعلن مولاي أحمد الذهبي إمبراطورا.

وعمت الفوضى والتمرد هنا ضد الباشا، ولكنه استطاع بمجهود محدود... أن يقضي عليها وأصبح الآن في مأمن من أعدائه.

وأصبح ملزما بأن يتجه إلى الإمبراطور الجديد ليقدم له ولاءه وأعد هديته.

أظن أنه لن يتأخر في توجهه إلى هناك...»[1]

وساهمت الفوضى التي سادت في البلاد في تشجيع القرصنة السلاوية ضد الإنجليز، مما شكل ضغطا عليهم لإبرام اتفاقية سلام مع المغرب لضمان أمن ملاحة السفن التجارية الإنجليزية في السواحل المغربية. وبمجرد عقد هذه الاتفاقية، أوقف قراصنة سلا هجوماتهم على السفن الإنجليزية. وهناك وصف للأوضاع الصعبة ولاستقبال السلطان مولاي عبد المالك الممثل الإنجليزي. كما نلاحظ رغبة الإنجليز الشديدة في المحافظة على السلام مع المغرب في الاقتباس التالي من رسالة راسل (Russel) إلى شارلز دي لافاي مؤرخة في 27 سبتمبر 1727:

«لقد أمرني سير شارلز، نظرا لكوني لا أتوفر على تعليمات جديدة، أن أخبر الإمبراطور بأنني بعثت لبلاطه لأهنئه بمناسبة اعتلائه حكم الإمبراطورية ولاعتمد مساعي للمحافظة على السلم».[2]

ونلاحظ الربط بين انعقاد السلم بين المغرب وإنجلترا وبين مسألة القرصنة في الرسالة الآتية:

«... يسعدني الآن أن أخبركم بوصول رسالة من الباشا بشأن إخبار الإمبراطور بوصولي هنا. وهذا الصباح بعث الباشا الأميرال (علي) بيريس (Admiral Perez) ليخبرني بأن الباشا فرح جدا لسماع خبر وجودي في مملكته، وأنه أصدر أوامره لتنقلي إليه، وأمر حراسة قوية من فاس لاستقبالي ومرافقتي في الطرق وعبر عن رغبته في تجديد السلم معنا.

1 ـ ضمن الوثائق المنشورة في كتاب: دومينيك مينيي، «القنصلية الانجليزية بتطوان على عهد أنطوني هاطفيلد (1717 ـ 1728) دراسة وتحقيق: **Dominique Meunier, Le Consulat Anglais à Tetouan sous Anthony Hatfield (1717-1728) étude et édition de texte,** Préface de Chantal de La Veronne, Tunis, Publications de **la Revue d'Histoire Maghrebine,** vol. 4, 1980, p.82.

2 ـ نفس المصدر، ص 82.

وأكد لي الباشا أن أوامره قد صدرت لسلا حتى لا تضايق سفننا وبواخرنا ».[3]

ولقد تابع القنصل الإنجليزي هاطفيلد التطورات الداخلية بتفصيل كبير. ففي شهر ماي من نفس السنة، استقرت أحوال المملكة، وعين السلطان مولاي عبد المالك قواده الجدد في المدن، منهم القائد الحاج العربي عاملا على فاس البالي، ومولاي علي عاملا على فاس الجديد، والقائد معنينو عاملا على سلا، والقائد عبد الهادي عاملا على الرباط وميناءها.

ونلاحظ أن القائد عبد الهادي أمر بحماية الشواطئ المغربية من جميع السفن الأجنبية باستثناء إنجلترا التي عقد السلطان صلحا معها. وفيما يلي وصف طريف لاستقبال السلطان مولاي عبد المالك الوفد التطواني الذي ترأسه الحاج عمر لوقاش والذي قدم له الولاء باسم الأهالي. لقد تلقى القنصل الإنجليزي هذه الأخبار من جبل طارق كما يلي:

« ... من تطوان جاءت أخبار في تاريخ 26 مفادها أن السيد لوقش (الذي ذهب باسم الوالي) على رأس الوفد التطواني استقبل استقبالا ملائما إلى درجة أن الأمير استقبله للمرة الأولى وقبّل رأسه ثلاث مرات ورضي عليه ونوه بسلوكه وواعدهم بالحماية.

وفي اليوم التالي، قدموا أنفسهم، وطلب منهم الإمبراطور تعيين عاملهم ولكنهم أشاروا إلى رغبة جلالته ولحوا فقط، بأن مصلحته تقتضي تعيين شخص ليس له عدد كبير من الأطفال... »[4]

لم يلتحق الباشا أحمد بمكناس عندما وصلته هذه الأخبار، ولذلك لا نعرف شيئا عن مصيره إلا أنه سوف يفشل في طموحاته للعودة إلى عمالته السابقة، لأن مولاي عبد المالك فرض على جميع رعاياه تغيير عمالهم إن شاؤوا ذلك ».[5]

لقد كانت أخبار الاضطرابات دائما مصحوبة بأخبار القراصنة. ففي رسالة طوماس هاطفيلد المؤرخة في 3 يونيو

---

3 ـ نفس المصدر.

4 ـ نفس المصدر، ص 84.

5 ـ نفس المصدر، ص 85.

1728 من جبل طارق أشار إلى وصول خبر مفاده أن الأمر قد أعطي للهجوم على جميع السفن الأجنبية بما فيها السفن الإنجليزية:

«لقد حصل بيبي (Pillet) على لقب الباشا ويحكم العدوتين. ومن هناك ومن المعمورة يهيؤون سفنهم الحربية ووصل مؤخرا الرهبان (Frères de Redemption) من البلاط ويشاع هناك كلام مفاده أنهم سوف يستولون على جميع السفن حتى الإنجليزية التي قد يعثرون عليها. ولقد أكد ذلك رايس سفينة إنجليزية إذ كتب أن الأميرال أكد له كل هذا».[6]

وتصف رسائل القنصل الإنجليزي المؤرخة في شهر يونيو من سنة 1728 تحركات قراصنة سلا. فيما يلي اقتباس في الموضوع:

«... وبعث نسخة من رسالة السيد موركانس (Morgans) وأخبرنا رايس سفينة في سلا بأن باشا المدينة أمر بتوجيه المراكب الحربية للاستحواذ على أية سفينة إنجليزية وقد غادر النجار (Nedgar) رايس القراصنة سلا على سفينة على متنها 22 مدفعا و 120 رجلا إلا أن تهييء السفينتين في المعمورة سوف يتطلب شيئا من الوقت».[7]

لقد تحول موقف السلطان المغربي في 6 يونيو 1728 إلى موقف عدائي تجاه جميع البواخر الأوروبية:

«جائني من طنجة خبر مفاده أن الأوامر قد صدرت لحجز جميع السفن من أية جنسية كانت .... وكتب بأن عبد الكريم أخ الباشا أحمد، قد صعد ليأخذ أو يخرب كل ما وجد...».

بينما ثار القائد أحمد وأفراد عائلته في تطوان على السلطان مولاي عبد المالك وقاموا بأعمال تخريبية في المنطقة ظل الوفد التطواني في بلاط السلطان إلى حدود 6 يوينو 1728 إذ جاء في رسالة للقنصل الإنجليزي في هذا التاريخ ما يلي:

« لقد لمس الحاج عمر لوقش الذي حكم تطوان سابقا في أوقات الفتنة لمسة لطيفة مع باقي أعضاء الوفد التطواني إذ بقي هناك إلى اليوم الذي حضر فيه صلاة الجمعة مع

---

6 ـ نفس المصدر، ص 86.

7 ـ نفس المصدر، ص 87.

الإمبراطور».[8]

عرفت أحوال المغرب تحولا خطيرا في شهر غشت سنة 1728 عند اندلاع ثورة العبيد بعد رفضهم تسليم أسلحتهم لمولاي عبد المالك، وانتعشت حركة القرصنة خلال هذه الظروف في مناطق مختلفة بما فيها تطوان. هكذا وصف أمر السلطان بالهجوم على جميع السفن الأجنبية في مراسلة الممثل الإنجليزي:

«لقد أعطى أوامره لسفنه الحربية لحجز جميع السفن التي يلاقونها فأزعجنا هذا الخبر نظرا لكون سفننا لا تتوفر على الحماية. ومن الغريب أنها لم تسقط في أيديهم بالرغم من تعميرهم البحر».[9]

إلا أن قراصنة تطوان هجموا على جميع السفن باستثناء السفن الإنجليزية:

«إن سكان هذه المدينة لا يضايقون ألواننا (يعني سفننا) مع أنهم استولوا مؤخرا على خمس سفن في الحجر (بادس). إن الدولة كلها تؤيد المحافظة عل السلم باستثناء بعض سفن القراصنة».[10]

وفي رسالة من القنصل الإنجليزي بتطوان إلى شارلز واكر مؤرخة في 9 غشت 1728 وصف انقلاب مولاي عبد الله على أخيه مولاي عبد المالك بتواطؤ مع جيش العبيد، كما وصف في نفس الرسالة منع أهل فاس دخول مولاي عبد المالك إلى فاس الجديد وفاس البالي، ثم استيلاء مولاي عبد الله على الحكم.

وفي رسالة مؤرخة في 29 غشت عبر القنصل هاطفيلد عن رغبة بلده في عقد اتفاقية صلح مع المغرب، ونجد فيها إشارة إلى موضوع القرصنة عندما تدخل ملك إنجلترا ليطلب إطلاق سراح مجموعة من الرهائن الألمان ثم برر موقفه قائلا:

«...عليك أن تطلب تحريرهم، وأن تشرح للسلطان المغربي ولوزرائه أنه رغم أن هؤلاء الرهائن ليسوا أبناء بريطانيا العظمى وإرلاندا وأراضيها إلا أن هناك بعض رعايا جلالته

---

8 ـ نفس المصدر، ص 88.

9 ـ نفس المصدر، ص 89.

10 ـ نفس المصدر.

الذين سوف يتقبلون هذا القرار بارتياح».[11]

لقد رأينا من خلال تقديم نصوص وثائق القنصلية الإنجليزية بتطوان خلال سنتي 1727 و 1728 أن موضوع القرصنة ظل حاضرا في جميع أطوار العلاقة المغربية البريطانية، وأن التطورات الخطيرة التي عرفها المغرب خلال حكم مولاي عبد المالك (بين وفاة مولاي إسماعيل واستيلاء مولاي عبد الله على الحكم) ساهمت في تطور القرصنة بشكل خطير، نظرا لعدم استقرار الأوضاع الداخلية في جميع المناطق المغربية. بل أخطر من ذلك، إننا نجد المشاكل المرتبطة بالقرصنة في مراسلة القنصل البريطاني قبل عهد السلطان مولاي عبد المالك وخلاله ثم بعده. بل إننا نجدها في نهاية القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر في وثائق دول غربية أخرى، مثل الولايات المتحدة، كما سنرى في القسم التالي من هذه الورقة.

**2ـ القرصنة من خلال وثائق المفوضية الأمريكية بطنجة 1802:**

إن صورة القرصنة في وثائق المفوضية الأمريكية بطنجة خلال سنة 1802 تختلف جذريا عن صورتها في وثائق القنصلية الإنجليزية بتطوان خلال سنتي 1727 ـ 1728 رغم بعض التشابه بينهما، وتختلف هذه الصورة لعدة اعتبارات، منها اختلاف الأوضاع السياسية العامة في المغرب بين بداية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، ومنها الاختلاف بين شخصية السلطان مولاي عبد المالك الضعيفة، وبين شخصية السلطان مولاي سليمان، ومكانته القوية في الساحة الدولية، ومنها تطور مفهوم القرصنة الذي تحول في بداية القرن التاسع عشر من ظاهرة عفوية إلى قوة رسمية في إطار العلاقات الدولية بين المغرب وأوروبا. ثم هناك اختلاف جوهري آخر هو أن علاقة المغرب البحرية كانت تختلف بين دولة وأخرى. فكان السلاطين المغاربة يهاجمون سفن الدول التي لم تؤد الضرائب السنوية مقابل سلامة سفنها، إما بواسطة سفن المخزن أو كانوا يسمحون لقراصنة بعض المدن، مثل سلا وتطوان، بالهجوم على هذه السفن. إلا أنهم كانوا يحمون السفن للدول التي قبلت أداء

11 ـ نفس المصدر، ص 92.

الضرائب أو أمضت معاهدة سلم مع المغرب. وقد وقع اختياري على الوثائق الإنجليزية خلال سنتي 1727 ـ 1728 نظرا للعلاقات الودية بين بريطانيا والمغرب في عهد السلطان مولاي عبد المالك، كما وقع اختياري على وثائق المفوضية الأمريكية بطنجة خلال سنة 1802 نظرا أيضا للعلاقات السلمية بين المغرب والولايات المتحدة نتيجة اتفاقية 1786 بين الدولتين.

والطريف في الحالتين أن «القرصنة» مارست نشاطها ضد الدولتين الصديقتين. لقد برز هاجس الأمن في مراسلة القنصل الإنجليزي في الوثائق التي درسناها، بينما تدهورت العلاقات المغربية الأمريكية بسرعة حتى أدت إلى إعلان المغرب الحرب على الولايات المتحدة. وانعكس هذا الحادث بوضوح في مراسلة القنصل الأمريكي التي اعتمدناها في ورقتنا هذه.

افتتحت الكاتبة الأمريكية لويلا هال (Luella Hall) كتابها «الولايات المتحدة والمغرب 1776 ـ 1956» بالعبارة الآتية:

«إن أول مشكل أدى إلى ربط علاقات دبلوماسية بين المغرب والولايات المتحدة هو مشكل القرصنة».[12]

فعلا، كان للقرصنة دور هام في إعلان المغرب الحرب على الولايات المتحدة سنة 1802، وهو الحادث الذي سأناقشه من خلال وثائق المفوضية الأمريكية بطنجة. ولكن قبل تطرقي للموضوع بأسبابه وتفاصيله وأهميته، لابد أن أشرح الظروف التي أدت إلى إعلان الحرب.

اختلف الساسة الأمريكيون في موضوع أداء الضريبة السنوية للمغرب، مقابل سلامة سفنهم من هجومات القراصنة أو عدم أدائها. يتمثل الموقف الأول في رأي طوماس جفرسون الذي اعتبر قبول الضريبة لسلطان المغرب أمرا مكلفا وغير مثمر، وإهانة لكرامة الأمريكيين. وعبر جون أدامس (John Adams) عن الموقف المضاد بالعبارة التالية: «مادامت فرنسا وإنجلترا وهولاندا إلخ تخضع لضرائب هؤلاء اللصوص، بل إنها تشجعهم على ذلك فما الهدف في شننا حربا عليهم؟ »[13]

---

12 ـ نفس المصدر، ص 34.

13 ـ راجع كتاب «الولايات المتحدة والمغرب 1776 ـ 1956» لمؤلفته لويلا هال:
Luella Hall, **The United States and Morocco 1776-1956,** Metucher, N.J., 1971,p. 51.

وربما يعكس الموقف الأمريكي من مسألة الضرائب السنوية للمغرب مزجا للموقفين، إذ حاولوا مجانبتها بطرق ديبلوماسية عن طريق الاتفاقيات، ولكنهم أدوا هذه الضريبة عند فشل جميع المحاولات لمجانبتها.

من جملة المعاهدات التي أعفيت الولايات المتحدة من أداء الضريبة السنوية فيها، المعاهدة الناتجة عن استقبال السلطان الممثل الأمريكي باركلي (Barclay) بمراكش في 19 يونيو 1786، وقبل السلطان تصريح باركلي بأن الولايات المتحدة لن تقدم مقابل الاتفاقية إلا «صداقتها».[14]

ولقد دفع تهديد السفن التجارية الأمريكية بالكنغريس إلى قبول اقتراح طوماس جفرسون بتأسيس أسطول أمريكي في البحر الأبيض المتوسط سنة 1786 بهدف الدفاع عن مبدأ عدم أداء الضريبة السنوية لدول المغرب العربي، مقابل أمن السفن الأمريكية وحمايتها.

إن الحدث الذي يهمنا يخص إعلان السلطان مولاي سليمان الحرب على الولايات المتحدة، نتيجة اختلاف الدولتين بشأن قضية مسعودة.

رفض القنصل الأمريكي سنة 1802 طلب السلطان جوازا لباخرته مسعودة المحملة بالزرع، لتنتقل من جبل طارق إلى ليبيا التي ضربت عليها الولايات المتحدة حصارا من 1805 إلى 1908 واعتذر القنصل الأمريكي عن ذلك باعتبار أن الاتفاقية المغربية الأمريكية في سنة 1786 لا تسمح للمغرب بمساعدة أية دولة في حالة حرب مع الولايات المتحدة. وعندما أخبره السلطان بأن الأمر يتعلق بسفينته الشخصية «مسعودة»، وأصر القنصل الأمريكي على رفضه الطلب السلطاني، انفعل مولاي سليمان، فأمر بنفيه من المغرب، ثم أعلن الحرب على الولايات المتحدة.

إن نصوص مراسلة القنصل الأمريكي جايمس سيمبسون مع الخارجية الأمريكية ومع السيد هورسن الذي كان يوجد على متن سفينته الحربية في جبل طارق، تعكس جوانب طريفة لردود فعل الممثل الأمريكي إثر إعلان المغرب الحرب على

---

14 ـ نفس المصدر، ص. 53.

الولايات المتحدة. لقد بعث القنصل سيمبسون رسالة مؤرخة في 25 يونيو 1802 إلى حوالي 26 قنصلا أمريكيا في أوروبا لإخبارهم بالحدث، ولاقتراح الإجراءات التي يجب اتخاذها. وذلك في النص التالي:

« ... يجب أن أحيطكم علما بأن عامل طنجة، نتيجة أوامر جلالة الإمبراطور مولاي سليمان، فرض علي مغادرة دولته باعتبار أن جلالته أعلن الحرب على الولايات المتحدة. أرجوكم إخبار جميع المواطنين الأمريكيين الموجودين في مناطقكم بهذا الحدث بكل الوسائل التي في سلطتكم، وتحذير جميع سفننا التجارية بمجانبة السفن البحرية المغربية، خصوصا في مضيق جبل طارق وقربه. ذلك أنه من المحتمل أنهم سيضعون عددا كبيرا من السفن الصغيرة المسلحة هناك... »(15)

وهناك وثيقة طريفة جدا توضح أسباب السماح للقنصل الأمريكي جايمس سيمبسون بالعودة إلى طنجة، وإعادة العلاقات الدبلوماسية الطبيعية بين المغرب والولايات المتحدة.

إن الوثيقة المذكورة هي رسالة من القنصل الأمريكي سيمبسون إلى وزير الخارجية المغربي.

يمكن أن يستخلص من هذه الرسالة أن عفو السلطان مولاي سليمان، جاء نتيجة تراجع واضح في الموقف الأمريكي في ما سميناها قضية مسعودة.

أولا: إن اعتبارات الشكر والتقدير للسلطان في رسالة سيمبسون، تؤكد أن تغيير الموقف المغربي جاء نتيجة اعتذار القنصل الأمريكي، وتدخلات بعض الشخصيات المغربية لصالحه، مثل القائد عبد الرحمن أشعاش بتطوان.

ثانيا: جاء تغيير الموقف المغربي نتيجة تراجع القنصل الأمريكي عن موقفه السابق، بشأن امتناعه عن منح السفينتين المغربيتين جوازا للسفر إلى ليبيا.

ووضع القنصل الأمريكي جايمس سيمبسون لائحة طويلة للقناصلة والموكلين التجاريين الأمريكيين اللذين بعث لهم هذه الرسالة. نذكر منهم قناصلة المدن التالية:

قادس ومالقة والقنت وبرشلونة وبيلباو ومدريد

---

15 ـ نفس المصدر.

ومرسيليا وبوردو و(جنوا) البندقية ونابولي والجزائر وتونس ولشبونة ولندن ودابلين وهامبورغ وأمستردام وروطردام وكوبنهاكن وستوكهولم وسان بترسبورغ.

ولقد كانت تخوفات القنصل الأمريكي بشأن شن المغرب حربا على الولايات المتحدة مبنية على معلومات دقيقة. ففي 14 يونيو 1802 مثلا، بعث تقريرا دقيقا حول الأسلحة والبارود التي أنزلت بميناء طنجة لتحمل إلى السلطان. بعد تحديد عدد المدافع ونوعها في لائحة أشار إلى «كمية عظيمة من المخزونات المدفعية من كل نوع علاوة على أنواع مختلفة من القطع. ويحتمل أنها هدية من الحكومة البريطانية».

نلاحظ أن الكاتبة الأمريكية لويلا هال (Luella Hall) أشارت إلى الصلح بين المغرب والولايات المتحدة دون تأكيد أهمية هذا التراجع.

إن التبرير الذي قدمته بشأن وجود كثرة الزرع في ليبيا تبريرا للسماح للسفينتين المغربيتين بالاتجاه نحو ليبيا، ليس مقنعا، لأن جميع المراسلات السابقة تؤكد إلحاح القنصل الأمريكي على البعد المبدئي لهذا الموقف، باعتبار أن اتفاقية 1786 لا تسمح للمغرب بمساندة دولة أعلنت الحرب على الولايات المتحدة.

ولعل السبب الحقيقي للتراجع في الموقف الأمريكي ينحصر في النقط التالية:

أ ـ لم يتصور القنصل الأمريكي أن موقفه من السفينتين المغربيتين سوف يؤدي إلى انفعال السلطان المغربي، إلى درجة طرده من المغرب، وإعلان الحرب على بلده.

ب ـ إن القوة البحرية الأمريكية لم تكن قوة كبيرة حتى تضرب حصارا بحريا على المغرب، مثل الحصار الذي فرضته على ليبيا بسبب الامتياز الاستراتيجي المغربي بفضل سواحله الكبيرة على المحيط الأطلسي.

ج ـ لقد كانت حظوظ نجاح حرب أمريكية ضدا على المغرب ضئيلة، بسبب انفراد الولايات المتحدة بهذه الحرب، بدون مساندة الدول الأوروبية للولايات المتحدة.

د ـ لقد كان للمغرب هيبة لدى الدول الأوروبية، ربما فاقت قوته الحقيقية. وهذا يظهر بوضوح في مراسلة القنصل

الأمريكي سيمبسون، وكذلك في مراسلات قناصلة أقوى الدول الأوروبية، مثل بريطانيا، طوال القرن الثامن عشر. لذلك يمكن اعتبار خوف القنصل الأمريكي من المغرب عنصرا رئيسيا في تراجعه في موقفه بشأن مسألة الجوازات.

وفي الأخير يجب إضافة عنصر آخر وراء التراجع في الموقف الأمريكي، وهو العنصر الاقتصادي. إن هذا التراجع لم يكلف الولايات المتحدة كثيرا من الناحية المالية، خصوصا وأن القنصل أصر في رسالته على إعفاء الولايات المتحدة من أداء الضريبة السنوية للسلطان مولاي سليمان، بناء على ما ورد في اتفاقية 1786. ولم يلح السلطان المغربي القوي على هذه الضريبة بالنسبة للولايات المتحدة، وهي الدولة الضعيفة والصديقة آنذاك. ومع ذلك، لم يقف نشاط القراصنة كليا في حوض البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي خلال القرن الثامن عشر، وبداية القرن التاسع عشر. كما نلاحظ عواقب هذا النشاط المتمثلة في مشاكل الرهائن وغيرها، وهي المواضيع التي سيطرت أكثر من غيرها في التاريخ المغربي خلال القرن الثامن عشر، من خلال وثائق القنصلية الإنجليزية بتطوان، والمفوضية الأمريكية بطنجة وغيرها من الوثائق.

# دور تطوان في المبادلات الخارجية
(1721-1767)

ذ. عبد العزيز السعود

يحاول هذا العرض رصد بعض ملامح التحول الذي عرفته مدينة تطوان على صعيد المبادلات الخارجية. وذلك من خلال التركيز على مظهرين اثنين وهما: التقدم الذي شهده هذا النشاط، ثم التدهور الذي أعقبه بشكل تدريجي. وذلك خلال حقبة محصورة من الناحية الزمنية.

إن أهمية الحركة التبادلية تخص في الجوهر المجال الجغرافي الذي تنشط فيه، وسعة حركية المرفأ الذي تتم فيه، وكذلك مدى إشعاع هذا الأخير بالنسبة للمناطق المجاورة له أو البعيدة عنه. ولقد استمدت مدينة تطوان أهميتها في ميدان المبادلات البحرية من موقعها الجغرافي. وقد تقوى هذا الدور بصفة خاصة منذ أن وقعت مدينتا سبتة ثم طنجة في يد الاحتلال الأجنبي، فلم يبق للمغرب من منفذ على البحر الأبيض المتوسط سوى مرفأ تطوان الذي أصبح يشكل أهم مستودع لاستقبال البضائع المجلوبة والموسوقة.

وبالرغم من أن مدينة تطوان مدينة داخلية، إلا أنها كانت ترتبط بالساحل عن طريق الملاحة النهرية التي يوفرها لها نهر مرتيل. وإن انفتاح هذه المدينة مبكرا على الخارج سيعطيها أهمية كمرفأ للتجارة مع الأوربيين. وقد واكب هذا التطور في وظيفة المدينة نشاط في الموانئ المتوسطية التي عرفت بدورها ازدهارا بسبب ارتباطها بتجارة حوض البحر المتوسط، وكذلك لارتباطها بتجارة القوافل الواردة من جنوب الصحراء. وقد شكلت تطوان مركزا متقدما تنتهي عنده طريق تجارة القوافل الصحراوية لتشرع المدينة في القيام بدور الوسيط التجاري بين المغرب الإفريقي وأوربا. وقد احتلت نتيجة لذلك المرتبة الثانية من بين المراسي المغربية المفتوحة في وجه التجارة مع الخارج في القرن الثامن عشر، بل إنها أحيانا نافست مرسى الصويرة المكانة الأولى في المبادلات.

تقدم المبادلات في تطوان

ربطت مدينة تطوان علاقات تجارية مع أوربا منذ القرن السادس عشر حين كان يفد إليها تجار إيطاليون ينتمون إلى مدينة جنوة والبندقية وليقورنة. وازدادت هذه العلاقات أهمية بحلول التجار الإنجليز والهولنديين والفرنسيين. وكانت للمقدمين الذين حكموا تطوان في القرن السابع عشر مخابرات مع التجار الأوربيين وحكوماتهم. ولكن النشاط التجاري لمدينة تطوان سيعرف أزهى فتراته خلال العقدين الأولين من القرن الثامن عشر، حيث عرفت بعض السنوات توافد عدد من السفن التجارية الأوربية على مرسى تطوان. واعتبرت تطوان خلال هذه الفترة من المراسي القليلة في الشمال الإفريقي التي تستقبل البضائع الواردة من الشرق والتي يستجلبها الحجاج المغاربة العائدون على متن البواخر الأوربية.[1] وتميزت هذه الفترة كذلك باحتداد نشاط القرصنة عند مضيق جبل طارق، فكان من الطبيعي أن تتأثر المبادلات بأعمال «الجهاد البحري». ثم أخذ هذا النشاط يتقلص تدريجيا بسبب الظروف المستجدة للملاحة واحتكار المخزن للمبادلات مع الخارج.

ولغرض مراقبة حركة السوق والورد بديوانة تطوان بنى القائد أحمد بن علي برج مرتيل حوالي عام 1720 بإذن من السلطان مولاي اسماعيل، «وعين للقنطار من الشمع الذي يخرج من المرسى أوقية ولقنطار الجلد نصف أوقية وأمر أن يصرف ذلك على من يحرس في سبيل الله في البرج المذكور».[2]

وكانت حركة نقل البضائع ما بين المرسى والديوانة تتم بواسطة قوارب في ملك المخزن، وكما كانت هناك ديوانة أخرى بالفدان تؤدى بها الرسوم الجمركية، وتنقل إليها البضائع بواسطة العربات والدواب. وكان العرف في تطوان أن القادم من المرسى يعطيه أمناؤها مخزنيا يرافقه، والذاهب من الديوانة إلى المدينة يسلم بطاقة فيها تقييد بما يحمله من

---

1 - Paul Masson, Histoire des établissements et du commerce français dans l'Afrique barbaresque, p.660.

2 - محمد داوود، تاريخ تطوان، المجلد 2، ص. 130.

سلع.[3]

وجرت العادة أيضا أن القائمين بالأمر يأخذون السلع الواردة إلى دار العشر حيث تتم عملية إحصاء ماجلبه التاجر من بضاعة مقيدة في كتاب الأمناء، ويؤدي عنها خمسة في المائة مكسبا مع إضافة أجرة العدول والعساس والحمال والقواني وكل الملازم[4].

ولم يتردد عدد من تجار تطوان في السفر إلى الخارج لتنمية تجارتهم. وكان كثير من المزاولين للتجارة ينتمون إلى أصول ريفية كأفروخ (وعمل وكيلا للمغاربة بمصر) وبجة (وكان قنصلا بجبل طارق)، وأبعير وأبارودي. أو من اليهود كابن عطار وابن دلاك، وابن عليل، وبنيدر، بينما انصب جل اهتمام الذين هم من أصول أندلسية بالأساس على النشاط الفلاحي والحرفي. وقد اتجه التجار التطوانيون إلى الجزائر ومصر حيث كان جزء من البضائع الحرفية التطوانية يعبر حدود المغرب في اتجاه المشرق. وكانت العلاقات التجارية بين تطوان والمشرق عامة ومصر خاصة قائمة نتيجة طريق الحج. فقد كان ركب الحاج المغربي الذي ينطلق من فاس يبحر من مرسى تطوان. وكانت تطوان تصدر نحو مصر كميات مهمة من البلاغي، وكما كانت علاقتها التجارية مع الجزائر تعتمد في جزء كبير منها على الوسق، فكانت تطوان تصدر نحوها قسطا مهما من إنتاجها الحرفي مثل البلاغي وأنواع الحصير ومادته «الديس»، والكرازي الصوفية بالإضافة إلى المكاحل والبارود، بينما كانت تستجلب من الجزائر منتجات الحرير وبعض الأواني الصفرية.

وستشهد المبادلات التجارية خلال القرن الثامن عشر تطورا نسبيا بين تطوان والموانئ الأوربية. وقد حدث هذا التطور أيضا بالنسبة لمراسي المغرب الأخرى، ولكن بدرجات متفاوتة. وكان من الطبيعي أن ترتبط هذه العلاقات التجارية بالاتفاقيات التي أبرمت بين المخزن والدول الأوربية. ويأتي ميناء قاديس في مقدمة الموانئ الأوربية التي لعبت دورا مهما

---

3 ـ وثائق تطوان، المكتبة العامة والمحفوظات، محفظة 182/99.

4 ـ عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والمال، خ، ع، ك، الرباط، ص 3.

في الملاحة التجارية مع المغرب عموما ومرسى تطوان على الخصوص منذ العقود الأخيرة من القرن السابع عشر وأوائل الثامن عشر. ولكن استقرار الإنجليز بجبل طارق منذ سنة 1704 جعل هذا المركز يتحكم في العلاقات التجارية بين المراسي المغربية والموانئ الأوربية. وقد حدث هذا التحول كذلك بفضل دعم الحكام والتجار، فقد وطد الباشا أحمد بن علي الريفي علاقات ودية تلتها مبادلات تجارية، فكان يرسل إلى جبل طارق بعض التجار اليهود بقصد المتاجرة لحسابه، وكما كان يقتني العتاد الحربي من السفن الإيطالية والفرنسية التي ترد لمرسى تطوان.

ومن العوامل المساعدة على هذا التوسع التجاري لمدينة تطوان الدور الذي قام به جبل طارق كمستودع للبضائع الإنجليزية ومركز لتبادل السلع بين أوربا والمغرب. وقد تعزز هذا الدور بعد توقيع معاهدة السلم والتجارة في يناير 1721 بتطوان بين المخزن وإنجلترا. وقد نصت بعض موادها على حرية رعايا السلطان في التنقل والمتاجرة لمدة ثلاثين يوما في جبل طارق، والإذن للإنجليز بالاقتناء بأثمان السوق من جميع المراسي المخزنية كل أنواع المؤن لتزويد الأسطول البريطاني وحامية جبل طارق، ووسقها دون أداء الواجبات الجمركية.[5] فأضحت تطوان منذئذ هي المزود الرئيسي للحامية الإنجليزية بالمواد الغذائية. وكانت بريطانيا ترغب في الحفاظ على علاقات تقليدية مع المغرب، وكان غرضها من وراء ذلك هو الإبقاء على التموين المطلوب لحامية جبل طارق.[6] وقد منح هذا المسعى العناصر الإنجليزية نوعا من التأثير على بعض المدن وخاصة تطوان. ولم يكن السلطان ينظر بعين الارتياح إلى هذا النوع من النفوذ لأنه من شأنه أن يضعف مركزه ويقوي بالتالي مركز العناصر المتمردة عليه. فالمساعي التي قامت بها إنجلترا لدى

---

5 - Braithwaite, Histoire des révolutions de l'empire du Maroc depuis la mort du dernier empereur Moulay Ismael, Amsterdam, 1731, p.340.

6 - تاريخ العلاقات الإنجليزية المغربية حتى عام 1900. ترجمة وتعليق يونان لبيب، 1981، ص: 151.

باشا تطوان أحمد بن علي، وتزويدها إياه بالذخيرة الحربية، جعلته يتساهل كثيرا في وسق القمح نحو جبل طارق وتزويد الحامية المقيمة فيه بالأقوات، فضلا عن إفراجه عن سائر الأسرى الإنجليز. وقد أدى تزايد الوسق المنتظم للمنتجات المحلية في اتجاه جبل طارق إلى تشجيع استيراد البضائع الإنجليزية كالأقمشة القطنية وكميات من الشاي والسكر حيث أصبح مرفأ تطوان أهم مراكز البلاد المغربية لاستيراد هاتين المادتين في منتصف القرن الثامن عشر.(7) وبعد مقتل الباشا تضايقت المبادلات مع جبل طارق، ومنع السلطان على الإنجليز التزود بالأقوات من ميناء تطوان وطنجة. وحاولت إسبانيا من جانبها بمختلف الوسائل إبعاد المغرب عن إنجلترا مركزة في تدخلها على الجانب الاقتصادي والتجاري للمسألة. فمن ناحية، إذا لم يتوصل الإنجليز بالمؤن عن طريق جبل طارق فإنهم سيتضررون من ذلك ، ومن ناحية أخرى، فبإمكان إسبانيا استغلال صداقة المغرب للحصول على مركز أفضل في التجارة معه. ولأجل ذلك وقعت مع المغرب معاهدة الصلح والتجارة سنة 1767 .* والتي نصت بعض شروطها على اتخاذ تدابير تتعلق بالانتداب القنصلي والتجارة والملاحة.

وهذا الازدهار التجاري كانت تحد منه أحيانا بعض الأحداث الناجمة عن التدهور المفاجئ للأوضاع، فمثلا انقطعت العلاقات مع جبل طارق بسبب انتشار وباء الطاعون في صيف 1722(8). وفي سنتي 1728و1729 تأثرت المبادلات بسبب الاضطرابات التي عمت شمال المغرب.

ومن الموانئ المتوسطية الأوروبية التي ارتبطت مع مرسى تطوان في هذه الفترة ميناء مرسيليا الفرنسي. فقد ظهر

---

7 - J.L. Miège,Les activités maritimes et Commerciales de Tetouan, p. 18.

* - النص العربي لهذه المعاهدة في M. A. Palau, Revista Tamuda, Año IV, Semestre I, Tetuán, 1956,p.87.

وفي نفس العام أبرم المغرب معاهدتين مع كل من فرنسا والدانمارك منح فيهما امتيازات صارت فيما بعد أساسا للحماية القنصلية.

8 - H. de Castrie, S.I.H.M, France II, vol, IV

اهتمام تجار مرسيليا بمرسى تطوان في وقت مبكر حيث كان ارتياده يجنب السفن الفرنسية مخاطر المرور بالقرب في جبل طارق وخاصة في فترات النزاع مع إسبانيا ثم مع إنجلترا[9]. وكان ميناء ليقورنة الإيطالي، ويعتبر أكبر مستودع للبضائع في حوض البحر المتوسط، قد ربط بدوره علاقات تجارية مع تطوان، وكذلك ميناء راجيز، وهو أحد المراكز البحرية الرئيسية في بحر الأدرياتيكي. وقد اختص الراجيزيون بنمط معين من الملاحة التجارية دعي بـ« ملاحة الطلب » (Tramping) ويتمثل في نقل البواخر من مرسى لآخر بقصد التبادل التجاري. وكان لهذا النوع من النشاط إشعاع واسع، بحيث ربط تطوان بجل الموانئ الكبرى بمنطقة حوض المتوسط الشرقي. وسيمكن هذا النشاط البحري الملاحة الراجيزية من احتلال مكانة بارزة في عمليات نقل الحجاج المغاربة. فقد كانت تطوان منذ أواخر القرن السابع عشر وشطر مهم من الثامن عشر تعد من أكبر مراسي البلاد التي يتم منها، إبحار الحجاج الوافدين من سائر أنحاء البلاد.

وهكذا يتبين أن تطوان جمعت بين وظائف متعددة، وظيفة المبادلات، ووظيفة إبحار الحجاج، ثم وظيفة ثالثة ضعفت أهميتها منذ أن أمسك المخزن بزمام الأمور في البلاد وهي « الجهاد البحري ». فهذا النوع من النشاط البحري كان جد مكسب، ولعبت فيه تطوان دورا مستقلا ومتميزا، لكن مراقبة المخزن الإسماعيلي لهذا النشاط ورفعه للأعشار المفروضة على المراكب الجهادية في كل من تطوان وسلا، بالإضافة إلى التفوق التقني للسفن الأوروبية، الذي ساهم في المزيد من التدهور لهذا النشاط.

تراجع دور تطوان في المبادلات مع الخارج:

ابتداء من سنة 1767 ـ 1770 سيدخل مرسى تطوان في مرحلة من التدهور النسبي . وقد تعددت أسباب هذا التراجع، وارتبط بعضها بتحول المحور الداخلي للتجارة من فاس في اتجاه طنجة بدلا من تطوان، وبمنافسة المراسي الجديدة في ميدان وسق السلع مثل طنجة التي تخلى عنها الإنجليز منذ

---

9 ـ J. L. Miège, p.9.

سنة 1684، والعرائش التي تم استرجاعها سنة 1689 وكذلك بسبب عدم ملاءمة المراسي النهرية لرسو السفن البخارية الكبيرة التي هيمنت في ميدان الملاحة التجارية. فكانت تطوان بذلك ضحية للتحول الذي طرأ على ظروف ومستجدات الملاحة العالمية، وكشف نقص حركة السفن والبضائع عن الانكماش المضاعف للنطاق التجاري لمدينة تطوان. ويفسر كذلك ندرة شحن المواد السودانية ثم اختفاءها التدريجي، وتحول تجارة القوافل الصحراوية نحو موانئ الساحل الأطلنطي. ويضاف إلى هذا التقلص العام للنشاط البحري والتجاري لمدينة تطوان القرار الذي اتخذه السلطان بسحب القناصل الأوروبيين من تطوان، ونقلهم إلى طنجة التي أمست منذ الربع الأخير من القرن الثامن عشر مقرا للممثلين الأجانب ومركزا للدبلوماسية المغربية.

ولكن، وبالرغم من هذه التغيرات التي طرأت على دور تطوان في ميدان المبادلات الخارجية بتقليص حجم مساهمتها، فإن مرساها احتفظ طيلة القرن التاسع عشر بمركز لا بأس به ضمن حركة الوسق والجلب، وبقي ضمن المراسي المغربية المفتوحة في وجه المبادلات مع الخارج.

# أوضاع تطوان خلال القرن الثامن عشر من خلال مصادر أجنبية معاصرة

ذ. محمد بوكبوط
كلية الآداب بتطوان

يعتبر القرن الثامن عشر من أهم الفترات التاريخية وأغناها بالنسبة للمغرب، نظرا لما عرفه من أحداث جسام ساهمت بنصيب وافر في رسم سيرورة تطور أوضاع البلاد في القرنين اللاحقين. ولعل أول ملاحظة يقف عليها دارس تاريخ المغرب في هذا القرن هي تميز فترتين طغت أحداثهما وانعكاساتهما على ما عداهما، وتتمثلان في فترة أزمة الثلاثين سنة (1727ـ 1757) التي تلت وفاة السلطان المولى إسماعيل، وفترة الانفتاح المتزامنة مع عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله (1757 ـ 1790).

وبديهي أن مدينة تطوان ـ باعتبارها من أهم مدن البلاد وموانئها في هذا العهد ـ تأثرت بالأوضاع العامة للبلاد خلال هذا القرن، إلى جانب تأثيرات عوامل خارجية كانت المدينة، بحكم موقعها وأنشطتها، محتكة معها مباشرة، ونعني بها قربها من البوغاز والبحر المتوسط، وما نتج عن ذلك من علاقات دبلوماسية ومبادلات تجارية. كل ذلك جعل تطوان محط اهتمام الكثير من الكتاب الأوروبيين، من سفراء وقناصيل وتجار وجواسيس ومغامرين وغيرهم، حيث لم يخل مؤلف من مؤلفات ذلك العهد من إشارة إلى المدينة. ويروم هذا العرض محاولة إبراز جوانب من الأوضاع العامة للمدينة من خلال بعض هذه الكتابات الأجنبية، التي لا يجادل أحد في أهميتها لدارس تاريخ البلاد، لما أوردته من معطيات تبخل بها المصادر المغربية، مقدمة بذلك مادة تاريخية نقف من خلالها على صورتها وصورة مجتمعنا عند الآخر، هذه الصورة التي لا تخلو من بعض الحقيقة التي ترفضها الذات.

**أحوال تطوان خلال فترة الأزمة (1727– 1757).**

من المعلوم أن سنة 1727 تعد محطة بارزة في تاريخ

المغرب الحديث، ففيها توفي السلطان المولى إسماعيل لتندلع بعده حرب أهلية طاحنة دامت ثلاثين سنة، إذ اندفعت القوى الاجتماعية والسياسية المختلفة إلى تصفية حساباتها وتناقضاتها المتراكمة لما ينيف عن نصف قرن من حكم المولى إسماعيل.

وكانت تطوان من أولى المدن التي تمهدت أحداثا دامية مع بداية الأزمة، إذ بادر أهلها إلى الثورة على الباشا أحمد الريفي بمجرد بلوغ نبأ وفاة المولى إسماعيل.

ومن أهم الكتابات التي أرخت لأحداث هذه الثورة كتاب جون برايتوايت John Braithwaite الذي صحب القنصل جون راسل J.Russel المعين خلفا لهاتفيلد المستقيل سنة 1727[1]. فمع وصول البعثة الدبلوماسية إلى تطوان، بلغ خبر وفاة السلطان في بداية مارس من سنة 1727، فاضطرت الأحداث أعضاء البعثة على الإقامة مدة شهرين بالمدينة، مما مكن المؤلف من الوقوف على كثير من تفاصيل أوضاعها قبل السفر إلى مكناس العاصمة للتفاوض حول الأسرى. وقد دون برايتوايت شهاداته وانطباعاته في مؤلف عنوانه «تاريخ ثورات إمبراطورية المغرب منذ وفاة الإمبراطور الأخير مولاي إسماعيل...»[2]. وينفرد هذا المصدر بإيراد تفاصيل دقيقة مبنية على مشاهدة عيانية لأحداث تطوان وأوضاعها في بداية أزمة الثلاثين سنة[3].

وقبل التعرض لأهم هذه الأحداث مع برايتوايت، يجدر بنا أن ندعه يصف مدينة تطوان الممتدة على مسافة «ميل طولا ونصف ميل عرضا، ويمنحها موقعها المطل على المنطقة المجاورة رسما جميلا. وتشكل اهتمام وحرص الموريسكيين والإسبان على

---

1 - ب.ج. روجرز، تاريخ العلاقات الإنجليزية المغربية حتى عام 1900، ترجمة يونان لبيب رزق، الدار البيضاء، 1981، ص. 128.

2 - اعتمدنا النص المترجم إلى الفرنسية: John Braithwaite, **Histoire des révolutions de l'empire de Maroc depuis la mort du dernier Empereur Muley Ismael...**, Amsterdam, 1731.

3 - تتضح أهمية المصدروانفراده في اعتماد محمد داود عليه لتغطية الأحداث المشار إليها.

التقيد بالعادات القديمة تناسقا دقيقا بين المنازل والرياض والازياء».[4] ويضيف «سأعطي وصفا موجزا لهذه المدينة التي وجدتها أرقى بكثير من كل المدن التي رأيناها في رحلتنا، ومما يدعم هذه الميزة إمكانيات البلد المحيط بها والذي يعتبر أحسن منطقة فلاحية على الصعيد المغربي. نضيف إلى ذلك تجارة شعب أكثر روحانية وحضارة في هذه الإمبراطورية».[5] ويعترف الدبلوماسي الإنجليزي أن حكمه السابق قد أعقب صورة سيئة كونها ورفاقه عن أهل تطوان أثناء مقامه بين ظهرانينهم، ولم يتراجعوا عن أحكامهم المسبقة إلا بعد معاينتهم لسكان بوادي ومداشر داخل البلاد على طول طريقهم نحو مكناس حيث يقول «كلما ابتعدنا عن البحر كلما وجدنا الشعب فظا ومتوحشا».[6]

ولاغرابة في إطراء بريتوايت على سكان تطوان - خاصة بعد مقارنتهم مع أبناء القبائل - حيث أن أولئك هم سليلو مجتمع حضري أندلسي متقدم، كما أن تطوان كانت خلال القرن الثامن عشر العاصمة الدبلوماسية للمغرب، وميناء تجاريا نشيطا، مما جعل عددا هاما من الأوربيين يستقرون فيها، فأصبح منظر الأوروبي المختلط مع المسلمين عاديا ولا يثير أي ردود فعل تتحكم إلى حد بعيد في رسم صورة الآخر وإطلاق أحكام القيمة.

أما عن أوضاع المدينة في سنة 1727، فقد تميزت بتدهور الأمن بعد الثورة على الباشا وطرده مع أتباعه من أهل الريف من المدينة، فظلت الحرب سجالا بين أهل تطوان والباشا أحمد. ويشير بريتوايت إلى أن أهل تطوان حذوا حذو أهل فاس في الثورة على عاملهم.[7] كما يورد أن أول من ثار على الباشا جبالة أرباض تطوان «وذلك بزعامة بوليز[8] Bollize القوي في

---

4 - J. Braithwaite, op. cit. pp. 156

5 - Ibid, pp. 155

6 - Braithwaite, op. cit. pp. 155

7 - Ibid, p:12

8 - يقصد أبا الليف، متزعم قبائل الفحص وأسريف في الثورة على الباشا أحمد بن علي الريفي وعلى أهل الريف في المناطق المجاورة لتطوان. يصفه الضعيف بسمسار الفتنة، انظر الضعيف، تاريخ الضعيف، تحقيق

الجبال بفضل نفوذه الكبير وسمعته، وهو سليل أسرة عريقة قدمت من الأندلس..

ولم يغفر الباشا إرغامه على تأدية جبايات ثقيلة بقساوة»[9]. مع اندلاع العنف في الجبال المحيطة بتطوان، انتشرت اللصوصية وأعمال التخريب والنهب والإغارة على «طرق المواصلات»، خاصة طريق تطوان ـ فاس، كما وجدت القبائل والأحلاف المختلفة الفرصة مواتية لتصفية حساباتها. وهنا يورد بريتوايت تفاصيل عن نهب وسلب وقتل أهل الريف الذين كانوا شيعة للباشا أحمد، والمستقرين في تطوان وهوامشها[10]. وبعد رفض أهل تطوان مساندة الباشا في حملته الانتقامية ضد جبالة بعذر خشيتهم من سهولة إغارة الجبليين على المدينة عند خروجهم منها[11]، بدأ أحمد الريفي في تجنيد قواته لتأديب الثوار، ويشير المؤلف إلى أن الباشا عجز عن استخبار التحالف الذي عقد سرا بين أبي الليف وأعيان المدينة[12].

يتضح ذلك التحالف في استئساد أهل تطوان على أخ الباشا وخليفته على المدينة بعد خروج الأول على رأس قواته قاصدا جبالة الثوار، ويرسم بريتوايت الوضعية بقوله «بمجرد خروج الباشا، وجد أخوه صعوبة في جعل أوامره مطاعة، بل أكثر من ذلك، أرغمه الشعب على أن يعلن في المدينة أن على جميع الريفيين أن يخرجوا منها في أجل معين تحت طائلة الإعدام في حالة العصيان»[13]

بعد ذلك تطورت الأمور إلى انتفاضة السكان ولجوء أخ الباشا ورجاله إلى ضريح أحد الأولياء بعد إضرام النيران في مخازن البارود خشية استئثار الثوار بها،[14] ثم استغل الذعر

---

العماري، الرباط، 1986. ص: 105 ـ 106.

9 ـ Braithwaite, op. cit. pp.12.

10 ـ Braithwaite, op. cit. pp. 12-13.

11 ـ Ibid, pp. 13

12 ـ Ibid, pp. 12

13 ـ Ibid, pp.15

14 ـ Ibid.

الذي أحدثه انفجار الذخيرة للفرار من تطوان واللحاق بالباشا في طنجة[15]. وهنا سأدع بريتوايت يتحدث عن فصل من أهم فصول ثورة تطوان، والذي يحتاج إلى تحليل عميق. يقول الدبلوماسي الإنجليزي: « مباشرة بعد فراره. قام التطوانيون بهدم القصر الباشوي الجميل ورياضه الساحرة... ورغم هذه التحركات، لم يتخذ الشعب موقفا معاديا لمولاي أحمد الذهبي، بل على العكس تمت مبايعته...وفكر الشعب في تبرير إجرائه لدى القصر. لقد أبلغوه أن الباشا وحده هو موضوع غضب مشروع ضد تجاوزاته ومظالمه... لقد وضعوا لائحة من التهم ضد هذا العامل، وبعثوا بمندوبين محملين بالهدايا للإمبراطور ولوزرائه الرئيسيين، مع أوامر بطلب تخفيف ما والتأكيد على انعدام أي مشكل في استقبال باشا آخر »[16]

ويواصل بريتوايت سرده لهذه الأحداث التي طبعت أوضاع تطوان ونواحيها بذلك الطابع العنيف المميز لأزمة الثلاثين سنة، مشيرا إلى أن السلطان حاول جاهدا أن يصلح ذات البين بين مندوبي تطوان والباشا أحمد، ورغم التوصل إلى بنود للمصالحة، فإن الباشا رفض المصادقة عليها، فرجع الطرفان إلى الشمال، « حيث اتخذ مبعوثو تطوان طريق فاس، ورجع الباشا إلى طنجة »[17].

في ظل تلك الظروف المضطربة، كانت السلطة بمدينة تطوان بيد « الديوان » أو مجلس مكون من أعيان المدينة، ويشير بريتوايت إلى أن المدينة انتخبت رجلا نشيطا عاملا على المدينة، وهو پايص الحداد، لمواجهة الباشا في تلك الظروف.

وعلى كل، فإن بريتوايت أفاض في تناول أحداث ثورة تطوان ضد عامل المولى إسماعيل الباشا أحمد الريفي، بشكل يظل معه كتابه مصدرا مهما في تسليط الأضواء على تلك الأحداث[18]، التي بلغت أوجها عندما هدد ديوان تطوان

---

15 - Ibid.

16 - Braithwaite, op. cit. pp.

17 - Ibid. pp. 19

18 - تزخر شهادات بريتوايت بتفاصيل عن أبطال وأطراف هذه الأحداث، ورسائل مخزنية، وخاصة السلطانية، وارتباطات الصراع مع الأطراف

بالانسحاب إلى سبتة والارتماء في أحضان الأعداء في حالة إصرار السلطان على إبقاء الباشا أحمد عاملا على تطوان.

ونستخلص من هذه الوقائع تذمر الفئات الثرية الحضرية من سياسية مخزن المولى إسماعيل، ممثلة في عامله أحمد الريفي، الذي كان نموذجا للحاكم القاسي الذي طبق سياسة المولى إسماعيل بصرامة، مما جعل القوى الاجتماعية تتيح الفرصة لمحاولة تغيير طبيعة العلاقة بين المخزن ومكونات المجتمع، تلك العلاقة التي تراكمت تناقضاتها لمدة تزيد عن نصف قرن، مما جعلها تنفجر بذلك الشكل الدامي الذي شهدته تطوان وفاس مع إعلان نبأ وفاة المولى إسماعيل.

## الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لتطوان

مما لا شك فيه أن النشاط الاقتصادي لمدينة تطوان قد تضرر من جراء الاضطرابات والحروب في بداية الأزمة، ومن الميادين الأولى التي مست التجارة بين تطوان وفاس، إذ مباشرة بعد اندلاع الأحداث وانتشار الإغارة على الطرقات، توقفت القوافل الأسبوعية التي كانت تربط المدينتين.

لكن مع ذلك، ظلت تطوان تربط علاقات تجارية مع جبل طارق، التي استفادت من النزاعات والحروب الداخلية في المنطقة، وسيعترف بريتوايت بذلك بقوله «وفرت هذه الانقسامات الداخلية بين المغاربة امتيازات مهمة لحصننا بجبل طارق الذي كان حينئذ محاصرا. فقد كان الطرفان حريصين على كسب صداقتنا... صحيح أننا وجدنا موارد كثيرة في تطوان... لقد كنا نحصل منها على كل لوازمنا الضرورية، والتي لولاها لن نحصل عليها إلا من وهران في مملكة الجزائر أو البرتغال. وأترك تصور مدى الصعوبة والمصاريف بالنسبة للأمة لو اضطررنا إلى الحصول على هذه المؤن من تلك الأماكن البعيدة »(19)

غير أن أهمية كتاب بريتوايت لا تكمن ـ في نظرنا ـ في المعلومات التي أوردها عن العلاقات التجارية بين تطوان وجبل

---

الأجنبية، وخاصة سلطات جبل طارق.

19 ـ Braithwaite, op. cit. pp. 22

طارق، بل في بعض الشهادات والملاحظات التي لا نجد لها أثرا في الكتابات المحلية، والتي تتعلق بجوانب تفسر إلى حد بعيد سيرورة تطور مجتمعنا وهياكله وخاصة الاقتصادية.

من ذلك مثلا أنه في معرض وصفه لوادي مرتين Merteen[20] أو وادي بوسيكا Bousega، يقول بأنه كانت «توجد به بعض المراكب الكبيرة، وبتكاليف قليلة من السهل جعله صالحا للملاحة إلى حدود المدينة (تطوان) أو أبعد من ذلك... ولكنني لاحظت أنه في كل بلاد المغرب، لا يفكر أحد في جعل مثل هذه المنشآت مفيدة للعموم»[21]

هذه الملاحظة تكشف كما سبق عن غياب بنية تحتية تسهل المبادلات، وسيدون المؤلف ملاحظات مماثلة عن غياب طرق ممهدة بين المدن، إذ طوال رحلته من تطوان إلى مكناس، كان الركب يخترق التضاريس المتنوعة وما تشكله من صعوبات للتنقل، مما يفسر، في كثير من الجوانب بطء المبادلات وتعطل نمو وتطور قوى الإنتاج.

إلى جانب التجارة الخارجية، يقر بريتوايت بأن ازدهار تطوان الاقتصادي يعزى كذلك لغنى ظهيرها الفلاحي، إذ كانت حقول ضاحية المدينة تنتج أنواعا مختلفة من الفواكه وغيرها من المنتوجات، وخاصة البرتقال الذي اعتبره إنجليزي آخر «أحلى أنواع البرتغال في العالم»[22].

ويفسر هذا النشاط الاقتصادي لمدينة تطوان غنى وثراء فئات من سكانها في ذلك العهد، والتي يقول عنها القنصل الفرنسي شينيي، ويوافقه بريتوايت عن ذلك « إن Maures تطوان أكثر تحضرا ويسرا عن نظرائهم في المدن الساحلية الأخرى»[23]، وإن كان بريتوايت يضيف «بأن الاتجار مع الأمم

---

20 ـ هو الوادي المعروف حاليا بوادي مرتيل. ولم نعثر على المقابل لوادي لوسيكا كما يسميه كل من بريتوايت والقنصل الفرنسي ثينييه، وذلك على الرغم من إطلاق وادي بوصفيحة على جزء من النهر، والراجح أن التسمية الواردة عند هذين الكاتبين لم تعد تطلق على النهر.

21 ـ Braithwaite, op. cit. pp. 70

22 ـ J.G. Jackson, **An account of the Empire of**

23 ـ P. Guillou, **Correspondance de consul Louis chémes**, T.1.

الأوروبية كان سببا في تحضرهم» تاركا خلفياته هنا تصدر أحكاما غير رصينة.[24]

ومن مظاهر ثراء الفئات الغنية بتطوان القصور الفخمة التي كان يقطنها أبناء هذه الفئات الاجتماعية، من تجار وأعيان وممثلي المخزن. ولعل النموذج الأمثل لهذه القصور هو قصر الباشا أحمد الذي أسهب بريتوايت في وصفه. كما تجلى ذلك الثراء في المآدب التي كانت تقام على شرف الضيوف الأجانب، وقد اندهش بريتوايت ومرافقوه الإنجليز أمام كميات الطعام والشراب والأجواق الموسيقية ولعب الخيل خلال مأدبة عشاء أقامها أمين الجمارك لوقش على شرف الوفد الإنجليزي.

إلى جانب الأثرياء المسلمين الذين استفادوا من تجارة تطوان الخارجية استقرت جالية يهودية قدرها بريتوايت بخمسة آلاف شخص بالمدينة، ويورد بأن يهود تطوان كانوا أكثر ثراء ويسرا من يهود المدن المغربية الأخرى لأن «كل التجارة هنا تمر عبر أيديهم، فهم وسطاء بين المغاربة والنصارى»[25]

ومما يعكس أهمية التجارة الخارجية بالنسبة لليهود أنه كلما حدث أي خلاف بين المخزن وسلطات جبل طارق، يسارعون إلى تسويته دون تطور الأمور نحو القطيعة ومن ثم تضرر مصالحهم التجارية.

ومن الملاحظات الاجتماعية الطريفة والدالة التي أوردها بريتوايت عن أوضاع تطوان قوله: «عند رؤية عدد الكسالى الجالسين في الأزقة من الصباح إلى المساء، يصعب على الأجنبي أن يفهم كيف يستطيعون الحصول على ما يقتاتون به دون عمل، وأنا شخصيا لم أستطع قط الكشف عن مواردهم».[26]

وإذا كانت تطوان قد تأثرت كما رأينا من ظروف الأزمة، فإنها ستشهد تطورا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وذلك خلال عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله (1757 - 1790)، حيث تشير المصادر الأجنبية التي اعتمدناها - خاصة مراسلات القنصل شينيي - إلى إرادة هذا السلطان في إحياء

---

24 - Braithwaite, op. cit. pp.91

25 - Braithwaite, op. cit. pp.81

26 - Ibid, p.158

دار الصنعة (الترسانة) بتطوان، والتي ظلت خلال هذا العهد تنتج بعض المراكب، غير أن القنصل الفرنسي قلل من مدى فعالية وخطورة النشاط البحري لميناء مرتيل خاصة بعد سنة 1767، أي عقب توقيع معاهدات سلام وتجارة مع فرنسا وإسبانيا وغيرهما من القوى الأوربية البحرية فيما بعد.[27]

ورغم اهتمام سيدي محمد بتطوان في بداية عهده، فإن ذلك الاهتمام سيتضاءل عندما تبلورت سياسته الانفتاحية، حيث انتقل مركز الثقل الاقتصادي بالمغرب إلى مدينة الصويرة التي بناها السلطان وأولاها عناية خاصة، وجعلها الميناء التجاري الرئيسي، كما خسرت تطوان عاملا آخر من عوامل دورها، وذلك حين أمر سيدي محمد كل البعثات القنصلية المستقرة بها بالانتقال إلى طنجة.

ويتضح تأثر تطوان بهذه الظرفية الجديدة فيما أشار إليه الرحالة الإنجليزي جاكسون. الذي زار المغرب في أواخر القرن 18. من أن عدد سكان تطوان بلغ ستة عشر ألف نسمة[28]، بينما كان العدد حسب بريتوايت في سنة 1727 ثلاثين ألفا حسب تقديره.

ولاعجب أن تعرف مدينة تطوان مثل هذه التقلبات في أحوالها تبعا للظرفية التاريخية، ووفق عوامل داخلية وخارجية تتحكم إلى حد بعيد في رسم المسار التاريخي للمجتمعات والأمم، فأحرى بالمدن والجهات داخل البلد الواحد.

---

27 - P. Guillon, op. cit. p. 21

28 - J.G. Jackson, op. cit. p:25

# تطوان محطة عبور البعثات الأجنبية إلى مكناس في بداية القرن 18

ذ. عبد الحي بنيس
كلية الآداب تطوان

تدخل هذه المساهمة في إطار تسليط بعض الأضواء على الدور الذي لعبته مدينة تطوان في مجال العلاقات الدولية خلال العشريات الثلاث الأولى من القرن 18، باعتبار المدينة كانت محطة عبور البعثات الأجنبية المتوجهة إلى مكناس عاصمة المغرب آنذاك. وبذلك تكون تطوان على الساحل المتوسطي قد لعبت الدور الذي لعبته سلا على المحيط الأطلسي خلال نفس الفترة.

ومن هنا تطرح عدة تساؤلات سنحاول الإجابة عنها من خلال هذا العرض ومن بينها: أولا، ما هي المقومات التي سمحت لتطوان كي تقوم بهذا الدور؟ ثانيا، ما هي نوع البعثات الأجنبية التي اتخذت من المدينة محطة لها أثناء عبورها في اتجاه مكناس؟ ثم أخيرا ما هي الترتيبات التي كان يتخذها المسؤولون بتطوان لاستقبال هذه البعثات وتسهيل عبورها نحو العاصمة؟.

وبالرجوع إلى المقومات التي أهلت تطوان لتصبح محطة عبور البعثات الأجنبية إلى مكناس، نجد في مقدمتها موقع وموضع المدينة المتميزين. فبالنسبة للموقع تعتبر تطوان مدينة قريبة من مضيق جبل طارق ومن السواحل الجنوبية لشبه الجزيرة الإيبيرية، فضلا عن كونها محطة بحرية هامة باتجاه السواحل الشرقية لشمال إفريقيا. أما بالنسبة للموضع فقد تم اختياره منذ العهود القديمة، أي منذ نزول الفينيقيين بالمنطقة واتخاذ تمودة مركزا تجاريا لهم من بين المراكز الأساسية التي أقاموها على سواحل المغرب، حتى إن أوزنات، (M,Euzennat)، وطارّاديل (M, Tarradel) اعتبرا «موضع تمودة، مثلا فريدا من نوعه ليس في المغرب فحسب، بل في مجموع

شمال إفريقيا »[1]

ثانيا: توفر تطوان على مجرى مائي مهم هو وادي مرتيل الذي ساهم بدور هام في تقوية العلاقات التجارية والبشرية بين أوروبا والمغرب، ذلك أن سفن الدول الأجنبية، سواء منها التجارية أو الديبلوماسية، كانت ترسو عند مصب النهر كما كانت السفن الحربية التابعة للمدينة، والتي تمارس « نشاط الجهاد البحري » تلتجئ إلى داخل النهر كلما طاردتها السفن الأجنبية المعادية[2]. ولقد لوحظ أن وادي مرتيل ظل صالحا للملاحة حتى وقت متأخر، حيث كانت القوارب تصل حتى ضواحي المدينة[3].

ثالثا: تركز عنصر بشري فاعل على المستوى التجاري، سواء تعلق الأمر بالتجار الأجانب من مختلف الجنسيات أو اليهود الذين شكلوا العصب المالي للمدينة في تجارتها الداخلية أو الخارجية. وفي هذا الصدد كتب القنصل الفرنسي دو فاتري (De Vatry) سنة 1703 عندما كان بتطوان، أن المدينة كانت تضم « منزلين فرنسيين أحدهما كاثوليكي، وآخرين إنجليزيين، بالإضافة إلى منزل يوناني وآخر أرميني. كما كان هناك حوالي 2000 يهودي، كانو يعتبرون محرك التبادل التجاري بالمدينة »[4]. وحسب برايت وايت (Braithwaite) فقد ارتفع عدد

---

1 ـ انظر: مصطفى غطيس، تمودة، منشورات كلية الآداب تطوان العدد 1،1911، ص45.

2 ـ G. Mouette, Relation de la captivité du Sr Mouette dans les royaumes de Fés et du Maroc, Paris , 1683 ,p , 156 .

3 ـ مصطفى غطيس، المرجع نفسه، ص، 9.

انظر كذلك: Braithwaite, Histoire des révolutions de l'empire du Maroc depuis la mort du dernier Empereur Moulay Ismail 1727 et une partie de1728, Amsterdam sd, p. 70 .

انظر كذلك: مرمول كربخال، افريقيا، الجزء الثاني الرباط 1989، ص. 222-224.

4 ـ Magali Morsy, La relation de Thomas Pellow, Editions Recherche sur les civilisation, Paris , 1983 , Note 85 , p . 88 .

هؤلاء إلى حوالي 5000 يهودي سنة 1727[5].

رابعا: دور تطوان في ربط الصلات التجارية بين المناطق الداخلية المغربية ومراكز تجارية أوروبية، مثل جبل طارق وقاديس ومرسيليا. فبالنسبة لجبل طارق عرف النشاط التجاري به تطورا مهما منذ احتلاله من طرف الإنجليز سنة 1704، إذ أصبح يعتمد في تموينه على مدينة تطوان، كما وجد فيه التجار التطوانيون، مسلمون ويهود[6]، قنطرة عبور مربحة[7].

وبالمقابل كانت القوافل التجارية المغربية القادمة من داخل البلاد تصل إلى تطوان بشكل منتظم في فترات السلم. ونشير في هذا الصدد إلى أن النشاط التجاري للمدينة تراجع بعد وفاة المولى إسماعيل بسبب الثورات التي اندلعت هنا وهناك، مما أدى إلى إعاقة وصول القوافل التجارية التي كانت تأتي من فاس إلى تطوان كل أسبوع كما كانت عليه عادتها في فترات السلم[8].

ومن بين المقومات الأخرى «نشاط الجهاد البحري» الذي مارسه سكان المدينة وحكامها، فتطوان لها تاريخ عريق في هذا المجال، ونتيجة لهذا النشاط تعرضت المدنية لهجوم وحشي قاده ملك قشتالة سنة 1399 أو 1400، انتهى بتخريب المدينة وهجرة سكانها بعد أسر أعداد مهمة منهم.[9] كما يتجلى هذا النشاط بوضوح في الأعداد الكبيرة للأسرى المسيحيين الذين كانوا معتقلين بمطامير تطوان أو بمعسكر مرتيل[10]. فوجود هذه

---

Braithwaitc, Op.Cit., pp; 81-82 - 5

6 - يعتبر العربي الشاط نموذجا للتجار التطوانيين الكبار الذين كانوا يتنقلون بين تطوان وجبل طارق، وقد لوحظ وجوده سنة 1718 بالمستعمرة الإنجليزية، انظر: Magali Morsy; Op . Cit /Not48, p . 79.

H.L .M .Obdeijh , Les relations entre le Maroc et les pays- bas: un aperçu Historique, Publications de la Faculté des lettres et des sciences Humaines, Rabat, no.8, 1988, pp.61-71. - 7

Braithwaite, Op Cit, p . 85 - 8

M.A . Joly , TETUAN , Archives marocains Tome .5, p 179. - 9

G. Mouette ; Op . Cit . p . 152. - 10

الأعداد الكبيرة من الأسرى المسيحيين من مختلف الجنسيات كان يفرض مجيء البعثات الأجنبية من أجل افتكاكهم من الأسر وإطلاق سراحهم.

هناك أيضا أهمية تطوان على مستوى الاستراتيجية العسكرية، فقد تنبه الرومان منذ وقت مبكر إلى أهمية المنطقة الواقعة بين طنجة وتمودة من الناحية العسكرية، وقد اختاروا تمودة قاعدة عسكرية دائمة لهم[11]. وفي العصر الاسلامي الوسيط، أصبحت تطوان من القواعد العسكرية المرينية، منذ أن جعل منها السلطان المريني أبو ثابت عبد الله بن عبد الحق قاعدة حربية لنزول العساكر بها، وذلك سنة 1308[12]. وازدادت أهمية تطوان كقاعدة عسكرية متقدمة بعد الاحتلال البرتغالي لسبتة وطنجة، حيث أصبحت المدينة رأس الرمح في كل المحاولات الرامية لتحرير بعض مدن الشمال الغربي على عهد المولى إسماعيل[13].

أما بخصوص البعثات الأجنبية التي عبرت تطوان فيمكن تصنيفها إلى نوعين: بعثات ديبلوماسية وبعثات دينية تهتم بتحرير الأسرى المسيحيين المعتقلين بالمغرب.

فبالنسبة للبعثات الديبلوماسية التي عبرت تطوان خلال المرحلة المحددة سابقا، كانت تنتمي إلى دول أوروبية ربط المغرب معها علاقات سياسية وتجارية. وكان لهذه الدول قناصل دائمون بالمدن الساحلية المغربية كتطوان وسلا، يسهرون على مصالح رعايا دولهم بالمغرب. وبتعاون بين باشوات هذه المدن وقناصل الدول الأوروبية، كان يتم التهييء لاستقبال هذه البعثات التي كانت تنزل في الغالب إما في تطوان أو في سلا، حيث كان التنافس محتدما في هذا المجال بين باشوات

---

11 ـ مصطفى غطيس، المرجع نفسه، ص57.

12 ـ انظر دراستنا: الوطاسيون والاحتلال الإيبيري لسواحل المغرب (1471-1544)، لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، كلية الآداب فاس، 1988.

13 ـ أحمد الناصري، الاستقصا، الجزء 7 دار الكتاب، الدار البيضاء 1956، ص 67. انظر كذلك، محمد داود، تاريخ تطوان، القسم الأول من المجلد الثاني، الطبعة الثانية دار كريماديس للطباعة، تطوان (المغرب). ص: 10 ـ 28 ـ 31.

المدينتين[14].

إن ما يهمنا في هذا العرض هو التركيز على البعثات الديبلوماسية التي عبرت تطوان في طريقها إلى مكناس. ومن هذه البعثات:

1 ـ السفارة الفرنسية برئاسة سان أولان (Saint- olon)، وقد تمت في نهاية القرن السابع عشر ابتداء من 5 ماي 1693، وهو اليوم الذي نزل فيه السفير الفرنسي بساحل مرتيل[15]، ومنه غادر المغرب يوم 22 غشت 1693 بعد عودته من مهمته الديبلوماسية بمكناس، ومقابلته للمولى إسماعيل[16].

2 ـ السفارة الإنجليزية برئاسة جورج دولاڤال (George de laval) وقدتمت في نهاية سنة 1698 وبداية 1699، ويبدو أن هذه السفارة لم تحقق نتائج ملموسة، مما اضطر السفير إلى العودة إلى المغرب في نهاية سنة 1701 وبداية سنة 1702. وهذا ما تشير إليه رسالة القنصل الفرنسي بتطوان جون بابتبيست إيستيل (J.B .Estelle) التي ذكرت بأن جورج دولاڤال، نجح في مهمته الديبلوماسية، وتمكن من إطلاق سراح الأسرى الإنجليز وأخذهم على ظهر ثلاث سفن إنجليزية كانت راسية بميناء مرتيل.[17]

3 ـ سفارة إنجليزية ثانية برئاسة شارل ستيوارت (Charles Stewart)، وقد نزل أعضاء السفارة بمرتيل يوم 6 ماي 1721[18]، وكانت عودة الوفد الإنجليزي من مكناس إلى تطوان بعد نجاحه في مهمته الديبلوماسية والتصديق على اتفاقية السلام بين المغرب وبريطانيا، غير أننا لم نعثر على تاريخ العودة إلى تطوان ، بل هناك فقط إشارة إلى تاريخ مغادرة

---

14 ـ Sources Inédites de l'histoire du Maroc, France Deuxième série T. IV.p. 43.

15 ـ Ibid, p. 18.

16 ـ Ibid, p. 15.

17 ـ Sources Inédites de l'histoire du Maroc, France Deuxième série Ty.pp. 271-272 T. VI.

18 ـ Magali Morsy, Op. Cit; p. 85.

الوفد الإنجليزي لمدينة مكناس في اتجاه تطوان، وكان ذلك يوم 24 يوليوز 1721[19].

4 - سفارة إنجليزية ثالثة برئاسة القنصل العام البريطاني جون روسيل إكيير (Jean Russel Ecuyer)، وقد وصلت السفارة الإنجليزية إلى خليج تطوان يوم 15 شتنبر 1727[20]، حيث صادفت توثر الأوضاع بالمغرب على إثر وفاة المولى إسماعيل، وكذا هجوم الباشا أحمد بن علي على تطوان، مما اضطر السفارة إلى التريث حتى ينجلي الموقف، وهكذا مكثت السفارة بالمدينة قرابة شهر ونصف قبل صدور الأوامر لها بالالتحاق بمكناس للقاء السلطان وكان ذلك يوم 2 نونبر 1727[21]

5 - سفارة هولندية برئاسة الأخوان بوتلر لويس وفرانسيسكو (Luis et Francisco Butler)[22]. غير أن تاريخ وصول هذه السفارة إلى المغرب غير محدد، وبالاعتماد على تاريخ عقد اتفاقية السلام بين المغرب والبلاد المنخفضة وهو 8 نونبر 1730 يمكن القول إن تاريخ الزيارة تم في غضون الشهور الأخيرة من سنة 1730[23]. ومن جهة أخرى، فإن المصادر التي اهتمت بالموضوع لا تفصح عما إذا كانت السفارة الهولندية قد عبرت مدينة تطوان وإن كان من المؤكد، حسب ما ذكره صاحب الإتحاف، أن الوفد المغربي المفاوض كان برئاسة القائد لوقش باشا تطوان[24]. وإذا علمنا بأن باشوات المدينة كان من عاداتهم مرافقة سفارات الدول الأجنبية إلى مكناس، تأكد لنا أن السفارة الهولندية عبرت هي الأخرى مدينة تطوان.

6 - سفارة إنجليزية برئاسة جون ليوناردو سوليكوفري

---

19 - Ibid, P . 95.

20 - Braithwaite, Op Cit, pp . 60- 61.

21 - Ibid, P .116.

22 - عبد الهادي التازي، التاريخ الديبلوماسي للمغرب، المجلد التاسع، مطابع فضالة المحمدية 1408-1988، ص. 196.

23 - نفسه، ص: 193.

24 - عبد الرحمان بن زيدان، إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، الجزء الرابع الرباط 1929، ص 484.

(John Léonard Sollicoffre)، وقـــد تمت سنـة 1734[25]. غـــيــــر أن المصادر لا تفصح عما إذا كان الوفد الإنجليزي قد عبر تطوان في طريقه إلى مكناس، والمؤكد هنا أيضا أن سوليكوفري عاد من مكناس إلى تطوان برفقة الباشا أحمد بن علي بعد ما تمكن من إطلاق سراح الأسرى الإنجليز الذين كان عددهم 148 أسيرا.[26] كما أن الأسرى تم ترحيلهم على ظهر السفن الإنجليزية التي كانت راسية بميناء مرتيل، بينما بقي سوليكوفري رهينة بتطوان حتى تؤدي حكومته فدية الأسرى. لكن السفير بقي محتجزا بتطوان إلى أن توفي بها ألما وحسرة يوم 1 يونيو 1735 بعدما تخلت حكومته عنه، عندما رفضت أداء الفدية التي اعتبرتها مرتفعة جدا[27].

يستفاد من المصادر التي اعتمدناها أن جل البعثات الأجنبية التي عبرت مدينة تطوان مع بداية القرن الثامن عشر كانت بريطانية، ذلك أن العلاقات المغربية مع كل من فرنسا وإسبانيا كانت متوترة خلال هذه المرحلة، لذا عمل الإنجليز على انتهاز الفرصة لتمتين علاقاتهم مع المغرب. وقد توطدت هذه العلاقات مع تحول جبل طارق ما بين 1731 و1750 من قاعدة عسكرية إلى «مركز تجاري هام ومستودع للتجارة المشروعة وغير المشروعة كما أصبح مركزا لتجميع المعلومات التجارية والبحرية ومركزا لتوثيق الصلات المغربية الأوروبية»[28].

لقد كانت تطوان تخصص لأعضاء البعثات الدبلوماسية الأجنبية استقبالات رسمية يرأسها في غالب الأحيان باشاوات المدينة، وكان هؤلاء الباشاوات يسهرون على راحة الوفود الأجنبية طيلة مقامها بتطوان، كما كانوا يضعون لها برامج خاصة لزيارة معالم المدينة وضواحيها وإقامة مآدب على شرفها احتفاء بها.

فعن الاستقبالات الرسمية، تشير المصادر التي اهتمت

---

25 - Magali Morsy, op . cit, Notes 450- 451, p. 172.

26 - Ibid, p .173.

27 - Ibid, Notes 450- 451, p 172.

28 - J.L . Miège, Les relations maritimes entre Marseille et le Maroc, ( 1682- 1863), Revue Maroc- Europe, }N 2, Editions la Porte , Rabat 1992, p .34.

بالموضوع، إلى أن كل الترتيبات والاستعدادات كانت تتخذ قبل وصول البعثة إلى خليج تطوان، حيث يتم نصب الخيام التي كانت تنزل بها البعثة وكانت هذه الخيام تنصب بجانب خيمة الباشا بمركز الاستقبال بمرتيل. وغالبا ماكان السلطان يبعث من مكناس بخيمة جميلة تليق بمقام سفراء الدول الأجنبية[29].

وكان الباشا من جانبه يبعث بكل حاجيات البعثة من مواد غذائية وأغطية ووسائد، فضلا عن كتيبة عسكرية لحماية أعضائها[30]، وخصوصا وأن سكان النواحي كانوا يتقاطرون على معسكر الاستقبال لمشاهدة الحفلات التي كانت تقام احتفاء بوصول البعثة الأجنبية[31].

وعند نزول السفير والأعضاء المرافقين له على أرض مرتيل، كان يجد في استقباله عادة قنصل بلاده المعتمد في تطوان، وكذا مواطنيه المقيمين بالمدينة، بالإضافة إلى بعض المسؤولين المغاربة الذين أوفدهم الباشا لاستقبال السفير. وأثناء الاستقبال تطلق مدفعية برج مرتيل عدة طلقات ترحيبا بمقدم البعثة الأجنبية[32].

وقد دأب باشاوات تطوان على إظهار كل معالم العظمة والأبهة عند استقبالهم للسفراء الأجانب العابرين لمدينتهم، إذ كانوا ينتقلون من تطوان إلى مرتيل على أجمل الخيول المسرجة بسروج مزكرشة بالذهب والفضة، يرافقهم في ذلك عدد كبير من الفرسان والمشاة تتقدمهم أعلام المدينة، فضلا عن القناصل والجاليات الأجنبية المقيمة بتطوان[33].

وبعد وصول الموكب إلى معسكر الاستقبال ينزل الباشا بخيمته للاستراحة قليلا، ثم يخرج بعد ذلك للقاء السفير، حيث يتبادل الطرفان التحية وكلمات الترحيب، هذا في الوقت الذي

---

29 - Magali Morsy, Op .Cit ;p.85.

30 - Braithwaite, Op Cit, p. 63.

31 - Ibid, p. 68.

32 - S.I.H.M. France, Deuxième série T. IV p. 18.

انظر كذلك . Braithwaite, Op Cit, p. 62

33 - Magali Morsy, Op .Cit ;p.85.

انظر كذلك .Braithwaite, Op Cit, p. 63

تعزف فيه فرقة موسيقية من تطوان معزوفات موسيقية[34]. وخلال هذا الاستقبال يحضر السفير بجانب الباشا عروضا يقدمها بعض الفرسان وهي عبارة عن مبارزات يظهر فيها هؤلاء مهارتهم في استعمال السلاح. كما يقوم جنود آخرون بإطلاق النار من بنادقهم بين الحين والآخر، موجهين فوهاتهم نحو الأرض وهم منظمون في شكل نصف دائري[35].

بعد هذا الاحتفال يقوم الباشا بدعوة السفير إلى خيمته للاستراحة، ثم يتشكل الموكب الرسمي الذي يترأسه الباشا بمعية ضيفه في اتجاه تطوان. وعند وصول الموكب إلى المدينة يخرج سكانها لمشاهدة السفير وأعضاء البعثة، وتشير المصادر إلى أن الموكب كان يمر بصعوبة نظرا للحشود الكبيرة التي كانت تخرج لاستقبالهم، ثم أيضا بسبب ضيق الأزقة، هذا في الوقت الذي كانت تمتلئ فيه سطوح المنازل بالنساء وهن ملفوفات داخل حياكهن البيضاء التي لا تظهر منها سوى عيونهن[36].

وعند وصول الموكب إلى وسط المدينة، وبالضبط إلى ساحة المشور المقابلة لقصر الباشا يترجل كل من الباشا والسفير وتقام احتفالات أخرى، حيث تطلق المدفعية عدة طلقات احتفاءاً بالسفير، كما تقوم فرقة من الفرسان بعرض بعض المشاهد من الفروسية أمام أنظار الباشا وضيفه. وفي ختام هذه الاحتفالات يرافق الباشا ضيفه إلى مقر إقامته[37].

بالإضافة إلى الاحتفالات الرسمية، هناك بعض الأنشطة

---

34 - من خلال الآلات الموسيقية التي كانت تستعملها الفرقة يمكن استنتاج أن الموسيقى المعزوفة لم تكن سوى «الطبل والغيطة» المعروفة في شمال المغرب.

35 - Magali Morsy, Op . Cit. p.85.

انظر كذلك Braithwaite, Op. Cit, p. 64.

36 - S.I.H.M .France Deuxième série T .IV .p. 25

انظر كذلك: - Magali Morsy, Op .Cit. p.86.

- Braithwaite, Op Cit, p. 71.

37 - Magali Morsy, Op .Cit ;p.86. -

انظر كذلك: Braithwaite, Op Cit, p. 71. –

التي كانت تقوم بها البعثة الأجنبية أثناء مقامها بتطوان. ومن ذلك مثلا قيام السفير بزيارة الباشا في قصره، حيث يقدم له بعض الهدايا عرفانا من حكومته على الخدمات التي قدمها للبعثة ، وكذا على مجهوداته في تذليل الصعاب أمام السفير لإنجاح مهمته الدبلوماسية[38].كما كان الباشا يقيم على شرف البعثة مأدبة غذاء ببستانه الموجود على ثلاثة أميال من المدينة عند قدم جبل بني حزمار، وكان البستان يعرف لدى أهالي تطوان بـ« الغرسة ديال الباشا »[39].

ولم يكن الباشا الشخصية الوحيدة التي تقيم مثل هذه المآدب، بل كان كبار تجار وموظفي المدينة يقيمون هم أيضا مآدب على شرف البعثات الأجنبية، ومن بين هؤلاء أمين ميناء مرتيل[40]. وقد كانت كل البعثات الأجنبية تقوم بزيارته عندما تحل بمدينة تطوان، باعتبار التأثير الذي كان له على تجارة الأجانب، سواء منها الداخلة أو الخارجة، عبر ميناء مرتيل. كما كانت هذه البعثات تقدم له بعض الهدايا لضمان المصالح التجارية لمواطني هذه البعثات المقيمين بتطوان[41].

بالإضافة إلى ذلك كانت تنظم جولات لفائدة الوفود الأجنبية للتعرف على معالم المدينة، وكانت هذه الجولات تشمل:

- زيارة كنيسة المدينة، وحضور الصلاة بها، وسماع بعض الأناشيد الدينية التي كان الملك الإسباني قد أقرها لصالح الأسرى المسيحيين بتطوان من أجل التخفيف عنهم[42].

- زيارة بيعات اليهود بالمدينة.

- زيارة الأضرحة والزوايا، إلا أنه لم يكن يسمح لأفراد البعثات بولوجها[43].

- زيارة قصبة المدينة[44]، وكذا زيارة قصر الباشا بظاهر

---

38 - Braithwaite, Op Cit, p. 74.

39 - Magali Morsy, Op. Cit, Note 82, p. 87

40 - Braithwaite, Op Cit, pp. 104- 105.

41 - Ibid, pp. 83- 84.

42 - S.I.H.M .France Deuxième série T .IV .p. 25.

43 - Braithwaite, Op Cit, pp. 81- 82.

44 - Ibid, p. 96.

المدينة وقد كان تحفة في الجمال المعماري[45].

- تنظيم رحلات قنص في المرتفعات الواقعة بين تطوان وسبتة لصيد الخنزير الوحشي، هذا فضلا عن تنظيم رحلات صيد على طول وادي مرتيل. وكان السمك موجودا بوفرة بالنهر، حتى أن اصطياده كان يتم من على صهوات الجياد[46]

وإلى جانب البعثات الدبلوماسية، كانت هناك بعثات دينية يترأسها رجال الدين الذين كانوا يشتغلون بافتكاك الأسرى المسيحيين، كما كانت هذه البعثات تعبر تطوان في اتجاه مدن مغربية داخلية كمكناس وفاس وذلك من أجل العمل على إطلاق سراح الأسرى الموجودين بهذه المدن، في حين كان بعضها الآخر يكتفي بالبقاء بتطوان لافتكاك الأسرى المسيحيين الموجودين بها.

وكانت البعثات الدينية تنشط أكثر عندما تفشل الديبلوماسية في تحرير الأسرى الأجانب بالمغرب، خصوصا عندما تتوثر علاقات المغرب مع بعض الدول الأوروبية التي كان لها رعايا ضمن الأسرى الموجودين ببعض المدن المغربية، وهذا ما لوحظ خلال المرحلة التي أصيبت فيها العلاقات المغربية الفرنسية بفتور دام أكثر من نصف قرن، أي من نهاية القرن 17 حتى سنة 1767[47].

لقد شهدت تطوان منذ وقت مبكر، أي قبل تخريبها على يد ملك قشتالة سنة 1399، توافد عدة بعثات دينية مهمتها افتكاك الأسرى المسيحيين بالمغرب[48]. وقد استئنف توافد هذه البعثات مع انبعاث المدينة من جديد على يد المهاجرين الأندلسيين، خصوصا بعد ارتفاع وثيرةنشاط الجهاد البحري الذي قاده حكام تطوان ضد سواحل شبه الجزيرة الإيبيرية وضد سفنها، مما أدى إلى تزايد أعداد الأسرى المسيحيين بمطامير المدينة[49]، هذا فضلا عن الأسرى الذين كانو يبعثون من طرف

---

45 - Ibid, p.97.

46 - Magali Morsy, Op .Cit. p.87.

47 - S.I .H .M .France Deuxième série T .IV . p.9.

48 - M.Léon Godard , Déscription et Histoire du Maroc, Paris, 1860 p.439

49 - يشير الوزان إلى أن أعداد الأسرى المسيحيين بتطوان وصل عند بداية

الباشا إلى مكناس أو فاس هدية للسلطان[50].

ونظرا لكثرة أعداد هؤلاء الأسرى بتطوان، عمل الآباء المسيحيون على تأسيس خيرية بها لجمع التبرعات والصدقات لصالح الأسرى من أجل التخفيف من معاناتهم وذلك سنة 1548[51].

لقد استمر توافد بعثات رجال الدين على تطوان خلال النصف الأول من القرن 18. وكان مركز تجمعهم مدينة قاديس، حيث كان يتم جمع الأموال الضرورية بالعملة الدولية (Piastres)[52] قبل انتقالهم إلى دول شمال إفريقيا لافتكاك الأسرى المسيحيين بها[53].

وكانت أغلب البعثات الدينية المتجهة إلى تطوان تأتي عبر مدينة سبتة[54]. وقبل انتقال هذه البعثات إلى تطوان كانت تجري مفاوضات تمهيدية مع باشا المدينة عن طريق قناصلها هناك، أو بواسطة رسائل يتكلف بتبليغها بعض التجار الأجانب المقيمين بتطوان[55]. وكانت المفاوضات تهتم بعدد الأسرى المراد افتكاكهم وكذا أسمائهم،وبقيمة الفدية التي كان على رجال الدين دفعها للسلطان بواسطة باشا المدينة.

وتجدر الإشارة إلى أن أغلب البعثات الدينية المسيحية التي عبرت تطوان كانت من أصل فرنسي أو إسباني، ويرجع السبب كما أشرنا إلى ذلك سابقا إلى توتر علاقات المغرب مع

---

القرن 16 حولي 3000 أسير. انظر الحسن الوزان، وصف إفريقيا الجزء الأول، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر الرباط 1400- 1980، ص: 247.

انظر كذلك: S.I.H.M.Portugal, Première série T.IV, pp.373- 374.

50 - G.S. Van Krieken, Le Maroc du XVIII^e S. aux yeux des visiteurs Hollandais, Publication de la Faculté des Lettres, No,16 Rabat 1990, p. 57.

51 - S.I.H.M.Portugal, Première série T.IV, pp.273- 285.

52 - عملة تفوق قليلا 3 جنيهات، انظر:

S.I.H.M, France T.VI, Note 2, p.567.

53 - J.L.Miège, Op.Cit, p.30.

54 - G.Mouette, Op.Cit, pp.134- 135.

55 - S.I.H.M.France Deuxième série T.VI. p.9

دولتي فرنسا وإسبانيا خلال هذه المرحلة[56].

لقد كان على البعثات الدينية قبول أداء رسوم العبور والإقامة قبل دخولها إلى تطوان، خصوصا وأن إقامة هذه البعثات كانت تستغرق عدة شهور. وقد حدد موييت (Mouette) قيمة هذه الرسوم عند نهاية القرن 17 بحوالي (100 Ecus)[57] عن كل شهر.

غير أن بعض هذه البعثات، كانت ترفض أداء مثل هذه الرسوم، متعللة بقلة ما لديها من أموال. وأن الأموال التي بحوزتها هي مخصصة فقط لافتكاك الأسرى. وحتى تتنصل من دفع هذه الرسوم كانت تلتجئ إلى وسيلتين:

الوسيلة الأولى، تتمثل في إخبار البعثة للسلطان عن طريق بعض التجار الأجانب، بالصعوبات والعراقل التي كان يضعها باشا تطوان في وجهها من أجل الالتحاق بمكناس وكان السلطان في الغالب يستجيب لرغبة أعضاء البعثة فيكلف بعض رجال دولته لتسهيل انتقال البعثة إلى تطوان ومنها إلى مكناس[58].

الوسيلة الثانية، تتجلى في البقاء على الحدود بين سبتة وتطوان، حيث يتم هناك تبادل الأسرى بين البعثة والباشا وكذا أداء البعثة أموال الفدية التي بقيت في ذمتها[59].

وبالإضافة إلى دفع رسوم الإقامة، كان على أعضاء البعثة الدينية تقديم بعض الهدايا للباشا وأعوانه، ذلك أن هذه الهدايا كانت تلين موقف هؤلاء. مما كان يسهل على البعثة عملية العبور وتحرير الأسرى[60].

---

56 - Ibid. p. 780.

انظر كذلك: S.I.H.M.France Deuxième série T.IV. p. 273.

- Braithwaite, Op Cit, p. 64

57 - عملة فضية كانت تساوي ثلاث جنيهات. انظر:

G. Mouette, Op. Cit, pp. 134- 136.

58 - Ibid, pp. 134- 135.

59 - S.I.H.M.France Deuxième série T.VI. p. 11.

60 - S.I.H.M.France Deuxième série T.IV. p. 273.

انظر كذلك: A. Kadouri, Les présents comme Institution dans les relations

وبعد دخول البعثة تطوان، كان بعض أعضائها ينتقلون إلى مكناس للتفاوض من أجل افتكاك الأسرى، بينما يبقى بعضهم الآخر بالمدينة وبحوزتهم الأموال المخصصة لافتكاك الأسرى المسيحيين إلى حين انتهاء المفاوضات. وعند عودة الأعضاء المفاوضين من مكناس وبمعيتهم الأسرى المحررين يتم تسليم أموال الفدية إلى باشا تطوان الذي كان عليه بعثها مباشرة إلى السلطان(61).

وقبل مغادرة البعثة تطوان كان عليها أداء ما عليها من رسوم الإقامة على المدة التي قضاها أفرادها بالمدينة. غير أن أي رفض من جانبها لأداء هذه الرسوم بحجة ارتفاع قيمتها كان يعرض أفرادها ومن معهم من الأسرى المحررين إلى الاعتقال، حيث كان الباشا يبعث بهم إلى سجن مرتيل إلى حين رضوخهم وأداء ما عليهم من رسوم.

وكانت مغادرة البعثة والأسرى المسيحيين لميناء مرتيل تتم بمحضر باشا تطوان الذي كان يقوم بمراقبة دقيقة لعدد الأسرى الذين كان يسمح لهم بمغادرة المغرب بعد التأكد من أسمائهم وهويتهم(62).

ومن خلال هذا العرض يتبين بوضوح أهمية تطوان كمحطة لعبور البعثات الأجنبية إلى مكناس، وقد اكتسبت هذه الأهمية بما توفر لها من مقومات مختلفة جعلتها تنافس مدينة سلا على المحيط الأطلسي في هذا المجال. غير أن تحرير طنجة من الاحتلال الإنجليزي على يد المولى إسماعيل فرض على تطوان، مع مرور الوقت، اقتسام دورها مع المدينة المحررة التي أصبحت مقرا ثانيا للقائد أحمد بن علي الريفي.

تطوان 27 فبراير 1994.

---

internationales: Le cas du Maroc et des pays - bas aux XVIe et XVIIe S. Publication de la Faculté des Lettres, N 16, Rabat, 1990, p. 37.

61 - G. Mouette, Op. Cit, p. 152.

62 - Ibid. p. 153.

# فتنة يهود تطوان على عهد السلطان المولى يزيد من خلال المصادر العبرانية

د. عبد العزيز شهبر
كلية الآداب بتطوان

هذا الموضوع يدخل ضمن مشروع انطلقت في تنفيذه منذ سنوات[1]، ويتعلق بجمع المصادر العبرانية لتاريخ المغرب وترجمتها وتقديمها مصدرا من مصادر تاريخ المغرب. وأهمية هذه المصادر تكمن في المعطيات الجديدة التي قد تغني ما تقدمه مصادرنا العربية المغربية من معطيات، وقد تتممها. كما نجدها تؤرخ لأحداث متعلقة بمكون من مكونات المجتمع المغربي، ولعلاقته بباقي مكونات هذا المجتمع، كما تعكس دور الوساطة الذي سيكون لليهود المغاربة بين الأوروبيين والمغاربة المسلمين خلال القرون الثلاثة الأخيرة. وهذه المصادر لا تدخل في إطار

---

1 - كان أول عرض قدمته في الموضوع بعنوان «كتابات يهود المغرب مصدرا من مصادر تاريخ المغرب» قدمته سنة 1989 في إطار أيام نظمتها مجموعة البحث في اللغة والعلوم الإنسانية بكلية الآداب تطوان. ثم عقدت فصلا من أطروحتي عن شعر يهود المغرب بين التأثير الأندلسي وأصالة الأدب المغربي» - التي دافعت عنها بكلية الفيلولوجيا جامعة كومبلوطسي مدريد سنة 1991- عن شعر يهود المغرب مصدرا من مصادر تاريخ المغرب، وشاركت في ندوة تطوان خلال القرن التاسع عشر المنظمة من طرف مجموعة البحث في تاريخ المغرب والأندلس في موسم 1992 ببحث حول «علاقة يهود تطوان ببيعات الشرق وأوروبا خلال القرن التاسع عشر» ووظفت فيه إشارات واردة في تقاريض بعض الكتب العبرانية المطبوعة في تلك الفترة. وفي ندوة الجامعة الخريفية لمولاي علي الشريف بالريصاني دجنبر 1992 شاركت ببحث حول الطائفة اليهودية خلال عهد السلطان مولاي سليمان، كما شاركت في دورة 1993 من نفس الجامعة ببحث حول الطائفة اليهودية ونشاطاتها من خلال المصادر العبرانية على عهد السلطان مولاي عبد الرحمن.

التاريخ الرسمي الذي قد ينحاز فيه المؤرخ للسلطة الحاكمة، والذي قد تمارس عليه فيه رقابة معينة. إنه تاريخ خاص موجه إلى الطائفة بلسانها العبراني المشوب بالألفاظ الآرامية أو بالعربية المكتوبة بالخط العبري أو بالبربرية اليهودية أو بلغة اللادينو، مما يجعل معناها منغلقا لا ينفذ إليه إلا من ثَقِفَ هذه الألسن. وليس يعني هذا كذلك أنها مصادر نزيهة نزاهةَ القطع ما دامت تحكمها الذاتية وما دامت يحكمها الإنتصار للعرق.

وتتميز هذه المصادر عن المصادر العربية المغربية في رصدها لكل شاردة وبَيِّنَة من أمور المغاربة المسلمين، عوامهم وخواصهم، عكس المصادر العربية التي لم ترصد بواطن الطائفة اليهودية، ولم تقف على صراع فئاتها، على الرغم مما سيكون لهذه الطائفة من دور خلال القرون الأخيرة. وسيكتفي مؤرخونا المغاربة المسلمون بإيراد إشارات مقتضبة عن هذا الذمي أو ذاك أو إشارات عن بناء هذا الملاح وهدم الآخر، أو تتحدث عن مبايعة الطائفة لهذا السلطان أو ذاك، أو احتكار يهود هذه المدينة أو تلك لبعض المؤن لبيعها في أوقات الشدة... بينما نجد في المصادر العبرانية ورودا لكثير من أمور المسلمين.

وهناك جانب آخر مهم في هذه الكتابات التاريخية العبرانية المغربية، ويكمن في أن قارئها قد يعثر على أصل من أصول الصورة التي تشكلت عن المغرب في كتابات الأجانب أوربيين وغيرهم. ونحن نعلم أن أغلب الرحالة ممن أتوا إلى المغرب وكتبوا عنه إلتمسوا لهم مترجمين يهودا، وكانوا ينزلون بملاحات اليهود، وشكل لهم اليهود مصدرا للخبر.

فماذا عن موضوع فتنة يهود تطوان على عهد المولى يزيد؟

إن مقاربة هذا الموضوع تستدعي كثيرا من الحيطة، خاصة وأن النصوص العربية المتوفرة لديناـيعتريها شيء من الإبهام. وهي تستعمل معجما يدعو إلى التفكير في الوجه الصحيح الذي كانت عليه الأحداث إبان دخول المولى يزيد مدينة تطوان بعد مبايعة أشراف جبل العلم له.

إن النصوص العربية تستعمل ألفاظا وعبارات معينة مثل إطلاق الجند على اليهود، استباحتهم واصطلام نعمتهم، أو الإذن للجيش بنهب ملاح أهل الذمة، أو أمر مولي يزيد الجيش بنهب ملاح تطوان والاحتواء على ما فيه من مال. وهذا المعجم، وهذه

العبارات تجعل النصوص العربية المقتضبة المتعلقة بأحداث تطوان على عهد السلطان مولاي اليزيد، مغايرة للنصوص العبرانية المغربية التي أغرقت في تبيان همجية التقتيل والتشريد والسلب الذي طال يهود الفترة. وهو الأمر الذي ندفعه ونستبعد حدوثه كما سنقف على ذلك في حينه. وهذا ما جعلنا نستعمل لفظة «فتنة» في عنوان هذا البحث.

والمصادر العبرانية التي اعتمدتها في تبيان هذا الموضوع هي:

1 ـ نصوص للربي بن عطار من كتاب «دبْري هَيَميم شلْ فاس»[2] أو تاريخ التواريخ، والكتاب من تأليف أفراد منَ عائلة بن دنان الغرناطية الفاسية، نشر محققا ومعلقا عليه من طرف الباحث مير بنياهو Meir Beinyahu، وقد كان الباحث ج. فيدا G. Vajda قد ترجم بعض نصوصه إلى الفرنسية في مقال نشره بمجلة هسبريس عنونه ب: Un Recueil de textes Historiques Judeo-Marocains[3]

وأقوم الآن بترجمته من العبرانية إلى العربية لأهميته.

2 ـ نص لحبيب بن يوسف الطوليدانو من كتاب التواريخ كذلك.

3 ـ مرثية لداوود هارون بن حساين شاعر مكناس على عهد السلطان مولاي محمد بن عبد الله، وصاحب ديوان «تهيلة لداڤيد» تسبيحة لداوود، نشر بأمستردام في نهاية القرن التاسع عشر.

وهذه المرثية نشرت في مجلة الدراسات العبرانية R. E. J سنة 1898 من طرف الباحث كاوفمان Kaufman[4].

4 ـ مرثية مخطوطة لابن الدهان الطنجي واردة ضمن مجموع شعري أهداني إياه السيد موسى الغماري أحنانا.

---

2 ـ «دبْري هَيَميمْ شلْ فاس» تأليف عائلة بن دنان، تحقيق مير بنياهو، نشر بتل أبيب 1993في إطار منشورات Diaspora research Institute Tel-aviv.

3 ـ Un receuil de Textes Historiques Judeo-Marocains مجلة هسبريس XII. 1951.

4 ـ Une élegie de David B. Aron ibn Husein sur les souffrances des Juifs au Maroc en 1790 -1898. 37 R.E.J. مجلة الدراسات اليهودية.

وقبل مناقشة ماورد في هذه النصوص أورد ترجمتها هنا:

جاء في كتاب تاريخ فاس ،ص 157، الفصل الثامن:

«في آخر شهر نيسان من عام 5550 لبدء الخليقة (1790) بلغ خبر شؤم من مدينة الرباط يعلن موت الملك سيدي محمد تغمده الله برحمته. وضجت كل المدينة، وكانت فوضى عظيمة، وكان ارتباك في أوساط اليهود وبين الكوييم. وانتابنا خوف وعجز وذعر، وخلنا أنفسنا موتى، وقلنا إن أهل القبائل سيأتون إلى المدينة يقيناً ليسلبوا الجميع وليستبيحوا النساء. وكان الجميع يفر ويُهَرِّبُ أمواله تحت البيوت، ولم يغمض لأحد جفن هذه الليلة، لأن الجميع كان يحفر ويبني على الأموال، وهناك من هرب أمواله عند الكوييم بفاس الجديد. وفي اليوم الموالي اجتمع كل الكوييم وبايعوا ابن الملك، وكان اسمه مولاي اليزيد، وكان فارا من أبيه المذكور أعلاه، وكان أبوه يروم قتله لأنه كان متمردا عليه. وحسبنا أننا والأرض مطمئنين، لأنه تم الكرز إن السلام استتب في البلاد.

ولم تمض أيام قليلة حتى سمعنا أن المولى يزيد خرج من الجبل وذهب إلى تطوان. وخرجت طوائف تطوان وبأيديها هدية يوم السبت المقدس. وأمر بقتل كل يهود مملكته. وأمر لمن أتى برأس يهودي بعشرة مثاقيل. وقالوا بسفك روح الطائفة. وألهم الله أحد قضاة المدينة إنحنى أمام «المسيء» وقال له: لن يكون فعلا حسنا حسب شريعتنا قتل كل اليهود. قال الملك: «إنني أخذت عهدا على نفسي مع قبيلة أمهاوش «عليها اللعنة» بأن أقتل كل اليهود حين أتولى الأمر. أجابه القاضي: ليست هذه بمشورة. اسلبهم أموالهم واتركهم كالموتى. وقال قولا طيبا. وأرسل كل القبائل التي كانت معه إلى تطوان . وسلبوا اليهود يوم السبت المقدس وكان اليهود مقيمين مطمئنين لا يعلمون ما سيحل بأموالهم. وأمرنا أن ننقل ثروتنا وأموال الكوييم التي كنا نقوم عليها مقامهم على ألف جمل. وبعد ذلك أرسل الملك الوداية الذين كانوا نازلين بمكناس لسلب ملاح مكناس. وهكذا فعلوا يوم 14 من شهر ايار. وأخبروا بأن المسيء صفح عنهم كي يرجع الفارون من الطائفة، ويخرجوا ثروتهم. واستجاب كثير منهم لهذا الأمر. واجتمع الرجال والنساء والأولاد يتضورون جوعا وعوزا. وتعرضوا للسلب في أزقة المدينة».

ونقل الربي يهودا بن عطار مايلي من تقييد الربي اليعازر بهلول (كتاب التواريخ ص 173):

«وفي شهر نيسان سنة 5550 لبدء الخليقة مات سيدي محمد، وملك بعده ابنه اليزيد «المدنس» (شخيق طَمِيْ). ويوم السبت الأعظم وصل هذا الخبر المريع المدينة. وكانت كلّ القلوب مغمومة. وفي أيام العيد وصلت رسائل من مدينة الرباط تعلن موت سيدي محمد بغتة. ولم يكن ابنه الطاغية بالمدينة. وبمجرد هلاك أبيه انتقل إلى تطوان ليحكمها، ونصب نفسه خلفا له. وقرر إبادة كل يهود تطوان، والعياذ بالله، كما فعل هامان بالضبط. وأرسل عبيده لاستباحة حي اليهود من الحبل إلى رباط الحذاء [سَيْرَ الحذاء]. ونهبوا كل ما تشتاق إليه النفس من مأكل. وكل ما أعددنا لعيد الفصح. أخذوا كل شيء، وأذلوا النساء واستحيوا العذارى، وأخضعوا الشبان الصلحاء. وكم هي النفوس التي قتلوا.

وكان زمن محنة ليهود تطوان ما عدله زمن قبله. ومن هناك سافر (الملك) إلى مدينة الرباط، وكان حظ يهود الرباط كيهود تطوان في اليوم الثاني من الفصح. وكذلك كان مصير يهود سلا.

ومن هناك أرسل رسالة إلى كل قواده وعبيده في كل عمل المغرب، قراه ومدنه بأن يسلبوا وينهبوا كل أموال اليهود وركْسَهُم [البيانات التي رُمَّت بعد الانهدام]. وكان نصيبهم كنصيب تطوان في السلب والنهب وإذلال النساء. وهلكت نفوس كثيرة. وملك بعده أخوه المولى سليمان في السابع عشر من شهر آدار سنة خمسين وخمسمائة وخمسة آلاف لبدء الخليقة. وكان قلب هذه الملك بيد الله، وجهه للصلاح والعطف على بني إسرائيل... وصنع معهم حسنات عظيمة. وفي نهاية شهر آدار ورد الربي السموأل دانينو من مدينة وزان على المولى سليمان واستقبله بكرم كبير».

«في شهر نيسان سنة 5550 مَلَكَ مُسِيءٌ مُتَكَبِّر، عدو اليهود كهامان الشرير اسمه اليزيد دُمِّراسمُه، ظلم إسرائيل في كل مدن المغرب، وقتل منهم أناسي كثيرة...»

ونقل عن مردخاي بيردوكو (كتاب التواريخ ص 175) مايلي:

«سنة خمسين وخمسمائة آلاف لبدء الخليقة هي سنة الذل

والخراب والأسر والنهب والسلب بعد موت سيدي محمد بن عبد الله، وفيها بحن أبناء إسرائيل الساكنون بأقاليم المغرب بمكناس وتطوان والقصر والعرائش وتازة. وخرج أبناء فاس وهجروا ملاحهم...»

وجاء في نص حبيب بن يوسف الطوليدانو [كتاب التواريخ ص 115]:

«واحسرتاه. مر بنا يوم مظلم، ماراى مثله آباؤنا ولا أباؤهم. يوم السبت يوم الرابع والعشرين من شهر نيسان عام خمسين وخمسمائة وخمسة آلاف لبدء الخليقة ورد على مكناس نبأ موت سيدي محمد بن عبد الله، وبسماع هذا أخذنا رعب وتضور...ووردت أخبار من مدينة تطوان تفيد بأن الملاح قد نهب وهلكت مئات الأنفس ومئات البهائم. ووردالخبر بسلب يهود تطوان والقصر، والعرائش، وأخرج يهود فاس من الملاح إلى قصبة زرارة...»

وأما مرثية داوود هارون بن حساين فقد نشرها الباحث D. Kaufman د. كوفمان في مجلة الدراسات اليهودية R.E.J عدد 37 سنة 1898 وعلق بما يلي:

"Jusqu' ici nous connaissions seulment par la relation de Samuel Romanelli les terribles cruautes exercés contre les juifs du Maroc. Mais les souvenirs des horreurs de cette époque s'est aussi conservé dans d'autres documents nefastes dans le calendrier de l'histoire juive, dans ces elégies qui ont rattaché aux chants de deuil consacré au 9. Ab... "

إن هذه المرثية هي رواية يهودية لأحداث الفتنة التي عمت بعض مدن المغرب إبان مبايعة السلطان مولاي يزيد. والشاعر في آخرها يعلن أن ما حدث ليس إلا عارضا، وأن السعادة ستعم الطائفة حين مجيء المسيح ابن داوود. يقول ابن حساين في مطلع قصيدته:

«إلى عُوبْرِي دِرِخْ إِقْرَاءَ(ه) مِيْ شِمَعَ كِزُوتْ مِيْ رَأى
إلْ عابري الطَرِيق أردد مَنْ سَمِعَ مثْل هذا مَنْ رأى.

وبخصوص فتنة تطوان يقول:

«يلْلَه إكَبِّرْ وُكِينُوتْ عَلْ تيْطوان شَرَ(ه) مْدِينوتْ
منًا(ه) هِتْخِيل فَرْعُوت فتهلّكْ إش أرتصا(ه)»
(نَواح أنْشِئُ ومراثِي عَلى تطوان أميرة المدن
منها دخل الفراعنة ومنها تأججت النار في الأقاليم)

وعند مقارنة النصوص العبرانية السالفة الذكر بما ورد في

مصادرنا العربية المغربية بخصوص أحداث تطوان على عهد السلطان مولاي اليزيد نسجل الملاحظات التالية:

1 ـ لقد كان وصول السلطان إلى تطوان يوم السبت الأعظم حسب المصادر العبرانية وهو أمر متعارض مع ما جاء عند السكيرج[5] والضعيف واللذان ذكرا أن وصول السلطان كان يوم الخميس وأنه صلى بالمسلمين الجمعة وسمى نفسه بمحمد المهدي.

2 ـ النصوص العبرانية تؤكد على أن السلب كان يوم السبت الأعظم بينما نجد السكيرج يورد أن النهب بدأ يوم الخميس وأن أهل تطوان استجاروا بدار الشيخ الصالح المجذوب سيدي عبد الله الحاج البقال مخافة اندلاع النهب إلى ناحية المسلمين[6].

3 ـ انطلاق السلب يتعارض مع الطمأنينة التي تحدث عنها المؤرخ اليهودي المغربي ويتعارض مع ما ذكره من انشغال اليهود في دفن ذخائرهم كما يتعارض مع ما ذكره من ملاقاة اليهود للسلطان عند مشارف باب النوادر حاملين لبعض الهدايا.

4 ـ الضعيف يذكر أن النهب طال الملاح ولم يتحدث عن قتل أكثر من يهودي سيق إلى السلطان ليقتص منه بسبب سبه لأحد الشرفاء، وهو أمر يتعارض مع ما جاء في بعض النصوص العبرانية من إبادة لكثير من اليهود[7].

5ـ نجد المصادر العبرانية تتفق مع بعض المصادر العربية المغربية (الضعيف مثلا) في ذكر حادث تعليق ثلاثة من اليهود بمكناس وقتل الحزان فخة أو بَكُه (الحسن بخهْ) والمصادر العبرانية تذكر أسماء هؤلاء: بنيامين بن سمحون، يعقوب بن سعدون ومردخاي الشريكي أو الحزان باكة أو Paco الذي ذكر رومنيلي Romanelli أنه كان مقربا إلى السلطان سيدي محمد بن عبد الله، وأن هذا الأخير كان يقول: «لو أقدمت على مجازات مردخاي لأعطيته كل بيت المال ولم أوفه حقَّه». وخصَّه ابن حساين بقصيدة مدح ذكر فيها أن كلام مرد خاي يَقِرُ في قلب

---

5 ـ انظر تاريخ تطوان، محمد داوود، المجلد الثالث ص 179.

6 ـ نفسه ص 180.

7 ـ تاريخ الدولة السعيدة، حين يتحدث عن مولاي اليزيد.

السلطان كالمسامير.

وتذكر المصادر كذلك أسماء إبراهيم بن زكري وموسى بن جميلة.

إن حملة الاغتيالات التي طالت بعض وجهاء اليهود على عهد السلطان مولاي اليزيد تدخل ضمن سياسته العامة الرامية إلى إصلاح أوضاع البلاد. إنه كان يريد الحد من سلطة هؤلاء الذين كانوا في أغلبهم تجارا للسلطان. وكانوا يشرفون على تجارة المغرب وعلاقته مع أوروبا. وتذكر النصوص العبرانية أن المولى يزيد أخذ مالهم وأموال الكوييم التي كانت في عهدتهم يقومون عليها. أما توجه السلطان إلى تطوان فقد كان من أجل الحصول على موارد مالية (وتتفق المصادر العربية على ذلك) تضمن اجتماع الكلمة عليه، خاصة في أوساط الجند، وتؤمن له تجهيز الجيش قصد محاصرة سبتة.

هكذا أكون قد وقفت بشيء من العجالة على نصوص عبرانية أرخت لأحداث تطوان بعد تولي السلطان المولى اليزيد. ولعل الناظر فيها يقف على جانب من الفتنة التي عمت في تلك الحقبة، وهي فتنة تم تمطيطها من طرف بعض المؤرخين الأجانب. غير أنه بقي لي أن أشير أنني وأنا أقرأ هذه النصوص العبرانية وجدتني أمام نَفَس يتردد في بُكا ئيات اليهود التي تخلد ذكرى التاسع من شهر آب ذكرى خراب الهيكل. إن الصبغة الأدبية لهذه الكتابات طاغية، وهي تحاكي تلك البكائيات. ومع ذلك فإنها تبقى مصدرا لا ينبغي الاستغناء عنه في قراءة جديدة لتاريخنا المغربي.

# الحركة الفنية بتطوان فيما بين 1727-1822

ذ. مالك بنونة

عندما نرصد النجوم في أفق الفن، أو نغوص في أعماق بحاره نجد الفترة المحددة من طرف «مجموعة البحث في التاريخ المغربي والاندلسي» - كلية الآداب/ جامعة عبد المالك السعدي - فترة لا يمكن التحدث عنها دون الرجوع إلى الوراء والبحث في الأغوار الفنية والأدبية أو ماكان يسمى بالآداب الرفيعة.

- سامحوني إن قلت (الآداب الرفيعة) لأني أحب هذا المصطلح العربي وأفضله عن المستورد وأقصد الفنون الجميلة (Beaux Arts) إذ هناك عدة أشياء جميلة في هذه الحياة ولكن لاتصل إلى مستوى مراتب الرقي فهي دون الرفيعة - أو بالأحرى - جميلة فقط - لذا أعتبر المصطلح العربي أوسع دائرة وأفقا من المصطلح المستورد. فالمصطلح العربي يشمل الموسيقى والآداب المختلفة. ومنه نلمس ذلك التجانس بين البحر الشعري والجملة الموسيقية وبين الإيقاع الخليلي والإيقاع الموسيقي في وحدة ينعدم معها النشاز، فتهذب النفوس بتهذيب الأذواق وتنمو بذلك الارواح إلى أسمى المراتب.

فرصد الكلام عن الحركة الفنية خلال هذه الفترة التاريخية - ببلدتنا ومسقط رأسنا - تطوان - أو كما نسميها (تطّاون) الحبيبة ليس بالامر الهين، لأننا في هذا المجال لا نجد أمامنا غير كناش الحايك أو نسخ مختصرات كناش الحايك التطواني الذي لا نعرف عن حياته غير ما خلفه لنا من تراث مجموع.

وقبل أن أنساب مع محتوى هذا الكناش، أطرح على نفسي قبل غيري سؤالا: ولماذا الحايك؟

الظاهر أن الرجل المعروف عند الخاصة والعامة باسم (محمد بن الحسين الحايك) كان من بيئة فنية ترعرع وشب فيه وأخذ معلومات هذا الفن أبا عن جد.

فجده الحسين بن أحمد الحايك الاندلسي التونسي التطواني كان عالما محققا ومؤلفا في علوم الموسيقى انتقل من

تونس إلى تطوان في فترة المولى إسماعيل بعدما خلف في تونس مؤلفه القيم (الارتقا إلى علوم الموسيقا) وتوفي هذا العالم الموسيقي - الحايك الجد - ودفن بتطوان - على حد قول الباحث حسني عبد الوهاب[1] (1130هـ - 1717م).

وتعرفنا على الحايك الجد ونشاطه الفني، وما خلفه في هذا المجال، يساعدنا على معرفة الأسباب التي دفعت المهتمين في مغربنا إلى إسناد مهمة جمع فقرات تراثنا الأدبي الفني إلى محمد الحايك أو الحايك الحفيد في عهد سيدي محمد بن عبد الله وبأمر نجله المولى عبد السلام.

قد يسأل سائل كيف استفيت هذه المعلومة ويقول لماذا لا يكون محمد نجلا للحسين؟ ذلك لفارق سنين بين الأول والثاني، ولأني وجدته عند بن سودة في (دليل مؤرخ المغرب) وفي نسخة زونتين مذكورا باسم محمد المالك بن الحسين الحايك. والاسم الصحيح فيما اعتقد: محمد (بن عبد) المالك بن الحسين بن أحمد الحايك الاندلسي التونسي التطواني.

فتطوان خلال الفترة عرفت الحايك الجد بعلمه وفنيته وعرفت على حافة الفترة الحايك الحفيد بجهوده الفنية ومجموعه الذي اشتهر به حتى اقترن اسم الحايك بالتراث الموسيقي الاندلسي المغربي، حتى غدا كناشه بمثابة قانون يفصل بين أهل الفن فإن اختلفوا في شيء رجعوا إليه أو إلى كناشه، أو كما قال : أبو اسحاق التادلي مؤلف كتاب (أغاني السيقا ومغاني الموسيقا) في مقدمة كتابه هذا.

فبالتأليف في هذا المجال الفني اهتم به الحايك الحفيد اهتمام الحايك الجد بالمتابعة والدراسة والتأليف، وجاء عمل الحفيد حصيلة ما اقتطفه من ثقافة جده العالم وثقافة (أساتيذ الغنا) كما قال.[2] وكان منهم العالم الأديب المفن محمد البوعصامي الوتدغيري صاحب مخطوطة (إيفاد الشموع أو نزهة الغواني)[3].

لكن عمل الحايك الحفيد لم يصلنا كاملا، وأقدم نسخة منه وقفنا عليها تلك النسخة الفريدة الموجودة بالخزانة الداودية

---

1 - الموسوعة المغربية /5:1 (نقلا عن ليڤي بروفنسال).

2 - ورقات الحضارة العربية بإفريقية التونسية ج/2: 261ـ 262

3 - مقدمة الحايك نسخة (1202) ورقة:5

بتطوان[4].

فالنسخة هذه كتبها الحايك أو جمع فقراتها امتثالا لأمر الأمير مولاي عبد السلام، فكان الفراغ منها في شهر رمضان عام (1202هـ= 5يونيو 1788م).

وبالمقارنة هذا الكناش (كناش الحايك) - ظهر للوجود في مغربنا أواخر أيام السلطان سيدي محمد بن عبد الله، وقبيل ظهور (سفينة الملك ونفيسة الفلك) لابن مبارك شاه الحجازي المصري، طبع (عام 1281 هـ=65/864..م) والمؤلف (أو السفينة) عند أهل المشرق ككناش الحايك عند أهل المغرب.

ومن خلال المقارنة بين نسخ كناش الحايك، نجد أن الكناش على نوعين كناش الخاصة، وكناش العامة.

فالأول أعد لأمير: قال الحايك الحفيد (...وقد أمر أيده الله بكناش يحتوي لما يستعمل من الطبوع على الصنائع والازجال والتوشيحات والاشغال، فامتثلنا أمره من غير ونى، وأخذنا لجمع هذا الكناش باعتنا، واعتمدنا على ماجمعه من قبلنا أساتيذ الغنا..) فقوله (... بكل اعتنا..) يبين أنه كان حريصا على مواكبة ذوق الأمير، سواء في تنظيم النوبات أولا بأول أو في اختيار وانتقاء نصوص الصنائع المستعملة في مصادر الغناء التي اعتمدها، حين قال (فانتخبنا من ذلك ما وضعناه هنا..)[5] فكان هذا المجموع لخاصة الخاصة ومختلفا عن الكناش الذي جمعه عام 1214هـ= (1800/1799) وهو الكناش الذي شاع بين أيدي المحترفين للغناء وبين مجموع الهواة لهذا الفن ومنه تتضح الفروق بين العمل الأول والثاني، ففي الأول نجد به نوبات مثل عراق العرب والحسين، والسيكة، ونجده في الثاني أدمج هذه

---

4 - مخطوطة بالخزانة الحسنية رقم 11333 ز- وما أثبته الحايك في الكناش (1202هـ) من تلحين الفنان محمد البوعصامي في بطايحي رمل الماية ورقة: 147 صنعة توشيح:

(دراهم النور وشت برود خضر النجود)

من شعر ابن زاكور:

انظر المنتخب من شعره - ص/88.

5 - نسخة شرفتني أكاديمية المملكة المغربية بتحقيقها، تحت إشراف لجنة التراث، عمل تم إنجازه في بداية يونيه 1993، وسيصدر قريبا إن شاء الله.

النوبات بما يوافقها من أنغام نظرا لضياع أغلب صنائعها فأصبحت صنائع نوبة عراق العرب ضمن نوبة الاستهلال، وصنائع نوبة الحسين ضمن صنائع نوبة رمل الماية، وصنائع السيكة موزعة في الغالب بين صنائع نوبة الماية ونوبة غريبة الحسين وذلك حفاظا منه على سا تبقى منها مع الاستدلال على أصل طبوعها إذ نجد في النسخ القديمة من الحايك بعد 1214 هـ طررا تذكر هذه الصنعة (من طبع الحسين مثلا وهي الأصل) أو (من عراق العرب) أو (من السيكة)...إلخ.

وكناش الحايك بعد 1214 مر بمراحل عدة فاختصر من جديد عدة مرات، فبعد مرور تسع وثمانين سنة، وبالذات في سنة 1303 أمر السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان بعقد جمع تحت إشراف وزيره محمد بن العربي الجامعي للنظر في هذا التراث نظرا للخلافات المستحكمة بين أرباب مهنة الطرب فتم وضع مختصر لمجموع الحايك وفي نفس الفترة نجد أبا إسحاق إبراهيم التادلي الرباطي يكرس مختصرا آخر لكناش الحايك ثم تأتي سنة 1325= 1907 فنجد الحاج عبد السلام الرقيوق الطنجي يكرس مختصرا آخر لهذا الكناش، وكلها تعرف بكناش الحايك أوبمختصرات كناش الحايك فيقال مختصر الجامعي أو مختصر الرقيوق... إلى غير ذلك.

وهذا يوحي أن ليس هناك الكناش الأصل الذي جمعه الحايك غير نسخة (1202هـ) وأن ما وصلنا من كنانيش كلها مختصرات للكناش الأصيل وحتى نخرج بكناش أصيل - أو شبيه به - علينا أن نراجع كل هذه المختصرات - وما أكثرها - ونجمع منها المؤتلف والمختلف من الامهات والمتشابه وندرجها كلها في مجموع واحد فهناك من الصنائع التي لا نجد لها إلا لحنا وإيقاعا واحدا وهناك المتعدد الالحان والايقاعات وهناك ما يعتقد أنه مختلف وهو في الواقع شيء واحد لحنا وإيقاعا ووزنا شعريا. كما أن هناك الصنائع الثابتة وأخرى متحركة اما داخل النوبة من ميزان لآخر أو من نوبة لأخرى والأمثلة كثيرة السبب فيها اختلاف أرباب الطرب فيما بينهم ومحاولة الواحد منهم ابراز بضاعة لا يتوفر عليها نده، وذلك بقصد التضليل فمن ذلك مثلا نجد أحدهم يستعمل صنعة:

(يا أهيل الحمى لقد         زاد شوقي إليكم)

في قائم ونصف الاستهلال، ويأتي آخر فيترك هذه الصنعة

ويستعمل بدلها صنعة:

(بعدكم زادني اشتياق وجفاكم ما يحتمل)

في نفس قائم ونصف الاستهلال ونحن إن رجعنا إلى ديوان الششتري نجد كلتا الصنعتين من شعره: الأولى تمثل الأول والثانية تمثل الدور الثاني من نفس المقطوعة؛ فالقياس الشعري واحد وعدد الأدوار اللحنية الموسيقية واحد، وإن كانت هناك من علة فنعلل بها ملتمسين الاعذار لهذا الشيخ أو ذاك فيمكن القول أنهما لم يغيرا شيئا ولم ينزاحا عن الاصيل بل كلاهما اختار النص حسبما يتطلبه الموقف أو الجلسة الفنية والله أعلم.

### *قيمة كناش الحايك*

برغم ما تقدم من الاختلافات البينة والمشار إليها عرضا وبصفة عامة يبقى كناش الحايك الحفيد التطواني - أحد المصادر التراثية الفنية المهمة، بما تضمنته من نماذج غنائية دنيوية وصوفية وهو في حد ذاته أشمل مجموع يجمع بين دفتيه أمثلة للغناء العربي الأصيل الذي لم يتأثر من قريب أو بعيد بالمدرسة العثمانية في الغناء كما وقع للطرب عند أهل المشرق. فالكناش - على علاته - حافظ لنا على نماذج من الغناء العربي على عهد مكة والمدينة وبغداد نماذج لا نجدها في غير كتاب الأغاني للفارابي وكناش الحايك في شكل صنائع من شعر حسان ابن ثابت أو ابن قنبر البصري أو أبي نواس وأبي تمام وابن الدميمة وابن الرومي، والمتنبي... إلخ

وفي تقييم هذا الكناش نجده محتويا على:

1- نماذج للمدرسة العربية القديمة.

2 - نماذج لمدرسة الغناء ببغداد.

3 - نماذج لمدرسة الغناء في الاندلس من شعر شعراء الاندلس على عهد الطوائف - مثل المعتمد، وابن عمار وابن رافع رأسه وابن زيدون وابن البين.

4 - نماذج لمدرسة الغناء بالأندلس من شعر وموشحات شعراء الاندلس والمغرب على عهد المرابطين واكب شعرهم النهضة الفنية التي أحدثها الامام ابن باجة، فكانت منهجية

ومسلك من جاء من بعده من الفنانين كما قال التيفاشي.[6]

5 ـ نماذج غنائية من شعر وموشحات وزجل شعراء العدوتين على عهد الموحدين.

6 ـ نماذج غنائية من العصر المريني لشعراء من الاندلس والمغرب وعلى رأسهم ابن الخطيب.

7 ـ نماذج غنائية من العصر السعدي التي تدخل كلها ضمن الاعمال الفنية المغربية.

8 ـ نماذج من بداية العصر العلوي إلى أيام السلطان المولى سليمان وكلها أعمال فنية مغربية والتي منها الصنائع الصوفية من شعر الحراق.

9 ـ صنائع لشعراء من الشرق جاء شعر على فترات والتي فيها صنائع لشعراء العصر الأيوبي = (الموحدّي بالمغرب) ومنهم الصفي الحلي الذي دخل شعره إلى المغرب وبالذات إلى فاس مع أبناء حيدرة العراقي وأبناء بني النفيس العراقي اللذين قال عنهم سليمان ابن الاحمر كانوا رواة لشعر وموشحات الصفي. وهي أيضا من الأعمال الفنية المغربية. فكناش الحايك استقطب العصور الغنائية المختلفة.

### *بين النوبة والنوبة*

معروف أن مصطلح النوبة يعني الدور الغنائي - أو ما يعرف اليوم بالوصلة الغنائية - ووجود الدور يقتضي وجود مجموعة من المغنين والعازفين.

فالنوبة على عهد مكة والمدينة فالمدرسة البغدادية فمدرسة الاندلس قبل أيام زرياب كانت لا تخرج عن الإنشاد فالصوت.

فالانشاد هو الذي عرفه ابن خلدون بالمساوفة وهي على نوعين صوتية وآلية والقصد منها لفت ذهن المغني والمتلقي إلى لحن معين في قرار معين، مع ضبطه بإيقاع ما.

أما الصوت فهو التغني بأشعار في لحن من الألحان مصحوبا بالآلات.

فلما ظهرت الوثبة الأدبية في الاندلس - وبعد زرياب - بظهور الموشح والزجل، أصبحت النوبة تتألف من انشاد وصوت

---

6 ـ مقدمة الحايك نسخة (1202هـ) ورقة: 5

وتوشيح وزجل حسب قول التيفاشي[7].

وتوالت القرون وأصبحت هناك معارضات للموشحات وللزجل فأصبحت النوبة بذلك تمثل كشكولا من صنائع العصور المختلفة، ونحن أمام ما بينه التيفاشي نرى أن كل نوبة في كناش الحايك تمثل عدة نوبات ضمن النوبة الواحدة بل ضمن الميزان الواحد من نوبة ما.

وليس هذا من عيوب الكناش فلكل زمان دولة ورجال مع كل فترة يولد شاعر أو فنان موسيقي. أو عازف ماهر ينسي أهل زمانه من سبقه.

فمن الواجب أن نفرق بين صنائع هذه الفترة أو تلك حتى نعرض ما استوردناه من هذا التراث من المشرق ومن عدوة الأندلس وما قدم أجدادنا المغاربة من أعمال فنية لها قيمتها الفنية.

ثم إن هذا الكناش ـ كناش الحايك الحفيد ـ يشتمل على غناء المدرستين الدنيوية والصوفية، وكثيرا ما تعتبر صنعة دنيوية ضاعت من الغناء أو العكس والحقيقة أنها لازالت مستعملة عند هؤلاء أو أولائك ولا نحتاج إلا إلى البحث عن مقابل للصنعة الضائعة فإن كانت من الغناء الدنيوي سنجد لها ما يقابلها في الغناء الصوفي أو اليهودي أو إن كانت صوفية سنجد لها ما يقابلها في الغناء الدنيوي... إلخ.

بل هناك طبوع الحان اندثرت بين أرباب الصنعة نجدها لازالت مستعملة بالزوايا وبين الطرقيين ومن ذلك انقلاب السيكة الذي لا يشير إليه الحايك ونجده إلي اليوم بالزوايا والتي منها الزاوية الحراقية.

ولم يكن الحايك الجد والحفيد وحدهما في هذا المجال الفني بتطوان بل نجد اعلاما آخرين عايشوا هذه المرحلة التاريخية فكان منهم على سبيل المثال:

ـ المهدي بن الطاهر الفاسي (ت/1178هـ= 65/1764...م)[8] (وكان فقيها عالما جامعا لأشتات العلوم) حتى علم الموسيقي ـ كما

---

7 ـ في كتاب (متعة الاسماع في علم السماع) مقالة الطرائف والالحان الموسيقية... للاستاذ محمد بن تاويت الطنجي ـ مجلة الابحاث م/21 ص/93.

8 ـ نفسه ص/144.

كان عارفا بإنشاد الاربعة والعشرين طبعا وكانت له معرفة بالعزف على العود والرباب تلقى معارفه الفنية عن الفقيه الاديب الشبلي المكناسي.)[9]

- الحاج أحمد العسراوي التطواني وكان عازفا على العود[10].

- عبد الكريم بن عبد السلام بن زاكور - عامل تطوان إلى عام 1179 (=66/1765م) وكان ماهرا في الموسيقى حافظا لاشعارها ونغماتها وكان إليه يرجع للفصل في شؤونها[11].

- ونحن نتكلم على الفترة (1727ـ 1822) وأعلامها في مجال الفن لا يمكن أن نغفل دور القطب العلامة امام الصوفية في عصره سيدي محمد بن محمد الحراق الحسني (ت/ 1261هـ = 1845م) صاحب الزاوية الدرقاوية بتطوان.

ولن يكون كلامي على هذا القطب إلا فيما يهم الجانب الفني والنشاط الفني الذي خلفه خلال الفترة والذي لا زال منه صنائع من شعره وموشحاته وأزجاله وبراويله.[12]

وفي إحصائية عامة لما خلفه لنا هذا القطب من تراث فني من الصنائع المثبتة من مطبوعات كناش الحايك عند بنمنصور وابن خلدون والرايس نجد تلك الصنائع تصل إلى 29 نصا مختلف الصنف، وأنها كلها وردت عندهم في أغلب الالحان المستعملة بالموسيقى الاندلسية باستثناء نغم رمل الماية والعشاق. كما أن ألحان صنائع القطب الحراق لم تخرج من ميزان ضبطها عن ميزاني الدرج والقدام، ولعل ذلك راجع للميازين المستعملة في الحلبة أثناء التخمير مما يجعل المريدين ينسابون مع ذبذبات الصوت الجماعي أو المنفرد المضبوط بإيقاعية الدرج أو القدام، وحتى نلمس هذه الحقيقة إما أن نكون من مريدي الزاوية فنشعر بذلك ونعايشه ونتمتع به روحيا. ومع ذلك يمكننا أن نأخذ فكرة موسعة عن الصنائع من شعر

---

9 - تاريخ الموسيقى الاندلسية بالمغرب ذ. محمد المنوني
مجلة البحث العلمي عدد: 14ـ 15ص: 161 (نقلا عن تاريخ السكيرج ج/3: 84ـ66).

10 - نفسه ص: 160.

11 - ترجمته بتاريخ تطوان م2ـ 256 - 262.

12 - ديوان الحراق - الصفحات المذكورة في الكشف.

وتوشيح وبراويل - القطب سيدي محمد الحراق المستعملة بالأنغام الموسيقية الاندلسية المغربية خلال الفترة وهي أيضا تدخل في نطاق العمل الفني المغربي.

## كشف عام لصنائع الحراق المستعملة بالأنغام والإيقاعات الاندلسية

# كشف عام بصنائع القطب الحراق

1 -في ميزان الدرج

| عدد | ص. الديوان | المطلع | القافية | البحر | الصنف | إحالات |
|---|---|---|---|---|---|---|
| | | -نغم الاصبهان: | | | | |
| 1 | 26 | نحن في مذهب الغرام أذلّه | أدلّه | خفيف | شعر | بنمنصور:119 |
| 2 | 38 | يسعد من أضحى يخلع فيه عذاره | الدّارُ | - | برواله | بنمنصور:114 |
| | | -نغم الماية: | | | | |
| 3 | 27 | إلزم الصبر إن تعشق حسنا | بيْنا | خفيف | شعر تخميس | بنمنصور:386 |
| 4 | 35 | يا نور العين طرّا | المراد | مخلع البسيط | توشيح | بنمنصور:384 |
| | | -نغم رصد الذيل: | | | | |
| 5 | 13 | شمس متى سطعت في عقل شاربا | أسماء | بسيط | شعر | بنمنصور:216 |
| 6 | 38 | صافي الحبيب تظفر ببديع أنواره | إيماره | | برواله | بنمنصور:107 وابن جلون:114 |

| عدد | ص. الديوان | المطلع | القافية | البحر | الصنف | إحالات |
|---|---|---|---|---|---|---|
| | | - نغم الاستهلال: | | | | |
| 7 | 22 | ظنّ الصديق سلو قلبي عنكمُ | يتصوّر | كامل | شعر | بنمنصور:303 |
| 8 | 43 | كلّي في وجودك | رضاك | | بريولة | بنمنصور:307 |
| | | - نغم الرصد: | | | | |
| 9 | 33 | قبل خمر الدنان | العصر | متدارك | شعر | بنمنصور:187 |
| 10 | 43 | كأي في وجودك | رضاك | | بريولة | بنمنصور: 188 |
| 11 | 38 | نلق ما انويت | رإيت | | زجل موشح | بنمنصور:187 |
| 12 | 19 | بح بالغرام وبثه ترتاح | جناح | كامل | شعر | ابن جلون:174<br>الرايس:119 |
| | | - غريبة الحسين: | | | | |
| 13 | 15 | إن طار عقلي الذي شم زياك | رؤياك | بسيط | شعر | بنمنصور:143 |
| 14 | 14 | تبحر الحب في معناك فانحبست | جيحون | بسيط | شعر | بنمنصور:143 |
| 15 | 5 | تلالا منها كل شيء فما رأى | وجهتي | طويل | شعر | بنمنصور:149 |

| عدد | ص. الديوان | المطلع | القافية | البحر | الصنف | إحالات |
|---|---|---|---|---|---|---|
| 16 | 39 | تشرق في القلوب شموس وأقمار | ابشاره | | برواله | بنمنصور:142 |
| 17 | 14 | شمس متى سطعت في عقد شاربها | أسماء | بسيط | شعر | بنمنصور:149 |
| 18 | 14 | ما ضيع الحزم من أضحى بها ثملا | أنواء | بسيط | | |
| | | **-الحجاز الكبير:** | | | | |
| 19 | 14 | ما للعزول غذا باللوم يؤديني | ديني | بسيط | شعر | بنمنصور:346 |
| 20 | 35 | يا نور العين طرا | المراد | مخلع البسيط | توشيح | بنمنصور:350 |
| 21 | 39 | جن الليل عليا | اكواكبه | | برواله | بنمنصور:345 |
| | | **-الحجاز المشرقي** | | | | |
| 22 | 26 | أكثر العاذلون فيك ملامي | غرامي | خفيف | شعر | بنمنصور:248 |
| | | **-عراق العجم** | | | | |
| 23 | 39 | جن الليل عليا | كواكبه | | برواله | بنمنصور:267 |

| عدد | ص. الديوان | المطلع | القافية | البحر | الصنف | إحالات |
|---|---|---|---|---|---|---|
| 24 | 26 | ليس للغير إن ظهرت وجود | فريد | خفيف | شعر | بنمنصور:271 |
| 25 | 38 | يسعد من أضحى يخلع في عذاره | الدار | | برواله | بنمنصور:266 |

2 ـ في ميزان القدام

| | | | | | | |
|---|---|---|---|---|---|---|
| 1 | 16 | ـ الاصبهان:<br>ياليت شعري هل لوصلها سبب | المهج | بسيط | شعر | بنمنصور:109 |
| 2 | 41 | ـ الماية:<br>نار حبك في القلب أكدات | احوالي | | برواله | بنمنصور:369 |

| عدد | ص. الديوان | المطلع | القافية | البحر | الصنف | إحالات |
| --- | --- | --- | --- | --- | --- | --- |
| | | ـ<u>رصد الذيل:</u> | | | | |
| 3 | 17 | أهديت روحي لمن أهواه خالصة | يجزيها | بسيط | شعر | بنمنصور:211 |
| 4 | 40 | جاد الزمان.. | امنال | | بروالة | ابن جلون: 117<br>الرايس: 135 |
| 5 | 39 | جن الليل عليا | اكواكبه | | برواله | بنمنصور:210<br>ابن جلون: 119 |
| | | ـ<u>الاستهلال:</u> | | | | |
| 6 | 13 | أتت في الدجى كي لا يراها رقيبها | حبيبها | طويل | شعر | بنمنصور:297 |
| 7 | 15 | إن طار عقل الذي شم ريّاك | رؤياك | بسيط | شعر | بنمنصور:292 |
| 8 | 14 | تبحر الحب في معناي.. | جيحون | بسيط | شعر | بنمنصور:298 |
| 9 | 43 | جاد عليا برضاه | امنال | | برواله | بنمنصور:297 |
| 10 | 16 | كم تيمتنى بورد الخد والبلج | الغنج | بسيط | شعر | بنمنصور:299 |
| 11 | 42 | ما يلي من غرامك جهات | خالي | | برواله | بنمنصور:292 |

| عدد | ص. الديوان | المطلع | القافية | البحر | الصنف | إحالات |
|---|---|---|---|---|---|---|
| 12 | 41 | نار حبك في القلب اكدات | احوالي | | بروالة | بنمنصور:292 |
| | | **- الرصد:** | | | | |
| 13 | 39 | جن الليل عليا | اكواكبه | | برواله | بنمنصور:171<br>ابن جلون: 158 |
| 14 | 42 | زارني حبيبي بعدما اجفا | كربي | | زجل موشح | بنمنصور:171 |
| 15 | 38 | صافي الحبيب تظفر ببديع أنواره | ايماره | | برواله | بنمنصور:172 |
| 16 | 43 | كلي ف وجودك | رضاك | | برواله | بنمنصور:173 |
| 17 | 43 | جاد عليا برضاك | | | زجل موشح | بنمنصور:172<br>ابن جلون: 184<br>الرايس:204 |

| عدد | ص. الديوان | المطلع | القافية | البحر | الصنف | إحالات |
|---|---|---|---|---|---|---|
| | | **ـ الحجاز الكبير:** | | | | |
| 18 | 26 | أكثر العاذلون فيك ملامي | غرامي | خفيف | شعر | بنمنصور:338 |
| 19 | 16 | كم تيمتني بورد الخد والبلج | الغبج | بسيط | شعر | بنمنصور:333 |
| 20 | 42 | ما يلي ف اغرامك جهات | خالي | | برواله | ابن جلون:240 |
| 21 | 41 | نار حبك في القلب اكدات | احوالي | | بروالـه | بنمنصور:234 |
| | | **ـ الحجاز المشرقي:** | | | | |
| 22 | 43 | جاد الزمان واستبشر القلب | امثال | | بروالـه | بنمنصور:240 |
| 23 | 43 | جاد عليا برضاه | بالوصال | | زجل موشح | ابن جلون: 285 |
| 24 | 39 | جن الليل عليا | كواكبه | | بروالـه | بنمنصور:239<br>ابن جلون:285<br>الرايس:300 |
| 25 | 42 | زارني حبيبي بعد ما اجفا | كربي | | زجل موشح | بنمنصور:239<br>ابن جلون: 284 |

فمن هذا الكشف نرى أن التسع والعشرين صنعة، من شعر وتوشيح وزجل القطب الحراق المستعملة في غنائنا التراثي، تغنى بها المغاربة في عدة ألحان، وأن من هذه الصنائع ما استعمل بلحن واحد وإيقاع واحد ومنها ماله أكثر من لحن، ومستعملا في الايقاعين (الدرج والقدام). فهي حسب ألحانها تصل إلى 50 صنعة لحنية منها 25 بإيقاع الدرج ومثلها بإيقاع القدام.

ومما تجدر الاشارة إليه أن المتطلع سيلاحظ من خلال الكشف المدرج استعمال ميزان الدرج، وهو ميزان لا نقف عليه بالنسخ القديمة من كناش الحايك، كما سيلاحظ أن من بين الاصناف الشعرية صنف عرف بالبروال، أو بروالة.

هذا المصطلح، مصطلح موسيقي إيقاعي لا علاقة له بالأصناف الشعرية إلا من حيث أنها شعر على لغة العامة داخل في إطار الزجل؛ فالبروال من الناحية الموسيقية تلك الصنائع ذات الالحان البسيطة - أو الغير معقدة - والتي تعتمد على الغناء - الأداء - والجواب الموسيقي، دون شغل - أي طيري طان يا لالان - وما يعرف بين أهل الصنعة بالطراطين.

والطراطين في غنائنا سواء عند أهل المغرب أو أهل المشرق مشتقات في الموسيقى من الأصول العروضية، من (تن، تن، تنن...إلخ) أي الأسباب والاوتاد والفواصل من قولنا (لم أر على رأس جبل سمكة) فكما تعتمد عند الشعراء في إيقاعية شعرهم كذلك تعتمد عند أهل الطرب في التلحين وبها يكتمل الغناء عند أداء صنعة تعرف بصنعة شغل حتى تكون مجموع أدوار الايقاع اللحني واحدة شعرا وموسيقى.

فالبروال لا يحتاج إلى الطراطين وهو في جهة أخرى لا يستعمل في ميزان البسيط القائم ونصف والبطايحي ولا نجده إلا في ميزاني الدرج والقدام.

ولا يخفى أن جميع الصنائع المقدمة في الكشف كلها تدخل في إطار الغناء الصوفي - وأنها كما سبق القول من الاعمال الفنية المغربية حسب المنهجية الاندلسية في الطرب.

هكذا واكبت تطوان هذه الفترة المحددة بحركتها الفنية إن على مستوى التأليف أو على مستوى الانتاج الفني، وربما كان هناك من أهاليها أعلام آخرون كان لهم دورهم في هذا المجال لم يصل إلينا خبرهم حتى نعرف بهم.

ولا يعني في نهاية هذا العرض إلا أن أقدم وأقدم جزيل الشكر والامتنان للأخوة الدكاترة والأساتذة أعضاء «مجموعة البحث في التاريخ المغربي الأندلسي» في شخص المشرف عليها الشاب الناهض الدكتور سيدي امحمد بن عبود. لإتاحتهم هذه الفرصة الفريدة، فرصة التحدث إليكم عن النشاطات الفنية لمدينة تطوان فيما بين سنة 1727ـ 1822م

سدد الله خطاكم وأعانكم على النهوض بهذه البلدة

تطوان 14أكتوبر 1993
كرمة شيخ الجيل
مالك بنونة

## المصادر والمراجع

*أ - المخطوطات:*

1- إيقاد الشموع للذة المسموع بنغمات الطبوع
محمد البوعصامي مخطوطة رقم
11333ز - الخزانة الحسنية - الرباط.

2 - الحايك - مخطوط (1202هـ) بالخزانة الداودية
تطوان (نسخة مصورة - خزانة
أكاديميةالمملكة المغربية. رقم 144)

3 - الحايك - مخطوطة بمكتبة جامعة ليدن بهولندة
(فيها ميكوفيلم بخزانتي هدية من
الدكتور كونينكز فيلد)

ب - في حكم *المخطوط*

4 - كناش الحايك
مجموع الحاج عبدالسلام الرقيوق
الطنجي(1325هـ= 1907م) طبعة
مصورة - شركة النشر والطباعة - الدار
البيضاء - 1981

*ج - المراجع*

5 - تاريخ تطوان
محمد داود م/2 ط/ 1- 1965
ط/ معهد مولاي الحسن.

6 - التراث العربي المغربي الموسيقي (الحايك)
جمع../ الحاج إدريس بن جلون
ط/ النجاح الدار البيضاء - 1981.

7 - ديوان الحراق
مطبعة النجاح - الدار البيضاء
(بدون تاريخ)

8 - مجموع أزجال وتواشيح... (الحايك)
جمع وإعداد / ذ. عبد اللطيف
بنمنصور
ط/ فضالة /الرباط س 1977.

9 ـ المنتخب من شعر ابن زاكور
تحقيق / ذ. عبد الله كنون
ط/ المعارف ـ مصر 1966
10 ـ من وحي الرباب (الحايك)
الحاج عبد الكريم الرايس
ط/ النجاح الجديدة الدار البيضاء
.1982
11 ـ الموسوعة المغربية
عبد العزيز بنعبد الله ج/1 مطبوعات
وزارة الأوقاف ـ فضالة/
1395هـ=1975م.

د ـ المجلات

12 ـ مجلة الابحاث عدد /21
الجامعة الامريكية ـ بيروت ـ
ديسمبر / 1968.
13 ـ مجلة البحث العلمي
جامعة محمد الخامس ـ عدد / 14 ـ 15
ديسمبر 1969 ـ الرباط.

# مع الشيخ ابن عجيبة التطواني في سيرته الذاتية[1]

## 1227-1160

د. عبد السلام شقور
كلية الآداب بتطوان

يذهب أحد الباحثين[2] إلى أن فن السيرة الذاتية في الأدب العربي نشأ انطلاقا من التراجم، وهذه، أعني التراجم، ظهرت أول ما ظهرت في بيئة المحدثين والمعنيين بالسنة والصحابة والتابعين وغيرهم ممن روي عنهم الحديث، أو أسند إليهم أثر من الآثار، ثم ظهرت العناية بالتراجم عند الأدباء واللغويين والمتصوفة والمؤرخين وغيرهم، وما أكثر ما اقتبسه المقتبسون من علوم الحديث.

ولا يعنينا هنا صحة أو عدم صحة هذا الرأي القائل بانبثاق أدب السيرة الذاتية عن التراجم بقدر ما تهمنا الإشارة هنا إلى أن ضربا من ضروب السير، وهو الفهرسة يأخذ بقدر غير يسير من التراجم، والفهرسة سيرة قد تكون ذاتية وقد لاتكون كذلك، تعنى بجانب محدد من حياة الفرد، فهي تقوم أساسا على تسجيل ما يمس الحياة العلمية[3].

وإذا صح ما أذهب إليه من زعم بكون الفهرسة شكلا من أشكال السيرة أو صورة منبثقة عنها فسيكون فن السيرة من أقدم فنون الأدب العربي.

والمتتبع لما ترك العرب في أدب السيرة، وهو قدر كبير، يجد أنه بالإمكان تصنيف ما انتهى إلينا في الموضوع بحسب ما يلي:

- السيرة الباطنية، وفيها يسجل الكاتب جانبا خفيا في

---

1 - علمنا أن «فهرست الشيخ ابن عجيبة» قد تم طبعها، إلا أننا لم نطلع على النص المطبوع، واكتفينا بنسخة نقلت عن أصل أخذ عن النسخة الأم بخط مؤلفها، رحمه الله.

2 - فن السيرة، إحسان عباس.

3 - ينظر في الموضوع: فهارس علماء المغرب للصديق: د: عبد الله الترغي.

حياته قد لا يراه غيره، مما لا صلة له بجوارحه أو مما ليس له إلا صلة ضعيفة بجوارحه، ومن هذا الصنف كتاب الغزالي: «المنقذ من الضلال»، فهذا الكتاب يرسم فترة من فترات الغزالي العقلية، وهي تلك الفترة التي تسلط فيها الشك على نفسه، ولم يتمكن من الوصول إلى شاطئ بحر الشكوك الذي كان يخوضه إلا بعد معاناة كاد أن يفقد فيها نفسه، وهذا الضرب غير شائع في أدبنا العربي، ومنه كذلك ما يكتبه الصوفية عن حياتهم الباطنية في مقابل الحياة الطينية، حيث يسجلون معاناتهم ومواجيدهم وتدرجها في مراقي الصوفية، وذلك شان صنيع ابن العربي الحاتمي.

- ومن اضرب السيرة الذاتية في أدبنا العربي ذلك الضرب الذي يقف فيه أصحابه على تسجيل حياتهم ، ومنه «التعريف بابن خلدون، ورحلته شرقا وغربا» وهذا الضرب كثير جدا في أدبنا إلا أن ما لدينا منه لا يسير على شكل واحد.

- والضرب الأخير من السّير الذاتية ما اشتهر بالفهرسة أو البرنامج أو المشيخة[4].

والفهرسة، كما سبق القول سيرة يقف فيها كاتبها على جانب واحد من حياة المترجم به، وهذا ابن خلدون جعل الحديث عن بعض شيوخه جزءا من سيرته العامة، إلا أن أصحاب الفهارس عادة ما يكتفون في فهارسهم بذكر شيوخهم ومروياتهم، ولا يتجاوزون ذلك إلى غيره، إلا أن يكون ذلك على وجه الاستطراد.

وإذا كانت تلك هي أضرب السيرة في أدبنا العربي، فأين يمكن أن نضع عمل ابن عجيبة، موضوع هذا البحث، هل ندرجه ضمن الفهارس؟ أم نعده من بين السير الباطنية؟ أم هو ليس من هذا ولا ذاك وإنما هو من قبيل السير العامة التي قد تجمع فيها الأضرب كلها؟

عند الرجوع إلى سيرة أو فهرسة ابن عجيبة نجده يسمي عمله فهرسة، صرح بذلك غير ما مرة، فمن ذلك قوله بعد كلام: «ثم نرجع إلى ما كنا بصدده في الفهرسة»[5].

---

4 - في تحديد هذه المصطلحات ينظر المرجع السابق.

5 - الفهرسة: 25، وهي عند الرهوني «فهرست أيضا» وقد لخصها في

وقوله بعد ذلك بعبارة مشابهة: «ثم نرجع إلى ما كنا بصدده من الفهرسة»[6].

تكرر منه هذا الكلام مرة ثالثة، وعليه فإن ابن عجيبة كان بعمله هذا يقصد انجاز فهرسة، وبالرجوع إلى مادة هذه الفهرسة، (ولنسمها مؤقتا فهرسة) نجد أن المواد التي تتضمنها تخرج بها عما عهدناه في فهارس الشيوخ، ذلك أن الرجل، وكما سنرى، بسط الكلام في حياته، من ظهور بيته إلى ما انتهى إليه أمره على سبيل التدرج، حتى إن المواد الفهرسية في عمله هذا تبدو ظلالا -ليس غير- لحياته الطينية والباطنية، وعلى أي حال فقبل الحسم في الموضوع يحسن أن نسوق عيارة من كلام ابن عجيبة وردت في مقدمة فهرسته، قال ابن عجيبة محددا دوافع عمله، وأبعاده وجوانبه:

«وها أنا أذكر بعض ما من الله به علينا، وما يتعلق بأسلافنا، وما يصلح ذكره، من أول نشأتنا إلي أوان زماننا، وكيفية أخذنا للعمل الظاهر والباطن وذكر أشياخنا في العلمين وإجازتهم لنا، وما شهدناه من الكرامات والتأييدات، ومن أخذ عنا طريق التربية، من الفقراء السادات...»[7]

ويتبين من هذه الفقرة أن عمل الصوفي ابن عجيبة رحمه الله، يقوم على العناصر الآتية:

- ترجمته.
- مشيخته.

ويتضمن ذلك كله عرضا لحياته الظاهرة وحياته الباطنة، وفي هذا جميعه ما يخرج بالعمل عن حدود الفهرسة بالمعنى الاصطلاحي المعروف، ويفهم من كلام لابن عجيبة أنه يقتفي في عمله أثر الشيخ علي الجمل، شيخ شيوخه، والشيخ زروق، والشيخ الشعراني، - ولاشك أنه يعني الشعراني عبد الوهاب، من أعلام رجال التصوف - واليوسي، قال ابن عجيبة في هذا الباب:

«وقد فعل هذا، غير واحد من المتقدمين والمتأخرين كالشيخ

---

كتابه: عمرة الراوين.

6 - الفهرسة: 27.

7 - الفهرسة: 1.

مولاي العربي، رضي الله عنه، جمع كرامته، ورسائله بيده، وكذلك الشيخ زروق رضي الله عنه، والشيخ الشعراني، واليوسي، وغيرهم ذكروا ما منحهم مولاهم من سابق العناية، وما مر عليهم من الجلال والجمال بداية، نفعنا الله بذكرهم»[8].

ويتضح من هذا النص أن ابن عجيبة لم يحذ حذو العلماء الذين كانوا يرومون بعملهم تيسير الأمر على طلابهم لوصل أسانيدهم بأسانيد شيخهم، ومن المعروف أن تحرير الفهارس إنما كان يتم بطلب من الطلبة لوصل أسانيدهم، وفي عمل ابن عجيبة مخالفة، إذن ، لعمل الشيوخ في فهارسهم، ويظهر من الأعلام الذين ورد ذكرهم في النص ممن اقتدى بهم الشيخ في فهرسته أن ابن عجيبة إنما سار على هدي رجال التصوف، وهؤلاء كانوا شيوخ التربية، وباستثناء اليوسي، فإن الصفة الغالبة على المذكورين هي صفة التصوف، وكلهم كانوا شيوخ التربية، ممن يجتمع حولهم المريدون لا لأخذ العلم الظاهر، وإنما للاغتراف من معين الشيخ، وذلك لا يكون إلا بالسير على هدي الشيخ، والاقتداء به في حركاته وسكناته فعمله، فهرسة كتبت للمريدين لتكون وسيلة من وسائل تربيتهم، ويؤكد ما ذهبنا إليه إضافة إلى كل ما سبق، حرص ابن عجيبة على إيراد نصوص شعرية كثيرة له مما تصلح للأذكار في حلقات الذكر، أي مما تفيد في تربية المريد.

لقد حرر الشيخ ابن عجيبة فهرسته في المرحلة الثانية من حياته، أي بعد الانتقال إلى الباطن، فجاءت مطابقة مع تلك المرحلة.

تتوزع مواد الفهرسة ثلاثة محاور:

- سيرة الشيخ منذ نشأته وإلى التاريخ الذي حرر فيه فهرسته، مع العلم أن تحرير الفهرسة، لم يتم في وقت واحد.
- حياة الشيخ الباطنية في رحاب التصوف.
- فهرسة شيوخه.

1 - *سيرة الشيخ*: استهل الشيخ حديثه بذكر أسلافه و ما يتعلق بنسبه، فأما سلفه فهو: أحمد بن محمد بن المهدي، بن الحسين بن محمد بن عجيبة الحجوجي، ويتصل نسبه بالولي

8 - الفهرسة: 1.

سيدي الحجوجي، وسبب جريان هذه النسبة عليه فيما ذكر الشيخ ابن عجيبة، أن الولي سيدي الحسين كان كثير الحج، حتى أنه كان غاب مرة، ولما رجع أحضر معه رغيفين طريين من رغيف مكة، كان هذا الشيخ يتعبد بأكْلا، ويذهب الشيخ، إلى بيته، ومنها خرج «شرقية» إثر احتلال سبتة.

ولا يعتمد ابن عجيبة في حديثه عن أسلافه مصدرا كتابيا واحدا.

وينتقل الشيخ بعد ذلك إلى الحديث عن نشأته، والمتتبع لخطوطها العريضة يجد أنها قيست على حياة غالبية أهل التصوف، فمن العناصر التي توجد فيها كما توجد في غيرها من حيوات المتصوفة: رعي الغنم، وما من نبي قال الشيخ إلا رعى الغنم ، وأضيف: أغلب أولياء المغرب يرد في ترجمتهم أنهم رعوها، وفي رعي الغنم حكم قال عنها الشيخ:

«وفي الحديث ما من نبي إلا وقد رعى الغنم، وحكمتها تعليم السياسة، واكتساب الرحمة والشفقة[9].

ومن مظاهر التشابه كذلك كثرة الحفظ، وصفاء الذهن، والتعرض للشدائد، وحدوث الخوارق في الصبا...إلخ

ويستعرض ابن عجيبة مراحل تعليمه، وسنفردها بالحديث عن الكلام عن المواد الفهرسية في الرحلة، ويمكن القول إنها لا تختلف في شيء عما هو معهود عند المغاربة في ذلك الوقت، وإلى حدود النصف الأول من هذا القرن: حفظ القرآن وإتقان رسمه، والأخذ بشيء من قراآته، ويتم كل هذا في نفس المدشر الذي يقيم به بيت الطالب، ثم يلي ذلك حفظ المتون وشرحها. وغالبا ما يذهب الطالب إلى المدن القريبة مثل تطوان، وفاس والقصر الكبير، ولعل أهم ما ورد في حديث الشيخ عن هذا الجانب تسميته لعدد من شيوخه، إلى جانب إيراده اصطلاحات حضارية هي في طريق الزوال، إن لم تكن قد زالت بالفعل، مثل «الشرط» «توزة»، وفي هذه الفترة نجد الشيخ يخرج من بلده، ويقصد القصر الكبير، ثم ينتقل بعدها إلى فاس، وبذلك تنتهي مرحلة الطلب في حياته، ويهيء الشيخ نفسه للانتقال (إلى العمل والتجرد للعبادة) قال الشيخ في ذلك: «ولما حصلنا بفضل

---

9 ـ الفهرسة: 11.

الله ما قسم الله لنا من العلم الظاهر، انتقلنا إلى التهيؤ للعلم الباطن»[10]

وقد تم هذا التحول الهائل في حياة الشيخ على يد الشيخين مولاي العربي الدرقاوي، ومحمد البوزيدي وبفضلهما، وتتميز هذه الفترة من حياته بإقدام الشيخ على التنازل عن كل ما كان يملك، وبالاستسلام التام لشيخه البوزيدي، حتى إنه باع كتبه كي يبني له دارا، وتحمل من المشاق ما لا يقدر على تحمله إلا الأفذاذ من الناس، فقد لبس المرقعة وخلع ثيابه، ونظف الأسواق من الأزبال، وكان يحمل الزبل على ظهره، وحمل قرب الماء على ظهره، وجلس للسؤال، وهو في كل ذلك يبغي إماتة نفسه، وكان ثمار ذلك انتشار خبره، وإقبال المريدين عليه، فصار من أعمدة الزاوية الدرقاوية في أنجرة ونواحيها، ينافس في ذلك زاوية الريسونيين والوزانيين، وانتهى المطاف به في زحمة الدسائس التي كانت تحاك له من قبل الزاويتين المذكورتين إلى السجن.

وبخروج ابن عجيبة من السجن يكون قد دخل عالم التصوف من بابه الواسع، إذ كثر إقبال المريدين عليه.

ولم ينس الشيخ أن يذكر في سيرته ما تزوج من النساء، وما أنجب من الأولاد، ومجموع ما كان أنجب من الأولاد حتى عام 1224 واحد وثلاثون، والأحياء منهم في التاريخ المذكور تسعة، ولعله قد بان لنا من عرضنا لمواد سيرة الشيخ من فهرسته أن الفهرسة خرجت عن حدود الفهارس المعروفة لتقترب كثيرا من السيرة الذاتية.

2 ـ *حياة الشيخ الباطنية أو سيرته الباطنية*: وهي جزء من سيرته العامة، وقد وقع الكلام فيها على الفترة الثانية من حياة الشيخ، وذلك تحت عناوين دالة، هي: «ذكر ما ارتكبناه في سيرنا من الأحوال، وما لقينا من الأهوال في طريق الوصال، ذكر انتقالنا لعمل الباطن، ذكر خدمتنا للشيخ بنفسنا ومالنا، ذكر سياحتنا في بداية أمرنا للذكر والتذكير بما ارتكبناه في سيرنا من الأحوال، وما لقيناه من الأهوال، في ذكر امتحاننا بالسجن والخروج من الوطن، ذكر سندنا لطريق التصوف إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ذكر من شهد لنا بالخصوصية على

---

10 ـ الفهرسة: 22.

وجه الإخبار من المشايخ وغيرهم، ذكر ما شهدنا من الكرامات الحسية والمعنوية» ويضاف إلى هذه الفصول ما أثبته من شعر له وهو كله في التصوف، وجله مما يصلح للإنشاد في حلقات الذكر، ولا نجد في هذه الفصول وجدا وشوقا ومعاناة، وإنما سلوكا سلك فيه صاحبه مسلك أهل عصره من المتصوفة، وهو مسلك يحصر التصوف في الانصياع للشيخ وإماتة النفس بإهانتها، وأذكار تردد في أوقات محددة، يتوج ذلك كله كرامات تأتي لتؤكد الفتح، ووصول الشيخ إلى مبتغاه، وقد يكون من المفيد أن نورد فقرات من كلام الشيخ عن الأهوال التي لقيها بسبيل الوصال فقال الشيخ ابن عجيبة رحمه الله: «فلما قبضت الورد من شيخنا البوزيدي رضي الله عنه لبست جلابة غليظة... فدخلت المدينة، يعني تطوان ، بتلك الجلابة والفقراء معي يذكرون الهيللة والناس ينظرون ويتعجبون فقد سمعت نفسي (تُغَوت) وتصيح، والعرق يسيل مني، لأن هذا أول خرق رأيته... ولماَ علقت السبحة الغليظة في عنقي ودخلت إلى الدار بالجلابة والسبحة في عنقي، قام أهل الدار في رد ذلك، فلما رأوا عزمي، سلموا، وبكوا علينا بكاء الميت، وحزن علينا أهل تطوان حزنا شديدا، ثم كتب الشيخ إلي أن اخرج عن كل مايفضل لك من الرزق، وتصدق به، وقد كنت أخرج ما يزيد على الكفاية، ثم كتب إلى أن اخدم الفقراء واغسل ثيابهم بنفسك، وصبن لهم برجلك، ثم أمرني بالسؤال في الحوانيت، وأبواب المساجد، فما رأيت في الدنيا أصعب منه، ولا أجهز لأوداج النفس منه، ثم أمرني بتشطيب السوق وحمل زبله على عنقي إلى خارج المدينة، فكنستــه ثلاث مرات أو أربع، كنت أحمل الزبل على كتفي، وكان أيام الشتاء، فربما يسيل الماء على ظهري، ثم أمرني بركوب الحمار، فركبته خمس مرات، وأمرني أيضا بحمل الجراب، وهو «أقرب» فكنت أحمله على ظهري...»[11]

هكذا انتهى الأمر بالتصوف في المغرب في القرن الثاني عشر إلى أن صار ترويضا قاسيا للنفس وإماتة لها، لا بالتأمل الباطني، وإنما بإذلالها بمعارضة جميع الأعراف الاجتماعية، أو بقطع أوداجها كما قال الشيخ ابن عجيبة، والعجيب حقا فيما

11 ـ الفهرسة: 33 ـ 36.

ذكره الشيخ عن نفسه في الموضوع أن يخضع نفسه إلى كل أصناف الإهانات، وهذه طريقة تليق بجاهل يريد الوصول، فلا يجد علما يعينه على ذلك، وأما العالم، كابن عجيبة، فكنا ننتظر أن يسلك طريقا أليق به وبعلمه، طريقة تقوم على الغوص في حقيقة الأشياء، ولكن الرجل أسير عصره، والفكر المغربي في عصر ابن عجيبة، لم يكن مهيئا إلى قبول غير ما قام به ابن عجيبة.

3 ـ فهرسته: ذكرنا أن الشيخ سمى عمله الذي نحن بصدد عرضه والتعليق عليه هنا فهرسة ، وقع ذلك منه غير مرة، وفي سياق يوحي بأن ما سوى الفهرسة في عمله أنما هو استطراد، ومع ذلك فإن المادة الفهرسية في عمله لا تشغل إلا حيزا محدودا، قد يصل إلى ثلث عمله، وذلك ما جعلنا نقول هنا بأن الشيخ لم يقصد بكتابه طلبة العلم الراغبين في وصل أسانيدهم بواسطته، وإنما المريدين الذين سيتخذون كتابه أداة من أدوات التربية، وذلك بالاهتداء بشيخهم في القول والعمل.

ولنستهل حديثنا عن المادة الفهرسية في الفهرسة بذكر مشايخ ابن عجيبة الوارد ذكرهم.

وأول شيوخه امه وجده المهدي بن عجيبة، حفظ عليه القرآن، وسيدي أحمد الطالب، والفقيه عبد الرحمان الكتامي الصنهاجي، والعربي الزاودي، ومحمد اشمل، قرأ عليه في دار الشاوي من قبيلة بني مصور[12] والفقيه الناسك محمد السملالي، وهو الذي حثه على الذهاب إلى القصر الكبير، فصار في رفقته محمد الورزازي، وبقي ابن عجيبة في القصر نحو عامين التحق بعدهما بتطوان وكان ابن عجيبة دخل تطوان لأول مرة وهو طفل صغير على ما ذكره في فهرسته، دخل ابن عجيبة تطوان عام ثمانين أو واحد وثمانين من القرن الثاني عشر، (1182/0) وفي تطوان أخذ عن الفقيه أحمد الرشا، وعبد الكريم بن قريش، ولا زمهما، ومقروءاته في تطوان: الألفية، ومختصر

---

12 ـ الفهرسة: 12، وتقع دار الشاوي الآن في قبيلة جبل حبيب، وعن تغيير حدود القبائل ينظر بحثنا: أعلام جبل العلم (الأعلام الجغرافية) بحث شارك به صاحبه في الندوة الوطنية الأولى لتنميط الأعلام الجغرافية من تنظيم معهد البحث العلمي بتعاون مع وزارة الفلاحة.

الشيخ خليل، والسلم، ومختصر السنوسي، والصغرى والكبرى والمقنع، والخزرجية، وصحيح البخاري ومسلم والرسالة، والتحفة، ولامية الزقاق، ولامية الأفعال، ومن شيوخه في تطوان أيضا الورزازي، ومحمد العباس، وعبد السلام بن قريش، ومحمد غيلان، ومحمد الجنوي، وهكذا يظهر من قائمة شيوخ ابن عجيبة في تطوان ومن مقروآته عليهم يظهر أن تطوان كانت تعيش في القرن الثامن عشر حركة علمية نشيطة، فكانت في ذلك أختا لفاس، وما أكثر الشيوخ الذين قصدوا تطوان في هذه الفترة من خارجها للجلوس إلى مشايخها.[13] ولما توفي الفقيه الجنوي قصد الشيخ ابن عجيبة فاس، فأخذ عن شيخ الجماعة العلامة محمد التاودي ابن سودة ومحمد بنيس، والطيب بن كيران، ولم تطل إقامة الشيخ بفاس وعاد إلى تطوان، فاشتغل «بتدريس العلم وذكر الله تعالى فردا وجماعة، حتى أخذ الله بيده لملاقاة الشيخ العارف الرباني الفرد الصمداني سيدي محمد البوزيدي الحسني، وشيخه قطب التربية النبوية وأصل مادة الطريقة الدرقاوية»[14]

هؤلاء جل شيوخ ابن عجيبة في علم الظاهر، وأما مقروآته فلا جديد فيها عما كان يقرأ في زمانه، وإلى حدود النصف الأول من هذا القرن، وهي عموما مؤلفات المتأخرين فليس بين مقروآته كتاب واحد مما ألفه القدماء في الآداب والبلاغة والعقائد والنحو والأصول، وأكثر مقروآته ما ظهر في القرن الثامن وبعده. وهذه آفة الحركة العلمية في زمانه، وقبل زمانه بمدة، وكان ابن خلدون رحمه الله أدرك خطر ذلك ونبه عليه ولكن هيهات أن توقف صيحة واحدة ولو صدرت عن ابن خلدون، ذلك الانحدار.

وأما شيوخ ابن عجيبة في التصوف فهما مولاي العربي الدرقاوي، ومحمد البوزيدي. لقد قدم الشيخ ابن عجيبة من خلال سيرته، كثيرا من جوانب عصره، وذلك ما يزيد من قيمة سيرته، واستفاد من ذلك تاريخ تطوان، والاقليم بشكل خاص، ذلك أن المادة التي وردت في السيرة ذات أهمية كبرى في

---

13 ـ من هؤلاء: ابن الطيب العلمي، وابن زاكور الفاسي.

14 ـ الفهرسة: 15.

التاريخ السياسي والفكري والأدبي لتطوان وللمنطقة بشكل عام، وإذا تركنا ما ورد في السيرة ما يخص حياة الشيخ وانصرفنا إلى بقية المواد فإننا نجدها تحيل على كثير من الأحداث والوقائع، فعلى المستوى السياسي نجد ذكرا للسلطان المولى اليزيد وللسلطان المولى سليمان، الأول ورد اسمه مع إشارة إلى حركته نحو سبتة برسم الجهاد، والثاني في معرض حديث الشيخ عن محنته، ومن إشارة الشيخ يبدو أن المولى سليمان كان إلى جانب الزاوية الدرقاوية، وورد في السيرة ذكر القائد الباشا ابن علي، ولعل من أهم ما ورد في السيرة مما له صلة بالواقع السياسي، الإشارة إلى صراع الزاوية الدرقاوية ضد الزاوية الريسونية، والزاوية الوزانية، ويظهر أن ظهور الزاوية الدرقاوية في المنطقة التي كانت تحتكرها الزاوية الوزانية أقلق هذه الأخيرة، فأخذت تكيد لها، وأثمر كيدها في إدخال الشيخ وأخيه وجماعته السجن، وأما الزاوية الريسونية فلعل تدخل الحوات، وهو نقيب شرفاء في فاس ومقرب من رجال الحل والعقد، حال دون تفاقم عدائها للزاوية الدرقاوية، وقد أورد الشيخ ابن عجيبة نص مقطوعة شعرية للشريف الحوات. كان بعث بها إلى رئيس الزاوية الريسونية في زمنه، نورد منها الأبيات الآتية:

أبا حسن كن مثل والدك الذي — تغيب في سكر الشهود عن الحس
وإلا فأصلح منك بالزهد فاسدا — ودع عنك حفظ النفس والرجم بالحَدْسِ

إلى أن يقول:

فكيف يهين ابنيْ عجيبةَ مسلمٌ — وعلمهما بالله أجلى من الشمس
كأنك لم تعرف حقيقة سرهم — ولم تعترف منهم بنوع ولا جنس
هم القوم كفوا نفسهم ولسانهم — ومن يستطع كف اللسان أو النفس؟![15]

وقد واجه الشيخ ابن عجيبة ومريديه أيضا أولاد أبي العيش بأنجرا، وقد وجدوا في أولاد ابن عجيبة وزاويته منافسا خطيرا، ومن ثمار هذا الصراع بين الزاوية الدرقاوية، ممثلة في الشيخ ابن عجيبة ومريديه تلك المناظرة التي ناظر فيها الفقيه الجنوي الصغير أحد علماء الزاوية الدرقاوية.

ولا شك في كون هذه السيرة، أعني فهرست الشيخ ابن

---

15 ـ الفهرسة: 33.

عجيبة، مصدرا أساسيا لفهم الحركة الصوفية في المغرب، وفي شماله على الخصوص، وعند الطائفة الدرقاوية على الأخص، ويتضح من السيرة خصائص الطريقة الدرقاوية، إن هذه الطريقة تقوم على السلوك أكثر مما تنبني على الفكر، فهي كما ذكرنا ترويض للبدن وللنفس، وليست تأملا وغوصا، ولعلها بذلك أقرب ما تكون إلى منطق العوام، ومهما يكن فإنها قد اكتسحت شمال المغرب، وهي من الطرق الصوفية التي ظهرت في الشمال وترعرعت فيه وهي إلى ذلك طريقة نشأت في البوادي، في كل من بني زروال، وغمارة وبني سعيد وانجرة، وقد استقطبت كبار علماء العصر وأدباءه، فهذا أبو الربيع سليمان الحوات يقف مناصرا للزاوية الدرقاوية، وله شعر في الحث على الانضمام إلى الزاوية الدرقاوية، أورده الكوهن في فهرسته، وقد تمكنت الطائفة الدرقاوية من منافسة الزوايا الشمالية الأخرى كالوزانية والريسونية، وكانت لها الهيمنة على ما سواها مدة.

وقد ترك أعلام الزاوية الدرقاوية تراثا ضخما، موزعا بين الاوراد والاذكار شعرا ونثرا، هذا غير ما تركوه في التراجم وباب الشروح.

وتتضمن السيرة ذكرا لأعلام كثيرين من أبناء المنطقة، من هؤلاء الأعلام المذكورين:

الشيخ محمد البوزيدي، وقد تردد ذكره غير مرة، وعبد الكريم بن قريش، ومحمد بن عبد السلام بن عبود، وابن عمه محمد ابن عبود، والطاهر البقال، ومحمد حلتوت...إلخ

ومما يجب الوقوف عنده، ونحن نستعرض مواد هذه السيرة، لغتها، وهي لغة تقترب من العامية في بعض المواضع، بل هي من صميم العامية في كثير من الألفاظ المستعملة، يتبين ذلك من الجمل الآتية:

«فإذا هو رجل محزوم» «فتوحمت على خنفوشته» «أخذ حماره وهو بارك عليه» «سفينة النصارى حرتت بهم»

إن سيرة الشيخ ابن عجيبة، شأن كل سيرة، مفتاح لفهم كثير مما انغلق على الباحث في فكر صاحب السيرة، وهكذا فإن سيرة شيخنا تتضمن فوائد جمة، وإشارات نافعة تفيد دارس فكر ابن عجيبة وتراثه بشكل عام، لقد حرص ابن عجيبة على

ذكر أهم جوانب حياته، وقد وقفنا فيما سبق على أبرز تلك الجوانب، ونقف الآن عند تأليف الشيخ من خلال فهرسته، وقبل ذلك تجب الإشارة إلى أن فهرسة الشيخ غير تامة، وكأن الشيخ كان يضيف إليها ما يجد في حياته باستمرار، فلذلك لم يرفع القلم عنها.

سرد الشيخ ابن عجيبة تحت عنوان: «ذكر ما جمعناه من التصانيف بحول الله تعالى» ثم ساقها كما يلي:

فمن ذلك شرح الهمزية والبردة للبوصيري، وشرح الوظيفة الزروقية وشرح الحزب الكبير للشاذلي... وشرح أسماء الله الحسنى، أفردت لكل اسم بابا كما فعل القشيري، وشرح المنفرجة، وشرح تائية الجعيدي، في كراس صغير، وتأليف في علم النية فيه نحو خمسين بابا، وتأليف في ذم الغيبة ومدح العزلة والصمت، وتأليف في الأذكار النبوية عند الأحوال المختلفة، وتأليف في أربعين حديثا في الأصول والفروع والدقائق، وتأليف في القراءات العشر مشتملا على آداب القراءة والتعريف بالشيوخ العشرة وروارتها وتوجيه قراءة كل واحد منها، فيه عشرون كراسا صغيرة، وتأليف في طبقات الفقهاء وذكر أرباب المذاهب والتعريف بهم ، والتعريف بمشاهير أصحاب مذهب مالك من زمانه إلى زماننا على ترتيب وجودهم، كل قرن وحده إلى وقتنا هذا، ثم اتبعتهم بذكر النحويين والمحدثين والصوفية لم نستكمل ذكرهم، وابتدأت حاشية على مختصر خليل، وشرحها على الحصن الحصين، فلم يكملا، ثم شرحت، بعد ملاقاة الشيخ، حكم ابن عطاء الله، والمباحث الأصلية، وتصلية القطب ابن مشيش، وشرحت فاتحة الكتاب بشرحين، بل ثلاثة، أحدهما صغير فيه نحو كراستين، والآخر فيه نيف وعشرون كراسة صغيرة، وآخر صغير جدا فيه نحو ورقتين، ثم فسرت :كتاب الله العزيز من أوله إلى آخره في أربع مجلدات كبيرة، جمعت فيها بين عبارة أهل الظاهر وإشارة أهل الباطن، سميته البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، ثم شرحت خمرية ابن الفارض التي قال في أولها:

شربنا على ذكر الحبيب مدامة... وشرحت قصيدة الرفاعي التي أولها: يامن تعاظم... وبعض مقطعات الششتري، ثم شرحت قصيدة شيخنا الرائية في طريق السلوك، وألفت كتابا في

القضاء والقدر، الفتنة في زمن الوباء، ثم شرحت أبيات الجنيد: توضأ بماء الغيب، وألفت كتابا في الخمرة الأزلية، وكتابا آخر في الطلاسم التي حجبت عن التوحيد الخاص، وشرحت تصلية ابن العربي الحاتمي، ثم شرحت نونية الششتري في أربعة كراريس صغار، ثم ألفت كتابا في حقائق التصوف في ثلاثة كراريس ثم شرحت تائية شيخنا في الخمرة الأزلية وما يوصل إليها في ثمانية كراريس صغار أوسبع، ثم أعدت شرحا آخر عليها في اثنى عشر كراسا ونصف صغارا، ثم شرحت الأجرومية، جمعت فيه بين النحو والتصوف عبارة وإشارة كصناعة التفسير، ثم وضعت حاشية مختصرة على الجامع الصغير للإمام السيوطي، ونظمت قصائد وتوشيحات في فن الخمرة وما يرجع إليها جمعت في ديوان مستقل، بعضها في تفسير الملك والملوك، وبعضها في شأن النفس والعقل والقلب والروح والسر وما يتعلق بذلك...»[16]

ويتبين من هذه القائمة مدى الجهد الكبير الذي بذله الشيخ ابن عجيبة نفعه الله بكل ما كتب، هذا كله مع كونه كان فيما يذكر في سيرته، قد أدركه الزهد في العلم، يعني علم الظاهر فانصرف عنه، وترك القراءة[17] واشتغل بالعبادة واعتزل الناس، حدث له ذلك بسبب قراءته كتاب الحكم لابن عطاء الله فيما قال، ومن ثم فلنا أن نرى أن السبب الحقيقي في تحول ابن عجيبة من الظاهر إلى الباطن، لا يعود إلى اتصاله بشيخه البوزيدي كما قد يفهم من سيرته، ولعل البوزيدي إنما نقل ابن عجيبة من حدود القوة إلى مجال الفعل في باب التصوف، ويحدثنا ابن عجيبة في سيرته عن مرحلة التأرجح بين الظاهر والباطن في حياته فيقول:

«فرأيت سيدي طلحة في النوم، وأنا عند ضريحه، فانحنى علي حتى مس شعر لحية وجهي، فقلت في نفسي: نشاوره في هذا الأمر، الذي نريد ـ أي في ترك العلم والانقطاع إلى العبادة ـ وكنت عزمت على بيع الكتب والطلوع إلى جبل مولاي عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه للعبادة، فلم يكن قدر الله ذلك،

---

16 ـ الفهرسة: 20 ـ 22.

17 ـ نفسه: 23.

فقلت له يا سيدي إني أريد ترك العلم وننقطع للعبادة، والتبتل. فقال لي اقرأ، فقلت له: العلم، فقال لي نعم اقرأ العلم... فرجعت لطلب العلم، ولكن الروح كانت «شَوَّرت إلى مولاها، فكان القلب كله مع الله فكنت أجلس في حلقة العلم أدبا مع الشيخ الذي أمرني بالعلم ولا ندري ما يقول المدرس، شغلا بذكر الله...»[18]

فما أشبه حالة الشيخ ابن عجيبة التي يصفها في هذه الفترة بحال حجة الاسلام الإمام الغزالي، ذلك أن الغزالي رحمه الله كان يدرس العلم في المدرسة النظامية على ما هو معروف، فانصرف عن العلم الظاهر وعن الاشتغال به إلى التبتل، واعتزل الناس. وقد وصف الشيخ وصفا دقيقا تلك الفترة الحرجة من حياته، تلك المرحلة التي تم فيها الانتقال من واقع إلى آخر مغاير تماما، لقد استعان الشيخ بالصلاة للخروج للانتقال إلى عالم التصوف، فكان يستغرق في الصلاة، حتى تشرق عليه أنوار، وتظهر له فيما قال في سيرته، زخارف وقصور وخوارق[19]

وبالرجوع إلى مؤلفات ابن عجيبة الوارد ذكرها في سيرته نجد أنها موزعة بين الحديث والفقه والتصوف والقرآن الكريم. وجل تصانيفه شروح، وكل شروحه ذات طابع صوفي، وهي في عمومها تبين عن اتساع في العلم، وتبحر في سائر العلوم الإسلامية، ويستوقفنا من كتبه تصنيفه في تفسير الكتاب العزيز، وعلى كثرة عناية المغاربة بالقرآن الكريم وبعلومه، فإن ما ألفوه في التفسير قليل جدا، وكأنهم كانوا يتهيبون الإقدام على تفسير كلام الله، فلم يكونوا يجرؤون على تفسيره. إن الكلام عن سيرة ابن عجيبة قد ينفتح على عامة القضايا الفكرية والسياسية التي عاشها المغرب في النصف الأول من القرن الثالث عشر، وذلك لكون الشيخ، لم يكن شخصا «عابرا» بل كان له في عصره وبعد عصره أثر كبير.

---

18 ـ الفهرسة: 25.

19 ـ الفهرسة: 25.

*المصادر:*


- فهرست ابن عجيبة نسخة خطية
- فهرِست الكد عن عبد القادر نسخة مرقونة
- الشرب المحتضر والسر المنتظر لجعفر بن إدريس الحسني.
طبعة حجرية.

# وثائق بيت شيخ الجماعة، أبي العباس، أحمد بن العربي ابن الحاج السلمي بتطوان

نشر وتقديم
جعفر ابن الحاج السلمي
كلية الآداب. تطوان.

إن هذا البحث مندرج ضمن اهتمامنا الخاص بإشكال الامتداد الأندلسي الثقافي في المغرب، وهو ما يجعلنا نتتبع ما خلفته مهاجرة الأندلس من تراث ثقافي في سائر أنحاء المغرب، سواء في ذلك المدن كفاس وتطوان وشفشاون والرباط وسلا والبوادي. وهو ما يجعلنا نتتبع وثائق البيوتات المغربية الأندلسية الأصل، ونتتبع ما كتبته عن نفسها، وما كتب عنها. وضمن هذا التوجه، قمنا بنشر ديوان أبي الحسن الحرالي وتحقيق كتاب التعريف بالتاودي ابن سودة، وكتاب رياض الورد، فيما انتمى إليه هذا الجوهر الفرد، لأبي عبد الله، محمد الطالب بن أبي الفيض، حمدون ابن الحاج السلمي المرداسي الفاسي. (1273 هـ/ 1857م). كما قمنا بكتابة بحث عن «ظاهرة الكتابة في تاريخ البيوتات الأندلسية المغربية.» لأن هذا الضرب من الكتب والوثائق يرصد هذا الإشكال، ويزودنا بمعلومات لا تخلو من فرادة وطرافة، عن مهاجرة الأندلس واستقرارهم على أرض المغرب الأقصى.

ولما كانت مدينة تطوان مهجرا لكثير من هؤلاء الأندلسيين، بل أقرب مهجر لهم، كان من المعقول أن يكون تاريخها الاجتماعي والثقافي، وهو شيء يحتاج إلى تعميق البحث فيه، موصولا بإشكال الامتداد الأندلسي الثقافي على أرض المغرب.

والوثائق التي ننشرها هنا، ونقدم لها، هي وثائق بيت أندلسي فاسي ثم تطواني انقرض، هو بيت شيخ الجماعة، أبي العباس، أحمد بن العربي ابن الحاج السلمي، الذين استقروا في تطوان في القرن الثامن عشر، عقب الفتن الأهلية التي ظهرت بعد وفاة السلطان المولى إسماعيل، والذين انقرضوا في مطلع

هذا القرن العشرين. وهذه الوثائق محفوظة في خزانتنا. وهي في الحقيقة امتداد لكتاب رياض الورد، الذي يتتبع بيت بني الحاج السلميين في الأندلس والمغرب.

تنقصنا المعلومات الدقيقة عن هذا البيت الذي استقر في تطوان ما يزيد عن قرنين . ذلك أن كتاب عائلات تطوان، لمحمد داود ما يزال مخطوطا، وكتاب «عمدة الراوين، بتاريخ تطاوين»، لأبي العباس، أحمد الرهوني، لايقدم ما يشفي الغليل. لقد قال في مادة ابن الحاج من عمدته : «وهم من أولاد ابن الحاج السلميين، المشهورين بفاس.» ولم يزد على أن وصلهم بأصلهم الفاسي. والظاهر أن هذا البيت فقد نباهته الاجتماعية، وتميزه الثقافي بعد القرن الثامن عشر، ولم يظهر فيه أعلام يستحقون الذكر، فلم يجد مؤرخ تطوان أحمد الرهوني مادة كافية يسجلها. غير أن نقصان المعلومات يعوضه تعويضا جزئيا إشارات محمد الطالب ابن الحاج في رياض الورد إلى الفرع التطواني من بيته، وكذلك إشارته إليه في حاشيته في الفقه. ويتبين منها اتصال العلاقة القرابية والاجتماعية بين الفرع التطواني، وبني عمومته الفاسيين، وشمول الحماية الرسمية لهما، وعدم تمييز السلطان بينهما.

مجموع هذه الوثائق المشار إليها ثلاث عشرة وثيقة، وهي كلها ظهائر علوية شريفة. بعض منها ما يزال في حالة طيبة، وبعض منها أتت عليه الأيام، فلم تكد تبقي منه إلا الشبح. وهي تشمل أواخر عهد المولى إسماعيل، وأواسط عهد سيدي محمد بن عبد الله. وفيها الطوابع الكبرى لخمسة ملوك هم : المولى إسماعيل ( 5 ظهائر )، المولى أحمد بن إسماعيل، ( 1 ظهير واحد )، المولى عبد الملك بن إسماعيل، ( 1 ظهير واحد )، المولى محمد بن إسماعيل، ( 4 ظهائر )، سيدي محمد بن عبد الله، ( 1 ظهير واحد )، ثم ظهير ملتبس. وتطرح هذه الوثائق مجموعة من الإشكالات الاجتماعية، ليس هذا محل تحليلها، منها : ظاهرة الهجرة الفاسية إلى تطوان، بعيد وفاة المولى إسماعيل، وهي هجرة واصلت الهجرة الجماعية الأولى إلى تطوان، عند إعادة تأسيسها، وظاهرة الحماية الرسمية للعلماء وأهليهم، وتمييزهم بمميزات اجتماعية، واستثنائهم «مما تطالب به العوام»، كالزكوات والمغارم و«الكلف المخزنية». كما تثير إشكال العلاقة

بين العلماء والمخزن، وما فيها من توتر حينا، ومن مودة أحيانا أخرى، ومسألة الاستقلال المعاشي للعلماء عن المخزن، وعن الأوقاف وظاهرة الصراع بين العلماء على الموارد المالية والكراسي، وظاهرة التضامن القرابي، حتى ولو كانت القرابة أموية لا أبوية، (ظاهرة اعتناء عبد الرحمان ابن الحاج بالتوصية بابن أخته أحمد الشرايبي) وظاهرة التجارة مع السودان.

وإذا كانت كل هذه الأشياء من صميم تاريخ المغرب في عمومه، فإن حظ تطوان منه لم يخل من طرافة، مثل توصية السلطان لقاضي تطوان ابن قريش بالاعتناء بأولاد أبي زيد، عبد الرحمان ابن الحاج، (الظهير رقم 11)، ولناظر الأوقاف كذلك، ومثل إشارتها إلى دور النصارى بتطوان، وما تطرحه من تساؤلات. (الظهير رقم 12)

هذا، وننبه إلى أننا ننشر هنا هذه الوثائق كما وردت في أصلها المحفوظ في خزانتنا، دون تصرف منا في لغة نصوصها، مرتبة بحسب تواريخها. كما ننبه إلى ما ورد فيها من اختصار لعمود النسب، وهو مما قد يوهم القارئ أن عبد الرحمان بن أبي الفضل، محمد بن أحمد بن العربي ابن الحاج، مثلا، هو ابن مباشر لأبي العباس، أحمد بن العربي ابن الحاج. وللمزيد من المعلومات عن الأعلام المذكورين في هذه الوثائق، نحيل القارئ الكريم على الجزء الثاني من كتاب رياض الورد، حيث وردت تراجمهم.

(1)

الحمد لله وحده وصلى الله على مولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

النصر والإقبال، وبلوغ الآمال.

إسماعيل بن الشريف الحسني. رعاه الله.

كتابنا هذا، أعزه الله، بيد محبنا الفقيه الأرشد، العلامة المتفنن، السيد أحمد ابن الحاج. ويعلم منه، بحول الله وقوته، أنا أبقيناه على كراسيه المعروفة له بمحروسة فاس، يدرس بها، وينتفع بها وبأحباسها، ويباشر خطة القضاء بفاس الجديد، بأوقاته، وحيث يراه، بلا منازع له ولا مزاحم أبدا. لا بد. وحسب

الواقف عليه العمل بمقتضاه، ولا يخالفه ولا يتعداه، ولا بد. والسلام.

وفي الثالث عشر من ربيع الأول النبوي المفضل، عام خمسة ومئة وألف.[1105هـ/ 1693م]

(2)

الحمد لله وحده. وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما.

إسماعيل بن الشريف الحسني. رعاه الله.

النصر والإقبال، وبلوغ الآمال.

الفقيه الأجل، السيد محمد، ابن المقدس المرحوم بكرم الله، سبحانه، السيد أحمد ابن الحاج.

سلام عليك، ورحمة الله وبركاته.

وبعد؛ فعظم الله أجرك في والدك، رحمه الله، بمنه. فلقد أخبرنا بموته الفقيه العلامة السيد سعيد العميري، وأشار علينا بولاية خطة القضاء التي كانت بيد والدك، للفقيه السيد الحسن ابن رحال، وأمرنا بذلك، فأخبرنا خديمنا الأعز الأقرب الأحظى، القائد عبد الله الروسي أنك رجل فقيه، ذو ديانة ومسكنة ومروءة، وأنك تليق وتصلح لتلك الخطة، وهو أعرف بكم منا. فها نحن وليناك على بركة الله تعالى، خطة القضاء بالمدينة البيضاء، وأسندنا إليك أجرها، فاجتهد واحتزم، وقف على ساق الجد والاجتهاد، فيما ولاك الله سبحانه على أيدينا، ولازم القراءة والتدريس، وإياك والتراخي أو التغافل أو الكسل. وها نحن وراء ظهرك، نشد أزرك، ونخبر أمرك. والله يعينك بمنه. آمين. والسلام.

وكتب رابع ربيع النبوي المفضل، عام تسعة ومئة وألف. [1109هـ/1697م]

(3)

الحمد لله وحده. وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما.

النصر والإقبال، وبلوغ الآمال.

إسماعيل بن الشريف الحسني. رعاه الله.

إلى الفقيه القاضي السيد محمد بن أحمد ابن الحاج. سلام عليك ورحمة الله وبركاته. وبعد :

فاعلم أن محبنا الفقيه النبيه الفرضي الحيسوبي، السيد محمد بن بلقاسم عليلش الحضرمي، حين ورد على مقامنا العلي بالله، من عندكم من فاس، ذكر لنا أن الفقيه القاضي السيد العربي بردلة، ذكرك له بخير، وارتضاك لتلك الخطة التي أنت بها، وحتى محبنا الفقيه المذكور، شكر لك سيرتك، وأثنى لنا عنك خيرا، وقاله فيك.

وأنت دم على ما أنت عليه ؛ فها نحن أقررناك على خطتك تلك، وأبقيناك بها، فاجتهد في القراءة واشتغل بها، واعرف قدر تلك الخطة، وراقب الله سبحانه في سرك وعلانيتك. والله يعينك ويسددك.

وأنت نأمرك، مؤكدا عليك، أن تقف معه، وفوق الجد والحزم فيما وجهناه له، ولا تقصر على إعانته على هذا الوظيف الديني الذي كلفناه به.

[دون تاريخ أصلا]

(4)

الحمد لله وحده. وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

النصر والإقبال، وبلوغ الآمال.

إسماعيل بن الشريف الحسني. رعاه الله.

كتابنا هذا، أسماه الله وأعز أمره، بيد حامله الفقيه النزيه الخير الوجيه الأرشد، السيد عبد الرحمان، ابن الفقيه العلامة الأفضل، القاضي الأعدل، السيد محمد، ابن العلامة الهمام البركة القاضي الأعدل، شيخ الجماعة، أبو العباس، سيدي أحمد ابن الحاج، نفع الله به، وقدس روحه في فراديس الجنان. آمين.

يتعرف منه بحول الله وقوته، وشامل يمنه وبركاته، أننا نفذنا له جميع ما كان بيد والده وجده المذكورين، من الأحباس والأوقاف، [ و ] الإمامة بمسجد جامع النارنجة، من حومة البليدة، من حضرة فاس، أمنها الله، والتدريس بكراسي مدرستي العطارين والمصباحية، وكرسي سيدي البخاري، نفع الله به، بجامع القرويين، بظهر خصة العين، المحبس عليهم وعلى عقبهم وعقب عقبهم، حكم شرط المحبس، فإن لفظ المحبس كلفظ الشارع.

أنعمنا عليه بجميع ذلك، يستبد من مستفاد خراجه

الموقوف عليه، على الحالة التي كان بيد والده وجده، من غير منازع في ذلك، ولا معارض ولا مزاحم. والواقف عليه من النظار والقباط، وولاة أمرنا، يعمل به ولا يتعد [اه إلى غيره ].

كما أسبلنا على الفقيه المذكور، ومن انضاف إليه من ولديه وولدي أخيه، أردية التوقير والاحترام، والرعي الجميل المستدام، والحمل على كاهل المبرة والإكرام ؛ فلا تخرق عليهم عادة، ولا يحدث لديهم أمر ولا نقص ولا زيادة، فإننا تابعين في ذلك أمر الله، في قوله تعالى : «والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان، ألحقنا بهم ذرياتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء.» والله سبحانه يوفقنا وإياهم لما فيه رضاه، ويصلح أحوالنا وأحوالهم. آمين. والسلام.

أوائل جمادى الأولى عام ثلاثة وثلاثين ومئة وألف.

[1133هـ/1720م]

(5)

الحمد لله وحده. صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما.

النصر والإقبال، وبلوغ الآمال.

إسماعيل بن الشريف الحسني. رعاه الله.

كتابنا هذا، أسماه الله وأعز أمره، بيد ماسكه الفقيه الأجل، الزكي الأحفل، السيد عبد الرحمان، نجل العلامة الهمام الأفضل، القاضي الأعدل، أبي البركات، أحمد ابن الحاج.

يتعرف منه، بحول الله وقوته، أنا أنعمنا عليه وعلى عمه الفقيه الأرشد، السيد الحاج العربي، الغائب الآن ببلاد السودان، بما ادعي به على العم المذكور، من أن تحت يده وفي حوزه، لصاحبنا وكاتب خديمنا الباشا غازي، وبيدالكاتب السيد أحمد أكايز الكرفطي، وأن الكاتب المذكور، كان أبضع عند العم المذكور، حين كان مصاحبا له بتوات أمانة، ماينيف على الأربع مئة مثقالا [زلفه ؟ ]، كان شاركه بها شركة الفرائض، وهي بذمته عدًا إلى الآن. وحين أنهى الأمر إلينا خديمنا [ساقصح ؟ ] المذكور، بعد وفاة الكاتب المذكور، طلبنا العم المذكور، فوجدناه غائبا، فقبضنا بسبب ذلك على ولد أخيه المذكور، وبحثناه عن ذلك، فأنكر ذلك، وأنه ليس له شعور به، فرفعناه إلى الشرع، مع

خديمنا القائد الأنصح، القائد عبد الله الروسي، [بزجبا < ؟ ] أثمان على الفقيه المذكور، فصالحه خديمنا القائد المذكور، بأن قبض منه شطر العدة المذكورة.

وعند ذلك، تذكرنا محبة والده فينا، وعلمه وورعه وزهده، نفعنا [ الله ] ببركاته، أسقطنا على العم المذكور، وحامله ولد أخيه الفقيه المذكور، ما بقي من العدة المذكورة، إسقاطا كليا أبديا سرمديا، لوجه الله تعالى، ومحبة في العلم وذويه. وأبرأناهما من الدعوة المذكورة، بالإبراء التام، المطلق العام، الذي لا تعقب بعده ولا قيام، بحيث لا يطالبون به ولا لحد منهم، ؟ بسبب من ورثة الكاتب المذكور، لأن ذلك من حق بيت المال، عمره [ الله ]، بأن الكاتب المذكور لا مال له تأثله من أب أو أم. وإنما ذلك بولايتنا، والانحياش إلينا، ورعايتنا وصولة الملك، [ أ ] دامها الله علينا، وعلى المسلمين. ومن طالبهما بشيء من ذلك، فلا يلومن إلا نفسه. والله يتقبل منا صالح الأعمال. أمين. والسلام.

أوائل الحجة الحرام، من عام ستة وثلاثين ومئة وألف.

[ 1723 - 1136]

(6)

الحمد لله وحده. صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما.

النصر والإقبال، وبلوغ الامال.

أمير المؤمنين، أحمد المنصور بالله.

جددنا، بحول الله وقوته، وشامل يمنه وبركته، لحامله الفقيه الأجل، السيد عبد الرحمان، ابن الفقيه العلامة، سيدي أحمد ابن الحاج، حكم ما بيده من ظهائر سيدنا الوالد، قدس الله روحه في فسيح جنانه، المتضمنة الإنعام عليه، بما كان بيد والده وبيد والده من الأحباس والأوقاف، بالمدرستين العطارين والمصباحية، وكرسي سيدي البخاري، نفع الله به، الذي بجامع القرويين، والمسجد الذي كان يؤم به بالبليدة بجامع الافرجة. وأنعمنا عليه بجميع ذلك، يتصرف فيه مثل ما كان والده، رحمه الله، إعانة له على ما هو بصدده من قراءة العلم وتدريسه وقراءته. وعليه بالجد والاجتهاد في ذلك، من غير منازع له في ذلك ولا معارض، ولا مزاحم ولا مدافع، تجديدا تاما، مطلقا عاما.

والواقف عليه، يعمل بما هو مسطر ومقيد، ولا يحيد عن كريم مذهبه. والسلام.

وكتب في الثالث من صفر الخير، عام أربعين ومئة وألف. [1140هـ/1727م]

(7)

عن أمر عبد الله، المتوكل على الله، المعتصم به، المفوض أمره إلى خالقه ومولاه، أمير المؤمنين، ابن أمير المومنين، المجاهد في سبيل رب العالمين، وناصر الحق والدين، عبد الملك، ابن أمير المؤمنين. الله وليه ومولاه.

ومن تكن برسول الله نصرته    إن تلقه الأسد في آجامها تجم

عبد الملك، ابن أمير المؤمنين. الله وليه ومولاه.

أيده الله ونصره، وخلد ملكه السعيد وأبده، وأيد أوامره، وظفر بحينه جنوده وعساكره، بمنه. آمين.

يستقر هذا الظهير الأسمى الكريم، المتلقى بالإجلال والتبجيل والتعظيم، بيد ماسكه، الفقيه النزيه المبارك، الوجيه الحاج الأبر الرحالة، أبي زيد، السيد عبد الرحمان، ابن الفقيه الأجل، العلامة الأفضل، المشارك الأمثل، القاضي الأعدل، خاتمة المحققين، أحد قضاة العدل في زمانه، المتبرك به حيا وميتا، أبو العباس، سيدي أحمد ابن الحاج، قدس الله روحه، ونفعنا ببركاته. آمين.

إنا جددنا له حكم ما بيده من ظهائر أسلافنا المتقدمين، رحمهم الله، وظهير سيدنا الوالد، قدس الله روحه، وبرد ضريحه، وأسكنه من الجنان فسيحه، مع المنعم عليهم من النبيين والصديقين، والشهداء والصالحين، [ اسقمته ] ؟ الانعام، [ ؟ ] وبيد والده وجده من الأحباس والأوقاف، كراسي المدرستين بالعطارين والمصباحية، وكرسي سيدي البخاري، نفعنا الله به، المحبس عليهم بظهر خصة العين من جامع القرويين، عمره الله بدوام ذكره.

أقررنا له ذلك، وأنعمنا عليه بجميعه، ليستفيد بخراجه الموقوف عليه. ولو طلب منا الزيادة لزدناه على ذلك، محبة في سلفه، ورعيا لمحبتهم فينا، ومحبة والده وجده من قبل في سيدنا الوالد ؛ ففي الحديث الوارد أن « من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه. ». وأذنا له أن يتصرف في ذلك مثل ما كان

والده وجده، رحمهم الله، إعانة له على ما هو بصدده من الانتساب للعلم، وقراءته والتمسك بأذياله. وأذنا له في استنابة ولد أخته، الفقيه النجيب، أبا العباس، السيد أحمد الشرايبي، في التدريس بمدرسة العطارين، حيث شهد له بأهلية التدريس الجمهور، حسبما ذلك بيده. وعليه بالملازمة والمواظبة، وأن لا ينسانا من صالح دعائه.

كما أسبلنا أردية التوقير والاحترام، والرعي الجميل المستدام، على الفقيه المذكور المتمسك به، ومن انضاف إليه من ولديه وأخيه الفقيه السيد محمد، وابن أخته المذكور ؛ فقد حاشيناهم عما يطالب به العوام، فلا سبيل لأحد عليهم، في مطلب من المطالب، أو كلفة من الكلف، من زكاة وغيرها، كما كانوا معظمين محترمين على عهد سيدنا الوالد.

بل زدناهم توقيرا على توقيرهم، واحتراما على احترامهم. فمن سامهم بشيء من ذلك، أو قربهم أو طاف بساحتهم، فقد تعرض لهلاك نفسه، ومضرة رأسه.

أضفناهم لعليّ مقامنا، محترمين بحرمنا، معظمين بتعظيمنا، فلا تخرق لهم عادة، ولا يحدث لهم نقص أو زيادة، امتثالا لما أوجبه الله علينا وعلى جميع المسلمين، من تعظيم العلماء والصالحين، وأولادهم من بعدهم. قال تعالى : «وكان أبوهما صالحا.»، وقال، عز من قائل : «ذلك. ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب.» فأهل العلم هم الذين يستوجبون التوقير والاحترام والتبجيل، و[؟].

فليعمل به كل من يقف عليه من خدامنا وقوادنا وعمالنا وولاة أمرنا، لما ذكر، ولتعظيم أمر الملك المطاع، والوقوف عند حد أمره الذي لا يمكن النزاع فيه.

ونطلب من المولى، جل جلاله، أن يعاملنا ويمنحنا من جزيل فضله، ويجري على أيدينا [ وا ] إجلال العلم واحترام أهله، كما أسأله سبحانه، لنا ولهم الهداية والتوفيق، والإرشاد إلى أقوم طريق، بمنه وكرمه، وطوله وقدرته.

وأذنا للفقيه المذكور، في دفع زكاتهم وأعشارهم لمستحقيها من الأرامل، ثقة به، تقييدا تاما، مطلقا عاما. والسلام.

في منسلخ شوال المبارك، عام أربعين ومئة وألف.

[ 1140 – 1727 ]

(8)

الحمد لله وحده.وصلى الله وسلم على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما.

ومن يتوكل على الله فهو حسبه. إن الله بالغ أمره.

أمير المومنين محمد، ابن أمير المؤمنين إسماعيل الحسني. الله وليه ومولاه.

جددنا بحول الله وقوته، وشامل يمنه وبركته، للفقيه النزيه، المبارك الوجيه، الحاج الأبر، أبي زيد، السيد عبد الرحمان، ابن الفقيه الأجل، العلامة الأفضل، خاتمة المحققين، أحد قضاة العدل في زمانه، سيدي أحمد ابن الحاج، نفع الله ببركته، آمين، حكم ما بيده من ظهائر أسلافنا المتقدمين، رحمهم الله، وظهير سيدنا الوالد، قدس الله روحه، وظهائر إخواننا، رحمهم الله، المتضمنة الإنعام عليه، بما كان بيده وبيد والده وجده من الأحباس والأوقاف، كرسي المدرسة العطارية، و كرسي سيدي البخاري، نفع الله به، المحبس عليهم وعلى عقبهم، بظهر خصة العين، من جامع القرويين، عمره الله بدوام ذكره، والإمامة بمسجد النارنجة، من حومة البليدة، كل ذلك بفاس، حاطها الله.

أقررنا له ذلك، وأنعمنا عليه بجميعه ليستعين بخراجه الموقوف عليه، وقبض خراج أربع حوانيت بسوق العطارين، اللواتي لحبس المدرسة المذكورة، كما كان يقبض كراءها من عهد السيد الوالد، رحمه الله، من غير منازع ولا مزاحم ولا معارض، من ناظر أو قابض. ولو طلب منا الزيادة على ذلك لزدناه عليه، محبة في سلفه؛ ورعيا لمحبتهم فينا، ولمحبة والدهم، رحمه الله، في سيدنا الوالد، قدس الله روحه، ففي الحديث الوارد : « من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه.» وتأكدت محبتنا فيهم أيضا بوصية الشيخ العارف بالله، سيدي أحمد الحبيب، نفع الله به .

وأذنا له أن يتصرف في ذلك الحبس كله، بمثل ما كان والده وجده، رحمهم الله، إعانة له على ما هو بصدده من الانتساب للعلم، وقراءته وبثه، والتمسك بأذياله، وأذنا له باستنابة ولد أخته الفقيه النجيب السيد أحمد الشرايبي، في التدريس بمدرسة العطارين، حيث شهد له بأهل التدريس الجمهور، حسبما أطلعنا على ذلك بيده، وعليهم بالملازمة والمواظبة.

كما أسبلنا أردية التوقير والاحترام، والرعي الجميل المستدام، على الفقيه المذكور، المتمسك به، ومن انضاف إليه من ولديه، الفقيه السيد عبد الله، وولد أخيه الفقيه السيد محمد، والسيد عبد الله ؛ فقد حاشيناهم عما تطالب به العوام، فلا سبيل لأحد عليهم بمطلب من المطالب، أو كلفة من الكلف، من زكاة وأعشار وغير ذلك، كما كانوا معظمين ومحترمين، عهد سيدنا الوالد، قدس الله ثراه. ومن سامهم بشيء فقد تعرض لهلاك نفسه، بحيث لا تخرق عليهم عادة، ولا يحدث لديهم نقص أو زيادة.

والواقف عليه، من خدامنا وعمالنا، وولاة أمرنا، يعملوا به ولا يتعداه، ولا بد.

وفي سابع وعشرين من جمادى الثانية، عام تسع وأربعين ومئة وألف.

[1149هـ/1736م]

(9)

الحمد لله وحده.وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

ومن يتوكل على الله فهو حسبه. إن الله بالغ أمره.

أمير المؤمنين محمد، ابن أمير المؤمنين، إسماعيل الحسني. الله وليه ومولاه.

كتابنا هذا، أسماه الله وأعز أمره، وأطلع في سماء المعالي شمسه المنيرة وبدره، يتعرف منه، بحول الله وقوته، وشامل يمنه وبركته، أننا أبقينا ما كان من التوقير والاحترام،والرعي الجميل المستدام، على الفقيه النجيب، السيد عبد الله، حفيد العلامة شيخ الجماعة، وقاضي العدل، سيدي أحمد ابن الحاج، رحمه الله ونفع به، وعلى أولاده، بحيث لا يطاف بساحتهم، ولا يطمع في تباعتهم، صونا لجانب العلم، وتمييزا لأربابه، ومحاشاتهم عما يطالب به غيرهم من العوام، إذ في ذلك عز ورفعة الإسلام، وتجديد ما بيدهم من ظواهر سيدنا الوالد، قدس الله ضريحه، وأسكنه من الجنان فسيحه، فإنه كان أعرف الناس بالناس، وأوامره كلها كانت متقنة الأساس.

وأذنا له يسكن حيث شاء، ويعمل في حيث شاء، برا وبحرا، من غير منازع له ولا معارض. ومن طاف بساحته أو تعرض

لإذايته، فلا يلومن إلا نفسه، ولا يضر إلا رأسه. والواقف عليه، يعمل بمقتضاه، ولا يتعدى أمرنا ولا يتخطاه. والسلام.

في ثالث شوال من سنة تسع وأربعين ومئة وألف.

[1149هـ/1736م]

(10)

الحمد لله وحده.وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما.

ومن يتوكل على الله فهو حسبه. إن الله بالغ أمره.

أمير المومنين، محمد، ابن أمير المؤمنين، إسماعيل الحسني. الله وليه ومولاه.

جددنا، بحول الله وقوته، وشامل يمنه وبركته، لحامله المتمسك به، الفقيه الوجيه، الحاج الأبر، السيد عبد الرحمان، ابن الفقيه الأجل، العلامة الأفضل، القاضي الأعدل، سيدي محمد، ابن الهمام الأكمل، العلامة البركة الأحفل، المتبرك به حيا وميتا، أحد قضاة العدل في زمانه، أبي العباس، سيدي أحمد ابن الحاج، نفع الله به، حكم ما بيده من ظهائر سيدي الوالد، قدس الله ثراه، وظهائر أسلافنا المتقدمين، وإخواننا، رحم الله الجميع، المتضمنة الإنعام عليه بما كان بيده وبيد والده وجده من الأحباس والأوقاف، كرسي مدرسة العطارين، النحو والفقه، وكرسي سيدي البخاري، نفع الله به، المحبس عليهم وعلى عقبهم، حكم شرط المحبس برسم حبسه،بظهر خصة العين، من جامع القرويين، عمره الله بدوام ذكره، والإمامة بمسجد النارنجة، من حومة البليدة.

أبقينا له جميع ذلك، يستبد بخراجه الموقوف عليه، ويتصرف فيه بأنواع التصرفات، مثل ما كان والده وجده من قبل، رحمهما الله، إعانة له على ما هو بصدده من الانتساب للعلم، وقراءته والتمسك بأذياله، واعتناء بالعلم وذويه، ومحبتهم فينا، ومحبة والدهم وجدهم في سيدنا الوالد ؛ ففي الحديث الوارد، «من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه.»

وحين أنهي إلينا قيام ولد أخته، الفقيه النزيه، المدرس الوجيه، السيد أحمد الشرايبي، بالتدريس بمدرسة العطارين، وقراءته العلم الشريف بها، واعتناؤه بذلك، وقيامه جهده بما هنالك، حين تخلى خاله، وحين توليته عن ذلك، وولاه القيام بها،

مع تقييد القاضي له، ورجوعه عن تقييده للغير، واعتذاره عما صدر منه من التقييد، وموافقة ناظر الأحباس بالإيالة المولوية، وهذا العلامة السيد علي العميري، على ذلك، فقد وافقنا على فعلتهما، وأمضينا تقييدهما، وقد نفذنا لهم ذلك، وأقررناه هنالك، ورجعنا عن التقييد لولد الفقيه ابن إبراهيم، رجوعا كليا، وأبطلنا حكمه إبطالا سرمديا، لما ثبت عندنا من تعديه عليهما، وترامية على ما بأيديهما، مع حوزهما له السنين العديدة، والمدة المديدة، رجوعا للحق، فإن الحق أحق أن يتبع، وبقاء ما كان على ما كان، واجب بقدر الإمكان ؛ فقد رفعنا عنهما نزاع كل منازع، ومعارضة كل معارض وجاحد.

وتأكد عندنا ذلك، حين أطلقنا على ما بيد الفقيه من الموجبات، وشهادة جهابذة العلماء والأعيان، بقيام الفقيه المذكور بالتدريس بالمدرسة المذكورة، الموجبات التي لا يمكن مصادمتها ونقضها..

وعليهما بالقيام بالوظيف المذكور، والاعتناء بذلك جهدهما، والملازمة والمواظبة. وقد أسبلنا عليهم أردية التوقير والاحترام، والرعي الجميل المستدام، على الفقيه المذكور المتمسك به، ومن انضاف إليه من ولديه وأولاد إخوانه، وابن أخته المذكور، فلا سبيل لأحد عليهم في شيء من الأشياء، قل أو جل، فلا تخرق عليهم عادة، ولا يحدث عليهم نقص ولا زيادة، محترمين بحرمة العلماء، وتعظيم ما عظمه الله من العلماء والصالحين، وأولادهم، من تقدمهم ؟ ؛ فقد قال تعالى : «وكان أبوهما صالحا.». ومن ترامى عليهم، أو سامهم بشر، فقد تعرض لزوال رأسه. والواقف عليه، يعمل به، ولا يتعدى أمره ، من حكام فاس، من قوادها، وولاة أمرها وعمالها، العمل بمقتضاه. والسلام.

ربيع الأول عام خمسين ومئة وألف.

[ 1737 - 1150]

(11)

الحمد لله وحده.صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه، وسلم تسليما.

أمير المؤمنين، محمد، بن أمير المومنين، إسماعيل الحسني. الله وليه ومولاه.

ومن يتوكل على الله فهو حسبه. إن الله بالغ أمره.

كتابنا هذا، أسماه الله وأعز أمره، بيد حامله، الفقيه الأجل، البركة الأحفل، العلامة الأفضل، السيد عبد الرحمان، نجل العلامة الهمام، المتبرك به حيا وميتا، أحد الثلاثة من قضاة العدل، نفعنا الله به، السيد أحمد ابن الحاج.

يتعرف منه، بحول الله وقوته، أنه لما ورد على أبوابنا العلية بالله، في جماعة أعيان فقهاء فاس، وأشرافها ومرابطيها، لأجل الموسم الشريف، حكم العادة المألوفة، طلب منا ظهيرا يتمسك به أولاده المستوطنين مدينة تطوان، وهم الفقيه الأنبل، السيد عبد الله، وأخيه السيد أحمد، وأولادهم، والإنعام عليهم، وتأكيد الوصية بهم، والتعظيم والاحترام، والرعي الجميل المستدام، والحمل على كاهل المبرة والإكرام، فقد حاشيناهم عن ما نطالب به العوام، وأسبلنا عليهم أردية التوقير والاحترام، والتعظيم والإجلال، حكم ما كانوا عليه قبل، من عصر سيدنا الوالد، قدس الله ثراه، وأسلافنا المتقدمين، محترمين بحرمة العلم وذويه، معظمين مبجلين، فلا تخرق عليهم عادة، ولا يحدث لديهم نقص أو زيادة.

والواقف عليه من قوادنا وعمالنا، وولاة أمرنا، العمل بمقتضاه، من تعظيم ما عظم الله، واحترام جانب الله، فقد قال الله تعالى : «ذلك. ومن يعظم حرمات الله فإنها من تقوى القلوب.». ومن طاف بساحتهم، أو طالبهم بشيء من الأشياء، قل أوجل، فقد سعى بحتفه بظلفه، وتلحقه منا العقوبة الشديدة.

ونؤكد على قاضي البلد، وهو الفقيه الأجل، العلامة السيد محمد ابن قريش، أعانه الله على ما هو بصدده، من التوصية بالفقيه السيد عبد الله، وولديه، وحفظ مكانتهم، وإعانته على مكابدة شؤونه، بإعانته ببعض الأحباس والأوقاف والشهادات، إعانة له على ما هو بصدده من الانتساب للعلم وذويه، وكذلك ولديه السيد محمد وعبد السلام، وتأكيد الوصية على ناظر الأحباس، بالاعتناء بهما، وإعطائهم المرتب على الحزب الذي بأيديهم، ولا يترك من يماطلهم في ذلك، ولا يسوفهم، ولا يثقف عليهم، فإن إعانة العلماء واجبة من بيت المال، فإن تعذر فمن الأوقاف، فإن تعذر، فعلى عامة المسلمين، لأجل إقامة الدين، فما يعبد الله سبحانه إلا بالعلم، فالله سبحانه ينفعنا بالعلماء العاملين، آمين. والسلام.

وتأكدت محبتنا في هؤلاء السادات، بوصية الشيخ، سيدي أحمد الحبيب، عند انفصالنا عنه. أوصاني بالعلماء، وأولاد العلماء والصالحين. وأكد علينا الوصية بدار شيخه سيدي أحمد ابن الحاج. قال لي : استوص بهم خيرا، أو أوص عليهم. فمن أحبهم بمحبتنا، ومحبة شيخنا، فقد تجمل علينا، فالله سبحانه وتعالى يعمرنا في محبة العلماء والصالحين. آمين.

وكتب منتصف ربيع الأول، من عام خمسين ومئة وألف.

[1150هـ/1737م]

(12)

الحمد لله وحده.وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم.

ومن تكن برسول الله نصرته * إن تلقه الأسد في آجامها تجم

محمد بن عبد الله بن إسماعيل.

يعلم من هذا الكتاب الكريم، أسماه الله وأعزه، بأنا أنعمنا على حامله، الحاج [ اوة ] بدار يسكنها، من دور النصارى بتطوان، أو من دور المخزن التي بها. وإن لم يرضاه السكنى بأحدهما، فبدار من دور الأحباس تليق به. وخديمنا الحاج محمد البروبي يؤدي كراءها للأحباس. وكما أنعمنا عليه بصهره الحاج محمد ابن الحاج، يأخذ بيده في جميع أموره، وأسدلنا عليه بسبب ذلك، أردية العز والاحترام، والتوقير الشامل المستدام، إنعاما تاما، شاملا عاما. فعلى الواقف عليه من خدامنا، وولاة أمرنا، أن يعمل بما فيه، ولا يحيد عن كريم مذهبه.

صدر الأمر المطاع به في رابع عشر ذي القعدة الحرام، عام ستة وثمانين ومئة وألف.

[1186هـ/1772م]

(13)

الحمد لله وحده. وصلى الله على سيدنا ورسولنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا [ ]

عن أمر عبد الله، المعتصم بالله، المفوض أمره إلى خالقه ومولاه، أمير المؤمنين، المجاهد في سبيل رب العالمين.

الطابع الكبير

أيده الله ونصره، و[ خلد ] ملكه السعيد، وأيد أوامره.

يستقر هذا الظهير الأسمى الكريم، المتلقى بالإجلال

والتبجيل والتعظيم، بيد ماسكه الفقيه النزيه، المبارك الوجيه، الحاج الأبر، الرحالة، أبي زيد، سيدي ؟ عبد الرحمان، ابن الفقيه الأجل، العلامة الأفضل، القاضي الأعدل، خاتمة المحققين، أحد قضاة العدل في زمانه، أبو العباس، سيدي أحمد ابن الحاج. نفعنا الله ببركاته. آمين.

إنا جددنا له حكم ما بيده من ظهائر أسلافنا المتقدمين، رحمهم الله، وظهير سيدنا الوالد، قدس الله روحه، [ ؟ ] رحمهم الله، المتضمنة الإنعام عليه بما كان بيده وبيد والده وجده من الأحباس والأوقاف، كراسي المدرستين بالعطارية ؟ والمصباحية، وكرسي سيدي البخاري، نفعنا الله به، والمحبس...

# النشاط الثقافي في تطوان أواخر القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر للهجرة كما يصوره الشيخ السكيرج في تاريخه لتطوان

د. عبد الله المرابط الترغي
كلية الآدب بتطوان

الموضوع الذي سأتحدث عنه هنا يتعلق ببعض أوجه النشاط الثقافي بتطوان خلال القرن الثالث عشر للهجرة، وذلك من خلال ما يقدمه لنا تاريخ الشيخ عبد السلام سكيرج التطواني.

وأقدم في هذا الجانب التعريف بهذا المصدر وبصاحبه.

1ـ فالشيخ عبد السلام سكيرج توفي سنة 1250 عن سن عالية تكاد تصل إلى التسعين سنة. تميز نشاطه طيلة حياته بتعاطي خطة العدالة والقيام ببعض المهمات الخاصة بجانب القضاة الذين كانوا يتولون هذا المنصب بتطوان. له خط رائع جيد، حتى إنه يتحدث وهو في آخر عمره أنه كتب بيعة التولية بخطه للسلطان المولى عبد الرحمن بن هشام.

وبالنسبة لتكوينه الثقافي فقد درس الشيخ عبد السلام سكيرج على مجموعة من العلماء بتطوان ممن كانوا يمثلون المشيخة العلمية في أواخر القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر. ثم أتم دراسته بفاس على جملة من علمائها. وسأعود للحديث -بعد- عن تلك المشيخة.

ولا يعرف للشيخ عبد السلام السكيرج إلا تأليف واحد هو هذا التاريخ الذي كتبه لتطوان والذي نعرف به في هذه العجالة. ولولا هذا التاريخ الذي وصلت إلينا قطع منه لظل العلامة عبد السلام السكيرج علما في حكم المجهول أو في شبهه، فلا تفصيل لأحداث حياته، ولا معرفة بمشيخته بالصورة الموسعة التي احتفظ بها في تاريخه، ولا ذكر لنشاطه العلمي والتأليفي، ورغم أنه كان بالإمكان -لو لم يكن بين أيدينا بعض تاريخه هذا- أن تقع ترجمة عابرة للشيخ عبد السلام السكيرج نلتقطها من تقييد أوتاريخ أو كناش فتعرفنا على بعض اهتمامه العلمي،

وتفيدنا بتاريخ وفاته ومدفنه في أحسن الأحوال. غير أنها تظل دون ما أمدنا به الرجل نفسه في تاريخه، وبخاصة في الفصل الطويل الذي خصه للمشيخة التي تعلم عليها واستفاد منها في تطوان، مما يبرز أهمية هذا التاريخ بالنسبة لترجمة صاحبه.

2 ـ أما تاريخ السكيرج هذا فقد أسماه صاحبه: نزهة الإخوان وسلوة الأحزان في الأخبار الواردة في بناء تطوان ومن حكم فيها أو تقرر من الأعيان. وهذا الكتاب أعتبره حسب علمي أول تاريخ بلداني لمدينة تطوان.[1] وكتابة التاريخ البلداني لأي منطقة من المناطق لا يتم إلا بعد أن تبرز أهمية هذه المنطقة، إما اجتماعيا أو سياسيا أو غير ذلك. وتطوان مع مطلع القرن الثالث عشر أصبحت ذات أهمية كبرى بين حواضر المغرب، حتى تكاد تصبح الحاضرة الثانية في المغرب بعد فاس من حيث عدد السكان والتأثير السياسي والعلمي. ولا ننسى ما يتبع هذا من أثر في تقرير مصير المغرب.

وتاريخ السكيرج كما قلت أول تاريخ بلداني لمدينة تطوان. وسبق للكثير من الحواضر المغربية أن شهدت تواريخ بلدانية لها ساهمت في التعريف بها سياسيا واجتماعيا وعلميا. وأخص منها مدينة فاس باعتبارها الحاضرة الأكثر تأثيرا في التاريخ المغربي وتاريخ ثقافته.

وكتاب تاريخ تطوان للسكيرج حسب التسمية التي ترجمه بها صاحبه يتناول بالأساس ثلاثة مواضيع:

* الأخبار الواردة في بناء تطوان
* من حكم فيها من الولاة والعمال
* من تقرر فيها من الأعيان، من العلماء وغيرهم

فهو بهذا سيتناول في هذا التاريخ مرحلة التأسيس لمدينة تطوان، وسيتتبع التواريخ التي أعقبت ذلك من خلال الحديث عن الولاة الذين تداولوا حكم تطوان، إلى وقت تدوينه الكتاب، ثم يعقب على ذلك بالحديث عن التاريخ العلمي والثقافي للمدينة ممثلا في التعريف برجالها وعلمائها وصلحائها.

3 ـ والكتاب في أصله كما تذكر المصادر يتكون من سفرين كبيرين، مجموع صفحاته كما يقال بلغت 500 صفحة. وقد كانت منه نسخة أصلية بطنجة بمكتبة الشيخ العلامة محمد بن

---

1 ـ راجع تاريخ داود 47/1 وما بعدها.

العياشي السكيرج، إلا أنه ضاع من مكتبته في ظروف غامضة لم يفصح عنها.[2]

والآن ما هو متداول من الكتاب عبارة عن مجموعة قطع صغيرة لا تتجاوز في عددها أكثر من مائة صفحة أو ما يزيد عنها بقليل. فالمتعارف منه حسب المصورة التي بين يدي[3] أربع قطع صغيرة.

القطعة الأولى: وتبدأ من أول الكتاب، وتنقطع عند الحديث على ترجمة الباشا أحمد الريفي، وصراعه مع الشيخ عمر لوقش. وتضم هذه القطعة (35) خمسا وثلاثين صفحة.

القطعة الثانية: وتبدأ مع الحديث عن والي تطوان الشاعر الزجال عبد الكريم بن زاكور الذي تولى تطوان على عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله. وتستمر هذه القطعة لتأتي على عرض المشيخة العلمية التي أخذ عنها الشيخ سكيرج بتطوان، وبعض مشيختـه بفاس. تشمل هذه القطعة أربعين صفحة في المصورة القائمة بين يدي وثلاث عشرة صفحة أخرى تتمة لها من نسخة الفقيه محمد داود بخطه. فهي بهذا أكبر القطع الموجودة من هذا التاريخ.

القطعة الثالثة: وتتعلق بالتعريف ببعض علماء تطوان وصلحائها ممن لم يدخلوا في مشيخة المؤلف، إما من قدماء علماء تطوان وصلحائها ممن لم يدركهم السكيرج بعمره، وإما ممن عاصرهم ممن لم يكونوا في زمرة شيوخه.

وهي قطعة مبتورة الطرفين، فهي تبتدئ من منتصف ترجمة الشيخ علي بركة وتنتهي دون أن تستوفي عددا مهما من تراجم رجال تطوان، إذ لاشك أن ما ضاع من القسم الذي تختص به شيئ كثير.

هذه القطعة تنتهي دون سابق إعلام عند ترجمة محمد بن عبد الرحمن الحائك، دون استيفائها. بقي أن أشير إلى أن هذه

---

2 - راجع تاريخ تطوان لداود 48/1.

3 - بين يدي مصورة كان قد أمدني بها مشكورا الفقيه العلامة محمد بوخبزة. ولا أعرف المصدر الذي استقى منه هذه المصورة / وفي خزانة الاستاذ محمد داود بتطوان نسخة مماثلة من مواد هذه المصورة نقلها الاستاذ داود بخطه، غير أن بها بعض الزيادات / وسأعتمد عليها في بعض ما تنفرد به.

القطعة تتكون من (20) عشرين صفحة.

القطعة الرابعة: وهي قطعة صغيرة مكونة من صفحات ثمانية، مبتورة الأول، والأخير أيضا. وقد حاول السكيرج أن يجمع فيها كل المعلومات التاريخية حول تطوان بشكل مختصر، فاستعرض بإيجاز لائحة القضاة الذين تولوا القضاء بتطوان، وكذلك أسماء الولاة الذين تعاقبوا على حكم تطوان. كما حاول أن يذكر بعض التواريخ المهمة التي عاشتها المدينة من تواريخ الأوبئة والمجاعات، ووفيات بعض المشاهير من العلماء والصلحاء والوجهاء.

والكتاب في أصله قام على طلب تقدم به البعض إلى الشيخ السكيرج ليسجل لمدينة تطوان تاريخا، وليلبي به رغبة هذا البعض الذي حدد له في طلبه العناصر التي يجب أن يقوم عليها هذا التاريخ، والذي أراد منه، كما يقول «أن أجمع له ما افترق من أحاديث تطوان وما والاها من الأخبار الحسان، ومن حكم فيها من الحكام طول الزمان، وأذكر الأولياء الذين لهم هناك أضرحة، والعلماء السالكين فيها سبل الأنصحة...»

وقد حاول السكيرج أن يقيم بناء كتابه على مجموعة من الفصول يراعي فيها استيفاء مادة تاريخ تطوان، واستحضار العناصر المرغوب فيها من ذلك، فيضمن بذلك تفهما من قارئه وتنظيما يسهل على المستفيد منه فائدته، «وفصلته على فصول ليعلم مَن يَمَّمَه من أين الدخول، وإلى أين الوصول».

وإذا كنا لا نشك في أن الكتاب قد تمثلته فصول أربعة أو أكثر ضمت مختلف مواده، فإن ما بين أيدينا من نص الكتاب لا يرد فيه بشكل صريح من أسماء الفصول غير مرتين:

الأولى: حين الابتداء بعرض مواد الكتاب، فقد قدم له بقوله: «وابتدأت بحول الله وقوته ببناء البلدة التطوانية، فأقول: فصل في بناء البلدة التطوانية وما والاها من الأخبار.»

الثانية: حين الانتهاء من أخبار تطوان ومن وليها من الولاة إلى عهده. فقد وضع فصلا عرَّف فيه بمشيخته فقال: «فصل في ذكر العلماء الذين قرأنا عليهم وأخذنا عنهم».

وما بقي بين أيدينا من مواد الكتاب، فيقوم فيها الاحتمال على عودتها إلى فصلين اثنين.

أولاهما: تعلق بتراجم أعلام تطوان من العلماء والصلحاء، إذ ما بين أيدينا من تراجم رجال تطوان يشترك في الحضور به

العلماء والصلحاء على حد سواء. غير أنه ترد عند الحديث على بناء جامع العيون الإحالة على ترجمة الشيخ الجعيدي ضمن «فصل التعريف بصلاح البلد».[4]

ونفس هذه الإحالة ترد عند ذكر الشيخ الصالح سيدي عبد الله الحاج البقال بقوله: «والتعريف به يأتي في فصل التعريف بصلاح البلد».[5]

وثانيهما: سرد أسماء قضاة تطوان وولاتها وذكر تواريخ الأحداث الكبيرة الشهيرة التي عرفتها تطوان منذ التأسيس إلى عهد المؤلف، وغيرها من المسارد الأخرى.

وإذا كانت فصول هذا الكتاب ومواده من الأهمية بمكان بالنسبة لكل من يريد أن يتعرف على تطوان في مختلف مراحل تاريخها وعلى مشاهير رجالها وصلحائها، فإن الفصل الذي حصر فيه مشيخته قد اختص بالحديث عن جو العلم والعلماء في تطوان في مرحلة من مراحل تاريخها الفكري. فهو مصدر فريد لمن يريد أن يستجمع عناصر النشاط الثقافي أواخر القرن الثاني عشر في تطوان، أو لمن يرغب في الاطلاع على مستويات الدرس العلمي الذي كانت تجري به مجالس تطوان وحلقاتها التعليمية على عهد الشيخ عبد السلام السكيرج.

فقد أودع السكيرج كتابه نزهة الإخوان فصلا خاصا في التعريف بشيوخه، وهو فصل غريب من الناحية المنهجية في كتاب يهتم بتاريخ حاضرة تطوان.

فهو فصل لا تميل مواده إلى تنمية أحداث تاريخ تطوان باعتبارها وحدة تتجمع حولها هذه الأحداث، وينتظمها سياق منهجي عام تترابط به الوقائع وتتعاقب لتجلية تطوان الحاضرة.

وهو فصل لا يجري شرط الذكر فيه إلا على ما له ارتباط بالمؤلف لاختصاصه بذكر مشيخته عامة، بما في ذلك شيوخه ممن قرأ عليهم أثناء كونه بمدينة فاس.

ولذلك كان عرض هذا الفصل داخل السياق التاريخي العام لحاضرة تطوان إقحاما منهجيا تتعارض فيه رغبة التاريخ العام

---

4 ـ تاريخ السكيرج: 8.

5 ـ تاريخ السكيرج: 25.

الذي يؤرخ لحاضرة تطوان ورغبة التاريخ الخاص الذي يؤرخ لفرد واحد هو عبد السلام السكيرج. غير أن إقحام مشيخة المؤلف ضمن كتاب تاريخي، وبخاصة إذا كان تاريخ أحداث أو تراجم رجال وطبقات، ليس بالأمر الغريب عند المؤرخين المغاربة، وفي كتاباتهم التاريخية.

فأبو العباس الغبريني حينما كتب تراجم عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية،[6] خصص فقرة مهمة من الكتاب ليعرض فيها مشيخته، فيترجم ضمنها لعشرين شيخا ممن قرأ عليهم واستفاد منهم، مقدما لهم بقوله، «وها أنا أذكر مشيختي وأعلام افادتي رضي الله عنهم»[7] ومختتما تراجمهم العشرين بقوله: «فهذه المشيخة التي لقيتها وتخيرتها للمشيخة علي وانتقيتها نفع الله بها وعرف العارفة الحسنى بسببها».[8]

ونفس الشأن نجده عند أبي العباس ابن القاضي في كتابه المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور[9] حينما جعل الباب الرابع والعشرين في ذكر فقهاء العصر وأبناء الزمان ومن اجتمعت بهم في سفري من المشايخ والإخوان.[10]

وقد عمد فيه إلى ذكر مشيخته مقدما لها بقوله: «أول من أخذت عنه بفاس المحروسة شيخنا أبو راشد يعقوب بن يحيى اليدري...»[11] وأتى فيها على ذكر من قرأ عليه في المغرب والمشرق.

وجرى على هذا أيضا الشيخ امحمد الزبادي المنالي[12] وهو

---

6 ـ طبع الكتاب بتحقيق عادل نويهض/ توفي الغبريني عام 714 /راجع عن ترجمته:
مقدمة التحقيق لكتابة عنوان الدراية: 9 والمراجع المذكورة.

7 ـ عنوان الدراية: 55.

8 ـ عنوان الدراية: 126.

9 ـ طبع الكتاب بتحقيق الدكتور محمد رزوق/ راجع عن الكتاب ومؤلفه: مقدمة التحقيق لكتاب المنتقى المقصور 17/1 وما بعدها.

10 ـ المنتقى المقصور 2 / 683.

11 ـ المنتقى المقصور 2 / 685.

12 ـ توفي امحمد المنالي الزبادي عام 1209 / راجع ترجمته في: السلوة

من المعاصرين للشيخ السكيرج - في كتابه سلوك الطريق الوارية بالشيخ والمريد والزاوية،[13] فجعل قسما من الكتاب خاصا بتراجم الشيوخ الذين استفاد منهم علما أو انتفع بهم على سبيل البركة من الصلحاء والأولياء. وعنونه بقوله: «الباب السادس في ذكر من أدركناه من العلماء وتبركنا به ومن قرأنا عليه منهم وانتفعنا به»[14] ثم ابتدأ بذكر من قرأ عليهم القرآن فبقية العلوم، وغيرها فقال: «فصل في ذكر من تبركنا به منهم في ابتداء القرآن وبالجلوس لديهم في بعض الأحيان، وقدمناهم لأنهم أهل التقديم والاحترام والتعظيم...»[15]

وبعد أن أورد مجموعة من تراجم شيوخه في القرآن، عقب على ذلك بتراجم شيوخه العلماء ممن أخذ عنهم العلم فقال: «فصل في ذكر من أخذنا عنه وقرأنا عليه من العلماء الأعلام الأئمة الناصحين للاسلام...»[16]

وسار على هذا النهج كذلك مؤرخ تطوان الشيخ أحمد الرهوني التطواني في كتابه عمدة الراوين في تاريخ تطاوين.[17] إذ جعل الربع الأخير من كتابه هذا خاصا بترجمته وعرض مشيخته، وعلمه بقوله: «خاتمة، ختم الله لنا بالشهادة، وجعلنا من أهل الحسنى والزيادة. أذكر فيها نسبي وتاريخ حياتي، وشيوخي، ومروياتي، ومذهبي وطريقتي، وإجازاتي، وما قلته من الشعر، وما قيل منه في شخصي وذاتي، وأذكاري وصلواتي. وقصدت لذلك الاقتداء بمن فعل ذلك من أئمة الدين...»[18]

---

2 / 188 ـ دليل مؤرخ المغرب 1 / 208ـ المصادر للمنوني.2/ 23

13 ـ ما يزال كتاب سلوك الطريق الوارية مخطوطا في عدة نسخ. والاعتماد هنا على مصورة كان قد أمدني بها مشكورا الأخ الكتبي مصطفى ناجي.

14 ـ سلوك الطريق الوارية: 28 ب.

15 ـ المرجع نفسه: 28 ب.

16 ـ سلوك الطريقة الوارية: 40 أ.

17 ـ راجع عن الكتاب وعن مؤلفه تاريخ تطوان لداود 1 / 50 - وقد كانت وفاة الفقيه الرهوني عام 1373 موافق 1953 بتطوان.

18 ـ عمدة الراوين 8 / 83 - /مصورة خزانة كلية الآداب بتطوان عن نسخة بخط الفقيه محمد بوخبزة في 10 أجزاء.

يتأكد من هذا في أعمال الكتابة التاريخية عند المغاربة أنه ليس بالأمر الغريب على مؤلف يكتب في التاريخ العام أو في الطبقات أن يقتطف من هذا التاريخ فصلا يخصصه لعرض مشيخته أو يجعله مثل فهرسة شيوخه الخاصة به.

وانطلاقا من هذا لم يكن غريبا في سياق العرض التاريخي وفي منهج التأريخ عند الشيخ عبد السلام السكيرج أن يحتفظ بفصل كبير من كتابه تاريخ تطوان ليخصصه لعرض تراجم مشيخته ممن قرأ عليهم أو استفاد منهم العلم في كل من تطوان وطنجة وفاس.

وتكبر أهمية الحديث عن المشيخة عامة لما يرتبط بها من فوائد في ترجمة الرجال والتعريف بهم وذكر أحوالهم وأخبارهم ونشاطهم العلمي، وفيما يتبع ذلك من عرض أوجه الدرس ورصد حلقات العلم ومجالس التعليم وتعيين طرق الإقراء بها، وتحديد ظروف الاستفادة فيها، وغير ذلك -ولاسيما إذا كانت هذه المشيخة تتعلق بمنطقة، وزمن، قلت المعرفة بهما وغاب ذكرهما وخفيت المصادر المتعلقة بهما والمتحدثة عنهما.

لذلك كان هذا الفصل المتعلق بمشيخة السكيرج في تاريخه، ذا أهمية كبرى، بما يحصل فيه من التعرف على مجموعة كبيرة من تراجم علماء تطوان -يكاد ينفرد بذكرها- أواخر القرن الحادي عشر وأوائل الثاني عشر؛ وبما يُتعرَّف عليه مما مارسه هؤلاء العلماء من علم ودرس في هذه الحقبة من عمر تطوان، إذ سيقوم عرض المؤلف في ذلك على رصد الصورة الثقافية عامة في تطوان ورسم معالم الصورة التعليمية التي تمثلها مجالسها آنذاك خاصة.

ترجم الشيخ عبد السلام السكيرج في هذا الفصل -حسب الموجود منه- إلى ما يزيد على ثلاثين شيخا ممن أخذ منهم واستفاد منهم. ويحتمل أن تكون تراجم هذا الفصل من الاتساع بحيث تفوق بقليل أو كثير العدد الوارد في القطعة الموجودة بين أيدينا من الكتاب. فقد انتهى الموجود من هذا الفصل والمؤلف يتحدث عن مشيخته التي قرأ عليها بفاس، ولم يكن قد ذكر بعدُ من ذلك سوى شيخين هما الشيخ التاودي بنسودة (ت 1209) والشيخ محمد بن الحسن بناني (ت 1194). ولاشك أن الشيخ عبد السلام السكيرج وقد أقام مدة لابأس بها بفاس قد قرأ على غير هذين الشيخين ممن كانت تقوم بهم حلقات فاس

العلمية ومجالسها التعليمية الكثيرة.

ومن حسن الحظ فإن مشيخته من علماء تطوان تعتبر تامة بحيث استوفى الحديث عنها قبل أن يلحق ما لحق من ضياع في مواد هذا الفصل. وفي مشيخته هذه يعرف بشيخ واحد ينتمي إلى طنجة، وهو الشيخ عبد الله المفرج الاندلسي الشفشاوني[19] نزيل طنجة، وكان قد رحل إليه السكيرج وأخذ عنه علوم الفلك والتوقيت والتنجيم، وقد استفاد منه كثيرا، إذ سيكون الشيخ عبد السلام السكيرج فيما بعد من البارزين في هذا العلم بتطوان، وسيتولى ممارسة التوقيت والتعديل في بعض الاحيان بالجامع الأعظم بتطوان.

وتبقى مشيخته التطوانية كبيرة، إذ يصل عدد من ذكر فيها من العلماء قرابة ثمانية وعشرين شيخا. وهي تدل في اتساعها على شيئين:

أولهما: اتساع عملية الأخذ عند السكيرج على غير ما يعهد عند معاصريه في تطوان وفاس وغيرها. فالأخذ عن ثلاثين شيخا تقريبا وملازمة بعض هؤلاء مدة أطول، لاشك سيجعل استفادة السكيرج أكثر اتساعا واستيعابا في العلوم والمناهج وغيرها.

وبذلك فإن طول المشيخة يفسره طول مدة الأخذ عند السكيرج وتنوع استفادته، وما حصّل معها من علوم مختلفة.

ثانيهما: اتساع النشاط العلمي والتعليمي في تطوان وازدهار العملية الثقافية بها. فوجود هذا العدد من العلماء ممن تعاطوا التدريس في بيئة واحدة، وفي ظرف زمني محدد، ممثلين في جماعة تنتمي في أغلبها إلى جيل واحد - هو أمر يدعو إلى التنبه والأخذ بالاعتبار لما يمكن أن ينشأ عن ذلك من معالم ازدهار الدرس العلمي وما يمكن أن يعكسه هذا الحشد الهائل من العلماء، من نشاط في ممارستهم للعلم والتعليم درسا وإقراءً وتأليفا.

ولاشك فإن تطوان ستشهد بهذه المشيخة الكبيرة عملا مميزا، سواء على امتداد تاريخها العلمي السابق واللاحق، أو على صعيد المغرب في مجال ممارسة العلم ونشاط إقرائه

---

19 - ترجمته في تاريخ السكيرج: 68 (نسخة داود) - وله ذكر وترجمة في رحلة علي باي العباسي.

وإنتاجه.

إن القراءة المتأنية لمواد هذا الفصل ولتراجم أعلام تطوان به، ستفضي بنا إلى أن نضع أيدينا على مختلف مظاهر النشاط الثقافي في تطوان وأن نميز الواجهات البارزة التي شكلت حضوره. فيمكن أن نتمثل أهمية هذا الفصل وما يعكسه من مظاهر هذا النشاط الثقافي في تطوان في النصف الأول من القرن الثالث عشر من خلال الواجهات التالية:

***الواجهة الأولى:***

أنه ينقل لنا مجموعة من الأسماء العلمية التي مارست النشاط العلمي في تطوان فيقارب أفرادها ثلاثين شيخا. وهو ليس بالأمر الهين في بيئة واحدة محدودة كتطوان يتناوب على إعمال الدرس فيها هذا العدد من العلماء. وهو أمر يدعو إلى الاهتمام والتوقف عنده، وبخاصة حينما يتعلق بحاضرة من حواضر المغرب في هذا العصر.

فتطوان كانت تعرف يومئذ حركة واسعة في الدرس والتعليم وما يتبعها من تقييد وتأليف، وإن كانت هذه الحركة لا يكتفي المتخرج من حلقاتها بما حصّله عند شيوخها. بل كان لابد أن يغنيه ويعمق منه برحلته إلى فاس للجلوس إلى حلقة شيوخ العلم المتصدرين للتدريس في جامع القرويين أو في غيره من المساجد والزوايا المبثوثة في حاضرة فاس يومئذ.

وتنويع المشيخة والاستكثار منها وإعمال الرحلة في طلب العلم والجلوس إلى حلقات الشيوخ، هو مجموع العلامات التي تعلن عن مقدار استفادة الطالب وحيازته للعلم وتفوقه فيه، واستعداده عند التخرج للتصدر العلمي وممارسة تدريسه والتحليق به والكتابة فيه. ولاسيما إذا حظي هذا الطالب عند كبار شيوخه ممن رحل إليهم، فأمتعوه بالإجازة وأطلقوا له الإذن في الحمل عنهم والرواية عليهم.

من أشهر شيوخه الذين لازمهم في تطوان وتخرج على يدهم:

1ـ عبد الرحمن الحائك[20] (ت 12037) وهو بحر في العلم،

20 ـ تاريخ تطوان للسكيرج 54 – أزهار البستان لابن عجيبة 207 – تاريخ تطوان 6 / 275 والمراجع التي ينقل عليها.

مبرز في كافة العلوم لازمه السكيرج وقرأ عليه في حلقته علوم الفقه بالمختصر بشرح الزرقاني والخرشي وحاشية محمد الحسن بناني، واعراب خليل ولامية الزقاق، والحديث بصحيحي البخاري ومسلم قراءة تبيين، والتفسير، والنحو بالألفية والعقائد بصغرى السنوسي وشرح المؤلف لها، وحاشية اليوسي عليها، والمنطق بمنظومة الاخضري والبلاغة بمختصر السعد، والعروض بالخزرجية، وأجازه إجازة عامة.

2 ـ عبد الكريم بن أحمد بن قريش[21] (ت 1197) كانت له سفارة لافتداء الأسرى. وتولى قضاء طنجة، وتوفي في رحلته إلى الحجاز. كان مبرزا في درسه، منوعا في العلوم التي مارسها بالاقراء. أخذ عنه السكيرج واستفاد منه كثيرا، فقرأ عليه الحديث بصحيح مسلم قراءة تقرير، وصحيح البخاري والتفسير والفقه بخليل والرسالة لابن أبي زيد والمرشد المعين، والتفسير والفقه بخليل، والرسالة لابي زيد، والمرشد المعين لابن عاشر، والنحو بالأجرومية والألفية مرارا، والعروض بالخزرجية، والبلاغة بتلخيص المفتاح، وغير ذلك.

3 ـ عبد السلام بن قريش[22] (1207) وهو ابن عم الشيخ المتقدم ذكره. تولى قضاء تطوان ومارس التدريس وإقراء الحديث، كان له اتصال بالسلطان سيدي محمد بن عبد الله واتصال بالسلطان اليزيد وقد أقرأ بمحضره الحديث بمسجد الباشا بتطوان. وكان عظيم الاحسان للعباد. لازمه الشيخ السكيرج وقرأ عليه واستفاد منه.

ففي الحديث سرد عليه البخاري، والأربعين، وشمائل الترمذي.

وفي الفقه قرأ عليه خليل ورجز ابن عاصم ولامية الزقاق.

4 ـ محمد بن الحسن الجنوي[23] (ت 1200) عالم كبير متمكن في مختلف العلوم. أقرأ ودرس، وتخرج على يديه كبار طلبة

---

21 ـ تاريخ تطوان للسكيرج 60، أزهار البستان 204 – تاريخ تطوان 3 / 97.

22 ـ تاريخ تطوان للسكيرج 63، أزهار البستان 204 – تاريخ تطوان 6 / 186.

23 ـ تاريخ تطوان للسكيرج 65، أزهار البستان 205 – تاريخ تطوان 99/3. الاعلام للمراكشي 6 / 93. فهرسة الصادق بنريسون/ حاشية الرهوني على الزرقاني.

تطوان وناحية الشمال كله.

قرأ عليه الشيخ السكيرج تفسير القرآن والفقه بمختصر خليل، ورسالة ابن أبي زيد، والنحو بألفية ابن مالك، والبلاغة بتلخيص المفتاح، والزهد والتصوف بنصيحة زروق، انتقل مع السلطان سيدي محمد بن عبد الله إلى مراكش، فكانت هناك وفاته.

5 ـ محمد بن الصادق بنريسون[24] هو لسان الدهر وصاحب الكلمة من نثرونظم جمع كافة العلوم فأقرأ وقيد.

حظي الشيخ عبد السلام السكيرج برفقته والاستفادة منه، فأجاز له ما يحمل بعد أن قرأ عليه مختلف العلوم، وسرد بين يديه كثيرا منها.

6 ـ الحاج أحمد الرشاي[25] هو في نظر السكيرج أعلم الناس بمذهب مالك وبأصول الفقه والمنطق والجدل. وهو مع ذلك أديب بارع يقرض الشعر ويكتب النثر. وله رواية وأسانيد.

قرأ عليه الشيخ السكيرج التفسير وجالسه وناظره.

7 ـ محمد التلمساني[26] (ت. 1193) كان صاحب خمول وتواضع، قضى حياته في التدريس والإقراء وتخرج عنه الطلبة. أخذ عنه السكيرج صحيح البخاري، والفقه بمختصر خليل وشرح الزرقاني والرسالة لابن أبي زيد، والمرشد لابن عاشر.

وأخذ عنه في درس النحو الأجرومية والألفية ولامية المجراد. واستفاد منه كثيراً إذ هو من شيوخه المعتمد عليهم في تكوينه.

8 ـ طاهر الطنجي[27] (ت. 1195) من العلماء المتبحرين في القرآن وعلومه، تخرج عليه طلبة عصره في هذا الفن. وهو شيخ السكيرج وعمدته في القرآن وعلومه> فقد قرأ عليه القرآن في اللوح بقراءة ورش وغيرها وقرأ عليه حرز الاماني، وضبط الخراز بشرحي التروالي وابن عاشر، وقرأ عليه رجز ابن بري الدرر اللوامع قراءة تحقيق.

ومع هذه العلوم القرآنية أخذ عنه السكيرج العقائد بعقيدة

---

24 ـ تاريخ السكيرج 66 نسخة (داود) – تاريخ تطوان 6 /266. فهرسته كلها.

25 ـ تاريخ السكيرج 63. (داود) أزهار: 206 تاريخ تطوان 6 / 187.

26 ـ تاريخ السكيرج 57. تاريخ تطوان 3 / 96.

27 ـ تاريخ السكيرج 57. تاريخ تطوان 3 / 96.

السنوسي الوسطي وشرحه عليها، والفقه برجز ابن عاشر وشرحي ميارة والطرابلسي عليه.

9 ـ الحاج علي مدينة[28]، عالم تطواني في علم الهيئة وعلم الاحكام والتعديل والنجومية والحساب، وهو زاهد وله رواية وسند. أخذ عنه أهل تطوان هذه العلوم وتخرجوا على يديه فيها. ويعتبر أستاذا للشيخ السكيرج في هذه العلوم فأخذ عنه القلصادي، والمقنع بشرح المرغيتي والدادسية بشرح صاحبها، وروضة الازهار للجاديري وغير ذلك.

10 ـ عبد الرحمن بن طريقة[29] (ت. 1127) قاضي تطوان وأحد علمائها الكبار. كان في نظر تلميذه السكيرج جامعا لسائر العلوم، في المعقول والمنقول والاصول والفروع.

لازمه الشيخ السكيرج في حلقته الاقرائية واستفاد منه كثيرا؛ فقرأ عليه التفسير وقرأ عليه الفقه بمختصر خليل، ورسالة ابن أبي زيد، والمرشد لابن عاشر وأخذ عنه النحو بالالفية، وكانت حلقة هذا الشيخ في النحو زاهرة عامرة.

11 ـ الشيخ أحمد بنعجيبة[30] (ت. 1124) كان شيخه ورفيقه في الطلب حينما شاركه القراءة على مجموعة من شيوخ تطوان المتقدم ذكرهم.

وحسب السكيرج فقد كان الشيخ أحمد بنعجيبة وحيد زمانه في العلم والسلوك.

قرأعليه السكيرج الفقه بالرسالة القيروانية والمرشد لابن عاشر.

وقرأ عليه النحو بالألفية، والأدب والرقائق ببردة البوصيري ونصيحة زروق وغيرها.

12 ـ القاضي الطيب بن رحمون[31]، كان يحفظ خليل، وكان كثير الرواية. قرأ عليه الشيخ السكيرج تحفة ابن عاصم واستفاد منه في الفقه.

---

28 ـ تاريخ السكيرج 63. (داود) تاريخ تطوان 6 / 189.

29 ـ تاريخ السكيرج 75. تاريخ تطوان 6 / 259.

30 ـ تاريخ السكيرج 61. (داود) أزهارالبستان: 207 – فهرسته كلها – تاريخ تطوان 6 / 213.

31 ـ تاريخ السكيرج 64. تاريخ تطوان 6 / 265.

13 ـ محمد بن محمد الجنوي[32] قرأ عليه الشيخ السكيرج مجموعة من العلوم. وكان هذا الشيخ يمثل الزعامة المعارضة لطائفة الدرقاويين بتطوان، فهو الذي انتدب لمناظرتهم. وهو واحد ممن كان سببا في محنتهم في تطوان. وينقل عنه تلميذه السكيرج حملته على درقاوة وما اشتهر من قوله: قام درقاوة في قطرنا، والفرنسيس في قطرهم، وينشأ عنهم جميعا فساد العالم.

14 ـ الفقيه محمد الصُّرْدُو[33] وهو عالم متمكن مخلص في العلم درسا وإقراء وكان إماما برباط الزاوية الناصرية، تنوع درسه فأقرأ البخاري، وخليل والألفية. وحضر عنده الشيخ السكيرج في درس النحو فأخذ عنه الألفية.

15 ـ الفقيه امحمد بن سعيد السكيرج[34] وهو قريب صاحب التاريخ. كان إماما بالجامع الجديدة، زاهدا متقشفا. أقرأ الفقه والنحو وحلق بهما، وقرأ عليه الشيخ عبد السلام رسالة ابن أبي زيد في الفقه، وألفية ابن مالك في النحو.

16 ـ طاهر بن محمد زنيبر[35] كان فقيها عالما بالنوازل والوثائق. أقرأ الفقه ومارس التوثيق. أخذ عنه الشيخ عبد السلام السكيرج صناعة التوثيق بعد أن قرأ عليه مرشد ابن عاشر أكثر من مرة.

17 ـ عبد الجليل البقالي[36] من فقهاء بلدة تطوان أقرأ الفقه وحلق به، وقرأ عليه السكيرج رسالة ابن أبي زيد ومرشد ابن عاشر في الفقه.

18 ـ الشيخ عبد السلام بن رحمون[37] كان من المبرزين في تطوان في صناعة التوثيق فلازمه الشيخ السكيرج وتخرج على يده في صناعة التوثيق.

---

32 ـ تاريخ السكيرج 69. أزهار البستان: 207 – تاريخ تطوان6 / 195.

33 ـ تاريخ السكيرج 71 ـ تاريخ تطوان 6 / 188.

34 ـ ترجمته في تاريخ السكيرج 58 ـ تاريخ تطوان 3 / 103.

35 ـ ترجمته في تاريخ السكيرج 73 ـ تاريخ تطوان 6 / 264.

36 ـ ترجمته في تاريخ السكيرج 74 ـ تاريخ تطوان 6 / 204.

37 ـ ترجمته في تاريخ السكيرج 74 ـ تاريخ تطوان 3 / 102.

19 ـ محمد الصافي بن عبد السلام بن رحمون[38]، ولد الشيخ السابق، جرى في طريق والده فأتقن التوثيق ومارس صناعته، وعنه أخذ الشيخ السكيرج هذه الصناعة أيضا.

20 ـ الشيخ محمد بن حسين[39] كان وزيرا وقاضيا، وعليه الاعتماد في تحقيق المرام. درس الفقه وحلق به، وعليه أخذ السكيرج الفقه، فقرأ عليه مختصر الشيخ خليل.

21 ـ عبد العزيز التبين[40]، من ذرية الولي عبد القادر التبين دفين تطوان. ويعتبر من شيوخ تطوان ممن درسوا علوم الحساب والفلك والتوقيت، إضافة إلى النحو وغيره من العلوم، أخذ عنه الشيخ السكيرج النحو بالألفية. والحساب بالقلصادي، والتوقيت بالمقنع، وغيره.

22 ـ التهامي البناي[41]كان شاعرا أديبا. برز في صناعة الوثيقة ومارس الاشهاد. واستعمل عضوا في السفارة لافتداء الأسرى مع الفقيه عبد الكريم بن قريش.

درس الفقه وأقرأه في حلقته التعليمية. وعنده جلس تلميذه الشيخ السكيرج فقرأ عليه المرشد المعين لابن عاشر في الفقه.

23 ـ محمد السوسي[42] وهو كما يصفه تلميذه السكيرج بأنه صاحب العلم الغزير. قرأ عليه رسالة ابن أبي زيد واستفاد منه.

وذكر من شيوخه أيضا جماعة عرف بها. غير أنه لم يعين المواد العلمية التي استفاد فيها والمؤلفات التي قرأها عليهم في مجالسهم العلمية وحلقاتهم التعليمية. من هؤلاء:

24 ـ محمد بن عبد السلام بن قريش.[43] درس العلم، وحلق به. وكانت له معرفة واسعة بالتاريخ والحديث والفقه والنوازل.

---

38 ـ ترجمته في تاريخ السكيرج 74.

39 ـ ترجمته في تاريخ السكيرج 62 (داود) ـ تاريخ تطوان 6 / 265.

40 ـ ترجمته في تاريخ السكيرج 75 ـ تاريخ تطوان 6 / 211.

41 ـ ترجمته في تاريخ السكيرج 68 (داود) ـ تاريخ تطوان 6 / 264.

42 ـ ترجمته في تاريخ السكيرج 68 (داود).

43 ـ تاريخ السكيرج 64.

25 ـ محمد بن محمد الجنوي.[44] وهو حفيد شيخه الجنوي المتقدم. ورد ذكره بين شيوخه ولم يعين نوعية الأخذ الذي استفاده منه، غير أنه يذكر عنه توليته القضاء بوزان.

26 ـ الفقيه محمد محراش[45] (ت. 1220). كان عالما مبرزا في عديد من العلوم. فهو عارف بالاصول والفصول، يتقن النحو وغيره، مارس التدريس والاقراء، واستفاد منه الشيخ عبد السلام السكيرج، غير أنه لم يعين ماذا أخذ عنه.

27 ـ القاضي الشيخ المامون أفيلال،[46] هو متقن لجميع العلوم والفنون، . نبغ في الادب والاخبار. كثير الانتاج والتقييد. وقد تولى قضاء تطوان، ومارس التدريس والاقراء، غير أن السكيرج وإن ذكره بين شيوخه فإنه لم يسم العلوم أو المؤلفات التي استفادها منه.

28 ـ الشيخ محمد الهاشمي أفيلال[47] كان خطيبا مفوها بارزا، بليغا في فنون العلم ممارسا للتدريس والتقييد. أخذ عنه الشيخ عبد السلام السكيرج واستفاد منه، إلا أنه لم يعين نوعية هذه الاستفادة في المؤلفات أوالمواد العلمية.

*الواجهة الثانية:*

وتمثلها لائحة الإحالات الواردة مع هذه المشيخة ومع نشاطها العلمي والتعليمي ـ على المواد التعليمية التي تدرس، فتسمي المصنفات التي كان يعتمد عليها في إجراء الدرس وتحصيل مواد هذا العلم أو ذاك.

إنه من أول نظرة في هذه المشيخة ستتبين لنا أن مادة الدرس التي شغلت رجالها قد قامت على مجموعة من العلوم، لا محيد للدارس المسلم في بيئة المغرب في الأخذ بها والاعتماد عليها في التكوين والتربية العلمية والدينية والمهنية. هذه العلوم هي القرآن وعلومه، والتفسير والحديث ومصطلحه، والأصول والفقه والتوحيد والنحو والتصوف والادب والحساب

44 ـ ترجمته في تاريخ السكيرج 70.

45 ـ ترجمته في تاريخ السكيرج 67 (داود) أزهار البستان 207 ـ تاريخ تطوان 6 / 210.

46 ـ ترجمته في تاريخ السكيرج 64 (داود) ـ تاريخ تطوان 6 / 283.

47 ـ ترجمته في تاريخ السكيرج 66 (داود) ـ تاريخ تطوان7 / 10.

والتوقيت.

هذه هي العلوم التي كانت رائجة في بيئة المغرب عامة، وبيئة تطوان خاصة. وكل علم منها كان يعتمد في تدريسه على مجموعة من المؤلفات، قد تنفرد به هذه المنطقة دون غيرها.

1 / فبالنسبة لعلم الفقه نجد أن المغرب منذ القرن التاسع للهجرة قد استقل فيه درس الفقه المالكي بمختصر الشيخ خليل،[48] فتتوارى بجانبه بقية المنصنفات الأخرى كالمدونة أو تهذيب البَرادِعِي،[49] ومختصر ابن الحاجِب الفَرْعِي.

ومختصر خليل هو مادة مختصرة جدا لفروع الفقه المالكي. فهو مختصر من الدرجة الرابعة، إذا ما قيس بنص المدونة لسَحْنون، إذ هو شبه مختصر لمختصر ابن ابن الحاجب الفرعي، ومختصر ابن الحاجب هو شبه مختصر للتهذيب، وتهذيب البرادعي هو مختصر للمدونة. ولذلك كان مختصر خليل مادة مركزة لا تفصح عن ذاتها إلا بشرح يضيف ما غاب مع الاختصار ويوضح ما عقّدته عملية التركيز هذه.[50]

وقد اتسع الدرس الفقهي بمختصر خليل في مجالس تطوان التعليمية وغيرها من مجالس الدرس في بقية حواضر المغرب وبواديه. فاعتمد في ذلك بالدرجة ا لأولى المختصر الخليلي بشرحي الشيخين محمد الخرشي[51] (ت.1101) وعبد الباقي الزرقاني[52] وهما شارحان مصريان. ومن الغريب أن تكون الشروح المصرية لمختصر خليل مثل شرح بهرام،[53] والتتائي[54]

48 - توفي خليل عام 776 تنظر ترجمته في الفكر السامي 2 / 243.

49 - راجع عن البرادعي: الفكر السامي 209/2

50 - راجع عن مختصر خليل ومسائله، وعامة من شرحه: الفكر السامي 2 / 244.

51 - تنظر ترجمته في الصفوة 205 - نشر المناني - الفكر السامي 2 / 284.

52 - تنظر ترجمته في خلاصة الأثر 2 / 287 - معجم المطبوعات المغربية 140 والمراجع المذكورة، واشتهر أيضا شرح ولده محمد الزرقاني (ت.1128) عند مالكية المغرب وغيره.

53 - توفي بهرام الدميري عام 805. راجع ترجمته في الفكر السامي 250/2.

54 - راجع ترجمته في شجرة النور 272.

(ت.942) وعلي الأجهوري[55] (ت.1066) ومحمد الزرقاني[56] (ت.1128)، وغيرها هي الرائجة في ساحات الدرس الفقهي بالمغرب، سواء في تطوان أو في بقية حواضر المغرب، وتتناسى شروح المغاربة، مع العلم أن عددا كبيرا من شيوخ المغرب قد باشروا درس المختصر الخليلي إما بالشرح أو التعليق أو التحشية.[57]

على أن درس المختصر الخليلي في تطوان إن كان يتم بشرحي عبد الباقي الزرقاني والخَرْشي، فإنه كان في كثير من الأحيان تتم الاستعانة بحاشية محمد بن الحسن بناني[58] التي وضعها على شرح الزرقاني المذكور، وسماها: الفتح الرباني لما ذهل عنه الزرقاني.

وقد كانت هذه الحاشية زيادة على جودتها وإتقان عمل صاحبها الفقهي فيها - من الأهمية بمكان، لأنها لا تكتفي بإضافة ما أغفله الزرقاني أو ما لم يتنبه إليه، ولا تقتصر على ممارسة ما كان بحاجة إلى الشرح وإنما حاولت أن تحاسب ما أخل به الزرقاني وأن تصحح ما خرج به اجتهاده الفقهي. ولذلك كانت حاشية محمد بن الحسن بناني هي مجابهة الاجتهادين المغربي والمصري عند المتأخرين في الفقه المالكي.

ومن هذه الناحية اشتهرت هذه الحاشية عند المغاربة وأهلتها لتكون مادة للدرس الفقهي في المجالس العلمية في تطوان وفاس وبقية حلقات الدرس في المغرب. بل أهلت صاحبها محمد بن الحسن بناني ليشتهر بين فقهاء المغرب ومؤلفاتهم الفقهية بالمحشي.

---

55 - راجع ترجمته في شجرة النور 303.

56 - راجع ترجمته في شجرة النور 317.

57 - تشتهر منها شروح المواق المسمى الاكليل والتاج، وابن الازرق المسمى شفاء الغليل، وابن مرزوق الحفيد المسمى المنزل النبيل في شرح مختصر خليل. وشرح ابن غازي وابن رحال المعداني، وابن عبد الصادق الدكالي الفرجي، والتاودي بنسودة، وغير ذلك.

58 - توفي محمد بن الحسن بناني عام 1194. تنظر ترجمته في: السلوة 1 / 161، الفكر السامي 2 / 292. فهارس علماء المغرب 3 / والمراجع المذكورة. وقد طبعت هذه الحاشية بمصر.

وقد كان شرح الزرقاني مجال تحشية واسعة في عمل الشيخ محمد الرهوني الوزاني[59] (ت.1230) فكتب عليه كتابه: أوضح المسالك وأسهل المراقي إلى سبك إبريز الشيخ عبد الباقي.[60]

ومع خليل وشروحه كانت هناك بعض المصنفات الفقهية مما تمّ الاعتماد عليها في مستوى من مستويات الدرس الفقهي، مثل رجز ابن عاصم المسمى تحفة الحكام، والرسالة لابن أبي زيد القيرواني، واللامية الزرقانية، ورجز ابن عاشر المسمى بالمرشد المعين، وهي مصنفات جرى الاعتماد عليها بجانب درس المختصر الخليلي، فلم تزاحمه على اعتبار أنها تناسب المبتدئين والمشاركين في الفقه، بينما يبقى درس المختصر وشروحه المطولة، يناسب الفقهاء ومن يرغب في الاختصاص بالفقه.

والملاحظة الجديرة بالذكر أن درس الفقه غالبا ما يقوم على طريقة المناظرة، وهي عملية تربوية تستهدف مصادمة النصوص فيما بينها ومحاكمة الأقوال والاجتهادات بعد معارضتها. ولذلك لا تستبعد استحضار بقية الشروح والحواشي المغربية والمصرية في درس المختصر الخليلي في مجالس تطوان، بجانب الشروح السابقة الذكر، لينعم الدرس بآفاقه العلمية المنفتحة، ويعطي نتيجته باستحضار المواقف الاجتهادية وتقرير الاحكام النهائية حولها.

ومع الفقه كان لكتب الوثائق رواج كبير في تطوان، سواء في تلقي صنعة التوثيق أو في استخدام نصوصها وإتقان تداولها واعتماد رسومها.

2 / وبالنسبة لبقية العلوم الاخرى[61] فقد كان للحديث حضور بارز في مجالس الدرس بتطوان. فكانت كتب الصحيح وبخاصة البخاري ومسلم تقرأ سردا للتبرك، وتقرأ دراية لتفهم متونها واستحضار ما انبنت عليه من المزايا والأحكام. وبجانبها أيضا كان يجري الدرس إلى كتاب الشمائل الترمذية

---

59 - له ترجمة في شجرة النور 378. الفكر السامي2 / 296. معجم المطبوعات المغربية 133 والمراجع المذكورة.

60 - طبعت هذه الحاشية أكثر من مرة.

61 - يتم الاعتماد هنا على ما ورد متفرقا في تراجم الرجال ضمن تاريخ السكيرج.

والاربعين النووية وبعض كتب السيرة.

وكان للنحو في كتاب الخلاصة لابن مالك وشروحها وحواشيها وشروح شواهدها، مع مقدمة ابن آجروم وشروحها - درس متسع استأثرت به هذه المصنفات لتكون المجال الذي يتم به التفقه في النحو واتقان اللغة وقواعدها.

ومع هذه العلوم والمصنفات كان هناك درس التفسير، وهو يجري في الغالب على تفاسير ذي الجلالين والبيضاوي، والتسهيل لابن جزي وغيرها من مشاهير كتب التفسير.

وكان هناك درس الادب والرقائق والتصوف فيأخذ بمصنفات زروق كالنصيحة والوظيفة على اعتبار أنها متون تعرض نصوصها وتشرح لغتها ومعانيها، ويأخذ بنصي البردة والهمزية للبوصيري فيكون مجال درسها قائما على النظر فيها وتفسير الغامض منها.

# «تطوان في عيون الزوار»

ذة . سعاد الناصر
كلية الآداب بتطوان

ـ لا شك أن مدينة تطوان كانت مزار العديد من الأدباء والعلماء الذين كانوا يقصدونها لمجموعة من الأسباب سوف نتعرض لذكر بعضها.

والنصوص التي تصف تطوان ورياضها وشاطئ بحرها ومجالس علمها وأدبها ومصنفات تعليمها كثيرة ومتنوعة في القرن الثامن عشر، سواء الذي نظمه وألفه أصحاب المدينة ـ أو الذي ألفه ونظمه زوار هذه المدينة العتيقة من الأجانب أو العرب أو المغاربة. وموضوعنا يرتبط بالنصوص التي أبدعها بعض زوار تطوان خاصة تلك التي يصورون فيها حالتها التعليمية والثقافية والاجتماعية. والإطار العام الذي تدخل فيه هذه النصوص هو إطار أدب الرحلة. ونعني بالرحلة، الرحلة التي قام بها صاحبها فعلا لأنها الأصل في هذا النوع الأدبي. وسوف ننطلق من فرضية معينة تقوم على أن الرغبة الذاتية أو الإثارة الداخلية هي التي توجه الكاتب نحو قصدية تأسيس كتابة متفاعلة مع رؤية مسبقة يريد الكاتب تحقيقها، وبالتالي إقامة تواصله مع المتلقي على أساس المرجعية التي تحدد سيرورة العمل المحكي.

وسوف نقتني نصوصا من جملة نصوص كثيرة تقدم لنا ثلاث صور مختلفة من الناحية الأدبية والعلمية والاجتماعية. كل واحدة منها تتجه نحو قصدية معينة.

الصورة الأولى يقدمها لنا محمد بن الطيب العلمي في كتابه:

«الأنيس المطرب فيمن لقيته من أدباء المغرب».

الصورة الثانية للشيخ عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري من خلال رحلته التي انطلق فيها من الجزائر.

الصورة الثالثة للشيخ محمد الزبادي الفاسي وهي كامنة في كتابه: «سلوك الطريق الوارية في الشيخ والمريد والزاوية».

لكن قبل أن نتعرض لهذه النصوص ولاصحابها لنستخلص

منها ما يمكن استخلاصه لا بد أن نذكر الأهداف والبواعث التي حفزتهم لزيارة تطوان خاصة وأنها كما يقول عنها مؤرخ تاريخها العلامة محمد داود:

«ليست بها مشاهد مشهورة أو آثار قديمة تجلب الناس لزيارتها والتفرج عليها، ولا أماكن مقدسة يقصدها الأخيار للتبرك بها والتمسح بأعتابها، كما أنها ليست مركزا تجاريا يتسابق محبو المال لعمارة أسواقها واستغلال أرباحها»[1]. وإذا كان الامر كما يصوره داود فلابد أن تكون هناك أهداف وبواعث أخرى هي التي حفزتهم للزيارة. ذلك لان البواعث النابعة من رغبة ذاتية يراد إشباعها هي التي تحدد الشرط الاساس لتدوين الزيارة أو كتابة الرحلة. بل يمكن القول مع أستاذنا د. محمد الكتاني أن: «تلك البواعث هي التي تجعل الكاتب يتكلم عن أشياء ويسكت عن أخرى بل تجعله ينتبه إلى أشياء ولا يعير التفاتا للاخرى»[2].

لذلك نجد بالنسبة لهؤلاء الزوار أنهم ينتقون ما يزيدون أن يروه ويذهبون إلى الأماكن التي كانت هي الحافز أو الدافع الذي دفع بهم إلى السفر.

فهذا ابن الطيب العلمي باعثه لزيارة تطوان أدبي محض. فهو ينظر إلى تطوان نظرة العاشق ويراها بعين الأديب المرهف فيصف جمالها وجمال رياضها كما يصف مجالس أدبها ونوعية القصائد التي تروى فيها. وله فيها قصيدة طويلة نقتطف منها هذه الأبيات لنرى مدى إعجابه بها وحتى يتضح لنا أكثر أن الدافع الأدبي والاشتياق الفني والجمالي هو باعثه على الزيارة:[3]

| | |
|---|---|
| ألا قل لتطوان مقالة ذي عذر | فتى هاجه من ساكنيها هوى عذري |
| أيا بلدة حن الفؤاد لذكرها | كما حن طير ذو فراخ إلى وكر |
| ويا جنة من كل عم وجنة | رأت أعيني الأنهار من تحتها تجري |
| يمينا بما ألبست من حلل البها | وما فيك من زهر ومن أوجه زعر |

1 ـ تارخ تطوان، المجلد الثالث. الفصل الرابع، ص. 117.

2 ـ تطوان في عهد الحماية، تطوان من خلال رحلة أمين الريحاني سنة 1939، ص. 219.

3 ـ الأنيس المطرب، طبعة حجرية، فاس. ص. 276.

لقد حزت حسنا باهرا وشمائلا أرق من أنفاس الشمال إذا يسري
بلاد إذا أخبرت عنها وبحرها فقل ما تشاء وحدث عن البحر
حللت بها صفرا ليدين من الهوى فأمسيت من غزلانها عامر الصدر
وأصبحت في صدر المحبين قدوة ولولم أجيء تطوان ما كنت في الصدر
ويكفيك من هذي المحامد أنها على ما حوت من حسنها بلد الثغر

إلى آخر القصيدة التي يذكر فيها سبتة وأسرها والكفر المنتشر بأرجائها. ونرى أن هذه القصيدة تسعى مباشرة إلى استدراج المتلقي للإحساس بالعاطفة الجياشة التي شعر بها الشاعر تجاه هذه المدينة التي يصفها بالحسن والبهاء والرقة.

أما ابن حمادوش الجزائري فكان هدفه الأساس من الرحلة علمي وتعليمي. ولذا فهو لم ير في تطوان إلا مساجدها وشيوخها وعلماءها والكتب التي تدرس في مجالس علمها. بمعنى أن عملية السرد انصبت على وصف هذه الفضائات العلمية أكثر مما التفتت إلى غيرها من الفضاءات لأنها كانت الهدف من السفر.

أما الشيخ الزبادي الفاسي فكان باعثه صوفي، فهو في زيارته لتطوان اتصل بمجاذبها ومتصوفيها فوصفهم ووصف أحوالهم كما حرص أن يسجل زيارته لزواياها وأضرحتها وانسياقه وراء المظاهر الخرافية بإعادة كتابتها لتأكيدها.

ولذلك نرى أن قيمة مثل هذه النصوص تكمن في ربط الغاية من السفر بالفضاءات الثقافية والفكرية والاجتماعية التي كان الزوار يتحركون داخلها ويصفونها ويجدون رغبتهم فيها.

**1 ـ محمد بن الطيب العلمي:**

ذكر ابن الطيب تطوان في سياق ترجمته للأديب ابن سليمان ويمكن للباحث من خلال حديثه أن يكشف عن ثلاث محاور استقطبت اهتمامه:

1 ـ لقاؤه بأدباء تطوان ووصف هذا اللقاء وفرحته به والقصائد التي أنشدت فيه. ويقول مصورا لقاءه بالأديب ابن سليمان: «وفي عشية ذلك اليوم، اجتمعت للقائه القوم، فخرجنا لملاقاته، وجيش الأشواق مكبا على ساقاته. ولما رآني ترجل ورفع عقيرته وارتجل:

أهلا وسهلا بك يا ذا الذي زار وقد أضجر من بعده

سيسلمون الناس مالهم ويبذلوا الأرواح من بعده
يافوز من فارق أوطانه فالسيف لا يعمل في غمده

ثم دنا مني وشمل الافراح مؤتلف، وعانقني معانقة اللام للألف، ثم سرنا حتى وافينا داره ودخلنا فكان قمرها وهي الدارة، فاستنشدني القصيدة السابقة[4] وأعجب بمعانيها.. إلى آخر النص الذي يقدم لنا صورة واضحة عن مثل هذه اللقاءات التي تمت بينه وبين أدباء تطوان.

2 ـ المجالس الأدبية التي حضرها والمواضع التي كان الحديث يدور حولها من حكم ومواعظ وشعر وفكاهة وغير ذلك من فنون القول التي كانت شائعة في ذلك العهد في مثل هذه المجالس والتي تبين لنا ما كان عليه من رهافة حس ولطافة شعور.

3 ـ أما المحور الثالث الذي استقطب اهتمامه فهو وصف النزهات التي كان يقوم بها مع بعض الأدباء من أهل تطوان إلى الحدائق والعرصات. يقول: «وفي يوم من أيام الاجتماع اشتاقت الأسماع إلى السماع، فأمر بي حفظه الله إلى حديقة وريقة، أوجه أفقها صقيلة شريقة، بها ما شئت من عبير وطيب، وغصن كقوام المحبوب رطيب، وحمام يشدو على منابر الأشجار كالخطيب.وقال لي سر إلى محل النزهة، وسأوا فيك إن شاء الله بعد برهة، فسرت صحبة الخليل المشكور. سيدي محمد العربي أبريل المذكور، حتى انتهينا إليها على شاطئ البحر، والأزهار قد حفت بها حفوف العقود بالنحر..» والنص طويل يصف فيه هذه النزهة التي قام بها. والملاحظ على هذا النص أنه يعكس شعور الكاتب وأحاسيسه أكثر مما يعكس أو يصف النزهة في حد ذاتها. وهذا يؤكد لنا أن النص مقصود في ذاته لإشباع رغبة داخلية في إنشاء صورة مليئة بالتخيلات عن مكان في ذهن الكاتب أكثر مما هو في الواقع، ولذلك نراه يكثر من الاستعارات والتشبيهات بشكل يضفي على المكان صورة خيالية رائعة.

وهذه المحاور الثلاثة تبين لنا أن تطوان كانت بالنسبة لابن الطيب مجلسا أدبيا ومنزها شاعريا وأديبا صاحبا.

---

4 ـ القصيدة مطلعها

نظمت من الأشعار ما بهر الخلق & فأظهرت لي فرقا توهمته فرقا

ويذكر العلمي في كتابه أن زيارته الأولى لتطوان كانت من أجل طلب العلم وأخذ الاجازات عن علمائها وشيوخها يقول: «وقرأت بتطوان على عالمها وإمامها وبركتها قطب رحاها وشمس ضحاها الشيخ الامام العلامة العامل أبي الحسن سيدي الحاج علي بركة»

ولكن زياراته الأخرى كانت اشتياقا منه لمجالس الأنس والأدب وإعجابا بأدبائها وبالجو الثقافي العام الذي كان يسودها.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن صاحب الأنيس وهو يؤلف بعض أجزائه خاصة المتعلقة بتطوان لا شك أنه كان يحاول إحياء الماضي والعيش فيه وفي أحاسيسه ومشاعره. ونضع أيدينا هنا على طبيعة الرغبة الذاتية التي تنتاب الراوي أو المؤلف لتقديم تجاربه وأحاسيسه للآخر. وبالنسبة للعلمي فإن بعد المسافة بين زمن الحكي وزمن الزيارة جعلته يجنح إلى موروثه الثقافي العام لينقل مشاعر وأحاسيس وتجارب غيره. وهو يفعل ذلك إما لأن ذاكرته خانته فاستدعى تجارب الآخرين لحكيها والعيش فيها، وإما من أجل نشوة الاقتراب من دائرة الماضي المشرق، وبالتالي فهو يحاول إقامة حوار الحنين بين واقعه الذي تحيط به ظروف سياسية واجتماعية وثقافية معينة وبين ماض يمثل القوة والتقدم والازدهار والمقارنة بينهما دون وعي منه. وهذه الملاحظة يمكن أن نسحبها على مؤلف العلمي ككل وليس على الجزء المتعلق بتطوان فقط.

**2 ـ ابن حمادوش الجزائري:**

إن دافع ابن حمادوش العلمي كان يبعث به على الاهتمام بأمر واحد وهو الإقبال على الدروس وأخذ الإجازات عن العلماء الذين كانوا يدرسون في جوامعها. ولهذا نرى أن أول ما أقبل عليه حين وصل الاجتماع بالشيوخ والعلماء وحضور مجالس دروسهم والرواية عنهم[5]. فذكر أنه اجتمع بالشيخ أحمد الورزيزي في جامع لوقاش وسمع منه أوائل صحيحي البخاري ومسلم وموطأ مالك مع أسانيده في الكتب المذكورة، كما درس عليه التفسير والاصول ومختصر الشيخ خليل، كما ذكر أن الشيخ أحمد السرايري أجازه بعد أن درس عليه ألفية العراقي

5 ـ تاريخ تطوان، مرجع سابق، ص. 149.

في السيرة النبوية. ومن العلماء الذين أجازوا الشيخ محمد بن عبد السلام بناني الفاسي الذي كان يدرس بالزاوية الناصرية صحيح البخاري. وهذا الشيخ كان قد وفد إلى تطوان وعاش فيها سنين عديدة يدرس في جوامعها التفسير والنحو وهو شيخ العلامة التاودي بن سودة والشيخ محمد بن الحسن بناني وجسوس والهلالي وغيرهم[6]. ومن خلال تتبع الشيخ الجزائري لبعض مجالس العلماء ودروسهم فيها، نقترب من الصورة العامة للحالة التعليمية السائدة في الفترة، حيث هيمنت عليها مصنفات معينة في الفقه والتفسير كما غابت عنها علوم أخرى كعلوم الحساب والطب والهندسة. ولذا يرى ابن حمادوش أنه لم ير من يبحث عن هذه العلوم في تطوان فضلا عمن يتقنها[7]. ومجالس العلم والعلماء هي الصورة التي كان يبحث عنها ابن حمادوش واتجه إليها ولم ير أو يبحث عن سواها لأنها كانت الغاية من سفره. ورغم أن بؤرة اهتمام الشيخ كانت منصبة على الجانب العلمي والتعليمي -كما قلت- إلا أن هذا لم يمنعه من انتقاد بعض الأوضاع التي لم تعجبه في تطوان. يقول متحدثا بمرارة ومصورا المعاملة التي تلقاها عند الحدود: «ثم يتخلصون إلى أكل أموال الناس بالباطل فيفتحون كل ما معك ويأخذون خمسة لكل مئة مكسا وتدفع من يدك زائدا على الخمسة أجرة العدول والعساس والحمال وغير ذلك..». كما أنه لم يمنعه من ذكر بعض الأحداث التي مرت به في تطوان. وإن كانت حكايته لها من أجل استكمال الإطار العام لرحلته وتتبعا للنهج الذي سارت فيه الرحلات التراثية السابقة.

الشيخ محمد الزبادي:

وهذا الزائر يمثل نوعية أخرى من الزوار كان باعثهم يختلف عن الأدب والعلم. ولذا فإن باعثه كان صوفيا. أي أن سفره إلى تطوان كان بغية الاستفادة من لقاء مجاذيبها والتبرك بزواياها. وقد عقد فصلا في كتابه «سلوك الطريق الوارية...» ذكر فيه من لقيه من المجاذيب ووصفهم ووصف أحوالهم وما جرى له معهم. والظاهر أن هذه الفئة من الناس

---

6 - تاريخ تطوان، مرجع سابق، ص. 149.

7 - نفسه، ص. 142.

كانت تشكل ظاهرة في المجتمع التطواني في ذلك العهد. فقد كان الناس يتبركون بهم ويعتقدون في كراماتهم ويتناقلونها ويؤمنون بكلامهم ويطبقونه. يقول الشيخ[8]: «وممن لقيته بتطوان أيضا المرابط المجذوب الخير الناسك المقعد أبو محمد عبد الله الحاج البقال القاطن بتطوان زرته رحمه الله تعالى ورضي عنه بداره فوجدته رجلا صامتا هينا لينا رطب الكلام...» وبعد وصف المجذوب وصفا طويلا تبين لنا مدى إعجابه بشخصيته يقول: «فخرج عندي ولده وقال لي يا سيدي سر إلى بعد الصلاة حتى تفرغ الدار من النساء... أما الآن فإنه مشغول مع النساء... فإذا بالنداء عليه من داخل الدار والنساء يخرجن أفواجا فدخل وخرج وقال لي: إن النساء أعطاهن السيد الفاتحة... ولما فرغت الدار من النساء أدخلني، فدخلت ووجدته على الحالة التي وصفت فسلمت عليه... إلى أن يقول: «ثم رفع يديه للفاتحة ولما فتح أمرني بزيارة ثلاثة من رجال أهل البلد الأموات فخرجت من عنده لزيارتهم وهم سيدي السعيدي وسيدي المنظري وسيدي على الفحل رضي الله عنهم ونفعنا ببركتهم وسقانا من مددهم... ولما زرتهم ورجعت وأنا في هيام إذ فتح الله علي في أبيات فقلت:

قسما بكم وبحقكم وبجاهكم لاحلت عن عهد لكم أبدا

إلى آخر الأبيات التي تبين لنا مدى التعلق الذي كان بالسادات والأضرحة والذي كان يفضي بهم في بعض الأحيان إلى الشرك.

ومن خلال هذا النص نستشف صورة لجانب من جوانب الحياة الاجتماعية في تطوان وهي زيارة المجاذيب وقبور الأولياء فنرى أن بعض رجال تطوان ونسائها كما يذكر الكاتب كانوا يقصدون المجذوب الحاج البقال للتبرك به والانتفاع بتوجيهاته. وهذا يكشف عن الروح الخرافية السائدة في بعض طبقات المجتمع التطواني الذي يجد عزاء في الاعتقاد بالكرامات وتناقلها وحكيها.

وأعتقد أن ظاهرة زيارة الأضرحة والأولياء كانت عامة عند معظم زوار تطوان من المسلمين. فهذا ابن الطيب يحكي أنه قبل

---

8 ـ نفسه، ص. 156.

دخوله المدينة زار الشيخ عبد السلام ابن مشيش يقول: «ثم قادني زمام الألم إلى صاحب العلم فانتهيت إلى ضريحه واستروحت شمول راحه وشمال ريحه». كذلك الشيخ ابن حمادوش الذي يذكر أنه ذهب لزيارة ضريح سيدي علي الريفي الموجود بمدشر كيتان للتبرك به.

والخلاصة التي يمكن أن نستخلصها من تتبع مثل هذه الزيارات، أن كل زيارة كانت تمثل اتجاها كان موجودا في المدينة أو تيارا أو جانبا من جوانب الحياة فيها.

والطابع العام الذي يطبع النصوص أو الملاحظة العامة التي يستنتجها متلقي هذه النصوص التي استعرضنا نماذج منها، هي رغبة أصحابها في تدوين كل ما يتصل باهتماماتهم ضمن الفضاءات التي يتحركون داخلها. كما أنها نماذج تعطي للمؤرخ مادة غزيرة ووثيقة مهمة من وثائق التأريخ الأدبي للمدينة.

# الكلمة الختامية

ألقاها الأستاذ محمد بوكبوط

حضرات السيدات والسادة الأساتذة الأجلاء
الاخوة الطلبة
حضرات السادة المهتمين.

لقد وعدت مجموعة البحث في التاريخ المغربي والأندلسي ووفت بوعدها، فها هي الندوة الثالثة الخاصة بتاريخ تطوان تختم أشغالها، محققة بذلك خطوة أخرى في تحقيق مشروع المجموعة المتمثل في محاولة نبش مكونات تاريخ هذه المدينة.

لقد حرصت المجموعة والسادة الأساتذة المشاركون على ألا تنحصر مواضيع الندوة في المجال التاريخي الحدثي، بل جاءت العروض متنوعة ومستفية مادتها من مصادر جديدة، بشكل يحقق أحد أهم أهداف تنظيم هذه الندوات من طرف المجموعة.
إن كل الأعمال المتنوعة التي قدمها السادة الأساتذة المشاركون قد عكست الجدية والحرص العلميين اللذين تبناهما المشاركون من أجل إنجاح هذه التظاهرة العلمية.

إن مجموعة البحث في التاريخ المغربي والأندلسي، وباسم أساتذة شعبة التاريخ، تتقدم بأخلص تشكراتها لجميع الأساتذة الباحثين على إسهامهم العلمي وعلى صبرهم وتحملهم متاعب السفر تلبية لنداء البحث العلمي. كما نتقدم بجزيل الشكر إلى السيد عميد جامعة عبد المالك السعدي، والسيد قيدوم كلية الآداب بتطوان، اللذين ما فتئا يقدمان كل الدعم للنشاط العلمي بالمؤسسة.

ولا يفوتنا أن نشكر السيد عامل إقليم تطوان، والسيد مدير معهد سربنطيس والسيد مدير المركز الثقافي الفرنسي بتطوان.

كما نشكر موظفي وأعوان الكلية الذين يتجندون دائما لانجاج أعمال الندوات، وإلى الإعلاميين والصحفيين الذين غطوا الأعمال، وإلى الطلبة والمهتمين على حضورهم وتتبعهم أعمال الندوة.

وقبل اختتام هذه الكلمة، نود رفع بعض التوصيات التي أثارها المشاركون، وعلى رأسها جعل الوثائق والمخطوطات الخاصة رهن إشارة الباحثين قبل اندثارها والعمل مع الجهات المعنية على المحافظة على المآثر العديدة للمدينة والتي تعود إلى مختلف العصور والمهددة بالإتلاف والاندثار. وختاما، نعدكم أن جذوة حماس مجموعة البحث في التاريخ المغربي والأندلسي ستبقى متقدة حتى تنجز الندوة الرابعة من سلسلة ندواتها حول مدينة تطوان التي ستقام بمناسبة مرور خمسة قرون على إعادة تأسيس المدينة، وعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم.

# *Tétouan au 18ème siècle (1727-1822)*

Actes du Colloque ; Tétouan au 18ème siècle
Organisé du 21 au 23 Octobre 1993

## SOMMAIRE

# Los sucesos ocurridos en Río Martín a mediadas de febrero de 1794

Dr. Mariano Arribas Palau
Universidad Autónoma de Madrid

El falucho "San Antonio y Animas", de la matrícula de Ceuta, del que es patrón Francisco Escalona, llega al puerto de esta ciudad el día 13 de febrero de 1794, procedente de Río Martín, a donde había ido a cargar naranjas y otros víveres.

A su llegada al citado puerto de Ceuta, el patrón Francisco Escalona da parte al gobernador general de la plaza, conde de Santa Clara[1], de que el gobernador de Tetúan, Muhammad b. Utman[2], había avisado el día 12 al anochecer a los patrones españoles, ingleses, portugueses y genoveses de los barcos surtos en Río Martín que "procurasen ponerse en franquía, porque tenía noticia estavan sublevados los montañeros".

Inmediatamente inciaron todas las maniobras oportunas para salir del río.

A la una de la noche, hallándose los barcos frente a Río Martín, se apercibieron de que el fuerte situado a la entrada del río estaba cercado por mucha gente, empezando de una parte y otra un vivo fuego, que duró hasta las cuatro de la mañana.

Al amanecer se dirigieron los marroquíes a todos los barcos que se hallaban en el río, sin poder salir por causa del tiempo y de la barra.

Francisco Escalona logró que su falucho remontase la barra, con lo cual pudo salvar a su tripulación, a tres marineros del barco nombrado "La Pastora", del que es patrón Andrés Márquez, a un marroquí que iba en dicho barco y a otros tres marineros del falucho "San Antonio y Animas", de la matrícula de Estepona, cuyo patrón es Simón Escudero. A su presencia fue muerto un

---

1 - Juan Procopio de Bassecourt y Bryas fue el segundo conde de Santa Clara y barón de Mayals, gobernador de las plazas de Ceuta, Gerona y Cádiz y capitán general del principado de Cataluña y de la isla de Cuba. Era hijo de Procopio de Bassecourt y Thieulaine, primer conde de Santa Clara, y de Catalina Inés de Bryes y López de de Ulloa. Cf. : A. y A. García Garraffa, Diccionario Heráldico y Genealógico..., t. 13, Madrid, 1924, p. 11.

2 - Muhammad b. \`Utman fue nombrado gobernador de Tetuán y encargado de las relaciones con los cónsules europeos a finales de octubre de 1792. Véase mi comunicación "Muhammad b. \`Utman designado gobernador de Tetuán a finales de 1792", en **Hespéris-Tamuda**, vol. III (1961), I fasc., pp. 113-127.

marinero inválido llamado José Díaz, al que le cortaron la cabeza, y fue herido Manuel Márquez, hijo del patrón de "La Pastora", que era uno de los que lograron salvarse.

Cuando hacía rumbo a Ceuta, el patrón Escalona pudo observar que los montañeros tenían puesto cerco a Tetuán y llenaban toda la campiña.

Al recibir esta información, el conde de Santa Clara ordenó al teniente Manuel González, comandante del jabeque correo "San Francisco de Paula", que saliese en un falucho para intentar salvar a los españoles y a sus buques, que habían quedado en Río Martín.

En cumplimiento de esta orden, el teniente Manuel González se hizo a la vela a bordo del falucho "San Antonio y Animas". Una vez remontada la punta de Negron para reconocer toda aquella costa y el castillo de Río Martín, le llamó a su bordo un barco inglés, cuyo patrón, Angelo Gabaza, genovés, le manifestó que no debía pasar adelante, porque todos los montañeros se habían sublevado y se habían adueñado de Río Martín, de toda su ría y de la campiña, teniendo cercada a Tetuán. Añadió el patrón Gabaza que a los barcos que se hallaban fondeados en Río Martín, a unos los habían quemado y a otros los habían hecho pedazos, robando todo lo que había en ellos.

En vista de estas manifestaciones, el teniente González decidió regresar a Ceuta y dar cuenta de todo al gobernador, conde de Santa Clara[3].

Este reitera entonces sus órdenes encaminadas a evitar cualquier sorpresa y a ejecutar cuanto contribuya a la seguridad de la plaza.

El conde de Santa Clara informa de todo al duque de la Alcudia[4], al marqués de Vallehermoso, capitán general de la Cost:

---

3 - El parte del teniente Manuel González al conde de Santa Clara está fechado en Cueta el 14 de 1794 y se conserva original en A.H.N. [Archivo Histórico Nacional, Madrid], sección de Estado, legajo 4334, caja 1.

4 - En carta fechada en Ceuta el 15 de febrero de 1794, que se encuentra original en A.H.N., Estado, leg. 4334, caja 1.

Manuel de Godoy y Alvarez de Faria, duque de la Alcudia, fue nombrado primer secretario de Estado y del Despacho por Real Derecho fechado en San Lorenzo el 15 de noviembre de 1792 y publicado en la Gaceta de Madrid núm. 93, del martes 20 de noviembre de 1792, p. 817. Sustituía en el cargo al conde de Aranda, que lo desempeñaba interinamente desde el 28 de febrero del mismo año. Sobre Manuel de Godoy puede verse la obra de Carlos Seco Serrano Godoy. El hombre y el político, Madrid, 1978; y también Diccionario de Historia de España dirigido por Germán Bleiberg, 2ª ed., Madrid, 1968-1969, 3 vols., II pp. 213-218; Historia de España, fundada por Ramón Menéndez Pidal,

de Granada[5], y al conde de las Lomas, gobernador del Campo de Gibraltar[6], advirtiendo a los dos últimos que tomen las medidas

---

dirigida por José María Jover Zamora, t. XXXI, la época de la Ilustración, vol. I, El Estado y la cultura (1759-1808), Madrid, 1987, V, "La crisis política de marzo-mayo de 1808", por Claudette Dérozier. La resistencia en acción. La "revuelta de los privilegiados" y la crisis política de marzo-mayo de 1808, pp. 965-1000.

5 - En carta fechada en Ceuta el 15 de febrero de 1794, que se halla original en A..H.N., Estado, leg. 4334, caja 1.

El marqués de Vallehermoso era Nicolás Bucareli y Ursúa, cuarto hijo de Luis Bucareli Henestrosa y Ribera y de Ana María Ursúa Laso de la Vega. Casó con su sobrina Juana Antonia Bucareli y Baeza, hija de de José Miguel Bucareli y Ursúa, tercer marqués de Vallehermoso, y de Ana Antonia y Vicentelo. A la muerte del tercer marqués de Vallehermoso, heredó el título su hija Juana Antonia, que vino a ser la cuarta marquesa. por consiguiente, su marido, Nicolás Bucareli y Ursúa, se convirtió en marqués consorte de Vallehermoso. Cf. : A. y A. Garcá Garraffa, Diccionario Heráldico y Genealógico..., t. 19, Madrid, 1925, pp. 103-105; Julio de Atienza y Navajas, Nobiliario español, 2ª. ed. Madrid, 1954, p. 1000.

6 - En carta fechada en Ceuta el 15 de febrero de 1794, de la que hay una copia en A.H.N., Estado, leg. 4334, caja 2.

El conde de las Lomas era Miguel Porcel y Manrique. En la Gaceta de Madrid núm. 37, del viernes 8 de mayo de 1795, pp. 497-498, se da cuenta de su fallecimiento en San Roque el 4 de enero de 1795, a la edad de 75 años, y se dice de él que "sirvió a S.M. 60 años, desde la clase de Cadete, hallándose en la campaña del año de 1742 en Saboya y Condado de Niza; en toda la de Portugal de Sargento mayor de la brigada de Saboya; en el sitio y toma de almeyda ydemás funciones que ocurrieron hasta la paz. Siendo Teniente Coronel del REgimiento de Lombardía, le nombró S.M. para forma el de América, cuyo primer Coronel fue, y con él fue a establecer la disciplina militar en el Reyno de nueva España; cumplidos tres años, regresó a Europa con su REgimiento, habiendo desempeñado esta delicada y penosa comisión con el mayor acierto y desinterés : estuvo luego nueve meses en Santa Cruz de Tenerife : fue promovido a Mariscal de Campo en Junio de 1779, mereciendo le comisionase S.M. para revistar la inspección de varios cuerpos, y que le nombrase gobernador de la plaza de Ceuta, cuyo empleo sirvió cinco años : después obtuvo la Comandancia general del Campo de S. Roque, en donde ha permanecido cerca de seis años".

En la Gaceta de Madrid núm. 47, del martes 20 de noviembre de 1770, p. 394, se da cuenta de haberse ascendido a brigadier a Miguer Porcel, Coronel del regimiento de Infantería de América.

En la Gaceta de Madrid núm. 48, del martes 15 de junio de 1779, pp. 415-416, se nos informa del ascenso de Miguel Porcel a mariscal de campo, noticia confirmada en su necrología.

En la Gaceta de Madrid núm. 76, del martes 22 de septiembre de 1789, pp. 643-644, se recoge la promoción efectuada en el Ejército con motivo de la exaltación

que consideren oportunas para que no vaya ningún barco a Río Martín hasta que se aclare la situación.

España tiene en Tánger un comisionado, Antonio González Salmón, que a su vez tiene un confidente en Tetuán. Este confidente envía a un marroquí a Tánger par que informe verbalmente a Antonio González Salmón de lo sucedido en Río Martín. Según el relato de este marroquí, el día 13 por la mañana se reunió un crecido número de montañeros inmediatos a Tetuán, los cuales atacaron a la guardia que estaba de guarnición en Río Martín, con la intención de sorprenderla y así poder saquear los almacenes reales y los barcos europeos fondeados en aquel puerto. Sin embargo, la tropa de guardia ofreció resistencia a los atacantes y los barcos españoles, ingleses y genoveses surtos en Río Martín pudieron ponerse a salvo, aunque corriendo algún riesgo, gracias al aviso que les había pasado con alguna antelación el gobernador de Tetuán, Muhammad b. `Utman, quien tenía sus sospechas del atentado que maquinaban los montañeros.

Estos repitieron el ataque el mismo día por la tarde y lograron hacerse dueños de Río Martín y apoderarse de dos barcos españoles que acababan de entrar en aquel puerto, prendéndoles fuego. En este suceso resultaron muertos y heridos algunos marineros españoles.

Al enterarse Antonio González Salmón de lo sucedido, advirtiendo la absoluta falta de obediencia que mostraban los montañeros hacia Mawlay Sulayman, así como los escasos medios con que contaba este príncipe para imponer su autoridad, teme el comisionado español que los montañeros rebeldes puedan efectuar alguna correría contra la plaza de Ceuta. Además, tiene información de que el día 14 se había publicado en la provincia fronteriza a Ceuta un bando convocando a los marroquíes a reunirse en las proximidades del campo fronterizo a la plaza, aunque manifestando que el único objeto de este llamamiento consistía en contener a los montañeros, si éstos intentaban efectuar algún ataque contra la plaza de Ceuta.

De todo ello informa puntualmente Antonio González Salmón al conde de Santa Clara[7], para que tome las medidas

---

al trono de Carlos IV. El conde de las Lomas es ascendido a Teniente general. El título le fue concedido en 1784. Véase : A.H.N., Consejos, libro 2753, año 1784, n° 7; Gaceta de Madrid núm. 64, del martes 10 de agosto de 1784, p. 684.

7 - En carta fechada en Tánger el 15 de febrero de 1794, que se halla original en A.H.N., Estado, leg. 4334, caja 1. El conde de Santa Clara envía esta carta al duque de la Alcudia el 19 del mismo mes de febrero, con carta que se conserva original en el mismo legajo y caja.

oportunas a fin de evitar cualquier sorpresa de los montañeros, si bien considera que las acciones de éstos no pasarán de unas pequeñas correrías, mientras el príncipe Mawlay Sulayman se dispone a castigarlos, como es debido y merecen estos súbditos rebeldes. También recomienda el comisionado español al conde de Santa Clara que, si tiene proporción, envíe algún barquito armado a las proximidades de Río Martín para que prevenga a cualquier embarcación que se dirija a aquel puerto que no entre en él mientras los montañeros sean dueños de Río Martín, a fin de evitar que caiga en sus manos.

De esta carta envía Antonio González Salmón una copia a su hermano Juan Manuel, cónsul general de España en Marruecos, que por entonces reside en Cádiz, anunciándole el envío de una relación circunstanciada de lo ocurrido y su propósito de cursar al principe Mawlay Sulayman, aspirante al trono de Marruecos y que ve reconocida su autoridad en el Norte del país, la correspondiente representación. Considera Antonio González Salmón que el origen de estos disturbios radica en que los árabes de la región no quieren que Muhammad b. `Utman siga desempeñando las funciones de gobernador de Tetuán, asegurándose que estos árabes actúan "de acuerdo con algunos de la misma ciudad", que son los que han inducido a los primeros a apoderarse de Río Martín[8].

El confidente de Antonio González Salmón en Tetuán es Tayyib b. Amkaysad[9], el cual remite al comisionado español en Tánger un relato detallado de lo sucedido en Río Martín. Según este relato, el día 12 de febrero, a media noche, llegaron a Río Martín unos trescientos montañeros con el propósito de apoderarse de los almacenes reales y de atacar a los barcos surtos en el río. Hubo un combate entre los montañeros y la guardia de negros, poduciéndose algunos muertes, pero los montañeros se marcharon sin causar daño a ningún barco.

El día 13 salió de Río Martín una embarcación inglesa de vacío, intercambiando algunos tiros de escopeta con los montañeros, que habían vuelto de nuevo. Quedaban en Río Martín cuatro barcos españoles y uno portugués, cuyos patrones estaban en Tetuán realizando sus gestiones para conseguir cargamento. El patrón Francisco Escalona pudo escapar con su falucho de vacío, pero los restantes patrones se detuvieron hasta el medio día. Al comprobar que no había enemigos a la vista, estos patrones

---

8 - Esta carta de Antonio González Salmón a su hermano Juan Manuel está fechada en Tánger el 15 de febrero de 1794, lleva el n° 22 y se encuentra original en A.H.N., Estado, leg. 4331, caja 2.

9 - En la documentación de la época se llama "Taib ben Cachet".

intentaron salir con sus barcos de Río Martín, pero los montañeros se hallaban ocultos en las proximidades en gran numéro y persiguieron a las embarcaciones. El resultado de este ataque fue que los montañeros mataron a tiros al patrón de Estepona Simón Escudero y a dos compañeros del patrón Andrés Márquez. A todos les robaron bastante dinero y por la noche prendieron fuego a los barcos. Una parte de los demás europeos se escapó a Tetuán y otra parte la recogió el arráez marroquí al-`Arbi en su buque y en otro buque saletino, que se hallaban allí. Más tarde se envió algún socorro desde Tetuán y se emprendió un nuevo combate en el que resultaron heridos y meurtos bastantes montañeros, si bien no se pudo evitar la muerte de los tres españoles antes citados, ocurridas con anterioridad.

El barco marroquí que había podido recoger a diez españoles salió el día 16 para llervarlos a Ceuta. A los nueve que se habían refugiado en Tetuán, Tayyib b. Amkaysad los alberga en la posada, "donde se hallan bien asistidos", y les pasa tres onzas diarias a cada uno, hasta que se puedan embarcar para regresar a España. Además, se les pone una guardia de dos soldados "para que se hallen más sosegados". El citado Tayyib quiso comprarles alguna ropa, pero el gobernado Ibn `Utman no lo consintió, sino que quiso hacerlo él, de su cuenta o de la de Mawlay Sulayman, y en efecto vistió a los nueve españoles y a tres portugueses "de lienzo y paño". Muhammad ben `Utman asegura que se hará abonar a los españoles todo lo que han perdido y espera que Mawlay Sulayman se dirija a aquella región para tomar "la más completa venganza y satisfacción". Tayyib asegura a Antonio González Salmón que los montañeros lograron finalmente apoderarse de Río Martín, donde rompieron las puertas de los almacenes reales y robaron todo lo que había en ellos; y que habían incendiado un barco portugués. También se decía que había corrido la misma suerte un barco genovés, pero Tayyib no sabe con certeza si es verdad[10].

Antonio González Salmón remite a su hermano Juan Manuel una copia del relato que le hace Tayyib de los sucesos ocurridos en Río Martín, al cual añade que las miras de los montañeros rebeldes no se limitaban a robar los almacenes reales y los barcos europeos surtos en el puerto, sino que también se proponían sorprender a la guarnición de la ciudad de Tetuán, para lo cual actuaban de acuerdo con algunos habitantes de ella opuestos al gobierno de Muhammad b. `Utman, los cuales, al mismo tiempo que los

10 - Véase la carta de Tayyib b. Amkaysad a Anonio González Salmón fechada en Tetuán el 16 de febrero de 1794, de la que hay una copia en A.H.M., Estado, leg. 4331, caja 2.

montañeros se apoderaban de Río Martín, intentaban saquear la Casa de Moneda y fomentar otros desórdenes populares, lo que se pudo evitar arrestando a los principales descontentos, quedando reducidos los desórdenes a lo ocurrido en Río Martín.

El comisionado español se disponía a despachar un correo al príncipe Mawlay Sulayman para hacerle saber la felonía cometida por sus súbditos rebeldes, a fin de que los castigara en debida forma y les obligara a devolver todo lo que habían robado a las tripulaciones de los barcos españoles, para lo cual había pedido a Tetuán una relación individual de cuanto se les había quitado.

Los montañeros habían abandonado voluntariamente Río Martín a los pocos días y habían regresado a sus hogares. Muhammad b. `Utman renovó la guardia de Río Martín con sesenta hombres y algunos cañoncitos para su defensa en caso de sufrir un nuevo ataque.

A pesar de estas medidas, Antonio González Salmón entiende que ningún buque europeo puede considerarse allí en seguridad, por lo cual pasa instrucciones a su confidente Tayyib para que no permita a ningún buque de bandera española que pueda ir a Río Martín su permanencia en este río, hasta ver lo que resuelve Mawlay Sulayman. Por ello sería conveniente que los gobernadores de Cádiz, Ceuta y Estepona prohiban a los barcos de sus respectivas matrículas el tráfico con Río Martín[11].

Tan pronto como el conde de las Lomas y el marqués de Vallehermoso reciben los avisos del gobernador de Ceuta[12], toman las medidas necesarias para que de los puertos de sus respectivos mandos no vaya ninguna embarcación a traficar a Río Martín. De ello dan cuenta ambos al duque de la Alcudia[13].

Por su parte, Muhammad b. `Utman confirma al conde de Santa Clara que un barco español y otro inglés pudieron salir de Río Martín antes de que se produjera el alboroto, pero tres barcos españoles y uno portugués se quedaron en la boca del río. Los soldados de la guardia habían combatido a los rebeldes, logrando poner a bordo de un barco saletino a diez españoles. Otros nueve y

---

11 - Véase la carta nº 26 de Antonio González Salmón a Juan Manuel González Salmón, fechada en Tánger el 18 de febrero de 1794, que se conserva original en A.H.M., Estado, leg. 4331, caja 2.

12 - Contenidos en sendas cartas de 15 de febrero,antes citadas en las notas 6 y 5 respectivamente.

13 - Véase la carta del conde de las Lomas al duque de la Alcudia fechada en el Campo de Gibraltar el 19 de febrero de 1794, que se halla original en A.H.N., Estado, leg. 4334, caja 2; y la misma fecha del marqués de Vallehermoso al duque de la Alcudia, que se encuentra original en el mismo legajo 4334, caja 1.

tres portugueses pudieron escapar y fueron conducidos a la ciudad de Tetuán, donde Ibn `Utman se ocupa de tenerlos "bien agazaxados y seguros", hasta que puedan regresar a España a salvo.

También confirma Ibn `Utman la muerte de tres españoles : el patrón Simón Escudero, de Estepona, y dos compañeros del patrón Andrés Márquez, de Ceuta. Asegura el gobernador de Tetuán que esta desgracia le ha afligido de modo increible y espera "tomar fatal venganza" en plazo breve, así como lograr la recuperación de las pérdidas habidas[14].

Cuando el cónsul general Juan Manuel González Salmón recibe la carta de su hermano Antonio en que le da cuenta de lo sucedido en Río Martín[15], acuerda con el gobernador de Cádiz, Joaquín de Fonsdeviela, que no se permita salir a ninguna embarcación española con destino a Río Martín. Además, considera el cónsul español que sería muy útil, para precaver que se cometiese otro atentado, "que, mientras existe la especie de anarquía que se observa en aquel Reyno y no se fixa la autoridad de un soberano absoluto, revestido de la fuerza y poder competente que le constituya en la clase de ser temido y obedecido, se prohibiese generalmente a nuestros buques el pasar a Tetuán , permitiéndose la comunicación con los demás puertos, que todos se hallan abrigados por las respectivas ciudades de que toman sus nombres". Por lo demás, en el puerto de Río Martín, "ni ahora ni en tiempo alguno se pueden hacer otros tráficos de consideración más que la extracción de algunas frutas y aves"[16].

El gobernador de Tetuán, Muhammad b. `Utman envía poco después al conde de Santa Clara en un barco marroquí al mando del arráez al-`Arbi los doce marineros cristianos que habían podido escapar del combate de Río Martín. Tres de ellos eran portugueses y los otros nueve, españoles. Confirma Ibn `Utman que ya había enviado anteriormente en el barco saletino a los diez españoles que habían podido refugiarse en él, si bien este barco parece que fue a Gibraltar.

---

14 - Esta carta está fechada en Tetuán el 19 de febrero de 1794. El conde de Santa Clara la envía al duque de la Alcudia el día 22 del mismo mes. Ambas cartas se conservan originales en A.H.M., Estado, leg. 4334, caja 1.

15 - Se trata de la carta n° 22 de Antonio González Salmón a su hermano Juan Manuel, antes recogida y citada en la nota 8.

16 - Véase la carta n° 27 de Juan Manuel González Salmón al duque de la Alcudia, fechada en Cádiz el 21 de febrero de 1794, que se halla original en A.H.M., Estado leg. 4331, caja 2. La división de Marruecos debía durar hasta 1797. Este año fue reconocido Mawlay Sulayman en todo el país.

Promete el governador de Tetuán que sin duda alguna los damnificados en esta lamentable ocasión recuperarán todo cuanto perdieron en ella, además de la satisfacción que se tomará el príncipe Mawlay Sulayman en los montañeros rebeldes. Esto es cuanto considera Muhammad b. `Utman que está en sus facultades, "no ponderando el sentimiento [que] se cauza", y espera en Dios que no se repita[17].

El cónsul español Juan Manuel González Salmón comunica al duque de la Alcudia haber recibido informaciones de Ceuta y de Gibraltar que confirman los sucesos ocurridos en Río Martín, "suponiendo que el origen de este atentado lo ocasionó un barco marroquí que, hallándose a la sazón allí, quiso auxiliar a la guardia del fuerte de Martín, haciendo fuego a los árabes con dos pedreros, de lo que irritados éstos, embistieron indistintamente contra todos los bastimentos".

Al tener noticia de lo ocurrido en Río Martín, el intendente de Marina de la Isla de León[18], impulsado por una prudente precaución, ordenó al comisario de la matrícula de Cádiz recoger todas las licencias de las embarcaciones que tuvieron destino para la costa de Marruecos. Ante esta medida, Juan Manuel González Salmón acude al gobernador de Cádiz y le expone " que nada hay que temer ni recelar en ninguno de aquellos puertos", a excepción del de Río Martín. Entonces se vuelve a conceder licencia a los buques que, debidamente provistos de un pasaporte expedido por dicho gobernador, se dedican a transportar granos para el pósito de Cádiz.

Con objeto de regularizar el tráfico con los puertos marroquíes, el cónsul español propone que únicamente el gobernador de Cádiz esté facultado para conceder licencias a los buques que se considere oportuno pasen a los puertos de Marruecos. A los demás comandantes y jefes de las costas españolas se les debería ordenar que "nieguen indistintamente el permiso para ir" a los dominios de Marruecos, aunque podrán concederlo para ir a Cádiz a recabar sus licencias[19].

---

17 - Véase la carta de Muhammad b. Utman al conde de Santa Clara, sin fecha, pero que ha debido ser escrita el 23 de febrero de 1794, en Tetuán, que se encuentra original en A.H.M., Estado, leg. 4334, caja 1. El gobernador de Ceuta envía al duque de la Alcudia ésta y otras dos cartas de Muhammad b; Utman el 25 de febrero con un escrito que se conserva en el mismo legajo y caja.

18 - En la actualidad se denomina San Fernando.

19 - Véase la carta n° 29 de Juan Manuel González Salmón al duque de la Alcudia, fechada en Cádiz el 25 de febrero de 1794, que se halla original en A.H.M., Estado, leg. 4332.

Los sucesos de Río Martín son pronto conocidos en el Peñón de Vélez de la Gomera, cuyo gobernador, Diego Fernández de Laguna, se apresura a poner al corriente de ellos al marqués de Vallehermoso[20].

Al final de febrero del mismo año 1794, el comisionado español en Tánger, Antonio González Salmón, confirma al marqués de Vallerhermoso una carta anterior en la que le avisaba lo sucedido en Río Martín y ahora le previene que, a pesar de que los árabes rebeldes se habían retirado a sus hogares, abandonando el sitio que habían puesto a Río Martín, logrando hacerse dueños de la población, y de que el gobernador de Tetuán había puesto una tropa para la seguridad de los barcos que se dirigieran a aquel puerto, sin embargo es conveniente que no vayan a traficar al puerto de Río Martín en tanto no haya más seguridad. Cuando esto ocurra, Antonio González Salmón pasará el correspondiente aviso al marqués de Vallerhermoso[21].

En los primeros días de marzo, Juan Manuel González Salmón acusa recibo a su hermano Antonio de su ecrito del 18 de febrero[22] y de la copia que acompañaba al mismo[23], de todo lo cual deduce el cónsul español que los montañeros árabes "mataron a los que pudieron, robando quanto tenían y quemando los buques". Reconoce nuestro cónsul que en el atentado cometido no ha tenido el gobierno ninguna parte, directa ni indirecta, "antes bien, es el más ofendido". Sin embargo, "es responsable de los daños que infieren indevidamente los vasallos agresores a los de potencias amigas que, en la fe de los tratados o convenios y seguridades recíprocas, freqüentan sus territorios". Por consiguiente, el gobierno tiene la obligación de indemnizar a los

---

20 - Véase la carta de Diego Fernández de Laguna al marqués de Vallehermoso fechada en el Peñon de Vélez el 27 de febrero de 1794, a la que acompañan los partes que le ha dirigido el intérprete Francisco Ramírez los días 19 y 25 de febrero. De todos estos documentos tenemos copia en A.H.M., Estado, leg. 4334 caja 1. El marqués de Vallehermoso remite al duque de la Alcudia esta documentación anexa a su carta fechada en Málaga el 5 de marzo de 1794, que se halla en el mismo legajo y caja.

21 - Véase la carta de Antonio González Salmón al marqués de Vallehermoso fechada en Tánger el 28 de febrero de 1794. De ella tenemos una copia anexa a la carta del marqués de Vallehermoso al duque de la Alcudia fechada en Málaga el 15 de marzo de 1794, que se encuentra original en A.H.M., Estado, leg. 4334, caja 1.

22 - Es la carta nº 26, antes recogida y citada en la nota 11.

23 - Se trata de la copia de carta de Tayyib a Antonio González Salmón del 16 de febrero, cuyo contenido ha quedado antes recogido y va citada en la nota 10.

perjudicados, "dando la condigna satisfaccion a la parte ofendida, con el castigo de los delinqüentes y reparación de los perjuicios que han inferido, conforme a las reglas generales comunmente observadas y que dicta el Derecho público". Por ello le parece bien al cónsul el próposito de Antonio González Salmón de dirigir a Mawlay Sulayman la correspondiente representación y espera que esté concebida "con la energía que ser requiere", a fin de que "sirviendo de exemplar, se eviten ulteriores ocurrencias de esta naturaleza", a la vez que los marroquíes puedan apreciar claramente que España no está dispuesta a desentenderse de estos agravios.

Aprueba también el cónsul que su hermano Antonio escriba al capitán general de la Costa de Granada y al gobernador de Ceuta para que por el momento permitan que desde los puertos de su jurisdicción pase ningún barco a Río Martín. El gobernador de Cádiz ya ordenó esta prohibición desde que llegaron las primeras noticias del suceso[24].

Por las mismas fechas recibe el conde de Santa clara una información procedente de Larache, en la que se asegura que Mawlay Tayyib, hermano de Mawlay Sulayman, se ha dirigido al santuario de Mawlay `Abd al-Salam b. Masis, próximo a Tetuán, llevando consigo un corto ejército. Mawlay Tayyib debe esperar en el citado santuario al alcaide de Larache, que el 8 de marzo había salido hacia allá con trescientos soldados, y al alcaide `Abd Allah al-Qitarani[25], con la finalidad de sujetar a los montañeros que habían realizado el atentado contra Río Martín y obligarles a pagar el daño que habían causado con él y a reconocer por soberano a Mawlay Sulayman[26].

---

24 - Véase la carta de Juan Manuel González Salmón a su hermano Antonio fechada en Cádiz el 8 de marzo de 1794, de la que hay una copia en A.H.M., Estado, leg. 4331, caja 2, anexa a la n° 31 del cónsul español al duque de la Alcudia, del 11 de marzo, en el mismo legajo y caja.

25 - De él me ocupo en mi artículo "Nuevos datos sobre moros en la Alhambra en el siglo XVIII", publicado en los Archivos del Instituto de Estudios Africanos, Año VII, núm. 29, Madrid, Junio 1954, pp. 7-24.

26 - Véase la carta de Diego Ruiz al conde de Santa Clara fechada en Larache el 10 de marzo de 1794, que se halla original en A.H.N., Estado, leg. 4334, caja 1, anexa a la del conde de Santa Clara al duque de la Alcudia del 15 de marzo, en el mismo legajo y caja. En esta carta el conde de Santa Clara nos dice que Diego Ruiz era el comisionado de la Junta de Abastos de Ceuta para la compra de trigo en Larache. Estas noticias son corroboradas por el gobernador de Alhucemas en carta al marqués de Vallehermoso de fecha 20 de marzo de 1794, asi mismo en el leg. 4334, caja 2.

Otras noticias que le llegan de Marruecos al gobernador de Ceuta aseguran que Mawlay Sulyman es esperado en Tetuán y en Larache, "con motivo de recorrer sus provincias y castigar a los montañeros sublevados"[27].

A la representación que había hecho Antonio González Salmón a Mawlay Sulayman relativa al atentado cometido por los montañeros árabes en Rio Martin responde en términos que el comisionado español considera satisfactorios. Mawlay Sulayman "ha dado publicamente las mayores demostraciones de sentimiento por todo lo acontecido y se ha propuesto tomar la más completa satisfacción". Para lograr ha enviado a Tetuán a su hermano Mawlay Tayyib, acompañado del gobernador de Larache y de seiscientos soldados a caballo, que deberán permanecer alli hasta que vaya el propio Mawlay Sulayman en persona para castigar a los montañeros. Mawlay Tayyib y el gobernador Muhammad b. `Utman aseguran a Antonio González Salmón que el castigo de los montañeros "será de los más exemplares", obligámdoseles también a "restituir y pagar hasta el valor de lo más mínimo que les ha sido quitado" a los súbditos españoles. A este fin ha entregado el comisionado español una "nota circunstanciada de todo lo perdido"[28].

El cónsul Juan Manuel González Salmón envía esta carta al duque de la Alcudía y previene a su hermano Antonio "que no pierda de vista este asunto" con objeto de que se realice la satisfacción que Mawlay Sulayman ofrece dar a los españoles, "para que, sirviendo de escarmiento y exemplar, afianze la seguridad a favor de los vasallos del Rey N.S. y se evite la repetición de semejantes tropelías"[29].

En cumplimiento de órdenes recibidas del príncipe Mawlay Sulayman, su hermano Mawlay Tayyib pasa de Tetuán a Tánger, dejando en aquella ciudad cuatrocientos soldados de caballería, con instrucciones de moverse de allí hasta la llegada de Mawlay Sulayman, del cual se dice que no tardará en dirigirse a esta región. Al parecer, Mawlay Tayyib tiene orden de no salir de Tánger hasta

---

27 - Véase la carta del conde de Santa Clara al duque de la Alcudia fechada en Ceuta el 11 de marzo de 1794, que se conserva original en A.H.N., Estado, leg. 4334, caja 1.

28 - Véase la carta nº 33 de Antonio González Salmón a su hermano Juan Manuel, fechada en Tánger el 20 de marzo de 1794, que se encuentra original en A.H.N., Estado, leg. 4331, caja 2.

29 - Véase la carta nº 38 de Juan Manuel González Salmón al duque de la Alcudia, fechada en Cádiz el 28 de marzo de 1794, que se halla original en A.H.N., Estado, leg. 4331, Caja 2.

que Mawlay Sulayman haya emprendido la marcha de Mequinez[30].

El duque de la Alcudia da cuenta del contenido de las cartas del cónsul Juan Manuel González Salmón relativas a lo ocurrido en Río Martín, así como de la reclamación cursada por Antonio González Salmón a Mawlay Sulayman y respuesta satisfactoria dada por éste a la misma. El monarca español aprueba las gestiones practicadas por los dos hermanos González Salmón en relación con este asunto y encarga a Juan Manuel González Salmón que exprese a Mawlay Sulayman el aprecio del Rey por " la correspondencia amistosa que le hemos debido en esta ocasión"[31].

Cuando recibe el cónsul español esta comunicación, manifiesta haber prevenido a Antonio González Salmón lo conveniente para dar cumplimiento al encargo del Rey, insistiendo a la vez en que continúe sus instancias para que tenga efecto la satisfacción ofrecida por el mismo Mawlay Sulayman[32].

A finales de abril tiene noticia Antonio González Salmón de que Mawlay Sulayman va a salir en fecha próxima de Mequinez dirigiéndose hacia la zona septentrional del país con un cuerpo de ejército formado por unos veinticinco a treinta mil hombres para castigar a los árabes próximos a Tetuán que habían atentado contra las embarcaciones españolas surtas en Río Martín. El comisionado español en Tánger se apresura a informar de ello a su hermano el cónsul general y al gobernador de Ceuta[33].

El príncipe Mawlay Sulayman salió de Mequinez el 17 de mayo y se encaminó directamente a Tetuán. El 29 acampó a media

---

30 - Véase la carta n° 43 de Antonio González Salmón a su hermano Juan Manuel, fechada en Tánger el 4 de Abril de 1794, que se conserva original en A.H.N., Estado, leg. 4331, caja 2. El cónsul español envía esta carta al duque de la Alcudia anexa a la suya n° 55, fechada en Cádiz el 15 de abril de 1794, en el mismo legajo y caja.

31 - Véase la carta del duque de la Alcudia a Juan Manuel González Salmón fechada en Aranjuez el 8 de abril de 1794, de la que tenemos una minuta en A.H.N., Estado, leg. 4331, caja 2.

32 - Véase la carta n° 53 de Juan Manuel González Salmón al duque de la Alcudia, fechada en Cádiz el 15 de abril de 1794, que se conserva original en A.H.M., Estado, leg. 4331, caja 2.

33 - Véase la carta n° 50 de Antonio González Salmón a su hermano Juan Manuel, fechada en Tánger el 28 de Abril de 1794, y la copia anexa de la que en la misma fecha dirige al conde de Santa Clara, ambas en A.H.N., Estado, leg. 4331, caja 2. Juan Manuel González Salmón envía estas dos cartas al duque de la Alcudia con la suya n° 69, fechada en Cádiz el 9 de Mayo de 1794, en el mismo legajo y caja.

legua de la ciudad, con un ejército de unos treinta y cinco a cuarenta mil hombres, entre caballería e infantería. Inmediatamente comenzó a castigar a los árabes de las inmediaciones responsables del ataque a Río Martín. Todos los hogares de estos árabes han sido entregados al saqueo, "en términos que, después de aprovecharse las tropas de quanto han encontrado util, a todo lo demás se le ha prendido fuego". La mayor parte de estos árabes ha buscado refugio en el santuario de Mawlay `Abd al-Salam b. Masis, pero Mawlay Sulayman no piensa limitar el castigo al que dichos árabes han sufrido ya, por lo cual ha manifestado a los surfa' del santuario "que hagan por no darles acojida, porque de lo contrario serán sacados a la fuerza y que además le entregarán la multa en dinero que tenga por combeniente imponerles".

En estas circunstancias, Antonio González Salmón escribe nuevamente a Mawlay Sulayman, y también a Muhammad b. `Utman, acerca del reintegro de las pérdidas sufridas en Río Martín por las tripulaciones españolas[34].

Muhammad b. `Utman cesa en el gobierno de Tetuán y acompaña a Mawlay Sulayman en calidad de secretario[35]. Entonces dirige a Antonio González Salmón una extensa carta, en la que figura el siguiente párrafo :

"Por lo que hace a lo perdido por los españoles en Martín, crea Vm. que no se dejara de pagar, con el favor de Dios; y sobre todo te digo que como yo ya passo a essa con S.M. [Mawlay Sulayman], como Vm. no ignora, ahí hablaremos de todo"[36].

A mediados del mismo mes de junio el príncipe Mawlay Sulayman dirige una carta a los cónsules europeos acreditados en Tánger. De ella se nos conserva la siguiente traducción :

"En nombre de Dios, clemente y misericordioso. No hay fuerza ni poder sino en Dios, alto y omnipotente.

---

34 - Véase la carta n° 58 de Antonio González Salmón a su hermano Juan Manuel, fechada en Tánger el 5 de junio de 1794. El cónsul español envía esta carta al duque de la Alcudia anexa a la suya n° 85, fechada en Cádiz el 13 de junio de 1794. Ambos documentos se conservan originales en A.H.N. Estado, leg. 4331, caja 2. El duque de la Alcudia acusa el recibo en carta fechada en Aranjuez el 24 de Junio, en la que reitera que se manifieste a Mawlay Sulayman "el aprecio que S.M. hace de su buena correspondencia". De esta carta hay una minuta en el mismo legajo 4331, caja 2.

35 - Así lo dice Antonio González Salmón en su carta n° 58, citada en la nota anterior.

36 - Véase la carta de Muhammad b.`Ùtman a Antobio González Salmón fechada en Tetuán el 6 de junio de 1794, de la que tenemos una copia en A.H.N., Estado, leg. 5820. El párrafo recogido figura en la pág. 3 de la copia citada.

[Lugar del Sello]

A la junta de los cónsules residentes en Tánger, que Dios guarde : la paz sea sobre el que sigue el camino recto; después de lo qual : Sabréis como el atentado acaezido con las embarcaciones que algunos de vosotros havéis perdido en Martín y Cabo Negro, jamás lo hemos olvidado ni vorrado de nuestra memoria, hasta que por ello hemos tomado venganza con todos aquellos que tuvieron parte en semejante cosa, así clara como ocultamente, y ahora havemos ordenado a nuestro escrivano Sid Mohamet Ben Othman que, en quanto lleg[u]emos a Tánger, os satisfaga todo quanto han quitado a vuestros hermanos; y, por aquellos que murieron, ya havemos dado muerte a los tiranos en mucho más número, pues vosotros estáis bajo nuestra protección y seguridad y nunca se os faltará a la justicia, y así no veréis, con el favor de Dios, más que lo que os complazca; y, si llegare a / [pág. 2] acontecer otro lanze como éste, lo que suele succeder en todo el mundo, no hay en él perjuicio, pues la justicia se os hará; y salud. Fue escrita a 15 de la Luna Dukaada [du-l-qa`da] año de 1208.

Corresponde a 14 de Junio de 1794. [Rúbrica de Antonio González Salmón]"[37].

En confirmación de la venganza tomada por Mawlay Sulayman, el gobernador interino del peñón de Alhucemas comunica haber sabido por los arraeces de varios cárabos procedentes de Tetuán que Mawlay Sulayman "está pasando a cuchillo los que insultaron a Tetuán y a los christianos, y a las mugeres e hijos de éstos los vende a un precio mui corto, por haver ellos hecho lo mismo con los efectos reales"[38].

Después de haber sometido a los montañeros árabes que tomaron parte en el atentado cometido contra las embarcaciones europeas surtas en Río Martín a un castigo ejemplar, el príncipe Mawlay Sulayman llega a Tánger con su ejército el día 15 de junio, instalando su campamento a una media legua de la ciudad. Al día siguiente se le presentaron los cónsules residentes en Tánger, siendo el primero en efectuarlo el representante español, Antonio González Salmón. Este pidió a Mawlay Sulayman en aquella ocasión, entre otras cosas, el reintegro de lo que los súbditos españoles habían perdido en Río Martín por la acción de los

---

37 - Esta traducción se encuentra en A.H.N., Estado, leg. 4331, caja 2.

38 - Véase la carta de Luis de Sousa y Pino, gobernador interino de Alhucemas, a Pablo de Arroyo, fechada el 17 de junio de 1794, de la que hay una copia en A.H.N., Estado, leg. 4334, caja 1. Pablo de Arroyo envía esta copia al duque de la Alcudia con su carta fechada en Málaga el 30 de junio de 1794, en el mismo legajo y caja.

rebeldes marroquíes. Respecto a esta petición, el príncipe Mawlay Sulayman prometió a Antonio González Salmón que su secretario Muhammad b. `Utman pasaría a Tánger a entregar lo que se les había cobrado a los rebeldes[39].

De acuerdo con lo prometido por Mawlay Sulayman, éste envía a Tánger a su secretario Muhammad b. `Utman, "con una carta dirigida a todos los cónsules, en que manifiesta los castigos y demás providencias que ha dado en satisfacción del consavido atentado" cometido en Río Martín. Muhammad b. `Utman entregó a Antonio González Salmón dos mil duros en oro en moneda marroquí, "expresándole que este dinero era el que se había cobrado de los árabes y que su amo le mandaba poner en sus manos para que los remitiese a los que tuvieron la desgracia de perder sus bastimentos y efectos en [Río] Martín, haciendo que a cada dueño y tripulación de los tres barcos que fueron quemados se les den quinientos duros, y los 500 restantes al comerciante Don Antonio Rodríguez, de Sevilla, quien, teniendo unos mil pesos fuertes de interés en géneros que se hallaban a bordo de uno de los mencionados barcos, padeció la misma suerte que los demás".

Muhammad b. `Utman da a entender que los referidos dos mil duros son "quanto por el pronto han podido pagar los expresados árabes". Para cubrir la totalidad de las pérdidas sufridas por los españoles faltan unos mil seiscientos duros, según las notas que se formaron a su debido tiempo y obran en poder del citado Don Antonio Rodríguez. Este se propone "escribir a los comisarios de Marina de la matrícula adonde pertenecía cada una de las referidas tres embarcaciones para que, cuidando éstos de justificar a quién realmente corresponde todo lo perdido, se entregue con dicho conocimiento a prorrata, según lo que a cada qual quepa con proporcion a su indicada pérdida". También han entregado los árabes rebeldes por mano de Muhammad b. `Utman una lancha, seis áncoras y dos quintales de cera, todo lo cual obra en poder del comisionado español en Tetuán, Tayyib b. Amkaysad.

El cónsul Juan Manuel González Salmón destaca lo recomendable que es la plausible conducta de Mawlay Sulayman en esta ocasión, pues no hay ejemplo entre sus predecesores de un rasgo de rigor y recta justicia como el que ha manifestado a los españoles, pues "no se ha contentado con la satisfacción indicada, sino que tanto los ganados de aquellos árabes como sus trigos y haciendas fueron entregados al saqueo de las tropas, en términos

---

39 - Véase la carta n° 96 de Juan Manuel González Salmón al duque de la Alcudia, fechada en Cádiz el 1 de Julio de 1794, que se halla original en A.H.N., Estado, leg. 4331 caja 2.

que, después de haverles quitado quanto tenían, pegaron fuego hasta a sus hogares, cando muerte a quantos no tuvieron la prevención de refugiarse con tiempo a un santuario que hay allí inmediato, nombrado Muley Abselem[40], de donde por último les ha obligado a pagar un nuevo tributo, que están entregando al governador de Tetuán, con lo que ha venido en perdonarles todo lo pasado"[41].

Esto es cuanto he encontrado en la documentación de la época con relación a los sucesos ocurridos en Río Martín la noche del 12 al 13 de febrero de 1794.

---

40 - Mawlay Àbd al-Salam b. Masis. Sobre este personaje puede consultarse : Miguel Asín Palacios, "Sadilíes y alumbrados", parte 1ª, en Al-Andalus, vol. X (1945), pp. 9-11; E.I., 2ª ed., vol. I, p. 94, artículo de Roger Le Tourneau; First Encyclopaedia of Islam. 1913-1936, vol. I, p. 64, artículo de Edmond Doutté.

41 - Véase la carta nº 100 de Juan Manuel González Salmón al duque de la Alcudia, fechada en Cádiz el 1 de Julio de 1794, que se encuentra original en A.H.N., Estado, leg. 4331, caja 2.

# La ciudad y region de Tetuán durante el sultánato de Muhammad III a través de la documentación española

Dr. Ramón Lourido Diaz

## Los españoles, poseedores de una rica documentación, pioneros en el estudio del siglo XVIII marroqui.

Los organizadores del Coloquio sobre Tetuán en el siglo XVIII (1727-1822)me han pedido que trate el tema específico de la ciudad y región de Tetuán a través de la documentación que se conserva en los archivos españoles para el largo y fructífero sultanato de Sidi Muhammad b. 'Abd Allah, conocido cada vez más en la galería de los sultanes 'alawíes con el apelativo de Muhammad III. Respondí positiva y gustosamente a esta honrosa invitación, ya que, en principio, cabía abrigar grandes esperanzas de llegar a un más amplio y real conocimiento de esta milenaria y señera ciudad del norte marroquí, en sus más variados aspectos, en lo político, social, cultural, comercial, etc. Los ricos fondos documentales españoles sobre el siglo XVIII marroquí dan pie a esperar en ese más profundo conocimiento de la historia de Tetuán. ¿Es así en realidad?.

Todos los que investigan sobre el Marruecos del siglo XVIII saben ya muy bien que, para esta época, sobre todo a partir del año 1765, los archivos de España atesoran una cuantiosa y valiosísima documentación sobre este país, documentación cada vez más conocida y estudiada, en especial aquella que se conserva en el Archivo Histórico Nacional de Madrid y también la menos abultada -para esta época concreta- del Archivo General de Simancas. Los documentos de otros archivos locales y más limitados a una determinada materia, y, por ende, menos rica, como pueden ser los Archivos de Marina y del Ejército, así como los de los archivos existentes en determinadas localidades costeras del Mediterráneo (Cádiz, Tarifa, Málaga, etc. ), estos documentos apenas si se tiene conocimiento de ellos, aunque se sabe que existen y que no son en manera alguna despreciables, como lo han demostrado las pocas calas que en ellos ha hecho el investigador Posac Mon, al estudiar en el archivo de Tarifa el tráfico comercial existente en algunos de estos años entre esta localidad andaluza y las costas fronteras de

Marruecos.

Esta base documental tan importante de origen hispano, que comenzó a ser sistemáticamente estudiada por los investigadores españoles desde hace aproximadamente poco más de 40 años, ha dado lugar que este período de la historia de Marruecos -hasta entonces bastante ignorada, hay que confesarlo-, haya pasado a ser, precisamente, el período más conocido, difundido y valorado como la época más gloriosa de la historia moderna marroquí. Tanto es asi: que ya son muchos los jóvenes estudiosos marroquíes que quieren seguir desentrañando más y más esos valores históricos nacionales, siguiendo las sendas abiertas por los historiadores españoles. Sin ánimo, ciertamente, de buscar aplausos, yo me siento muy honrado y feliz de haber colaborado con otros en este esfuerzo de búsqueda histórica, que ya ha puesto tanta luz en medio de las tinieblas que envolvían hasta hace poco un período histórico tan significado de Marruecos.

Causas posibles de la limitada presencia del hecho tetuaní en esta rica documentación española.

En la amplia panoplia de documentación y de publicaciones de origen español de que estoy hablando está presente la extensa gama del hecho histórico acaecido tanto en el interior del territorio marroquí como en sus relaciones y comunicaciones con el exterior durante el indicado período del siglo XVIII. Ahora bien, ¿cuál es la parte que, dentro del encuadramiento general del país, así revalorizado a través de la documentación y de los estudios hechos por los españoles, corresponde en concreto a la ciudad y a la región de Tetuán ? Me adelanto a señalar, lamentándolo entrañablemente, que las esperanzas que estábamos en derecho de esperar en lo relativo a Tetuán -contándose como se cuenta con semejante abundancia documental y bibliográfica-, se nos presentan más bien defraudantes, o, al menos, bastante menos halagüeñas de lo que soñábamos.

Las causas o razones del por qué la documentación de los archivos y de las obras españolas no sean profusas en noticias, informes y descripciones sobre la ciudad de Tetuán -siempre, naturalmente, en la época que nos concierne-, pueden provenir o encontrar explicación en presupuestos de diversa índole: primero, porque la ciudad en si misma presentase en esta época una importancia limitada y poco descollante dentro del concierto político, cultural y comercial del país, en lo que respecta a la vida interna del mismo o a su proyección hacia el exterior - y esto es algo que nos aclararán con toda seguridad otras ponencias del Coloquio; segundo, porque los españoles miraban tal vez a Tetuán y su región como un centro o zona territorial de poco significado para sus específicos

intereses político-económicos, lo cual sería bien extraño, dada la cercanía geográfica de Tetuán y sus lazos tradicionales, para bien o para mal, con las vecinas costas andaluzas, y más aun su proximidad fronteriza e histórica conflictividad con el enclave de Ceuta; tercero, porque el carácter específico de la evolución de las relaciones políticas entre España y Marruecos en esos largos años -relaciones inigualables en su globalidad, pero con pasajeros cortes muy singulares y dolorosos- no favoreció el que llegase a España una información reposada y permanente sobre el caso concreto de Tetuán y su región.

¿ Fue alguna de estas causas en particular o todas ellas en conjunto lo que originó el que los archivos y los estudios españoles sobre el Tetuán de la época sean lastimosamente parcos en información ? Porque, vuelvo a repetir, la información documental y descriptiva española sobre la zona tetuaní del siglo XVIII no ofrece la riqueza que, parece, debíamos esperar, dada la profusión de manuscritos, publicaciones y estudios de origen español sobre el Marruecos de este siglo, a partir -recuerdo también- del año concreto de 1765.

Debo advertir, sin embargo, que, cuando realicé mis investigaciones personales en los archivos de España, yo no indagaba de manera expresa y definida sobre informes y noticias específicas relativas al caso concreto de Tetuán y su región; aunque, ciertamente, no dejaba de lado el dato documental, sobre Tetuán o sobre cualquier otra localidad o región, que pudiera ofrecer el más mínimo interés para el conocimiento general y particular del país; sólo pude llegar a un conocimiento homogéneo y completo tras haber conjuntado las piezas sueltas sobre cada región, tribu, ciudad, etc. Y la verdad es que, durante el estudio de tan extensa documentación, tropecé con bastante frecuencia con noticias relativas a hechos, acontecimientos, personas, etc., relacionadas muy directamente con Tetuán y sus gentes. Pero, insisto, no con la misma profusión con que aparecen ciudades tradicionales como Fez, Mequinez, Marrakech, Rabat-Salé, o las ciudades que entonces comenzaban a adquirir importancia política o económica en el país, como fueron, partiendo del sur hacia el norte, Mogador (Sawira), Dar al-bayda' (Casablanca), Fedala (Mohammedía), Tánger, etc. La verdad es que es curioso no haber tropezado en esta época con la más minima y sucinta descripción por muy simplificada que ella fuera, de la ciudad tetuaní. Y he podido comprobar a través de los estudios realizados por otros investigadores hispanos sobre el mismo período, que no fueron más afortunados que yo en hallazgos de esta índole. Y al decir esto me estoy refiriendo especialmente al insigne investigador Sr. Arribas Palau, que es el que viene

expurgando con mayor rigor y tenacidad el Archivo Histórico Nacional de Madrid, siguiendo meticulosamente el hilo conductor que, mediante la ordenación de la documentación encontrada, restablece en todos sus aspectos cada uno de los acontecimientos concretos y precisos que investiga. Todo lo cual me confirma en la opinión expresada de que no existe en los archivos españoles la información sobre el Tetuán de la época que desearíamos. Quiero, sin embargo, ser cauteloso al hacer estar afirmaciones, pues en cuestiones de historia hay que permanecer siempre a la expectativa de lo imprevisible y lo no esperado.

Pese a lo dicho,no hay que caer en el pesimismo y el desaliento. La verdad es que la desilusión y el desencanto respecto a algo que se presumía tenía que ser rico en conocimientos sobre la vida e historia del Tetuán del XVIII, no pueden ser totales ni mucho menos, pues, en realidad, abundan, entre tanto documento, noticias limitadas y no despreciables, que deben ayudar mucho a recrear históricamente lo que fue Tetuán y su región en dicha época. Es cierto que, con los datos entresacados de la documentación española, yo no puedo opinar, ni siquiera globalmente, acerca de la importancia y del papel jugado entonces por Tetuán en el conjunto de Marruecos o en la misma región norteña, porque los datos de que dispongo a partir de la documentación y de la literatura españolas, honrada y científicamente no me lo pemiten. Pero estoy seguro de que lo poco que pueda presentar, aportará luz a otros participantes al Coloquio para que puedan completar, confirmar o poner en tela de juicio lo que ellos aporten sobre el mismo tema.

Hace unos instantes señalaba las causas posibles de la limitación de noticias sobre el Tetuán dieciochesco en la documentación española de la época. Y apuntaba, como tercer supuesto, que el curso evolutivo de las relaciones político-económicas entre Marruecos y España en esa época pudo muy bien haber influido negativamente para que los servicios españoles de infomación se vieran imposibilitados de funcionar normalmente respecto a Tetuán y su región. Echemos una corta ojeada sobre lo acaecido entonces para darnos cuenta del alcance y validez de esta opinión.

No me cansaré de repetir que la documentación española sobre el Marruecos del siglo XVIII, sobre todo a partir de 1765, fecha en que comenzaron las negociaciones preliminares para poner fin a la secular cerrazón y permanente conflictividad entre España y Marruecos. Pues bien, aunque el punto geográfico de arranque de esta aproximación política no pueda situarse en Tetuán ni fue llevada por las autoridades de esta ciudad, sino que, como es natural, partió de la misma corte de Muhammad III, y éste eligió a su gobernador

en Tánger para que la iniciara, poniéndose en contacto con el gobernador español de Ceuta -el cual, a su vez, tendría que recurrir a la corte de Madrid-; la realidad es que, como Tetuán era el camino obligado para llegar a Ceuta, la ciudad tetuaní se convirtió pronto en centro de gran actividad diplomática, y, con inusitada rapidez y frecuencia, acudían aquí, no sólo 'Abd al-Sadiq b.Ahmad, gobernador de Tánger -originario, por otra parte, de Tetuán-, sino también otros emisarios del majzen, cercanos a la persona del sultán.

Esto dio lugar a que las autoridades españolas se apresuraran también a buscar en Tetuán a personas conocedoras del país que pudieran de momento representarlas e informarlas sobre el curso y la sinceridad de las propuestas de acercamiento de Muhammad III. El gobierno español echó mano, por tanto, de los servicios de dos griegos de origen, residentes ya en Tetuán -se naturalizarían pronto españoles-, los señores Demetrio Collety y Jorge Patissiati. También por el mismo tiempo aparece la figura del fraile P.Francisco González, titulado "Guardián del Hospicio Franciscano" de Tetuán, el cual, en ese año de 1765 comunicaba a España la lista de los derechos de aduana que se pagaban en Tetuán en la extracción de grano: en tiempos de Mawlay Isma'il era conocido el hospicio de los franciscanos en Tetuán, para el cuidado de los cautivos cristianos, y, por lo que se ve, todavía subsistía en estos años, si es que no lo repusiron en estas fecilas para contar con un lazo más de unión con la Península. Los servicios prestados por los dos griegos citados cobrarían pronto plena oficialidad cuando, tras la firma del tratado de paz y comercio hispano-marroquí de 1767, J. Patissiati fue nombrado vice-cónsul de España en Tetuán, obligándose a renunciar al mismo cargo que ostentaba de antes respecto a Holanda. Pero es muy significativo que en esta ocasión el gobierno de Madrid considerase a la ciudad de Larache ¡y no a Tetuán!, más a propósito para instalar en ella la residencia de su cónsul general. Claro que de este hecho no podemos deducir que la ciudad de Larache revistía entonces mayor importancia que Tetuán. Sólo es indicativo de que las autoridades españolas juzgaban la ubicación del puerto de Larache más conveniente para el tráfico comercial español que estaba entonces creándose en Marruecos, dada su relativa proximidad de las costas de la Península y, sobre todo, la mejor comunicación de Larache con los centros vitales del comercio interior, con las capitales de Mequínez y Fez.

La verdad es que los embajadores que negociaron de forma definitiva la paz de 1767, (ad al-Gazzal, por parte marroquí, y Jorge Juan, por la española, iniciaron sus misiones diplomáticas y pusieron fin a las mismas, tras la firma de dicha paz en Marrakech, en la ciudad de Tetuán. El embajador español, a su entrada en

Marruecos, permaneció en Tetuán durante más de dos meses, alojado en el palacio de una de las más grandes familias tetuaníes, en el palacio de 'Abd al-hadi b.Ahmad b.'Ali, hermano del entonces gobernador de Tánger, el ya citado iniciador de las negociaciones de paz con el gobernador de Ceuta. Lástima que Jorge Juan no nos haya legado un relato detallado de su larga estancia en Tetuán y de sus impresiones sobre la misma, pues estaba capacitado para ello y era persona muy realista, aunque también cometiera errores de apreciación, como le sucedió al emitir por estas mismas fechas su opinión negativa respecto a la presumible riqueza pesquera en aguas del sur atlántico marroquí. La correspondencia enviada por él a Madrid desde Tetuán estuvo centralizada en aspectos globales relativos al acercamiento hispano-marroqui más que en detalles de índole local. Entre otras cosas, señaló las regiones que, en su opinión, se prestaban mejor al comercio de España en Marruecos, pero no englobaba entre ellas la de Tetuán, salvo en lo que atañía al aprovisionamiento de Ceuta.

Por todo lo dicho, se aprecia que Tetuán no era considerada como la predestinada a convertirse en el centro especial de las relaciones que con tanta fuerza se iniciaban entre Marruecos y España. Peor todavía. Muy pocos años más tarde, el escenario humano y geográfico de Tetuán y su zona se cerraría a las miradas y a los intereses de los españoles, y, debido a los españoles, a los individuos de otras nacionalidades europeas. La ausencia transitoria de españoles en Tetuán sería, por tanto, la causante indirecta de que los archivos de España carezcan actualmente de documentación sobre el Tetuán de estos años. Esclarezcamos un poco estas afirmaciones.

Muhammad III, sobre todo a partir de la reconquista del enclave portugués de Mazagán (al-Yadida), en 1769, pondría todas sus ansias en recuperar también para el país los enclaves que aun permanecían bajo poder español. Yo ya he analizado y dado a conocer en varias publicaciones la inteligente y astuta diplomacia desplegada por este sultán para hacer creer en Madrid que sus objetivos se centraban únicamente en la conquista de Ceuta, cuando en realidad su proyecto era otro: pensaba comenzar por la conquista de Melilla y de los presidios menores; Ceuta vendría como segundo objetivo, si antes triunfaba frente a Melilla. Pero para que ésta plaza, Melilla, no se reparase a su defensa, Muhammad III ideó una genial treta para despistar a los políticos españoles y hacerles creer que su único y exclusivo propósito radicaba en la conquista de Ceuta.

En efecto, este sultán, tras haber hecho gran acopio en armas pesadas de asedio, lo que dio lugar a que en Madrid se sospechara estaban destinadas al ataque de sus plazas africanas, el mismo

convoco al cónsul general de España para hacerle saber la obligación en que se encontraba de ir contra Ceuta, ocultando expresamente sus propósitos sobre los otros enclaves españoles. Para hacerles ver que no se trataba sólo de palabras, y que su meta era la conquista de Ceuta, hizo alejar de Tetuán y de su zona, con pretextos un tanto extraños, no solamente a los representantes españoles y otras personas de la misma nacionalidad, sino también a todos los demás europeos allí residentes -entre ellos, nada menos que al ya tradicional cónsul inglés, de simpre instalado en Tetuán, e igualmente al reciente cónsul veneciano, G. Chiappe-. También evacuó a los judíos hacia Chauen, para evitar así toda posible información de éstos a los europeos.

Una vez alejados de la ciudad los testigos que Muhammad III juzgaba sospechosos para poder llevar a cabo con seguridad sus planes sobre los enclaves españoles, se dedicó a hacer propalar por todas partes la puesta en marcha de una gran concentración de tropas marroquíes, venidas de todas partes del imperio, en Tetuán y sus cercanías. También hizo divulgar que se realizaban trabajos especiales en la construcción de una ruta o camino desde Tetuán hasta los límites fronterizos de Ceuta, a fin de poder transportar hasta allí las armas pesadas que había comprado en varios países de Europa.

Nada o muy poco era cierto de todas estas noticias propaladas con toda intención. El sultán sólo trataba de poner en práctica una política de prensa desinformativa -que se diría hoy en términos periodísticos-, que surtió plenamente los efectos apetecidos, ya que en Madrid se creyó a pie juntillas que Muhammad III se preparaba en realidad para el asedio inmediato de Ceuta y no al de los otros presidios, cuando la verdad era que sus miras se centraban -por el momento al menos- en Melilla y los otros presidios menores. La salida forzosa de los europeos de Tetuán se llevó a cabo en enero de 1772, y a finales de 1774 se romperían prácticamente las relaciones entre España y Marruecos a causa de la guerra de Melilla. La paz no volvería a restablecerse oficialmente hasta principios de 1780, y no regresaría a Tetuán el representante oficial español hasta 1784. 0 sea, que pasaron mas de 12 años sin que en Tetuán residieran españoles que pudieran enviar a España noticias sobre esta ciudad. El vacío, pues, de documentación de origen hispano sobre la ciudad tetuaní es evidente para un largo lapso de tiempo. Es cierto que llegaban sobre ella noticias indirectas, pues el anterior vice-cónsul, J.Patissiati, residente ahora en Cádiz, recibía a sus antiguos informadores en Tetuán noticias bastante frecuentes, pero éstas presentaban más bien un tinte político, que atañían poco a la evolución concreta de la vida en Tetuán y sus contornos.

Cuando se firmó de nuevo la paz entre Muhammad III y Carlos III, ahora dentro de unas bases mucho más experimentadas que en la primera etapa del sultanato, la ciudad y región de Tetuán no obtendría por ello una situación más ventajosa en lo relativo a las relaciones entre ambos países, ya que todo el interés del gobierno de España -apoyado en ello por el sultán 'alawí- tendría a colocar su Centro de operaciones en la ciudad del Estrecho, Tánger, la cual, en los años inmediatamente anteriores, se había ido consolidando como capital diplomática del imperio. En Tánger, pues, al igual que los representantes de las otras naciones, se establecería tras la paz el nuevo cónsul general español, construyendo para ello una hermosa residencia consular -todavía en pie, aunque destinada actualmente a usos poco coherentes con su categoría, al ser el primer edificio histórico, en lo diplomático y lo artístico, construído por España en territorio marroquí, y que se conserva todavía en óptimas condiciones. A Tetuán, ciertamente, se envío también un vice-cónsul, pero con menor graduacíon oficial que la primera etapa del sultanato.

Si tornamos nuestra atención hacia las autoridades locales tetuaníes, tampoco a estas les fue concedida gran intervención en las cuestiones relativas a Marruecos y España, pese a que, en principio, parece lógico que aquellas deberían haber intervenido, al menos en algunos asuntos que les tocaban muy de cerca: su eliminación de los mismos debió depender más de los politicos españoles que de la voluntad del soberano 'alawí. Me refiero aquí al caso concreto de la ampliación de los límites fronterizos de Ceuta, que el rey español planteó al de Marruecos ya en el momento de la negociación de la paz de 1767, y que tornaría a replantearlo tras el Convenio de 1780.

En efecto, Carlos III solicitó de Muhammad III por medio de su embajador Jorge Juan que se concediera al presidio de Ceuta un mayor desahogo en terrenos fronterizos con el solo fin de poder sostener algun ganado para alimento de la población ceutí. Pero el soberano marroquí únicamente accedió a que se previera en el mismo texto del tratado de paz la creación de una comisión mixta para continuar en el estudio de este asunto, señalando incluso la persona que debía representarle a el en la misma, a saber, el entonces gobernador de Tetuán, llamado Muhammad al-'Asir. Tal comisión no llegó tal vez a ser constituida, al menos se sabe que nunca se reunió, pues estaba visto que la solución propuesta por el 'alawi no era más que una manifiesta evasiva para eludir sin violencia la demanda de España.

El rey español, sin embargo, como dijimos, no desistiría de su empeño, y así, más tarde, una vez firmado el Convenio de Aranjuez mediante el cual se retornaba a un entendimiento hispano-marroquí

que se juzgaba ahora más necesario y realista, volvió a la carga sobre la ampliacion de la linea fronteriza de Ceuta. Esta vez, despues de reiteradas e incansables reclamaciones por parte española, Muhammad III accedió finalmente a tales peticiones, llegándose a la fijación oficial de los mojones de los nuevos límites fronterizos el día 25 de octubre de 1782, no por mediación y en presencia del gobernador de Tetuán, como parece que sería lógico, sino por mediacion de Muhammad b. 'Abd al-Malik, gobernador de Tánger, y en presencia de su sustituto y del cónsul general español J.M.Salmon. La oposición de las autoridades y pueblo marroquíes de las zonas cercanas a Ceuta había sido fuerte, viéndose obligado el monarca 'alawí a retirar los poderes a estas y a ponerlos en manos del gobernador de Tánger, a quien, para esta ocasión, extendío el poder sobre "esta Costa hasta Tetuán, inclusive el Campo de Ceuta, que hasta ahora lo ha mandado el Baza de Alcázar" (Seguer), como escribía textualmente el mismo J.L.Salmon. O sea, que le fueron cercenados los poderes al gobernador de Tetuán, al menos para este asunto concreto.[1]

Así pues, a través de todos estos hechos constatamos que las condiciones no favorecían a los españoles para estar al tanto de lo que acaecía en Tetuán y poder comunicarlo a España, privándonos asi ahora de una documentación que se revelaría preciosa en nuestros días, tal como sucede para otras regiones o ciudades de Marruecos. Hubo momentos, sin embargo, que, nos parece, pudieron ser muy propicios para estar bien informados sobre Tetuán, pero tampoco se reflejan, mucho en esta documentación española. Me refiero a la solicitud hecha por los comerciantes tetuaníes en 1780 para poder traficar directamente con algunos puertos españoles, siéndoles concedida oficialmente la autorización en el mismo texto del Convenio de Aranjuez, aunque por el momento no sepamos si este comercio se llevó a la práctica y cual fue su importancia.

Situemos estos hechos. Es ya sobradamente conocido que la ciudad y región de Tetuán se convirtío en la proveedora tradicional del aprovisionamiento en productos alimenticios de la población del Peñon de Gibraltar desde que éste fue ocupado por Inglaterra. Así se explica que el cónsul inglés en Marruecos estuviera normalmente instalado en Tetuán. El comercio tetuaní no se reducía sólo a productos alimenticios agro-pecuarios, pues exportaba también a Gibraltar otros productos destinados a la industría como eran por ejemplo, las pieles en crudo la cera y otros productos algunos de los cuales eran reexportados por los gibraltareños hacia Barcelona,

---

[1] M. Arribas Palau, -R. Lourido Díaz, "En torno al ensanche de los límites de Ceuta, en 1782", en **Hespéris-Tamuda**, XX-XXI, 1982-83,pp.175-244.

donde eran industrializados. Pues bien, este tráfico comercial de Tetuán con Gibraltar quedó totalmente neutralizado desde el momento en que, en 1779, la armada hispano-francesa puso largo y duro asedio al Peñon en poder inglés, cortando toda comunicación con él o desde él. Eran tambíen éstos momentos en que el embajador marroquí Muhammad b. Uthman se encontraba ya en Madrid negociando la paz con España, tras la ruptura de Melilla. Y las autoridades y comerciantes de Tetuán aprovecharon la coyuntura para demandar del sultán que interviniera ante el rey español a fin de que éste les permitiera hacer directamente con ciertos puertos españoles el comercio que antes venían haciendo ya pero sometidos a la anormal interferencia de los gibraltareños. La petición de los tetuaníes se extendía tambíen a la autorización para poder adquirir oro en España, pues carecían de él y éste era el unico metal que los países musulmanes del Medio Oriente les admitían para poder continuar el tradicional comercio de Tetuán con aquellas regiones orientales. Ambas peticiones fueron escuchadas y atendidas por los políticos españoles, como hoy puede comprobarse a través del mismo texto del Convenio de Aranjuez de 1780. Vuelvo a preguntarme. Tuvo algún resultado práctico esta medida político-económica? Es algo que está por averiguar documentalmente.

Después de esta ya larga introducción evaluativa sobre la documentación archivada en España acerca de Tetuán en la segunda mitad del siglo XVIII, es ya tiempo de pasar a la exposición de los principales acontecimientos o aspectos de la vida socio-política de esta región y ciudad, tal como se reflejan en dicha documentación para estos años concretos. Como he dicho repetidas veces esta información española atañe directamente a años muy precisos, a saber, los que van de 1765 a 1772 y de 1784 a 1790.

## Información española propiamente dicha sobre Tetuán

### A) Sobre los aspectos de la vida interna

Muchos son los aspectos de la vida de Tetuán que aparecen en la documentación española de la época, pero dije antes, de forma muy restringida, cual retazos de noticias que hay que espigar en manuscritos que no tratan específicamente de la ciudad. Pequeños y exiguos datos que se relacionan sólo ocasionalmente o por accidente con la ciudad, y que se refieren a su población, a sus edificaciones o fortaleza, a su industría o a su comercio, etc. Pero nada o casi nada sobre la misma ciudad. En este primer apartado voy a pasar lista de

los aspectos que se relacionan con la vida interna de la ciudad y región circundante.

Tetuán, en cuanto ciudad que hace parte del imperio de Marruecos, es encuadrada por el embajador Jorge Juan, que redactó un informe sobre el país en 1767[2], como una de las 24 ciudades que merecían el nombre de ciudad en Marruecos, para pasar a señalar que el territorio que va de Larache a Marrakech y Mogador todo es llano, mientras que el país "que se comprende entre Alcázar (Ksar el Kebir) y Tetuán es todo montañoso, lleno de riscos y caminos bastante malos, de los que redunda no ser el tráfico de esta ciudad (Tetuán) tan frecuente como el de otras entre si "...Esta pequeña aclaración del embajador debe tenerse muy en cuenta, porque su apreciación acerca de las malas comunicaciones con Tetuán, especialmente en lo comercial con el resto del país, haría que los españoles buscasen su centro de operaciones políticas y económicas en otras localidades marroquíes, que ellos creían estar en mejores condiciones para poder comerciar.

El benemérito investigador Sr. Ben 'Azuz Hakim escribía, hace ya bastantes años[3], que Tetuán, en el siglo XIX, contaba de 12 a 20.000 habitantes, de los cuales de 3 a 5,000 eran hebreos. Pienso que ésta debía ser ya la **población tetuaní** en la segunda mitad del siglo anterior, pues el mismo Jorge Juan anotaba que, cuando entró en la ciudad con la comitiva de su embajada, salieron a recibirle "más de 10.000 moros de ambos sexos", sin contar los 1.500 soldados de infantería que le hacían escolta[4]. Es de creer que no todos los habitantes de Tetuán habrían abandonado sus casas y sus ocupaciones habituales para acudir al recibimiento del embajador español, por lo que esos "mas de 10.000 moros de ambos sexos" y los demás que no hicieron acto de presencia equivaldrían a la elástica cifra dada por el Sr. Ben 'Azuz para el siglo siguiente.

No he encontrado referencias documentales que tuvieran que ver con la **urbanización** en general y la forma de construir, o con edificaciones especiales de Tetuán. Por otros documentos también españoles, de años precedentes a la época que nos ocupa, se sabe que el tristemente célebre terremoto de 1755, asoló completamente la

---

[2]**Nocitias generales del Reyno de Marruecos**, en 1767, cuyo autor debió ser el embajador Jorge Juan (Archivo Histórico Nacional de Madrid,(AHN), **Estado, leg. 4355.**

[3]Muhammad Ibn 'Azzuz Hakim,"Tetuán, La sultana de Uad el Helú del siglo XIX", en **Mauritania** 284, 1951, p.157.

[4]M. Arribas Palau, "La acogida dispensada a Jorge Juan por la ciudad de Tetuán en febrero de 1767", en **Cuadernos de la Biblioteca Española de Tetuán**, (CBET),7, 1973, p.21.

capital de Portugal, Lisboa, afectó también gravemente a muchas ciudades marroquíes, especialmente a las del litoral atlántico, e incluso a Marrakech y Mequínez, en tanto que "Ceuta y Tetuán -dice textualmente el informe- experimentaron en su fuerza y vigor el temblor (terremoto) sin recibir daño considerable, más que quedar muchos edificios y paredes desgajados y sentidos de haber causado gran susto y confusión", y haber escapado la gente al campo[5].

Al comienzo mismo de la apertura de las negociaciones preliminares para la paz entre España y Marruecos, en 1765, uno de los asuntos en que Muhammad III puso cierto empeño fue en solicitar del gobierno de Carlos III "cuatro carpinteros y dos artífices de primor para reedificar el gran Palacio que el terremoto pasado del de 10 años antes) le arruinó en Mequínez [6]. Pero, por supuesto, no se trataba de la restauración de los edificios dañados en Tetuán en la misma ocasión.

El "borch" o fortaleza de Martil, levantado en tiempos del mismo Muhammad III, en los años 1759-1760, fue calificado, ciertamente, por Jorge Juan de "castillo" o fortaleza, si bien puntualizaba "que se reduce a una torre cuadrada, situada a la boca del río..."[7]

La verdad es que no he encontrado descripciones sobre edificios religiosos o administrativos, ni siquiera sobre palacios de proprietarios privados ricos, que debían indudablemente existir, como lo hacen ver los estudios de un Ahmed Rhoni o de Fernando Valderrama, por ejemplo. En la documentación española de la época puede haber alguna referencia, que pasa desapercibida al investigador que no busca especialmente este dato.

Mi opinión es que no pasaron por la ciudad de Tetuán los numerosos profesionales españoles que vinieron a Marruecos en estos años para dedicarse a la construcción de edificios y obras públicas o privadas del sultán, tanto en la primera como en la segunda parte de su reinado. Son bastantes los nombres de marmolistas, picapedreros, cerrajeros, carpinteros, pintores, jardineros, etc., que se encuentran en la documentación española de la época, como también el material que venía de España para estas construcciones especiales: azulejos, hierros forjados, cristalería especial, mármol, maderas preciosas -como la caoba-, trabajadas o al bruto, caolín,etc. Su destino, sin embargo, no era Tetuán o al menos

---

[5]P.L., "Un temblor de tierra en Marruecos, en 1755"m en **Mauritania**, 159,1941,pp.36-37.

[6]CArta del P. Bartolomé Girón, Mequínez, 26 marzo 1766, AHN, **Estado**, leg.4344.

[7]:. Arribas Palau, "Acogida dispensada a Jorge Juan...",l.c.,p.19.

no recuerdo haberlo encontrado así-, sino las ciudades imperiales u otras del litoral atlántico. Mequinéz, Fez, Marrakech, Mogador, Tánger, Dar al-Bayda..., incluso el lejano Tafilalt, donde Muhammad III proyectó en 1785 construir un gran palacio, que seguramente no se realizó.Y conste que algunas de estas noticias eran enviadas por J.Patissiati desde el mismo Tetuán[8].

Ahora bien, por Francisco Pacheco, vice-cónsul español en Tánger, sabemos, por ejemplo, que algunos materiales de construccíon en la ciudad tangerina procedían de Tetuán , como lo comunicaba aquél en 1770, cuando escribía a Madrid que el caíd de Tánger le había solicitado "embarcaciones -españolas- que transportasen madera de Tetuán a Tánger destinada a la fábrica de una mezquita[9].

A partir de 1772 son frecuentes las informaciones relativas a operaciones militares y construcciones del mismo género en torno a Tetuán y la región que la une al enclave de Ceuta. Se comunicaba, por ejemplo, el proyecto de una rápida construcción de "ataques (fortalezas) inmediatos a Ceuta y se abriría un camino grande para ir desde Tetuán a esta plaza (Ceuta), y del modo de hacer estos ataques y foso de inmediación"[10]. Por la exposición hecha al comienzo, se deduce que este proyecto no se basaba en realidad alguna, pues se trataba de una simple treta utilizada a altos niveles para desorientar a las autoridades españolas respecto al verdadero objetivo del sultán en su previsto ataque a los presidios españoles.

Años más tarde, sin embargo, circuló una noticia recibida en Cádiz por el antiguo vice-cónsul en Tetuán, J. Patissiati, respecto a esta ciudad. Muhammad III, que había hecho expulsar de Tetuán a todos los europeos como una medida más para inducir un error respecto al citado proyecto de asedio de los presidios, más tarde, tras su fracaso ante Melilla, quiso, ya en 1779, que Tetuán volviera a su antigua situación en lo relativo a la apertura hacia el exterior. Según se desprende de esta documentación, el sultán, en el momento de la expulsión de Tetuán de los europeos, había formulado el juramento de que no permitiría que jamás cristiano alguno volviera habitar en Tetuán. Y ahora , que quería retornar a la normalidad anterior, para no caer en perjurio, se le ocurrió la idea peregrina de construir un barrio especial en las afueras de la ciudad, como residencia exclusiva de cristianos y judíos. Según informes llegados

---

[8]Carta de J. Patissiati, Tetuán 22 ddiciembre 1770, AHN., **Estado**, leg.4309.

[9]Carta de Tomás Bremond, retransmitiendo noticias de F. Pacheco desde Tánger, Larache, 22 noviembre 1770, AHN, **Estado**, leg.4311.

[10]Carta de Domingo Salcedo, retransmitiendo noticias de F. Pacheco, Ceuta 5 mayo 1773, AHN, **Estado**, leg.4309.

en ese año a Madrid, el sultán había ya escogido terrenos apropiados con este objetivo y había hecho que en su presencia se trazasen los límites, con el fin de construir allí dicho barrio, Es más, había convocado también "a los alarifes de albañiles y carpinteros -reza el documento- para darles sus órdenes y que comenzase la fábrica, con el dinero de los venecianos..." Pero todos estos preparativos no pasarían de ahí, ya que, según las mismas informaciones, el soberano volvería pronto sobre sus pasos y consideraría más conveniente convocar a jueces y cadíes para hacerles una consulta jurídica (fatwa), con el fin de ser dispensado y anulado el juramento que años atrás había pronunciado de no permitir la residencia en Tetuán a cónsules europeos y cristianos en general. Por lo tanto, los europeos fueron de nuevo autorizados a vivir en el interior de la ciudad tetuaní[11] .

Al año siguiente, en 1780, el P. José Boltas, el franciscano que forjó en estos años el nevo acercamiento hispano-marroquí, para retornar a la paz quebrada por lo de Melilla, daba de que Muhammad III estaba haciendo el traslado del tesoro público, el **bayt al-mal** instalado en las ciudades de Salé y Tánger, para concentrarlo en Tetuán, no sabemos si para su mayor seguridad o para un mejor reparto territorial, aunque parece ser más creíble la primera suposición, ya que el mismo P. Boltas aclaraba que para "mayor custodia (del tesoro) ha ordenado (el sultán) que se fabriquen (en Tetuán) algunas fortalezas[12].

Todo lo dicho hasta ahora referente a construcciones concernía al recinto o lugares próximos a la ciudad de Tetuán, pero se encuentra también algún informe relativo a la regíon circundante. Así, en 1781, el representante español en Tánger, Juan Manuel Salmón, comunicaba a Madrid que se intentaba poblar Ksar el-Seguir con 200 famìlias, y "que se construiría allí una fortaleza de quarenta cañones"[13]. Se llevó a ejecución esta obra ? No está en mi mano confirmarlo o negarlo.

Respecto a la idea, en general, que en España se hacían de las características de la ciudad de Tetuán en lo tocante a sus fortalezas militares, es bueno traer a colación un párrafo textual del informe enviado por Jorge Juan en 1767, ya citado hablando de forma global de la situación militar defensiva del imperio de Marruecos, en caso de ataques armados contra él desde el exterior, el embajador español aseguraba que en "las plazas de armas, que se reducen a Tetuán,

---

[11]Carta de J. Patissiati, Cádiz 15 junio 1779, AHN, **Estado**, leg.4312.

[12]Carta de P. José Boltas, Tánger 10 noviembre 1780. AHN, **Estado**, leg.4313.

[13]Carta de J. M Salmón, Tánger, 21 julio 1781, AHN, **Estado**, leg.4314.

Tánger, Larache, Salé, Mogador y Santa Cruz (Agadir)...., todas sus fortalezas están arruinadas, y por tanto para su defensa se han reducido a formar baterías sobre las playas..."[14], terminaba diciendo. No cabe duda de que Jorge Juan hacía aquí alusión a las célebres **sqalas** construídas por Muhammad III en los puertos al inicio de su reinado, tal como lo narran los historiadores al-Zayyani, al-Du'ayyif, al-Nasiri, etc. El castillo de Martil -recordado también por el embajador español- fue construído precisamente por esos años, como anoté anteriormente. Respecto al comentario que entonces hacía el mismo Jorge Juan, hay que reconocer que, efectivamente, Muhammad III concedía mayor importancia a los puertos de Mogador (Sawira), y tal vez también Larache, pero se me antoja un poco catastrofista su juicio sobre el estado defensivo de dichos puertos.

Pasemos a otro aspecto. ¿En qué situación se encontraba **la industría tetuaní** en esta época? La documentación española hace también frecuentes alusiones a aspectos que se relacionan con la industria, pero nada más que eso, alusiones, sin precisar la importancia, la calidad, volumen, etc. Se señala, ciertamente, una industría con relativa precisión, pero ésta fue bastante transitoria , la fábrica de cañones de Tetuán, de la que pronto trataremos.

En los informes españoles de la época apenas se mencionan las industrias tradicionales de artesanía en Tetuán, que fueron estudiadas, para el siglo XIX, por distintos autores, como Joly, Más y Guindal, Ruiz Orsatti, Ibn 'Azzuz Hakim, etc.[15]. Pero si esas industrias tradicionales apenas tienen cabida en estos informes, sí salen a relucir otras actividades de carácter estatal, puesto que sobre éstas los políticos españoles deseaban estar informados.

Destacan, por ejemplo, las frecuentes noticias enviadas a Madrid sobre el movimiento de construcción de barcos corsarios en los puertos marroquíes, sobre todo de Tetuán, Larache, Salé y Mogador, así como las salidas al mar, en corso, de esos mismos barcos. Algunas veces se indicaba incluso el número de barcos que se estaban construyendo en los diversos arsenales. Y, sin embargo, apenas se deja bien entrever que el arsenal de Tetuán era uno de los más capaces. Cabe también anotar que de Tetuán salía material maderero -mástiles, tablas, etc. -para la construcción naviera en

---

[14]**Noticias generales del Reyno de Marruecos**,1,1.c.

[15]Muhammad Ibn 'Azzuz Hakim,"Tetuán, La sultana ...", citado J.Más y Guindal, "Recuerdos de Tetuán-Molinos primitivos de cerales : fermentación panaria ; tipos de pan moro y hebreo", en **Mauritania**,

otros arsenales, al menos para el de Larache. En mi obra se pueden espigar muchas citas referentes a esta actividad de la marina marroquí.

Y dentro de este aspecto industrial militar, recuerdo especialmente la fábrica de cañones de Tetuán, a que antes aludía, y sobre la cual hice un estudio especial hace ya años[16]. Se trataba de una fábrica que había sido montada por el sultán Mawlay Isma'il que luego se abandonó. Su nieto Muhammad III la reactivó y modernizó haciendo venir con este objeto a técnicos turcos, dentro de su plan-proyecto de la reconquista de los enclaves extranjeros que aun subsistían en el territorio. La fábrica de cañones volvió a funcionar poco antes de que fuera reconquistada la plaza de Mazagán (al-Yadida) a los portugueses, en 1769. Era conocida como la "Casa de las Bombas", **Dar Bomba.**

No voy a repetir aquí lo ya expuesto en detalle en el citado estudio. Recuerdo, sin embargo, que el vice-cónsul J. Patissiati visitó personalmente dicha fábrica y vío los dispositivos hechos para la fabricación de cañones, y escribió a Madrid opinando que "no sacarán cosa de provecho" en lo que se proponían. Pero meses más tarde, tras la fundición de los primeros ejemplares de estas armas pesadas, rectificaba de estos primeros ensayos, pues en marzo de 1768 se notificaba a Madrid que se esperaban en Tetuán cien camellos cargados de bronce para hacer setenta morteros y completar setecientos cañones, que ha mandado fundir el Emperador para guarnecer todas las Plazas de sus Dominios"[17]. Creo, sin embargo, que la fábrica no prosperó, pues no se vuelven a transmitir noticias sobre la misma.

Siempre dentro del tema de la industria, en relación con el comercio, debo señalar que en los últimos días de Muhammad III, este soberano propuso al gobierno de Madrid la puesta en marcha de un proyecto relacionado con Tetuán y su región, a saber, la explotación por parte de España de la gran riqueza forestal maderera de los montes de Benisichel (Banu Zayyal), y en la región de Gomara. Me imagino que de estos bosques era de donde salía la madera para la construcción de barcos en los arsenales de Tetuán y otros puertos, que mencioné anteriormente. También entonces ofrecía el sultán la venta de cáñamo para la indusria textil, bien que se especificaba en la oferta que este producto se daba sobre todo en las regiones de Fez-Mequinéz y Sefrú, así como también la región de

---

[16]R. Lourido Díaz, "Una fábrica de cañones en Tetuán, a mediados del siglo XVIII", en **Revista de Historia Militar**, (Madrid), 33, 1972, pp.105-115.

[17]**Ibidem.**

Marrakech[18]. La inmediata muerte de Muhammad III no permitió que se llevara acabo este proyecto comercial con proyección industrial.

Abordemos ya el tema del **comercio interno tetuaní**, tal como lo vieron los españoles de la época. Y tenemos que volver a decir que esta documentación no ofrece informes directos sobre ello, pudiendo sólo sacarse deducciones -al menos en cuanto a los principales productos comerciables- de las noticias que se encuentran dispersas acerca de las mercancías que salían de Tetuán hacia el exterior, era un comercio esencialmente agro-precuario, basado en el ganado -bovino, ovino, y avícola- y los productos agrícolas-cereales y legumbres-. Pero hasta ahora no se ha encontrado, si es que se buscó, documentación indicativa de su cantidad, calidad y movimiento. El tráfico comercial hacia el exterior lo veremos enseguida.

La vida de la **sociedad tetuaní** se ve todavía menos reflejada en esta documentación española. A Madrid se informaba acerca de la abundancia de cosechas en el país, y quizás aparezcan descritas con mayor detalle y precisión las épocas de hambre y estrecheces sociales, a causa de las sequías y las consiguientes pestes y epidemias entre la población, porque lo llamativo de estas tragedias naturales y humanas atrae más la atención de los observadores. Así, por ejemplo, llegaban a España con mucho detalle las noticias sobre la gran sequía, el hambre y la mortalidad que se extendió sobre el país, alrededor de los años 1778, que mencioné anteriormente. Pero respecto a esta larga calamidad general, en la que pereció gran parte de la población marroquí, sabemos que en la región norte del país, especialmente en Tetuán, no fue tan trágica como para el resto del territorio. Esta región norteña sufrió menos del hambre y de la mortalidad general debido a que recibió ayudas en comestibles de España y Portugal, víveres que las autoridades españolas procuraron que fueran vendidos a los marroquíes a precios no muy altos, evitando que los especuladores abusaran de la situación desesperada en que se encontraba la población marroquí. El sultán, que agradeció en su momento este gesto humanitario de las autoridades hispanas, hizo declaraciones públicas en este sentido.

Pero en lo relativo a la vida ciudadana, en lo cultural, religioso, económico, etc. , no he hallado cosas dignas de mención. Tampoco se hace referencia a la vida política de la ciudad, salvo cuando esta política estaba implicada en la general del país, como fue

---

[18]Carta de Muhammad III, 7 rabiII 1204/ 25 diciembre 1789, y carta de J. M. Salmón, Tánger 9 enero 1709, AHN, **Estado**, leg. 4322.

el caso de la rebelión del ejército de los negros o 'abids, en 1778, y sus consecuencias para Tetuán. Indirectamente, también aparece el hecho de relaciones de orden religioso y administrativo que entonces se crearon entre los chorfas de Wazzan y la ciudad de Tetuán, lo que más tarde daría lugar -no tanto por la intervención de esta ciudad- a situaciones político-religiosas peculiares de estas regiones norteñas. Finalmente, tambíen hay abundancia de correspondencia relativa a la rebelíon del príncipe Mawlay Yazid contra su padre Muhammad III, en los últimos días de la vida de éste, cuando el hijo díscolo vino a refugiarse en la zawiya de 'Abd al-Salam b. Masis. En este acontecimiento no aparece tan complicada la ciudad de Tetuán cuanto las tribus vecinas al santuario.

No son tampoco abundantes las noticias sobre personalidades relevantes tetuaníes de la época, aun cuando en lo relativo a hombres relacionados con el **majzen**, con la diplomacia y el comercio, aparecen aquí allí citadas personas conocidas, como el gobernador Luqach, 'Abd al-Karim b. Zakur, Muhammad b, 'Asir la familia Razzini o Arzini, 'Abd al-Karim Ragun (o Aragón) al-Titwani.

## B.) Sobre los aspectos de la vida con el exterior

Es fácil comprender que la orientación de la documentación de los archivos españoles sobre Tetuán de la segunda mitad del siglo XVIII apunte hacia las relaciones de esta ciudad con el exterior, especialmente con los territorios españoles, ya que los que normalmente hacían de informadores eran los mismos representantes de España en el país. Las noticias de carácter local sólo eran comunicadas a Madrid cuando guardaban alguna relación con la política de Marruecos con el exterior.

Hecha esta observación general, he de decir también que el gobierno de Carlos III dirigía sus miradas hacia Tetuán desde un doble aspecto, pues siendo ésta la ciudad marroquí más cercana al presidio de Ceuta, lo mismo podía constituirse en la plaza más peligrosa para España, en caso de mal entendimiento con Marruecos, que, por el contrario, ser el instrumento más útil y aprovechable en tiempos de concordia. La plaza de Ceuta, en este segundo caso, podía ser avituallada desde Tetuán, cosa siempre ardua desde la Península. Los ingleses, por ejemplo, no hicieron otra cosa que buscar las buenas relaciones con la región norteña de Marruecos, especialmente con Tetuán, para poder aprovisionar en ella a la población del Peñon de Gibraltar, pues, desde que se adueñaron del Peñon, les era prácticamente imposible traer comestibles desde la lejana Inglaterra. Y el país vecino, España, se los negaba por

razones obvias. Ahora, al hacerse la paz hispano-marroquí, la situación iba a complicarse a causa de la competencia que en Tetuán podían hacerse ingleses y españoles.

Así pues, la información documental española de esta época relaciona a Tetuán, bien con una plaza militar desde la cual puede ser atacada Ceuta, bien con una ciudad y región en donde se puede aprovisionar de alimentos a la población ceutí. Y en torno a estos ejes -en realidad, solo, pero de signo cambiante y contradictorio - aparecen las noticias de orden interno que quedan expuestas anteriormente de forma rápida. Dentro de este contexto, cara a la vida externa de la ciudad de Tetuán, la información española se centró entonces en noticias de orden prioritariamente político o de carácter comercial, tanto con su concurrente la Gran Bretaña.En lo que concierne a la vida política, ya dejé dicho que Tetuán no fue nunca constituída en plataforma de las relaciones entre Muhammad III de Marruecos y Carlos III de España, desde que éstas se iniciaron, pese a que sus inicios tuvieran lugar, a través de Ceuta, en la plaza próxima de Tetuán. Las negociaciones fueron llevadas a cabo por el gobernador de Tánger y otros emisarios del **majzen**, no precisamente por funcionarios del mismo **majzen** establecidos en Tetuán. Sin que yo pueda detectar los motivos, se observa que la política de mantener alejados a los hombres de la ciudad de Tetuán en lo tocante a las relaciones hispano-marroquíes fue una tónica constante de toda esta época. Ello no quitaba que Tetuán fuera en diversas ocasiones el lugar de recibimiento o de tránsito de las varias embajadas que entonces se entrecruzaron entre Marrekech y Madrid a lo largo de los extensos reinados de los citados soberanos. Recordemos lo ya dicho sobre las embajadas de Ahmad al-Gazzal, Jorge Juan y la de Muhammad b. 'Uthman.

También sirvió esta ciudad para el intercambio o la entrega de cautivos de una y otra nación, aunque no de forma exclusiva. A partir de 1766 se inició el intercambio total de cautivos por una y otra parte, España y Marruecos, aboliéndose de forma práctica, desde entonces, la mutua esclavitud. Y se sabe que, al menos en parte, se verificó en Tetuán este intercambio de cautivos. Los cautivos marroquíes que fueron entonces entregados por el rey español al sultán, desembarcaron más bien en el puerto de Larache. En años posteriores, Muhammad III hizo diversas entregas de cautivos españoles liberados por él, sea en Argelia sea en las tribus insumisas del Sahara, y muchas de estas entregas se realizaron en la ciudad tetuaníe, como fue el caso de la familia del gobernador español de Orán, en 1783, que los historiadores marroquíes, al-Zayani, al-Nasiri y otros, presentan, equivocándose, como una princesa española de sangre real. También eran devueltos al país por Tetuán,

muchos de los numerosísimos esclavos musulmanes que, con intervención directa de la corte de Madrid, eran rescatados por Muhammad III en los penales de Europa.

Como lo dejé sobreentender anteriormente, Tetuán, en lo político, era observada siempre por los españoles en función de la presencia y de las actividades de los ingleses de Gibraltar en la ciudad tetuaní. A la colonia de Gibraltar le era de vital importancia la cercanía de Tetuán, donde, repito, se aprovisionaba de comestibles. De ahí que Gran Bretaña regulase en general su política con Marruecos teniendo como telón de fondo a Tetuán y su región. De hecho, mantuvo siempre en esta ciudad la residencia oficial de su cónsul general, el cual, sin embargo, fue de ella expulsado en 1772 por las razones que ya indicamos, y que sólo se relacionaban con el proyecto de Muhammad III de conquistar los presidios españoles, no por razones, en este caso concreto, de aversión anti-inglesa. Esta situación especial creada por las relaciones Gibraltar-Tetuán y la cercanía de Tetuán y Ceuta obligaba a las autoridades de Madrid a mantenerse siempre vigilantes sobre la evolución de lo que acaecían en lo político y en lo comercial, en esa área geográfica. Y los observadores hispanos lo transmitían todo a Madrid.

Otro aspecto que era mirado con lupa por los informadores españoles era la actividad corsaria del puerto de Tetuán, como ya queda dicho. Esto al menos para los primeros años del sultanato, pues también fue suprimido por ambos Estados el mutuo acoso de sus corsarios.

Pero sólo a estos dos aspectos se ciñe, en general, la información española, que, por otra parte, no es muy extensa, ni en el tiempo -recuérdese lo dicho anteriormente- ni en extensión informativa. Ya dejé constancia, por otra parte, de que la participación de Tetuán y región en el proyecto de la reconquista de los presidios en poder español no afectó prácticamente en nada a Tetuán, a no ser por el hecho de haberla constituido Muhammad III en tapadera de su genial estratagema diplomática, ya que no proyectaba ir entonces contra Ceuta sino contra Melilla, como en realidad lo hizo.

A pesar de todo, el rey español y su gobierno no miraban Tetuán tanto bajo el aspecto político cuanto bajo el **aspecto comercial**, ya que, desde el tratado de paz y comercio de 1767, se tenía como bastante asegurado que Ceuta no sería atacada por Muhammad III, aunque en realidad se lo temió más tarde, cuando este sultán fingidamente así lo hizo creer. De ahí que desde España se trabajaría más bien por incrementar las relaciones comerciales entre Tetuán y Ceuta, e incluso de Tetuán con el litoral peninsular.

Esto que estoy exponiendo se percibe ya bastante bien a través

del informe que Jorge Juan redactó a raíz de su embajada, cuando escribía, hablando de los puertos marroquíes donde España podía hacer comercio,"Los (puertos marroquíes) que más convienen a los españoles, tanto para la saca de los géneros como para la entrada de los que quieren traer son Larache, Tánger y Tetuán. Estos dos (Tánger y Tetuán) para las embarcaciones pequeñas, que no necesitan sino sacar los ganados, y pueden resistir poco los mares, y el primero (Larache) para los que quieren mayor comercio. Las razones consisten -continuaba escribiendo- en que Larache es un puerto más próximo a Fez y Mequínez, ciudades las más principales del Reyno, o casi las únicas que pueden consumir los géneros que se llevaren'[19].

Efectivamente, antes incluso de formalizar la firma del tratado de 1767, se dió un intenso tráfico de mercancías desde los puertos de Larache, Tánger y Tetuán con las cercanas ciudades costeras andaluzas, como lo han demostrado ya los investigadores V. Rodríguez Casado y C. Posac Mon, los cereales, legumbres y ganados iban en cantidad creciente hacia España, y, por lo que se refiere a Tetuán, también hacia Ceuta. Lo mismo sucedería en la segunda etapa del sultanato, tras el Convenio de Aranjuez de 1780. Hay que confesar, sin embargo, que el comercio hecho desde Tetuán hacia España era menos voluminoso que el realizado desde los otros dos puertos norteños marroquíes. Escojo, como ejemplo, dos años, el de 1767 y el 1768: en el primero de estos años, si de Tetuán salieron para España 74 barcos con mercancías, de Tánger fueron 79 barcos ; en 1768 aumentaron a 253 los barcos salidos de Tánger, mientras los salidos de Tetuán fueron 231, y de Larache solamente 112, si bien cabe suponer que los procedentes de Larache eran de mayor tonelaje.

En la segunda parte del sultanato parecía que Tetuán iba a coger la delantera en el comercio marroquí con España, pues llegó a estipularse en el Convenio de Aranjuez, como ya se anotó arriba, que los comerciantes de la ciudad de Tetuán estaban facultados para hacer directamente su comercio con ciertos puertos españoles, entre ellos Barcelona y Málaga. Esta concesión se hacía a la demanda de los mismos mercaderes tetuaníes, en sustitución del comercio con Gibraltar, que ahora se encontraba bloqueda por la armada hispano-francesa. Además, en Cádiz podían adquirir el oro con que poder continuar su tradicional comercio con los países musulmanes del Oriente Medio. ¿Llegó a cuajar en una realidad esta solicitada actividad comercial de Tetuán con otras ciudades españolas? Opino que, si se dió, no fue de larga duración, o al menos no fue de gran

---

[19]**Noiticias generales del Reyno de Marruecos**, citado.

volumen, pues la petición de los tetuaníes para comerciar directamente con puertos españoles se debía, como dije, a la imposibilidad en que entonces se encontraban de comerciar con el Peñon de Gibraltar; pero este obstáculo desaparecío al cabo de dos o tres años, con el levantamiento del asedio estéril a que había estado sometido aquel por España. Levantado el bloqueo, los tetuaníes retornarían a su tradicional comercio con Gibraltar, y a través de éste, con algún puerto español.

No queiro decir que el comercio de Tetuán con el territorio español se extinguiera del todo, pues, justo a la muerte de Muhammad III se sabe que de esta ciudad marroquíe se seguía enviando hacia Ceuta vituallas de tipo agro-pecuario, y que el trigo era uno de los géneros que más salían de Tetuán hacia el presidio español. Claro que este comercio triguero era muy reducido, si se le compara con el que, por los mismos años se estaba realizando desde Dar al-Bayda' con el puerto de Cádiz, siendo precisamente este comercio del trigo procedente de la región de la Chawia la causa de que Dar al-Bayda', Casablanca, fuera restaurada, o mejor, recreada, hasta llegar a ser en nuestros días la gran ciudad económica de todo Marruecos.

# Un lustro en la Historia de Tetuán del siglo XVIII (1727 - 1732)

Dr.Guillermo Gozalbes Busto

## Consideraciones generales

La Historia de Marruecos en el siglo XVIII, sobre todo en su primera mitad, es la historia de un caos anunciado.

Desde mucho antes de la muerte de Mawlay Ismail, en Marzo de 1727, se veían venir los gravísimos problemás, de toda índole que acarrearía su desaparición. Como era costumbre en las dinastías marroquíes, serían sus propios hijos los principales factores de anarquía y deterioro político y social.

Aquí se cumplió el pronóstico del Ufrani quien recordaba, alabando a Mawlay Ismail, ! cuantas revoluciones verán los hombres, cuando el astro de este hombre haya desaparecido! [40]

Naturalmente esa situación se ve reproducida en cualquier rincón del país , que sufre los rigores y desastres de la falta de paz y exceso de todas las ambiciones desatadas.

Pero hay un lustro, los cinco primeros años, después del fallecimiento del sultán, que es especialmente funesto para la ciudad de Tetuán que toma en ese período un desgraciado protagonismo, en el torbellino de luchas civiles que se desatan al desaparecer el segundo monarca de la dinastía álawi, capaces de hacer blanquear los cabellos de los niños de pecho, como dicen los historiadores marroquíes que nominan esta época la fitna, que traducido muy piadosamente diríamos el interregno y tambien el abatimiento.

Tetuán es el epicentro de graves conmociones político-sociales junto con Fez y Mequinez.

Especialmente la primera, al servir de base de apoyo del largo sitio establecido por un fuerte ejército contra Ceuta, sufre las consecuencias de haber sido el feudo del jefe de ese ejército, actuando con poder absoluto, y de las implicaciones que la presencia de numerosas tropas arrastraban en una población con fuerte sentido

---

40 - Mohamed es Seghir El Oufrani, **Nozhet el Hadi...**,Tr. O. Houdas, Paris, 1889, pág. 510.

autonómico.

El personaje clave en aquel sitio y en los acontecimientos que siguieron a la muerte de su soberano, se llamaba Ahmed Ben Ali Ben Abd Allah o Abu-l-Abbas Ahmed Ben Alí er Rifi, gobernador de Tetuán y Tánger, con dominio práctico de todo el trapecio Norte marroquí, hasta el punto de llamarle virrey de la comarca los escritores de la época.[41]

Hay otros personajes que irán apareciendo en el transcurso de este trabajo, entre ellos, naturalmente, los hijos de Mawlay Ismail, que se disputan el trono en este lustro sangriento y que son, en orden de aparición, Mawlay Ahmed el Dahbi, Mawlay Abd el Malik y Mawlay Abd Allah.

Otras figuras, menos conocidas históricamente, jugarán, no obstante, destacado papel en los luctuosos sucesos tetuaníes que se encadenan con los del país como una sarta de miserias que cae sobre el desgraciado pueblo marroquí.

Menos de dos páginas dedica el historiador Terrasse al funesto lustro que se abre en Marzo de 1727. Parece como si quisiera pasar de puntillas por hechos tan dramáticos como decisivos para el futuro del país.

Verdaderamente no es nada grato detenerse para contemplar tanto desastre. En pocos años, casi podríamos decir en pocos meses, se suceden los tres reyes, los tres hermanos, sin que ninguno consiga afianzarse en el poder.

Siguiendo los acontecimientos, mes tras mes, casi día por día, hay un ojo vigilante y atento, al igual que interesado, porque le iba su tranquilidad y en último término su existencia.

Ese vigía permanente era el presidio de Ceuta, vecino y antagonista de la ciudad de Tetuán, hasta tal punto que la historia de las dos ciudades se desarrolla más que paralela, entrelazada intimamente, sobre todo cuando los granadinos exiliados en 1484 crearon un bastión ofensivo-defensivo frente a las pretensiones expansionistas lusitanas.

Contamos con una crónica inédita de la Historia de Ceuta, escrita por un personaje que es casi testigo de los hechos acaecidos en este período.

Fue precisamente D. Manuel de Orleans, Conde de Charny, que gobernó Ceuta, desde el 15 de Septiembre de 1725 al 29 de Julio de 1731, quien encargó se escribiese esa Historia y quien facilitó muchos materiales de Archivo a su autor, el presbítero Alejandro Correa de Franca.

---

41 - P. ejemp. Ockley, **Relations des Etats de Fez et du Maroc...**, Paris, 1726, pág. 13.

El manuscrito de éste todavía se conserva inédito en la Biblioteca Nacional de Madrid, aunque sea conocido y se halla manejado parcialmente, como lo hacemos nosotros ahora.[42]

Hemos utilizado dicha crónica de diversos trabajos y aquí la aprovechamos para dar a conocer sucesos que no aparecen en ningún cronista o historiador, complementando, además, aquellos otros ya conocidos.

## La muerte de Mawlay Ismail

No hablaríamos de la muerte de Mawlay Isamail, si no tuviéramos que dar algunas precisiones cronológicas al respecto.

El hecho de que el propio monarca ordenara ocultar el fallecimiento hasta que llegara a Mequinez su heredero, Mawlay Ahmed, ha podido causar, probablemente, alguna confusión en los cronistas marroquíes y, siguiendo a éstos, en los historiadores europeos que los citan con fechas concretas.

Una relación de las circunstancias de su muerte fue enviada desde la corte marroquíe a Tetuán , al comenzar el mes de marzo de 1727.[43]

En marzo, concretamente el 20, insisten algunos autores solventes, basados en fuentes marroquíes.[44]

El Turyaman de az Zayyani retrasa el deceso del sultán al 4 de Abril.[45]

Otros autores prefieren no ajustar día determinado, ni siquiera fecha alguna.[46]

La crónica ceutí de Franca, coincide casi con el Capitán inglés Braithwaite. En efecto, escribiendo sobre el gobierno del Conde de Charny dice que, a pricipios de Marzo de 1727 comenzó a percibirse una disminución en los movimientos del campo marroquí que, como sabemos, tenía sitiado a Ceuta.

---

42 - La signatura del manuscrito es 9741 y en su prólogo va certificado por un sobrino del autor, Melchor Correa de Franca, en el año 1751.

43-Braithwaite, **Histoire des révolutions de l'Empire du Maroc...**, Amsterdam ,1731, pág. 6.

44- Auguste Cour, **L'Etablissement des dynasties des Chérifs au Maroc...**, Paris, 1904, pág. 208

45 - Abu-l-Qasem Ben Ahmed Ezziani, **Le Maroc de 1631 à 1812..** Pr. et Tr. par O. Houdas, Paris, 1886, pág. 55.
En nota 1 de esta misma página se anota la fecha del 22 de Marzo dada por León Godard en su **Description et histoire du Maroc**, pág. 535.

46 - Por ejemplo H.Terrasse, en su **Histoire du Maroc**, Casablanca, 1950.

Continúa diciendo que el 17 de Marzo el Capitán que hacía guardía y vigilancia en el Hacho, reconoció gran cantidad de tropas y bagajes que se dirigían a Tetuán. Significaba el levantamiento del sitio de Ceuta.

El Conde de Charny ordenó un reconocimiento de trincheras, hallándolas vacías y, al día siguiente, una columna de mil hombres alcanzó el Morro de la Viña sin encontrar más seres vivos que gatos y perros y una Mora negra impedida que no supo responder a propósito a lo que, en arábigo, se la preguntó, sino que los Moros se habían retirado, porque el Santo Xarife Muley Ismael, su Rey, era Muerto.[47]

Hay, pues, una coincidencia en el manuscrito ceutí con otro observador imparcial, que es el viajero inglés Braithwaite.

Según ellos Mawlay Ismail murió en la primera quincena del mes de Marzo de 1727. Probablemente la primera semana del mes. Desde luego no en Abril como informa az Zayyani, ni en la segunda quincena de Marzo como dicen otros.

Para terminar este epígrafe diremos que, según Braithwaite, cuando el sultán ordenó mantener oculta su muerte, esta orden fue cumplida, no solo tres días como afirma az Zayyani, sino nada menos que dos meses, con la cual el óbito podría haber ocurrido a finales de 1726 o principios de 1727.[48]

No es, por lo tanto, muy descabellada la fecha del 22 de Febrero que da otro cronista ceutí.[49]

Por consiguiente no hay un conocimiente seguro de la fecha de la muerte de Mawlay Ismail.

Tal es lo que se desprende del examen de las fuentes examinadas que son, a nuestro juicio, las más fiables, por

---

47 -Alejandro Correa de Francia, **Historia de Ceuta**, Biblioteca Nacional, Manuscrito 9741. Fol. 271.

48 - Fr. Manuel Castellanos, en su **Historia de Marruecos**, Tánger, 1898, p. 452, se hace eco de esos dos meses de plazo, de acuerdo con Braithwaite al cual seguía en su relato.

49 - Lucas Caro, **Historia de Ceuta**, Tr. Intr. y notas de José Luis Gómez Barceló, Ceuta 1989, pág. 152.

De Lucas Caro toman dos autores contemporáneos, Criado y Ortega, relato y fecha, en sus Apuntes para la Historia de Ceuta, Madrid, 192, pág.275.

La **Gaceta de Madrid**, en su ejemplar del martes 1 de abril de 1727, se hace eco de los informes del levantamiento del sitio de Ceuta el 17 de marzo, describiendo las salidas de la guarnición para reconocimiento del campo exterior. Atribuyese esta novedad, dice, a la muerte de Muley Ismael...

El 28 de Febrero es la fecha dada por M. Castellanos en su **Historia de Marruecos.** Se corresponde con el 7 de reyeb de 1139.

documentadas unas y por su proximidad temporal otras.
Para bien o para mal la Historia parece no querer recordar el momento exacto de su desaparición.

## La herencia de Mawlay Ismail

Tal como dispuso el viejo sultán, su hijo Mawlay Ahmed apodado ed Dahbi, presente, bien en el momento del fallecimiento, bien antes de hacerlo público, fue reconocido por los ulemás, cadis y secretarios de gobierno, pero, ante todo, por los jefes de la milicia de los udaya y de los abid o negros del ejército.

Sin embargo, ambas noticias, por separado o juntas causaron una explosión de ira o descontento, contenido anteriormente por la mano de hierro del monarca.

En Fez se sublevaron los habitantes inmedíatamente contra su gobernador, er Rusi y lo mataron.

Menos de veinticuatro horas tardarían los ecos de esos sucesos en llegar a Tetuán, donde su población, burguesía incluída, sufría hacía tiempo las exacciones y vejaciones del alcalde Alí. En un primer momento los tetuaníes prestaron obediencia, al menos exteriormente al nuevo rey, pero retuvieron los debidos impuestos pensando que su permanencia en el trono no sería larga.

El sultán no estaría tampoco muy seguro de la lealtad del alcaide Alí cuando envío a su hermano, Mawlay Alí, con cuatro mil jinetes a Tetuán para que el alcalde le prestase el homenaje debido.

El gobernador tetuaní engañó a Mawaly Alí, llevándolo hacia Tánger, pero recelando del nuevo monarca se refugió en esta última ciudad con su familia. Por lo visto tampoco se fiaba mucho de los ciudadanos tetuaníes, cuya inquina era notoria, como hemos apuntado.

Medíado el mes de Junio de ese mismo año de 1727, un confidente, enviado por el gobernador ceutí a Tetuán, volvió con la noticia de que el rey Mawlay Ahmed ofreció al Baxa Alcaide Ali los mismos fueros que lograba en tiempo de Mawlay Ismail, su padre. Entonces se convenció para ir a Mequinez a jurarle obediencia.[50]

Las noticias del confidente seguían informando que los montañeses aprovecharon la ausencia del Baxa para quemar su palacio, matar a su hermano, que había quedado de gobernador y asesinar a todos los negros y partidarios que encontraron.

Cuando el confidente salía de la ciudad todavía duraban las llamás de los incendios y los escopetazos. Aquellos montañeses

---

50 - B.N. Mss. 9741. Fol. 272 vto.
La **Gaceta**, del 15-7-1727 refleja escuetamente estos sucesos.

estaban mandados por Mohamed Bulif.

Otro moro, sigue la crónica, que apresaron por aquellos días, no solo confirmó las noticias dadas por el confidente sino que añadió que Omar Lucas se había establecido en el gobierno de Tetuán.[51]

Así, aparentemente al menos, no habían sido propiamente los habitantes de Tetuán los que se alzaron contra su alcalde, sino los serranos o montañeses que vivían en los múltiples poblados que, entonces como hoy, rodean las sierras que circundan la ciudad. Esos montañeses tetuanís recordemos su actuación, cuando Ahmed an Naqsis poco más de un siglo antes, se refugió entre ellos, huyendo de la persecución del sultán Mawlay Saij cuando acampaba en las afueras de Tetuán el 21 de Agosto de 1613. (12)

Un descendiente suyo, Muhammad Bu-l-Lif sigue estando al frente de los montañeses tetuaníes, pero seguramente tenía también relaciones e intereses en la propia medina de Tetuán,porque estaba quejoso de los fuertes impuestos y gravámenes indiscriminados que el Bajá Ali le aplicaba, con todo el rigor de su fuerza.

Bu-I-Lif gozaba de gran prestigio en las sierras cercanas a Tetuán y se decía descendiente de una antigua familia andaluza, probalemente de los moriscos huídos del antiguo reino granadino.

Tenía numerosas amistades entre la burguesía tetuaní a la que comprometío en su favor para que se sublevara contra el bajá Ali.[52]

Bajo sus órdenes los montañeses atacaron a los rifeñeses que sostenían al bajá tetuaní, devastando sus cosechas, apresando los ganados, quemando y matando cuantos amigos suyos encontraban.

Estas noticias llegaron a Ceuta en el mes de Julio, de boca de unos enviados del nuevo gobernador, Omar Lucas.

El bajá estaba refugiado en Tánger, donde lo tenían practicamente cercado los montañeses.

Mawlay Ahmed nombró un nuevo bajá, llamado Fara, según Correa, el cual llegando a Tetuán, envió un comisario a Tánger, conminando al bajá Alí para que dejase Tánger y se fuese a vivir en su Rif natal, a lo que Alí se negó alegando que aquella alcaldía era suya.[53]

La identidad de ese Fara nos la dá el capitán inglés, quien dice que para contentar a todos, el nuevo sultán nombró el 4 de Julio, otro bajá para Tetuán, llamado Abd el Malik Busfra que había sido el último alcalde del nuevo Fez. El sultán dejó a Hamed Ben Alí Ben

---

51 - El Oufrani, Op. Cit., pág. 323.

52 - Braithwaite,Op.Cit., pág. 12.

53 - B.N. Mss. 9741. Fol. 273.

Abd Allah en posesión de Tánger, Larache y Arcila y sus dependencias. Añade más adelante que hasta finales de Julio no llegó Abd El Malik Busfra a Tetuán, visitando, acto seguido, las fortificaciones exteriores de la plaza, que consideró inadecuadas y mandó paralizar, lo que le enfrentó a otro personaje, Paiz el herrero, que hacía las veces de gobernador por encargo de sus ciudadanos.[54]

El mismo autor nos ha dejado de Busfra un ligero retrato : bien hecho de cuerpo, talla medíana, aire y modales graciosos, lleno de dulzura y de color mulato. Tenía 38 años y le supone excesivamente bondadoso y humano.[55]

El capitán inglés estuvo en contacto con Busfra, puesto que viajó con él para presentarse en la corte, según una orden que recibió Busfra del sultán el 8 de septiembre de 1727. El 3 de Noviembre de dicho año salió Busfra de Tetuán para Mequinez, no regresando ya nunca a Tetuán.[56]

Volviendo a nuestra crónica ceutí, los mismos enviados de Lucas dijeron que toda la Berbería se consumía en guerra. El bajá Alí er Rifi que salió de Tetuán, huyendo, no de sus habitantes, sino por desconfianza del nuevo monarca, refugiándose en Tánger, ya no pudo volver a la ciudad. Por un lado había otras autoridades que le impedían, Omar Lucas y el bajá Busfra. Por otro, la fuerza de Bu-l-Lif y sus serranos lo rechazaban, cuantas veces pretendía recuperar su dominio de la ciudad.

Su palacio urbano había sido incendíado y, posiblemente, cuantos bienes raíces poseyera en la medina, que no serían pocos. Acosados sus partidarios así como los negros de su milicia, la ciudad se vió libre de su presencia e influencia por bastante tiempo, a costa, claro está, de encuentros sangrientos y bastante riqueza consumida por el humo.

Correa nos contará los acontecimientos tetuaníes por mes, a veces por semanas y hasta por días, gracias a los informes que recibe el conde de Charny por diferentes vías.

Unas veces eran simples campesinos o gente común que se capturaba ex-profeso para preguntarles lo que sabían, sobre la situación en que vivía su país. Otras, eran confidentes entre los propios indígenas que se enviaban a propósito para enterarse de los sucesos que ocurrían, en primer lugar en Tetuán. Entre esos confidentes se contaban, a veces, personajes de categoría que se consideraban o buscaban la amistad de los españoles.

---

54 - Braithwaite, Op.Cit., pp. 21, 29 y 31.

55 - Ibid., pp. 66-67.

56 - Ibid., pp. 155 y s.

Se aprovechaban también los relatos de los mercaderes que acudían en cafila o caravana, desde Fez principalmente, con mercancías a vender en Ceuta.

Cualquier medio le parecía bueno al Capitán general ceutí para enterarse de lo que sucedía en el vecino país. Le iba en ello la tranquilidad y la pervivencia del enclave del que era responsable.

En aquellas circunstancias no le era difícil adquirir información. Más bien le sobraba.

El día 4 de agosto, estando el Conde con su caballería en el campo exterior, se presentó un pelotón marroquí de 43 hombres a caballo, bien armados, con bandera de paz.

Pidieron que hubiera tregua hasta los Castillejos, a lo que Charny solicitó que se hiciera alguien responsable de las previsibles violaciones. El jefe de la patrulla contestó que respondería por su gente, pero que no se atrevía a hacerlo respecto al Bacha Alí, enemigo declarado de Tetuán y de la Sierra, el cual, desde Tánger, podía causar disturbios. Se convino, finalmente, que hubiera amigable correspondencia.

Para consolidarla, el 11 del mismo mes, se presentaron nada menos que 200 marroquíes con dos alcaides de Bedsanjon y Alcofar. Uno de estos, Argaz, que no sabemos de donde era, se convirtió, por deseo propio, en uno de los mejores aliados del gobernador ceutí para tenerle al corriente de los vaivenes políticos de su país.

Aquellos 200 hombres venían a vender vacas, gallinas y otros productos del campo que eran siempre bien recibidos por los ceutíes. Entre ellos venían cincuenta ciudadanos de Tetuán con los que se habló largamente de los deseos del nuevo alcaide de aquella ciudad de que hubiera buena inteligencia.

A los dos días volvió Argaz diciendo que deseaba ser amigo del gobernador y pidiendo lugar donde entrevistarse para contar las novedades de Berbería.

El 18 de Agosto volvieron los alcaides, clamando por la paz; el 6 de Septiembre nueva visita de los alcaides pidiendo seguro. El 4 de Octubre los mismos alcaides enviaron un mensajero porque ellos no podían venir, pero querían que se avisara que una escuadra inglesa estuvo en Tánger, proveyendo de municiones al bajá Alí.

Este avanzó hasta dos leguas de Tetuán, robando ganado y quemando cuanto había encontrado.

Muhamad Bu-l-Lif le salió al encuentro y recobró parte de la presa.

El 26 de Octubre los alcaides llegaron y personalmente dieron cuenta de los combates habidos en Tetuán el día 20. El bajá con 9000 hombres logró entrar en la ciudad, pero solo se mantuvo dos

horas dentro, proque Bu-l-Lif acudió con la gente de la Sierra y el bajá se retiró a Tánger.

En estas acciones ambos bandos perdieron mucha gente y el Bajá un hermano y un tío.[57]

Otro informe que se fecha en 4 de Noviembre habla de la pérdidas de los dos bandos, el del bajá fue de 1400 hombres, los tetuaníes perdieron 700.

A medíados de Noviembre un cautivo genovés, huído de Tánger, confirma la veracidad de los sucesos, añadiendo que el bajá iba contra los de Alkazar y el 4 de Diciembre, otro cristiano, escapado de Tetuán ratificó los pasados acontecimientos.

Cautivos escapados, he ahí otra interesante fuente de información de las autoridades ceutíes.

Con las noticias dadas por esos dos evadidos de Tánger y Tetuán, respectivamente, termina el año 1727 la crónica de Correa de Franca. Un año que no puede ser más negativo y desastroso para la Historia de Tetuán, en particular y la de Marruecos en su conjunto.

Respecto a Marruecos las resume la Gaceta de Madrid en su número del 29 de Julio de 1727 : Escriben de Ceuta que aún prosiguen en los reinos de Marruecos las hostilidades y discordías que hay sobre su dominación entre los hijos del Rey Muley Ismael.

La herencia dejada por Mawlay Ismail iba a mostrar, desde ese mismo año de su desaparición, sus más profundos y sombríos arcanos.

Hemos seguido, esencialmente, las dos fuentes que más pormenorizadamente hablan sobre los sucesos. En realidad se complementan una a la otra, aunque algunas divergencias hayamos observado en el transcurso de nuestro trabajo. Así, el asalto a Tetuán por el bajá Ahmed el Rifí, lo fecha Correa de Franca el 20 de Octubre, mientras Braithwaite lo hace el 13. O sea, una semana exacta antes. La cronología de Correa nos parece aquí más precisa y ajustada a los hechos que va especificando cronológicamente, con mayor cuidado que el capitán inglés. Por lo demás, éste, como testigo en el terreno, nos dá detalles que nos faltan en el manuscrito ceutí.

Seguiremos asistiendo, en años sucesivos, no a la solución de los problemás, sino al empeoramiento de los mismos. Parece como si todas las energías de un pueblo se dedicaran a la tarea de su propia destrucción.

---

[57] - B.N. Mss. 9741. Fol. 274.

## Hambre y guerra en Berbería.

¿Quien gobernaba en Tetuán, al comenzar el año 1728 ?

Desde luego no el bajá Alí, rechazado en su pretensión de ocupar por la fuerza la ciudad.

Tampoco el jefe de los montañeses, Bu-l-Lif, retirado a la Sierra, entre los suyos, o bien desplegado en los campos defendiendo cosechas y ganados.

Umar Lucas, cuyo nombre ha surgido en el puesto de gobernador, no figura, ni en los combates, ni después, como autoridad que reconozcan los tetuaníes, por lo menos exclusivamente.

Se ha visto otro nombre, Paiz, al que los ciudadanos habían designado para gobernar.

Otro dirigente, enviado por el sultán en funciones, no se distinguía por el ejercicio efectivo de su autoridad. Era el Fara o Busfra de las fuentes.

Braithwaite habla de un diván o consejo, cuya fórmula tampoco era nueva para la sociedad tetuaní. Dentro de este diván se distinguió, en algunos momentos, un tal Cárdenas, apellido morisco, sin duda alguna. Tambien lo era el herrero Paiz. Pero los tiempos de predominio morisco habían pasado, en realidad, y tampoco corrían vientos de racionalidad en la política y sociedad marroquí.

A la pregunta que nos hemos hecho al principio de este epígrafe, podríamos contestar que gobernaban todos y no gobernaba ninguno. Era la tónica general en el desarrollo de los acontecimientos de Tetuán y de todo el país.

Desde el día 2 de Enero de 1728, hasta el 27, practicamente cada semana llegaban informadores a Ceuta.

De sus novedades destacamos los esfuerzos de unos y otros por encontrar las piezas de artillería enterradas por el bajá Alí el Rifi cuando levantó el sitio de Ceuta, la ocupación de Alkazarquivir por el bajá y las incursiones de éste contra los de Tetuán, asegurándose que en una de ellas se había llevado a Tánger mil vacas. Los tetuaníes respondieron derribando los caseríos que él tenía en aquella jurisdicción.[58]

El 23 de Febrero Correa anota un intento de acuerdo entre el bajá Alí y los tetuaníes, al que se oponía el partido del caballero Umar Lucas, que gobernaba a Tetuán, porque el bacha Fara, en estas revoluciones se había escapado.

---

58 - B.N. Mss. 9741. Fol. 275.

Apreciación no ajustada a la realidad, puesto que el bajá Busfra había marchado a Mequinez, llamado por su soberano.

El 27 de Febrero, el alcaide Argaz dice que a Tetuán llegó un xarife para concluir un convenio, al cual no sólo se oponía ahora Umar Lucas, sino Mohamed Bu-l-Lif, con sus montañeses. Además que toda la Berbería se hallaba confundida en desórdenes, porque las Alcaidías y Lugares grandes se gobernaban sin reconocer superioridad. Un caos político descrito en dos líneas.

Dos días después, el 29, ocurrió un hecho que, aunque no frecuente, tampoco era anormal en aquella zona y con aquellas circunstancias. El alcaide Argaz se refugió en Ceuta. Con toda su familia, catorce personas incluido un niño de pecho nieto suyo, pidiendo protección del rey de España. Lo que hoy llamaríamos asilo político. Se le concedió, por supuesto, recordando el antecedente de los Naqsis y del jeque de Anyera, en el siglo anterior. Las continuas idas y venidas y aún más, las confidencias de Argaz presagiaban el paso que había dado.[59]

Otros informes llegaron el día 21 de Marzo, según los cuales el bajá preparaba su gente, junto con artillería y morteros para atacar Tetuán, pero que los habitantes y Bu-l-Lif se disponían a defenderse.

Sendos avisos llegados el 23 y el 24 del mismo mes hablaban de los preparativos y conminaciones del bajá con 7000 hombres y artillería dirigidos contra Tetuán. Un navío inglés condujo los morteros hasta el lugar apropiado, seguramente desembarcados en Rio Martín.

El día 2 de Abril se daban otros números: 10.000 jinetes y otros tantos infantes eran las fuerzas atacantes que, se decía, ya estaban bombardeando la medina. Dentro defendiéndola, estaba Bu-l-Lif.

El 7 de Abril vinieron informes de que Bu-l-Lif atacó el día 1 por la montaña, obligando a los asedíantes a huír al llano, al amparo de la caballería. A la vista de esa huída el bajá se volvió a Tánger. En su retirada quemó los lugares de Zarquizan, (seguramente Quitzan), Beni Madan y Benirbolan (?), llevándose cuatro embarcaciones que había en el río. Las mismás que se vieron, efectivamente, pasar por Ceuta, convoyadas por dos navíos de guerra ingleses. El hecho supone el dominio del valle del Río Martín por parte de las tropas del bajá.

Bu-l-Lif, a su vez, incendió Guadasarjon y Alcofar, cuyas llamás se veían desde Ceuta.

Dos hermanos de Argaz llegaron el día 11 de Abril, con

---

59 - B.N. Mss. 9741. Fol. 276

noticias de la deposición de Mawlay Ahmed y la aclamación de Mawlay Abd el Malik.

No tardaron mucho tiempo en recibir la noticia en Madrid, ya que la Gaceta del Martes 20 de Abril de 1728, la trae, procedente de Tetuán, donde habían llegado dos correos el Sábado 17, anunciando la proclamación en Mequinez de Mawlay Abd el Malik, lo cual hicieron con gran júbilo también en Tetuán. Añade el dato de haber sido los propios negros de su guardía los que apresaron al anterior sultán cuando lo retiraron borracho de la mezquita.

El alcaide de Tetuán, Lucas, el caudillo serrano, Bu-l-Lif y el bajá Alí, habían sido convocados para presentarse en Mequinez al nuevo sultán.

El día 14, uno de los confidentes afirmó que Tetuán había reconocido a Mawlay Abd el Malik, saliendo para Mequinez, tanto Lucas como Bu-l-Lif.[60]

Este último confidente también pidió asilo político.

Por informes que fueron llegando los días 21 y 29 de Abril y 12 de Mayo, se supo que Mawlay Ahmed estaba preso en Mequinez y que el bajá Alí y los rifeños no querían reconocer a Mawlay Abd el Malik.[61]

El conde Charny, como se puede comprobar, estaba bien informado y no podía tener queja de la falta de información.

Los sucesos, algo más detallados en az Zayyani tienen en este la misma fecha aproximada.[62]

Naturalmente no aparecen en el autor marroquí las particulares incidencias del Norte del país, como las luchas de los tetuaníes o los asilos políticos llevados a cabo en Ceuta.

En cuanto al relato del capitán inglés Braighwaite termina con la deposición de Mawlay Ahmed y la entrada de Mawlay Abd el Malik, contado a posteriori.

Creemos, pues, que muchos de los datos que nos va proporcionando la cronica ceutí, no los encontremos posiblemente en ninguna otra fuente.

Los Padres trinitarios, residentes en Ceuta, despacharon por entonces, cartas para los cautivos de Mequínez y, al volver el mensajero, el 24 de Junio, informó que el bajá Alí había llegado a Mequínez y el rey Abd el Malik lo encarceló junto con otros dos hermanos. Les exigió cien quintales de plata que uno de ellos fue a buscar a Tánger.

---

60 - B.N. Mss. Fol. 276 vto.

61 - B.N. Id. id. Fol. 277.

62 - Zayyani, Op. Cit. p. 59

El rey Abd el Malik nombró alcaide de Tetuán a Omar Lucas, quien junto con Bu-l-Lif ofrecieron desbaratar a las fuerzas de Ceuta.

En efecto, lo intentaron el 27 de Junio, emboscándose pero sin atreverse a embestir, retirándose a Tetuán.

El 11 de Agosto llegó otro confidente con la nueva de que Mawlay Abd el Malik había confirmado en el gobierno de Larache, Alkazar y Tánger al bajá-alcaide Alí y nombrado para Tetuán un xarife, lo que hace pensar que había surtido efecto lo de los cien quintales de plata.[63]

Del resto del país se decía que Mawlay Ahmed se había escapado y le aclamaban rey en Tadela.

En Taza dominaba Mawlay Afidel.

Mawlay Abd el Malik era obedecido en Mequinez y fuera de la capital su hermano Mawlay Abd Allah; entre estos dos hermanos hubo una batalla, viéndose precisado Abd el Malik a refugiarse en Fez.

Los negros habían derrotado a los bárbaros, léase bereberes.En pocas líneas no puede describirse un anarquía más absoluta.

Las últimás novedades trajeron consigo que, una vez más, se cambiaran las autoridades tetuaníes, dejando el gobierno el xarife anteriormente nombrado y quedando con el control de la ciudad Bu-l-Lif,, Umar Lucas y otro personaje que sale ahora por vez primera, un tal Zeguer.

El Capitán General ceutí envió de incógnito a Tetuán al buen amigo Argaz, quien regresó confirmando todo lo apuntado, añadiendo que Mawlay Ahmed volvía a reinar en Mequinez, ciudad que había sufrido un horroroso saqueo por parte de los negros. Mawlay Abd el Malik reinaba en Fez., aunque estaba bloqueado por esas milicias negras.[64]

Un hermano de Argaz aseguró el 10 de Septiembre que Mawlay Ahmed tenía sitiado en Fez a Mawlay Abd el Malik. Los tetuaníes reconocían a éste. Por contra el bajá Alí se puso bajo las órdenes de Mawlay Ahmed.

El hermano de Argaz traía una carta, que firmaba Omar Benab delzelan, dirigida a Argaz, ofreciéndole salvoconducto para que volviera a sus tierras.[65]

Seis días más tarde llegó un alcaide, llamado Axier, con lucida

---

63 - B.N. Mss. 971 Fol. 277 vto. Tambien la **Gaceta** del 13-7-1728.

64 - B.N. Mss. 9741, Fol. 278 y **Gaceta**, del 28 Septiembre.

65 - Idid. Fol. 278 vto.

tropa y cartas, de parte de Omar Lucas, Alcaide de Tetuán, escritas en español para el General de Ceuta.

Le pedía que Argaz y familia volviesen a su país. El asilo político de Argaz en Ceuta causaba, seguramente, bastante más que molestias, entre los destacados hombres de prestigio en Tetuán.

Todos los informes coincidían en la división del reino con Mawlay Ahmed en Mequinez y Mawlay Abd el Malik en Fez.

El bajá Alí obedecía al primero y Tetuán, junto con los serranos de los alrededores, al segundo.[66]

Más de dos meses transcurrieron en negociaciones para la repatriación de Argaz, el cual no terminaba nunca de confiar en las seguridades que se le ofrecían por parte de Omar Ben Abdeslam Lucas, como alcaide, avalado por un xarif, llamado el Homi, y otros personajes, hasta ahora desconocidos, tales Alí Hadu, que se cita como intérprete, Mawlay Tabib (literalmente el señor médico), de quien se solicita un rosario, y otro, un tal Almecaid Secar o el Sauvak.

El 15 de Noviembre llegaron tres cautivos de Mequínez, y refirieron que la Berbería se hallaba llena de hambre y guerra.

Contaron los combates habidos contra Fez y sus ciudadanos que llevaron a cabo los abid de Mawlay Ahmed.

El 2 de Diciembre llegan más informes sobre las luchas y bombardeos que sufre la ciudad de Fez, la que se rinde el día 15 de Diciembre a Mawlay Ahmed. Este apresa a su hermano y lo encadena.

Dos campesinos llegaron a Ceuta el 18 de Diciembre para, en palabras de la crónica ceutí, vender sus hurtillos, y declararon que el bajá Alí estuvo sobre las sierras, saqueando y quemando todos los poblados que nos querían someterse a Mawlay Ahmed, regresando después a Tánger.

Por su parte Bu-l-Lif, temiendo un ataque del Bajá a la ciudad de Tetuán, reclutaba gente de las sierras y del propio Xauen.

Quizás esta última ciudad fuera, en todo tiempo, el cuartel general de Bu-l-Lif y sus serranos.[67]

Nos hacemos esta reflexión recordando a su fundador, Sidi Alí ben Rasid, el Príncipe de la Montaña; como se llamaba, y que tuvo a Xauen como centro estratégico inexpugnable contra los lusitanos de Ceuta. Posiblemente el bajá Alí, en sus luchas contra los tetuaníes y los montañeses, no dispusiera jamás del dominio de Xauen. Varias veces nos hemos preguntado el por qué de la escasez

---

66 - Ibid. Fol 279.

67 - B.N. Mss. 9741. Fol. 2.

de noticias acerca de Xauen, después de la desaparición de los rasidíes como dueños de ella.

Con estos aviso concluye el año 1728 y pocas esperanzas de que el futuro, tanto de Tetuán y de su zona, como del total del país, fuera a mejorar.

## Sultanes de ida y vuelta.

Un sultan repuesto, otro encandenado, así comienzan los acontecimientos a sucederse en los dos primeros meses del año 1729 pero pronto iban a variar las circunstancias , no se sabe si mejor o peor, en lo que respecta a los más altos representantes de la dinastía en el poder.

El 23 de Marzo llegó a Ceuta el ya citado como intérprete, Alí Hadú, con despachos del gobernador de Tetuán, que seguía siendo Omar Lucas, y otras cartas de sacerdotes y cautivos, que decían que el día 5 de Marzo había muerto, de flujo de sangre, Mawlay Ahmed y que había mandado ahorcar a su hermano Mawlay Abd el Malik, en la prisión , cinco días antes. Sabiendo que iba a morir , el resentimiento y el odio le empujaron a aquella vil acción, para impedir que su hermano gozara del poder.

La fecha de la muerte de Mawlay Ahmed que trae el manuscrito ceutí, 5 de Marzo, corresponde al Sábado 4 de Chaaban de 1141 y se ajusta al día señalado por Zayyani.

Lo que parece errar ligeramente este autor es en el día del estrangulamiento de Abd el Malik , pues si se realizó cinco días antes, entonces fue en la noche del 29 al 30 de Reyeb y no el primero de Chaaban que, por otro lado, no fue Lunes , sino Miércoles. El problema cronólogico de costumbre.[68]

Otro hermano de los difuntos entra ahora en escena, Mawlay Abd Allah, que estaba en Tafilelt. Es proclamado rey y se apresura a ir a la corte , donde para seguir la corriente de de propósitos, que suponía cómplices de la muerte de su hermano Mawlay Abd el Malik. Otra de sus primeras disposiciones fue cambiar el gobierno de Tetuán que dió a un tal Mezod Ruzi, dependiente de Omar Lucas.

No se sabe muy bien en que consistía tal dependencia , ni se tienen más noticias , en adelante, del Mezod Ruzi, cuya historicidad queda solo en esa cita de la crónica.

---

68 -Zayyani, Op. Cit., págs. 63 - 64. Hemos confrontado fechas de hégira y cristiana en H. G. Cattenoz, **Tables de concordance des Eres Chrétienne et Hégirienne,** Troisième édition, Rabat, 1961.
La muerte de los dos sultanes y el entronamiento de un tercero viene en la **Gaceta** del 5 - 4 - 1729.

Esta prosigue con los informes de que Omar Lucas fue a Mequínez a reconocer al nuevo soberano , quíen lo repone en el gobierno de Tetuán, añadiéndole las cábilas de Benisalem y Beni Madan que son , como sabemos, las que cierran el valle de Martín por su derecha.¿ Por qué se especifican en ese nombramiento?¿Es que estaban anteriormente desgajadas de la primera autoridad tetuaní?

Cualquier pregunta que nos hagamos tendrá, forzosamente por ahora, que quedar sin respuesta. Beni Madan, por razón natural, tenía que estar bajo mando tetuaní, al ubicarse allí el fondeadero de la flota corsaria que, durante los dos siglos anteriores, había traído en jaque a las marinas que pasaban por el Estrecho.

La noticia anterior se complementaba con otra, recibida el mísmo 3 de Julio, de que Bu-l-Lif acaudillaba una coalición de cábilas, Beni Gomar, Ajmás , Léase Hauen, Beni Hassen y Gumara, contra el éjecito del rey. El monarca había logrado, por lo visto, separar la coalición de tetuaníes y mantañeses y quizás ese sea el sentido del nombramiento de Lucas, añandiéndole las cábilas expresadas.

El 31 de Julio continuaban las luchas de Bu - L- Lif y sus serranos, por un lado y el bajá Ali , por otro.

De Tetuán habían llevado a Fez, sublevado contra Mawlay Abd Allah, cien quintales de pólvora y cien bombas. Esto significa que la ciudad, en las manos de Omar Lucas, estaba , sin embargo, del mismo bando que el bajá Alí, esto es ; del partido del nuevo soberano Mawlay Abd Allah. Dentro del confusionismo, propio de los acontecimientos, se aclaran algo las posiciones de unos y de otros.

La lealtad de Lucas explica que , como veremos en el futuro, su porvenir no termine trágicamente como otros personajes de su tiempo y de su entorno.

El 11 de Septiembre llega la rara noticia de que Tetuán estaba sosegado y tranquilo. Quizás por ello Argaz se decidió a dejar su refugio ceutí y se marchó el 17 del mísmo mes a sus tierras.

Con la nueva de la sumisiόn de Fez al rey Mawlay Abd Allah, llegada a Ceuta en Noviembre, se acaban los informes del año 1729; registradas en la Historia de Correa de Franca.

Después , sobrevinieron entre estos Mahometanos tales desórdenes que el país se redujo a la mayor desolación.[69]

Luego , a continuación , el cronista , a falta de datos, o cansado de tanta desolación, salta al año 1731, en cuyo mes de Julio

---

69 - B. N. Mss. 9741 , Fol. 283.
La **Gaceta** de 7-11-1.730 sí da noticias de Marruecos pero no de Tetuán.

se produce el relevo en la Capitanía General de Ceuta , cesando el Conde de Charny y , nombrado para sustituirle D. Alvaro de Navía, Marqués de Santa Cruz de Marcenado.

De otra sustitución nos habla la crónica, que es mucho más interesante a nuestro propósito, Así la cuenta , en pocas líneas :

En este año, lograron con el rey Abdala, las astutas presiones del Bacha alcaide Alí, que Omar Lucas fuese llamado a Mequinez y, con pretexto de no ser hombre de guerra , le dedicasen a la enseñanza de Niños en la Doctrina de su Ley , en cuyo ejercicio acabó la vida, llena de miserias.

Y menos mal que acabó así el poder de Lucas en Tetuán , dados los calamitosos y sangrientos hechos que se producían.[70]

Tambíen hay noticias de Mohamed Bu-l-Lif

El Bulif, joven brioso , había adquirido grandes éxitos en la guerra, por cuyo motivo llegó a conquistar la benevolencia del rey Abdalá. No obstante, sufrió desdichada muerte , sin yo saber cómo le resultó.

Y del célebre Alí er Rifi , nos llegan , así mísmo , novedades , el Bacha Alí quedó triunfante y sosegado, mandado a su arbitrio desde Larache hasta las sierras del rif y la Gomera, inclusas las de Tetuán y todos sus manejos.

Más tarde veremos el final del personaje. Por ahora la crónica deja a Lucas enseñando y a Rifi mandando.

Al poco tiempo , el 1 de Abril de 1732, el Mariscal de Campo, D. Antonio Manso Maldonado , militar conocido de los ceutíes, sustituye a D. Alvaro de Navía.[71]

El nuevo Capitán General ha de soportar nuevos ataques llevados a cabo por el bajá Alí, durante ese año de 1.732 , sobre todo, como dice Correa , por adquirir los gloriosos renombres de valeroso, religioso y justificado.[72]

Con estos dos últimos gobernadores ceutíes se acaban las noticias proporcionadas por las diversas fuentes al Conde de Charny. Por lo menos con la prodigalidad que se producían. Debemos, pues, al buen hacer del presbítero Correa de Franca que afirma textualmente en su crónica : Las noticias de Berbería en este gobierno son extractadas de los originales y borradores que me confió el Señor Conde de Charny, una historia paralela de la ciudad de Tetuán.

---

70 - La **Gaceta** de 2-12- 1.723 motiva la destitución en la insatisfacción del rey por la fidelidad de Alí Lucas (sic) , dando el gobierno de Tetuán al baxá.

71 - BN Mss. 9741 Fol. 285.

72 - B N. Mss. 9741. Fol. 286.

Con ello se cierra un lustro de lo sucedido en ella en ese desgraciado período.[73]

En cuanto a la historia general del país , siguió desastre tras desastre , con los hijos de Mawlay Ismail disputándose el poder.

Mawlay Abd Allah tuvo la inmensa suerte de no caer en el camino, pero a costa de ser despuesto cuatro veces y repuesto cinco, quedando al final triunfante de todos sus enemigos que eran , a su vez hermanos.Respecto al otro personaje principal de nuestro estudio, el bajá Alí er Rifi, acabó enfrentándose con el propio Mawlay Abd Allah quien lo derrotó y dió muerte en Alkazarquivir el año 1756, terminando así el sueño de una ambición. Solo muerte y ruinas se recuerdan de su paso por el gobierno de Tetuán.

De Omar Lucas reproducimos rasgos , los comentarios hechos Braithwaite en la visita que le hizo el 25 de Septiembre de 1727.

El Hay Lucas es el Director General de todas las Aduanas del Puerto desde hace muchos años. Es de 70 años , físicamente débil pero con el juicio más sano que nunca. Ha viajado mucho y habla perfectamente el español. Recibe a todos los extranjeros con la mayor cortesía imaginable. Los comerciantes ingleses aseguran que ningún hombre de este país es tan sabio como él. Además de otras ciencias es gran conocedor de las Matemáticas, aprendidas en escritos españoles que le son familiares. Su influencia es grande en Tetuán , dando la pauta en los asuntos de gobierno. Tiene grandes riquezas que ha sabido sustraer a la rapacidad del bajá, haciendo, además, imanes a dos de sus hijos para evitarles las exacciones de los gobernadores. Durante los últimos acontecimientos ha sido el portavoz de los principales de la ciudad que no emprenden nada sin consultarle, ni actúan más que siguiendo sus consejos.[74]

Nosotros añadimos como colofón, que si de Bajá Rifí han quedando ruinas, de Omar Lucas han quedando hermosas instituciones de enseñanza.

Siempre hay que aprender de la Historía.

---

[73] - Casí toda una página de la **Gaceta de Madrid** del 8 Mayo de 1732, está dedicada a dar cuenta de los informes recibidos por cartas que resumimos en nota por no afectar para nada a Tetuán:

... de Santa Cruz en Berbería son esas cartas que hablan de la prosecución de las guerras civiles; el odío implacable de los Naturales a los Negros; los árabes y las tierras del rey. Ha habido dos combates a la legua de Marakus. Victoria de los negros en Tadla. Continuación del asedío a Marrakus. No hay comercio ni dinero en el Sus.

[74] - Braithwaite, Op, Cit., pags. 83 à 85.

## El Sultán que no volvió

Recordemos que, en uno de los informes recibidos en Ceuta, en Agosto de 1728, se decía escuetamente que en Teza dominaba Mawlay Afidel, al tiempo que Mawlay Ahmed era proclamado en Tadla, Mawlay Abd el Malik en Fez y Mawlay Abd Allah en Mequínez. Todos hermanos, como hijos de Mawlay Ismail.

Poco o nada hablan los historiadores de este Mawlay Afidel. El los turbulentos tiempos que se vivían no es extraño que , un pretendiente más, entre los que se disputaban el poder total, pero con escasa incidencia en la marcha de los acontecimientos , fuese olvidado.

Mawlay Afidel no es recordado por los cronistas marroquíes pero sí por los españoles de Ceuta, por los motivos que pasamos a exponer. Otro ejemplo más de la anarquía que se padecía en Marruecos.

Este hijo de Mawlay Ismail gobernaba Teza y su región cuando sobrevino la muerte de su padre en 1727.[75]

Probablemente no gozaba de extenso territorio ni de poderoso ejército que pudiera competir con los de sus hermanos. No era muy partidario de los abid ni los abid de él.

Al no hacer ninguna sombra en las disputas que unos y otros levantaban, su presencia o, mejor diriamos, su pasividad, quedó inadvertida.

Mawlay Afidel murió a fines de 1730 o principios de 1731. En esa fecha habían pasado por el trono dos de sus hermanos, Mawlay Ahmed y Mawlay Abd el Malik y estaba entonces un tercero, Mawlay Abd Allah. Este gobernaba, apoyado en los abid o milicia negra, no bien aceptada en todos sitios.

Al fallecer Mawlay Afidel los blancos de la provincia de Teza proclaman rey a un hijo suyo, llamado Mawlay Hamed, con la oposición de los negros, claro. Unos y otros se enzarzan en batallas de las que los abid llevan la mejor parte, logrando coger prisionero, en una de ellas a Mawlay Hamed, que llevan en cautiverio a Mequinez, donde su tío Abd Alah lo encierra en una cárcel.[76]

---

75 - Esta ciudad de Teza debe ser el Tefza del Africano que la considera la principal de la región de Tadla. (Leon. 142).
En efecto , cuando se habla de batallas entre el tío y el sobrino, se sitúan entre Salé y Marrakus, donde se ubica precisamente la región de Tadla.

76 - El relato que trae la **Gaceta de Madrid** del 21-4-1733, deforma, a veces sustancialmente, los datos que parecen más reales en las fuentes que seguimos en

Mawlay Hamed logra huir de su prisión con algunos partidarios suyos, dirigiéndose en su huída hacia el Norte del país.

En la segunda quincena del mes de Marzo de 1731 se encontraba en la vecindad de Ceuta.

El día 20 de Marzo, diciendo a su comititiva que iba a pescar los dejó en el Serrallo y se presentó en la plaza ceutí, acompañado unicamente por dos criados.

Se infiere que era una persona joven, quizás un muchaho porque no se habla de familia, esposa o hijos que le siguieran en su aventura, como hacían todos los que pedían refugio en Ceuta.

Enterado el Capitán General, Conde de Charny fue rápida y cortesmente a saludar aquel Príncipe marroquí, e indagar los motivos o las causas de tal actitud.

Como hemos visto, el gobernador ceutí estaba acostumbrado a hechos de ese género, por ejemplo, él mísmo había dado asilo al alcaide Argaz, pero una cosa era un alcaide y otra un príncipe que podía ser heredero de un trono. Nada menos que un nieto de Mawlay Ismail.

Mawlay Hamed expresó al Conde su deseo de pasar a España para solicitar ayuda de Felipe V, a fin de luchar contra su tío Mawlay Abd Allah.

No era la primera vez que tal circunstancia se presentaba. Poco más de un siglo atrás un pretendiente cedió Larache, en 1610 , a cambio de la ayuda que le colocó en el trono, por lo menos temporalmente. Algo más anteriormente, en 1578, la desgraciada expedición de D. Sebastián de Portugal, se hizo para ayudar a otro monarca destronado.

Probablemente Mawlay Hamed , o sus consejeros, conocían o tenían en cuenta esos antecedentes, porque su pensamiento, al presentarse en Ceuta, estaba claramente decidido para ayuda en su lucha contra su tío.

El gobernador de Ceuta envió despachos a Sevilla, donde estaba el rey de España, dando cuenta de la situación, y las pretensiones del joven refugiado.

Felipe V ordenó que, inmedíatamente, lo llevasen a Sevilla para tratar directamente los asuntos que interesaba.

El Capitán General ejecutó, sin dilación, la orden, nombrando

---

el texto. Dice así : "Este Príncipe se llamaba antes Muley Ahmeth, es hijo de Ismail , Rey de Mequinez, por cuya muerte se apoderó de aquel reino Muley Abdala, su tío, usurpando los Estados a su sobrino , que habiendo tomado las armas para vengarse de aquella violencia y mantener su Derecho, logró derrotar al tío en las dos primeras batallas, pero tuvo la desgracia de quedar vencido en la tercera, tanto que le obligó a retirarse de Africa y pasar a España, donde se mantuvo algún tiempo y después fue a Roma."

acompañante del Principe para que lo condujera a Sevilla al Teniente del Regimiento Fijo D Fernando Alvarez de Acosta.

En Sevilla Mawlay Hamed tuvo varias entrevistas con Felipe V, quien lo trató con toda benevolencia y los honores debidos a su rango, reconociéndole como tal Principe. En una de las audiencias Mawlay Hamed consiguió que su acompañante, el Teniente D. Fernando Alvarez , fuese ascendido a Capitán y destinado, como Ayudante Mayor al regimiento Fijo, el 1 de Agosto de 1731.

La fecha nos delata, no unas breves visitas, sino una estancia algo prolongada del Principe en Sevilla y también que sus demandas no llevaban el camino por él deseado. El primero de los Borbones españoles no estaba dispuesto a emprender una aventura bélica ni a gastar energías en tamaña empresa.

No se sabe cuanto tiempo permaneció Mawlay Hamed en España. La crónica sólo nos dice que marchó a Lisboa y que en dícha corte tampoco encontró el apoyo que solicitaba.

De Lisboa Mawlay Hamed se trasladó a Roma, quizás porque pensase que estando allí la cabeza de la cristiandad podría negociar sus propósitos con alguna probabilidad de éxito.

Los cronistas dicen que en Roma Mawlay Hamed recibió el bautismo de manos del propio Pontífice y que Su Santidad le asignó una renta para que pudiera vivir digna y tranquilamente, en su nueva vida de cristiano, sin tener que regresar a su país.[77]

Más datos, sin embargo, nos proporciona la Gaceta, madrileña del 31 de Marzo de 1733. En ella se citan cartas de Roma, del 18 de dicho mes, noticiando que el principe de Marruecos, a cuyo bautismo asistieron el Caballero de San Jorge, 17 Cardenales, el Príncipe de Corsini y toda la principal Nobleza, le pusieron en la Pila los nombres de Lorenzo, Bartolomé y Troyano Luís.

Más adelante añade que el Papa señaló a este Príncipe 50 escudos al mes para su manutención, 30 la Congregación de Propaganda Fide y 10 la Dataría y se asegura que la corte de España le asiste también con una pensión de 140 pesos al mes y la de

---

77 - El manuscrito 9741 de la B N. relata este episodio en los folios 283 y 283 vto.

Caro Lucas lo trae más extractado y casi igual en la pág. 240 que es la 154 de la transcripción de G. Barceló.

Los demás que hacen mención de él, como Criado y Ortega, págs. 276 - 7, simplemente copían a Correa de Franca.

La **Gaceta** de 24-3-1, 733 distorsiando algunos datos dice :

El Príncipe Africano , hijo del último rey de Marruccos (sic) que de algún tiempo a esta parte se halla en Roma ha recibido el Bautísmo en la Basílica del Vatícano, con gran Pompa, habiéndolo bautizado el Cardenal Guadagni y sido su Padrino el Cardenal Corsini. Ambos eran sobrinos del papa y éste era Clemente XII.

Francia con otra de 150 escudos.

¿ Estuvo también en Paris Mawlay Hamed ?

El hecho en sí, repetimos, no es nada nuevo, sobre todo teniendo cuenta que se trata de dos países fronterizos. Desde la Edad Medía se han dado casos de príncipes cristianos, refugiados en las cortes musulmanas y viceversa.

El episodio debio estar escrito en los papeles del Conde de Charny, que lo vivió, además, como hemos visto, aparece en varios números de la Gaceta de Madrid.

Es propio de épocas turbulentas como la que hemos descrito en el infortunado lustro del siglo XVIII, que sigue inmedíatamente depués de la muerte de Mawlay Ismail. Un lustro que conocemos mejor para Tetuán, gracias a la Historia escrita el mismo siglo por el presbítero ceutí de Franca.

Granada 23 Agosto 1993.

## Apendice

Los Siglos XVII y XVIII, sobre todo este último, son pródigos en relaciones, que son escritos, de autor conocido o no, relatando acontecimientos sucedidos en fechas próximás a la publicación del escrito y que hacen el papel de la prensa o revistas de nuestros días.

Una de estas relaciones ha llegado a nuestro conocimiento, una vez finalizado y a punto de entrega de nuestro estudio sobre Tetuán del Siglo XVIII.

Se trata de la Relation de ce qui s'est passé dans le Royaume du Maroc depuis l'année 1727 jusqu'en 1737.

Es anónima y está publicada en Paris en 1742. En realidad no añade nada sustancial en lo que a nuestra historia de Tetuán respecta, describiendo solamente dos episodios , el del ataque a la ciudad por las fuerzas del bajá Ali , el 20 de Octubre de 1728 y un combate de las fuerzas de Mawlay Abd Allah contra los montañeses de Tetuán en 1732.

Este segundo acontecimiento podrá ser inédito si se tratara, en efecto, de los montañeses tetuaníes que el autor de la relación califica

de los árabes de las montañas de Tetuán Aquí, de ser ciertos esos hechos que narra, podría haber desempeñado Bu-l-Lif un destacado papel y quizás explicara algunos antecedentes de su enfrentamiento con Mawlay Abd Allah, origen de su fatal desaparición que anuncia Correa de Franca .

En cuanto al escrito en sí responde a los numerosos de su género que se realizaban por los redentores de cautivos o por éstos mismos , al regreso de sus misiones o cautiverio, con objeto de despertar la atención de los fieles respecto a las miserias de los esclavos cristianos. Con ello estimulaban donaciones y limosnas que alimentaban las operaciones de rescate. Otras veces se escribían, simplemente con ánimo de lucro .

La presente relación , como su propio título indica , extiende sus relatos hasta el 1737 y se publica en 1742. Hay , pues , una proximidad cronológica que nos avala , en cierta medida , la corrección de los datos expuestos.

Además , el autor conoce otros informes sobre Marruecos, aunque sean de época inmedíata anterior, como los de Muette , pero significa un cuidado, por su parte , para tener un conocimiento ajustado del país y de sus problemás .

Hace alarde de erudicíon al escribir una Historia de Marruecos como preámbulo , lo que de verdadera relación pasa a convertirse en libro de encargo , y como tal libro parece publicarse en Paris por un librero-editor.

Quizás su autor fuese una jerarquía, bien de la orden de la Merced, bien de la Santísima Trinidad, las dos principales órdenes redentoras, que no estuviera muy propicio a dar su nombre , pero quisiera aumentar las arcas para los rescates.

La rareza de este documento nos ha llevado a transcribir los dos episodios tetuaníes como Apéndice a nuestro estudio sobre el primer lustro en Tetuán , después de la muerte de Mawlay Ismail.

El primer episodio se relata a partir de la página 58 de la Relación. El segundo se inserta comenzando en la página 195.

Hablando de los sucesos inmedíatos a la muerte de Mawlay Ismail, comienza así su primer relato:

“Se veían movimientos de rebelión, peligrosos en todo tiempo pero, sobre todo, al comienzo de un reinado.

La provincia de Tetuán era una de las más agitadas.

Aunque las gentes no negaron abiertamente el reconocimiento de Deby por rey, (se refiere a Mawlay Ahmed, llamado al Dahbi,por su prodigalidad, sobre todo con los negros), se habían sublevado contra el Bacha Hamet ( Ahmed ben Ali er Rifi) , gobernador de esta provincia , bajo pretexto que les oprimía con exacciones e injusticias.

Los habitantes de Tetuán le expulsaron de su ciudad, destruyeron su casa y destrozaron sus jardines.

El Rey hizo todo lo que pudo para prevenir las consecuencias de aquella disensión , pero el odio que los pueblos tenían al Bacha y la soberbia del Gobernador para mantener sus pretensiones, hicieron inútiles los esfuerzos y la buena voluntad de este príncipe.

En fin , el Bacha, creyéndose bastante fuerte para tomarse la justicia por su mano, levantó un ejército de 6.000 hombres, una parte de ellos facilitados por su hermano el Gobernador de Tánger.

Con esas tropas saqueó los campos, presentándose en seguida ante Tetuán .

Los habitantes se prepararon para soportar un asedio. Como vieron, sin embargo que , a pesar de la precaución que tuvieron de disparar continuamente su artillería, el ejército del Bacha se aproximaba y estaba casi bajo los muros de la plaza , en lugar de aprovechar su ventaja para destruir al enemigo que estaba al descubierto , su proximidad les alarmó tanto que abandonaron los parapetos .

Busfra , que mandaba en la ciudad , emprendió la huída, y el Ejercito del Bacha entró en ella sin encontrar la menor resistencia.

La ciudad fue saqueada y los soldados no pensaron más que en volver a su campamento.

Cuando los burgueses de Tetuán, rehechos de su espanto, quisieron reparar la falta que su cobardía les había hecho cometer reaccionaron. Como si en un momento dado se convirtieran en otros hombres, unos atacaron con vigor a los victoriosos soldados que, embarazados con el botín, casi no podían defenderse, y otros, desde lo alto de las terrazas y de los tejados de las casas, mataron un gran número a tiros y pedradas.

El coraje de los habitantes de Tetuán, en esta segunda acción habría lavado su victoria con una crueldad excesiva y aún más vergonzosa que la falta de coraje. Porque después de haber expulsado así de su ciudad al Ejército del Bacha que acababa solamente de entrar triunfante, cuando llevaron su inhumanidad hasta cortar en trozos los cuerpos muertos de sus enemigos, que encontraron en las calles de Tetuán y dárselos a comer a los perros "

La segunda cita de Tetuán en la relación de referencia es la que sigue:

"A finales del año 1732, el Rey combatió a los árabes de las montañas de Tetuán que se habían reelado.

Levantó un ejército de 30000 hombres, poniéndose a su frente Los árabes no le esperaron en el campo y aguardaron al Ejército del Rey en las trincheras que la naturaleza les ha proporcionado. Son las montañas escarpadas, casi innacesibles. Como conocían las

revueltas y desfiladeros habían ocupado todos los puntos ventajosos y no habían dejado libres más que los pasajes que debían conducir al Ejército del Rey a su pérdida si se comprometían a luchar.

Abdalá creyó que los árabes desconfiaban de sus fuerzas y evitaban llegar a una acción decisiva. Tomó el partido de ir a buscarlos en sus montañas , no teniendo otra preocupación sino la de que no fuesen hallados.

Al principio el Rey no encontró ninguna resistencia y, avanzando siempre, se metió insensiblemente en los desfiladeros donde no podían pasar más que dos hombres de frente.

Cuando casi todo el Ejército del Rey se encerró a sí mismo, inutilizándose para el combate y para retirarse, los montañeses aparecieron a la cabeza de aquellos desfiladeros y en las alturas que los dominaban, haciendo un fuego violento y continuo. Todos los tiros acertaban, sin que les costase un solo hombre. La mayor parte del Ejército del Rey pereció allí y a los que los árabes dejaron la vida fueron enteramente despojados de sus vestidos.

El Rey que estaba en las últimás filas, se consideró dichoso de haberse salvado con 400 de los suyos, volviéndose enseguida a Mequinez. Todo su equipaje, gran número de camellos y mulos y dos de sus caballos favoritos, cuyas monturas estaban adornadas de pedrería, fueron presa del vencedor ".

De este segundo acontecimiento no hay referencias en el manuscrito de Correa de Franca, tampoco en las fuentes marroquíes, como az Zayyani.

Este autor , en pocas líneas , se refiere solamente a las másacres realizadas por orden de Mawlay Abd Allah, en centenares de individuos, más o menos opositores a su gobierno, el año 1732. Entre ellas la muerte ordenada contra 350 muyahidines llegados de Tánger y partidarios del Bacha, cuando éste ayudó a otro pretendiente, y 200 hombres de la tribu de Beni Hassan, acusados de atracar a los pasajeros en país.

No sabemos si los términos ultimamente expresados encierran la severa derrota sufrida por las fuerzas regulares de Mawlay Abd Allah, en las tierras de Tetuán, o si, sencillamente, este combate no es recogido por ningún cronista o historiador.

Lo relatado por la relación podemos situarlo, casi con toda certeza, en el camino de Tetuán a Xauen, que es donde se halla Beni Hassan. ¿Fue un incidente menor magnificado por informador?

De todos modos creemos que es interesante dar a conocer esta fuente de la Relación no muy utilizada por los estudiosos de la historia marroquíe.

Granada 27 Septiembre de 1993

# Datos sobre la Historia de Tetuán en la Prensa Española del Trienio Constitucional (1820-1823)

Dr.Carlos Posac Mon

Los ambiciosos proyectos expansionistas de Napoleón Bonaparte -entre los que, probablemente, figuraba la anexión de Marruecos[1]- provocaron al airado levantamiento del pueblo español, originando la guerra que en nuestra Historia denominamos "de la Independencia" (1808-1814). En el curso de la contienda, Cádiz fue capital provisional del Reino. Allí se reunieron unas Cortes, que gobernando el país en nombre del rey Fernando VII, cautivo en Francia, elaboraron la famosa Constitución de 1812 y llevaron a cabo una frondosa labor legislativa de carácter progresista. Entre las leyes aprobadas figuraba la referente a una total libertad de imprenta, que propiciaría la aparición de numerosos periódicos.

Al retornar de su exilio, tras la victoria de las armas españolas, el monarca derogó la Constitución y dejó sin efecto la tarea legislativa de las Cortes, implantando un riguroso régimen autoritario. Fueron suprimidos todos los periódicos con excepción del titulado "Gaceta de Madrid", por ser el órgano oficial del Estado, quedando al servicio de la voluntad real. Tras varios intentos fracasados y reprimidos con mano durísima, triunfó la rebelión iniciada el 1 de Enero de 1820 bajo el caudillaje de Rafael del Riego. Fingiendo hipócritamente que estaba dispuesto a rectificar el rumbo de su política, el soberano juró cumplir la Constitución de 1812. Con este viraje político se iniciaba el llamado "Trienio Constitucional" durante el cual la Prensa, silenciada en el sexenio absolutista, proliferó en todo el ámbito de la monarquía, con carácter marcadamente ideológico. El régimen constitucional tendría un epílogo traumático en el Otoño de 1823, cuando un poderoso ejército francés, mandado por el Duque de Angulema, cumpliendo consignas dictadas por el Congreso de Verona, cruzó la frontera pirenaica y apoyado por numerosas partidas de guerrilleros realistas, puso de nuevo las riendas del Estado en manos de Fernando VII.

Durante el Trienio las Cortes trataron, con toda discreción, la

---

1 - Carlos Posac Mon, "La difícil neutralidad de Marruecos en los años iniciales del siglo XIX", **Hespéris-Tamuda**, XXII, 1984, páges.27-66.

posible cesion a Marruecos de los llamados Presidios Menores (Melilla, Peñón de Vélez e islote de Alhucemas). Como compensación se pediría al Sultán Mawlay Sulaymán que ofreciera ciertas ventajas económicas. La responsabilidad de las negociaciones se confió a Tomás de Comyn, quien pasó a Tánger con el fin de establecer los oportunos enlaces con el soberano marroquí. El proyecto no llegaría a ningún resultado, porque quedó paralizado al producirse el colapso del régimen constitucional.

Desde Tánger el comisionado español escribió varias cartas al famoso poeta Manuel José de Quintana. En una de ellas, fechada el 30 de Septiembre de 1822, señalaba que la población de Tetuán en aquel tiempo sumaba entre veintidós y veinticinco mil habitantes, doblando la de Tánger, que ascendía a once a doce mil almas. En la misma epístola destacaba la importancia del mercado tetuaní, al que acudían negociantes de Gibraltar y de otros puntos de Europa. A bordo de pequeñas embarcaciones, tripuladas principalmente por marinos de la península Apenina y, por lo general, con bandera de Gran Bretaña o del reino de Cerdeña, se descargaban en la rada de Martín, café, azúcar, grana, paños, lienzos, tejidos de algodón, seda, quincalla, hierro, papel, pólvora, armas y municiones. A cambio, la ciudad exportaba cueros , cera, gomas ordinarias, oro en polvo, marfil,tafiletes, alfombras chicas, chinelas, (entiéndase babuchas), dátiles, bueyes, mulas, gallinas, huevos, almendras y naranjas. Como la balanza era favorable a las exportaciones, para nivelarla entraban en Tetuán importantes sumas de dinero extranjero. Además, se mantenían intercambios comerciales con Argelia y Túnez, por medio de caravanas de camellos, siendo responsables de las mismas, capitalistas musulmanes y hebreos.

Las cartas de Comyn, seguidas de una síntesis de la Historia de Marruecos fueron publicadas sin nombre de autor[2]. En esta síntesis se daban pormenores de las turbulencias que agitaban el imperio en los tiempos finales del mandato de Mawlay Sulayman, provocadas por la pretensión de sus sobrinos Mawlay Ibrahim, primero y después, Mawlay al-Said[3], hijos de Mawlay Al-Yazid, de arrebatar el trono a su tío. Aunque los datos que se exponen en ella no siempre obedecen a la realidad, los incluyo como pórtico histórico de mi monografía, ya que reflejan la visión que tenía un

---

2 - Ligera ojeada o breve idea del Imperio de Marruecos en 1822, imprenta de Juan Francisco Piferrer, Barcelona ,1825.

3 - Comyn transcribía así los nombres de estos tres personajes: Mawlay Sulaymán, Mawlay Ibrahim, Mawlay Said. En adelante utilizaré las grafías originales que aparezcan en mis fuentes, tanto en los onomásticos, como en los topónimos y gentilicios.

español contemporáneo de los acontecimientos que tenían por escenario el país vecino[4].

## Guerras internas en Marruecos

Comyn señalaba a los sobrinos del Sultán como responsables de las sangrientas luchas ocurridas en suelo marroquí. Los primeros conflictos armados se produjeron en la región del Atlas. Allí las tribus Sheilloges se levantaron contra la autoridad del Sultán mediando el año 1819. En un encuentro con las fuerzas rivales, Mawlay Sulaymán estuvo a punto de caer prisionero en manos de los rebeldes, pero uno de éstos lo sacó ocultamente del campo de batalla y lo llevó sano y salvo a Mecanizó. Los vencedores no supieron aprovecharse de su triunfo y retornaron a sus lares. Su pasividad permitió al soberano recomponer su maltrecho ejército. La tranquilidad duró poco, porque los magnates de Fez promovieron una nueva revuelta y proclamaron Sultán a Mawlay Ibrahim, al que reconocieron muchos santones y ulemas.

Dejando una importante guarnición en Fez, el pretendiente tomó el camino del Norte y se apoderó de Tánger y de Tetuán. Lo persiguieron importantes contingentes fieles al Sultán que, sin detenerse a atacar Fez, se aproximaron a la ribera surgibraltareña, estableciendo su Cuartel general en Alcazarquivir. Ibrahim dejó Tánger para fortificarse firmemente en Tetuán, donde había encontrado entusiasta acogida. Aprovechando ese movimiento, una columna mandada por Mawlay Alí, hijo de Mawlay Sulaymán ocuparía Tánger sin encontrar resistencia.

Ibrahim murió en Tetuán, a los ocho días de entrar en la ciudad. Sus partidarios escogieron para sucederle a su hermano Mawlay Said, al tiempo que las fuerzas de su tío sometían la plaza a un estrecho bloqueo, aunque sin conseguir doblegar la porfiada resistencia de sus defensores. Confiando en que los tetuaníes podrían afrontar con éxito los embates de los sitiadores, Said emprendió la retirada con el grueso de su ejército y dando un amplio rodeo por tierras rifeñas, que le eran adictas, buscó refugio al amparo de las murallas de Fez. No tardaría en presentarse el Sultán frente a ellas, con numerosas tropas.

Tras una valerosa resistencia, los fasies decidieron rendirse al Sultán y pusieron en sus manos al rebelde .Said. Al enterarse de lo sucedido en Fez, las gentes de Tetuán creyeron conveniente imitar

---

4 - Sobre la proyección en Tetuán de tales acontecimientos pueden consultarse: Sidi Ahmed Rhoni, **Historia de Tetuán**, Tetuán,1953 y Muhammqd Dawud, **Tarij Titwan**, Tetuán 1965.

su ejemplo, invocando el perdón del soberano. Este aceptó contento la sumisión y dando muestras de magnanimidad no tomó represalias graves, limitándose a desterrar a algunos de los destacados partidarios de su vencido sobrino. Como muestra de su clemencia devolvió las llaves de la ciudad a quien había sido hasta entonces su gobernador, renovando su nombramiento, pese a que fue uno de los principales cabecillas de la bandería de Mawlay Said.

Restablecida la situación, Mawlay Sulaymán regresó a Marraquech llevando prisionero al frustrado pretendiente. Lo trató con benevolencia y al fin lo liberó enviándole encargado de presentes a la provincia de Tafilete, tras darle como esposa a la viuda de uno de sus hijos, muerto en un combate librado en la localidad de Sayan. No tuvo mucho tiempo el Sultán su triunfo porque se suscitó una nueva rebeldía. Cuando se disponía a ponerse en campaña para aplastarla, lo encontraron muerto en su lecho sin señales de violencia aunque, posiblemente, su fallecimiento había sido provocado por un veneno.

Comyn ponía colofón a su resumen histórico en las semanas finales del año 1822. Presentaba en su relato una sombría perspectiva del destino de Marruecos. Corrían rumores de peligrosas turbulencias en los tiempos iniciales del mandato de su nuevo Sultán . Por voluntad de Mawlay Sulayman había ascendido al trono Mawlay Abd-Rahmán que desempeñaba el cargo de Gobernador de Fez. Era hijo de Mawlay Hichem y, por tanto sobrino del difunto soberano, que en su elección dejaba marginados a sus propios hijos, lo que resultaba sumamente extraño. Se difundían voces alarmantes por el Imperio, asegurando que el flamante Sultán había sido degollado y por medios violentos se disputaban su herencia hasta cuatro aspirantes al mando supremo.

## La prensa en el trienio constitucional

Hasta no hace muchos años se venía minusvalorando la importancia de la prensa -símbolo del Cuarto Poder- como elemento válido para los estudios históricos de reconocida categoría científica. Modificando radicalmente ese criterio peyorativo, la Historiografía de nuestros días considera las colecciones de periódicos como valiosísimas fuentes informativas para un mejor conocimiento del pasado, puesto que en sus paginas se reflejan las tensiones sociales en que se difundieron.

Como dijimos, la prensa tuvo una expansión extraordinaria durante el Trienio Constitucional, particularmente en la capital del

Reino. Espigando en las páginas de varios periódicos he podido recoger bastantes noticias relativas al Imperio de Marruecos. En una primera etapa aluden a la terrible epidemia de peste que diezmó la población del territorio magrebino. Iniciada en 1818 no quedaría extinguida hasta 1820. Al cesar las informaciones sobre la mortífera enfermedad, las novedades que venían del otro lado del estrecho de Gibraltar tuvieron como argumento primordial, la encarnizada pugna sostenida entre el Sultán Mawley Sulaymán y sus rebeldes sobrinos. En aquel tiempo, al igual que ocurre hoy, el interés de los lectores de periódicos se centraba en las crónicas que daban cuenta de grandes calamidades y de conflictos bélicos.

Temo que mi recopilación sólo merezca ser calificada como "crónica negra". Además, se podrá objetar que su interés histórico es mínimo, pues narra hechos sobradamente conocidos por los investigadores especializados en la Historia de Marruecos. No obstante, considero que mi antología periodista tiene el mérito de poner de relieve la atención con que la opinión pública española observaba los acontecimientos que tenían como escenario el vecino reino marroquí.

Tres periódicos madrileños constituyen mis fuentes informativas primordiales: "Gaceta de Madrid", "El Universal Observador Español"y "El Espectador". El primero cambió transitoriamente su titulación por la de "Gaceta del Gobierno" durante los primeros meses del Trienio. Por su carácter de portavoz oficial, disponía de canales de información privilegiados. El segundo comenzó a publicarse el 12 de mayo de 1820 y, a partir del 13 de julio del mismo año, redujo su nombre a "El Universal". Por su gran formato, el gracejo popular lo llamaba "el Sabanon". Dejó de publicarse cuando los soldados del Duque de Angulema entraron en Madrid. Su línea ideológica se orientaba hacia un afrancesamiento moderado y le reprochaban que estaba al servicio del Poder. Por último, "El Espectador" se editó entre el 15 de Abril de 1820 y el 31 de Marzo de 1823. Fue fundado por Evaristo San Miguel, uno de los personajes más relevantes del partido constitucionalista. Algunos sospechaban que estaba al servicio de la Masonería[5].

Mención aparte merecen dos periódicos que circularon por Ceuta, aunque se imprimían en la Península: "El Liberal Africano" "El Eco de Ceuta" que, más adelante, se intitularía "Eco

---

5 - Alberto Gil Novales, **Las Sociedades Patrióticas (1820-1823)**, Madrid 1975, tomo II, págs. 1016 y 1043; María Cruz Seoane, **Historia del Periodismo en España 2**, El siglo XIX, Madrid, 1989, pág.99.

Constitucional"[6]. No se conserva ningún ejemplar del primero y tan sólo tres del segundo pero ambos sirvieron de referencia frecuentemente en las páginas de la prensa de la capital de España.

Para completar los datos que tomo de los periódicos citados, utilizó algunos despachos remitidos a la Corte de Madrid por sus cónsules en Tánger, capital diplomática de Marruecos, y en Gibraltar, De este último Fernández de Urrutia, procedían diversos informes fechados en 1819 sobre la peste que afligía el Imperio de Mawlay Sulayman. Limitando mi atención a los relativos a Tetuán, recojo las cifras de los muertos registrados en los momentos álgidos de la enfermedad. Entre el 9 y el 22 de Abril las defunciones ascendieron a 950. Hubo 997 entre el 16 y el 18 de Mayo. La cifra bajó a 476 del 15 al 28 de Junio. En los meses que siguieron la mortandad fue menguando. Pasado un año, cuando desempeñaba el consulado Juan González de Rivas, éste indicaba que en la primavera de 1820 los óbitos diarios oscilaban entre los 4 y los 8, pero no todos se debían a la epidemia. En sus informes denunciaba que algunos barcos españoles, burlando la tajante prohibición de su gobierno de que ninguna embarcación con pabellón nacional tocara los puertos marroquíes para evitar el contagio, habían hecho escala en la rada de Tetuán. Entre los contraventores citaba a dos patrones catalanes: Pedro Comas, capitán del laúd "San Antonio", de la matrícula de Premia de Mar, que tomó a bordo del mismo un cargamento de cera y goma con destino a Marsella y Magín Sisa, patrón del laúd "San Vicente Ferrer" que presentó un certificado de Sanidad autorizando su viaje y que no se preocupó de recoger cuando se hizo a la mar. El cónsul sospechaba que este documento era falso[7].

Al comenzar el Trienio hubo relevo en el Consulado de Tánger, siendo Zenón de Orué su nuevo titular. De él dependían varios vicecónsules, uno de ellos acreditado en Tetuán. Largos años fue representante consular español en esta ciudad el hebreo Salomón de Judah Abudarham. Ya estaba jubilado en 1820 y por sus buenos servicios tenía una pensión anual de 3.000 reales. Le sucedió José Rico que a los pocos meses de instaurase el gobierno liberal fue destinado al consulado de la isla de Malta y ocupó su cargo otro judío, Abraham de Jacobo Pariente. A título de curiosidad diré que sus informes oficiales estaban redactados en el

---

6 - José Luis Gomez Barcelo, **Apuntes para la Historia de la Prensa ceutí (1820-1984)**, Ceuta 1984. páges. 17-23.

7 - Archivo Histórico Nacional de Madrid. Sección de Estado, Correspondencia del Cónsul de Gibraltar. Legajo conjunto 8299-8230; ídem del de Tánger. Legajos 5833,6233(2) y 6234(1)

castellano hablado por los sefarditas, conocido como "jaquetía"[8].

En el curso del primer año del Trienio fueron pocas las noticias recogidas en la prensa española sobre temas de Marruecos. En el número de 14 de Julio de 1820 "El Universal", en información remitida desde Gibraltar el día del mismo mes, daba cuenta del estado sanitario del país vecino señalando que en Tánger podía considerarse desaparecida la peste. Respecto a Tetuán indicaba que entre los días 11 y 24 de Junio hubo cuarenta defunciones, pero no las atribuía a la epidemia. El 19 de Agosto hablaba de nuevo de la enfermedad que había diezmado la población marroquí pero lo hacía para mencionar un sistema terapéutico que la combatía eficazmente. Se basaba en la ingestión de una buena dosis de aceite cuando se advertían los primeros síntomas.

Rumores alarmantes recogidos por el cónsul de Tánger en carta del 15 de Mayo señalaban que la peste había brotado de nuevo en Tetuán pero, de momento, sólo afectaba a los judíos. En una nueva misiva del 29 del mismo mes desmentía rotundamente tan preocupante noticia. Próximo a terminar el 1820, el cónsul de Gibraltar, escribía el 14 de Diciembre que reinaba una buena salud en el territorio alauita[9]. Corroborando lo que decía su colega desde el Peñón, Zenón de Orué daba la misma tranquilizadora referencia en un informe remitido el 23 de Diciembre[10].

## Mawlay Ibrahim se proclama sultan

Si al finalizar el año 1820 el terrible azote de la peste se había desvanecido, una nueva calamidad venía a ensombrecer los destinos de Marruecos. La había provocado la pretensión de Mawlay Ibrahim de arrebatar el trono a su tío, iniciando una guerra civil que durante largos meses perturbaría la vida del país. Ya daba cuenta del conflicto el informe de Orué antes citado y que recogía "El Universal" el 27 de Enero de 1821, indicando que lo tomaba de un despacho firmado por el cónsul de Tánger. Decía este texto: "Parece que el nuevo Emperador sólo está reconocido en Fez. Ni el gobernador de Tánger, ni los cónsules tienen aviso oficial de la Corte acerca de la mudanza de soberano. Hay confusión motivada por falta de noticias. Hay rumores de que sabiendo Mawlay Sulayman las tentativas de su sobrino para usurparle el trono se ha puesto en movimiento camino de la capital de su Imperio a Fez. Se da mucho asenso a la noticia verbal que trajo hace cuatro días un expreso llegado de Marruecos. Parece que el Sultán había llegado a

---

8 - A.H.N.M., Sección de Estado, Legajos 6233(2) y 6234(1)

9 - A.H.N.M., Legajo 8299-8300.

10 - A.H.N.M., Legajo 6233(2) y 6234(1).

Azamor y que seguiría viaje desde Rabat después que se celebrase la Pascua del nacimiento del profeta".

Copiando una crónica de "El Liberal Africano" del 11 de Enero, en "El Universal" del 2 de Febrero podía leerse: "Dicen que en el parlamento tenido hoy con el alcaide moro comandante del campo fronterizo ha dado éste las noticias siguientes acerca de la guerra civil que ha movido la división de soberanos en Marruecos. Que la generalidad del Imperio rehusa prestar reconocimiento a Mawlay Ibrahim y que decidida la mayoría de la fuerza armada por Mawlay Sulaymán su tío y legítimo soberano, marchaba éste con ella hacía Fez, donde únicamente estaba reconocido su sobrino. Por el mismo conducto se sabe que la salud pública continúa en el mejor estado, sin que del Consulado de la nación en Tánger se hayan recibido partes en contrario".

El 9 de Marzo y tomando también como fuente su colega africano, en su edición del 13 de Febrero, escribía: "Según los partes anteriores del vigía del monte Hacho no se advierte novedad en la salud pública del Campo fronterizo. Las últimas noticias del Imperio de Marruecos son que Mawlay Ibrahim tiene partidarios en Fez, donde entra y sale cuando quiere y conserva todas sus fuerzas y su influjo en el país del Chelug. Su tío Mawlay Sulaymán continúa en Rabat, tres jornadas distante de Fez reuniendo las tropas que se declaran por su causa y disponiéndose, al parecer, para ulteriores operaciones militares. No se han recibido partes oficiales del cónsul de la nación en Tánger".

Desde el corazón del Imperio, Mawlay Ibrahim avanzó hacia la franja ribereña del estrecho de Gibraltar y, sin encontrar resistencia, entró en Tánger. Desde allí pasaría a Tetuán. Poco tiempo después la primera ciudad volvería a la obediencia del Sultán, en tanto que la segunda se convertiría en un sólido baluarte de los rebeldes. El 11 de Marzo "El Universal", recogía noticias remitidas desde Ceuta el 4 del mismo mes. Tras dar cuenta de las precauciones adoptadas por Fernando Gómez de Butrón, gobernador de la plaza española, ante las posibles repercusiones en ella del conflicto dinástico surgido en Marruecos, decía: "Butrón supo fidedignamente que el jueves 1 entró Mawlay Ibrahim en Tetuán después de haber estado en Tánger y fue recibido con salvas y aclamaciones. El viernes día 2 se repitieron éstas al salir a la mezquita con sus magnates y generales. El 3 le prestan homenaje los alcaides y generales del Faaz, xerifes de Sorfa, Mouley, Albdes-salam que viven en la tierra alta de Tetuán y los Sorfa de Huasán que habitan en los montes que hay entre Fez y Mequinez".

Le siguen 6.000 caballos de los que solamente mil entraron en Tetuán quedando los otros fuera para no crear vejaciones a los

vecinos. El partido de Anghara de Cheig, las ciudades de Mequinez, Fez, Tánger y Tetuán con todas las kábilas que hay desde las puertas de Fez a Tánger están por Ibrahim. Tiene además la devoción de 4.000 negros de la caballería del Bujacri y su dirección es ahora para el Luigdela, cuya tropa está por su tío Sulaymán. Este está en Rabat con 3.000 hombres, se ignora el partido tomado por Marrakesh y su comarca. Mawlay Sulayman pasa por santo entre los moros parece que no toma determinación alguna teniendo por obra de Dios le sucede y esperando del cielo el resultado de la guerra que le hace su sobrino. Gana adeptos con sus prodigalidades y buen trato Ibrahim. Preguntados algunos porque toman partido por él en contra de su rey dicen era culpa del tío porque dio la corona a su sobrino y luego quiso retraerse con lo que irritado Ibrahim se resuelve a sostener el derecho adquirido por la espontánea y solemne cesión de Sulaymán. La conducta de Ibrahim, hasta ahora, se dice es la de todos los reyes buenos en todas partes, obra con afabilidad agasajos, hasta con los judíos que estaban aterrados con su venida. Sólo el gobernador de Tánger fue depuesto por él y se presume le pasará también al de Tetuán Sidi El-Hach Abderrahaman Asach, que además de ser partidario del tío posee riquezas cuantiosas. A esto tal vez contribuya mucho el haber sabido Ibrahim a su llegada a Tetuán que el gobernador tenía en su poder 80.000 duros pertenecientes a su tío que debía enviarle por mar, los que le hizo poner inmediatamente a su disposición.

Ibrahim está ahora enfermo y no pudo saberse el día de su salida de Tetuán. Le acompañan entre otros Sidi El-Hach Alarbi-Du Hasen Xerife que entró antes que él en Tánger y cuenta con mucho partido y posee grandes riquezas. Todas estas inmediaciones manifiestan el mayor entusiasmo por Ibrahim, cuya buena acogida se apoya en la justicia que según parece tienen sus pretensiones y que él procura robustecer con su buen proceder".

"Gaceta de Madrid" del 16 de Marzo llevaba una crónica fechada en Ceuta el 28 de Febrero, anterior, por tanto, a la que había difundido "El Universal" cinco días antes. Tras algunas disquisiciones en torno al despótico sistema político imperante en la vecina Berbería, contaba lo que sigue: "Ultimamente se han tenido noticias bastantes a reducir el respectivo estado de ambos partidos (marroquíes) y las posibilidades que puede tener la contienda que se ha trabado entre tío y sobrino sobre la corona. El legítimo o tolerado Soberano Mawlay Sulaymán cuenta en su favor con todos los moradores de la parte llana y cultivada del Imperio, con los negros de la caballería del Bujari, que forman la guardia Real y con la caballería blanca del resto del país llamada Luigdela. Pero el rebelde sobrino Mawlay Ibrahim refugiado en las asperezas de Chelug,

tiene a su favor todas las kábilas o tribus de esta comarca montuosa, cuyos habitantes viven en una abundancia y opulencia increíbles, a beneficio de su inaccesible posición y del comercio que hacen con los demás súbditos del imperio, a quien solo reconocen en cuanto les conviene a unas relaciones mercantiles, amenazando siempre con la insubordinación en que viven de ordinario, fortificados en aduares y poblaciones, que se auxilian y socorren mutuamente".

Al día siguiente, 17 de Marzo, el diario oficial volvía a ocuparse de los problemas de Marruecos, en un comunicado remitido de Ceuta el primero de aquel mes. Decía así: "Por noticias recibidas por mar sabemos que Mawlay Ibrahim ha entrado con su ejército en Tánger, donde fue recibido con salvas el 24 (de Febrero), que le acompaña el jarife que en vida de su padre Al-Yazid se halló y aún dirigió el sitio puesto a esta plaza por los años 1790 y 1791, y que las disposiciones de Ibrahim no son pacíficas ni amistosas, puesto que mandó degollar una partida de caballería de su tío que encontró en estas inmediaciones. Es constante que el sobrino ha atravesado sin oposición todo el país que hay entre Fez y Tánger, y que ya no tiene inconveniente en abandonar las espesuras de Chelug, donde estaba refugiado, sin que hasta ahora haya habido acción o encuentro entre ambos partidos. Sulaymán permanece aún en Rabat y ha enviado la paga a las tropas de Tánger y Tetuán, aunque parece que las profusiones de Ibrahim van ganando algún partido entre la soldadesca. El destacamento del campo fronterizo se ha reforzado con diez caballos más".

## Muerte de Mawlay Ibrahim y proclamación de su hermnano Mawlay Sa'id

Como se ha dicho anteriormente, Mawlay Ibrahim estaba enfermo al entrar en Tetuán y víctima de su dolencia moría pocos días después de su llegada. Su cuerpo fue enterrado en un lugar próximo al adarve de Al-Xaraibi, en la calle Mokkadam, que posteriormente sería agregado a la Zauia de los Tiyanien[11]. Sus partidarios se apresuraron a proclamar Sultán a Mawlay Sa'id, hermano del difunto. Sobre estos hechos, escribía "Gaceta de Madrid" el 3 de Abril, según informaciones que el 22 de Marzo transmitían desde Algeciras. Se decía en ellas: "La goleta-correo de Gibraltar llegada de Tánger, de donde salió ayer, declara haber muerto en Tetuán el día 15 de nuevo Emperador Mawlay Ibrahim, de muerte natural: que el día 17 fue aclamado por la tropa y pueblo

11 - Ahmed Rhoni, Op.Cit., páges.45 y 165.

de aquella ciudad su hermano Mawlay Asid (sic): que al día siguiente llegó esta noticia a Tánger, donde armándose inmediatamente la mayor parte del pueblo,marcharon para Tetuán con el fin de oponerse al nuevo aclamado y habiendo encontrado tropa armada fuera de la ciudad, la acometieron y retirándose ésta, los de Tánger se aproximaron a las murallas de Tetuán, desde donde haciéndoles fuego de metralla, los dispersaron: y cargando en seguida la caballería, los derrotó completamente aunque se ignora a que número asciende su pérdida, pues a la salida de la goleta todavía estaban entrando dispersos en Tánger y la mayor parte sin armas: y que no hay noticias del Emperador Mawlay Sulaymán y se ignora si permanece en Rabat."

El 8 de Abril "El Espectador", copiando procedentes de Ceuta, indicaba que el 30 de Marzo Mawlay Zeid había salido de Tetuán al frente de 1.200 hombres de caballería e infantería. Llevaba consigo, en calidad de prisioneros, al gobernador de la ciudad y a un hijo suyo. Mawlay Sulaymán estaba acampado en las proximidades de Tánger y al ser informado de la marcha de su sobrino salió en pos de él con un ejército de 4.500 hombres y dándole alcance lo tenía circunvalado en los montes del Rif.

Ampliando su crónica del 3 de Abril, el 13 del mismo "Gaceta de Madrid" publicaba un extenso artículo con datos remitidos desde Ceuta con fecha del 2. Estos eran sus párrafos: "Las últimas noticias recibidas por conducto seguro sobre la guerra civil del imperio son del 18 y 25 del pasado (Marzo); y por ellas ha variado de aspecto la contienda entre los aspirantes a la corona marroquí. Mawlay Ibrahim murió de muerte natural el 17 en Tetuán, donde fue inmediatamente proclamado su hermano Mawlay Zeid, que ha hecho prender al gobernador Abderrahman Asach. A la salida del que trajo las noticias todo era desorden y confusión en aquella comarca, donde no se pensaba en otra cosa que en pillaje y saqueo.

Posteriormente se ha sabido que Mawlay Sulaymán, poseedor de la corona, se hallaba muy próximo a Tánger con un ejército de 14.000 hombres perfectamente equipados y provistos de 14 cañones. Según todas las disposiciones, se dirige Sulaymán a Tetuán en derechura, con la idea de destruir a su sobrino Mawlay Zeid y prender al Santón de Hanashbú y al Lashy,comandante de las tropas del Garb,principales facciosos y promotores de la usurpación del trono. El 24 llegaron a Tánger dos alcaides con una carta del Rey Sulaymán para aquellas autoridades: por ella les perdona la falta cometida por seducción y les encarga hagan todo lo posible por impedir la huida del sobrino por la cábila de Anyara, situada entre Tánger y Tetuán, mientras el tío va a caer sobre él con su ejército por otro camino. En efecto el 25 habían salido los de

Tánger a cumplir las órdenes del rey, que ha ofrecido mil duros por la cabeza de Lashy y 16 por cada una de las de los soldados de la facción de su sobrino, con cuyas providencias es opinión general que deba fenecer en breve la gavilla y los designios del nuevo usurpador Mawlay Zeid".

Con objeto de tener informes fidedignos de lo que acontecía en Tetuán, el gobernador de Ceuta decidió enviar por vía marítima un parlamentario. Confió la misión a Catur Ben Onzar Almanzor, comandante de la compañía de Mogataces, con orden rigurosa de no tener contactos personales con nadie, para evitar un contagio de la peste que había diezmado la población marroquí. Los mogataces eran soldados argelinos que habían formado parte de la guarnición de Orán cuando la ciudad pertenecía a la corona de España. Al ser abandonada esta plaza, tras el terrible terremoto que la arrasó en 1790, fueron trasladados a Ceuta, donde integraban una unidad de caballería[12]. Cumplido el encargo, el comisionado presentó un escrito que apareció conjuntamente, con leves variantes léxicas, el 20 de Abril en "El Espectador" y en "El Universal". El texto publicado en el primero estaba redactado así:

"Ceuta 11 de Abril.-El gobernador de esta plaza acaba de recibir el parte siguiente: Señor gobernador y comandante general=El comandante de la compañía de Mogataces de esta dotación que fue comisionado por V.S. para pasar embarcado al río de Tetuán y adquirir noticias sobre el estado político de Marruecos, da parte a V.S. que habiendo llegado a dicho punto tremoló bandera nacional en el falucho, a cuya señal correspondieron con otra desde el castillo, bajando enseguida su alcaide o gobernador con un moro, quienes invitaron al que suscribe para que entrase en Tetuán porque no sospechase su gobernador alguna siniestra idea; pero habiéndoles manifestado la incomunicación en que debía permanecer el buque y su tripulación, dispuso el alcaide avisar con un moro de guerra al nuevo gobernador de Tetuán llamado Viñuse (según manifestó) para que tuviese noticia de la llegada del falucho.

En efecto marchó el moro comisionado y volvió a la hora, manifestado al que suscribe que el gobernador le convidaba a que pasase si quería a la ciudad sin inconveniente ni riesgo alguno; pero habiéndole reiterado las estrechas órdenes que tenía para no verificarlo, regresó el moro segunda vez a Tetuán. A las dos horas y media bajaron a caballo a la playa el secretario del gobernador, un jerife, dos alcaides, el vicecónsul de España con sus criados y un

---

12 -Enrique Arques y Narciso Gibert, **Los mogataces. Los primitivos soldados de España en Africa,** Ceuta -Tetuán,1928. Hay una 2ª edición. Granada ,1992.

moro con pan, queso, naranjas y nueces para que refrescase el que suscribe y toda la tripulación; pero habiendo dado gracias a dichos señores por su atención y fineza, protestándoles no era posible recibir cosa alguna sino comunicarse a la voz, le suplicó el que expone se sirviesen decirle todo lo que ocurriese sobre el estado de la guerra entablada entre los pretendientes a la corona y quien era el que tenía más ventajas en el particular ; a lo que contestó el secretario que en Tetuán y sus dependencias está reconocido y sostenido Mawlay Zeid, al paso que nada había de cierto sobre los designios y operaciones de su tío Mawlay Sulaymán en Tánger -que de éste, sólo se sabía que un hijo suyo llamado Mawlay Alí salió de Rabat con cinco mil hombres contra su primero Zeid y había vuelto acobardado a medio camino- Que Zeid está proclamado en Fez, Mequinez, el Riff y el país de Luigdella; que ayer debía entrar en Fez con diez mil hombres, entre ellos cuatro mil rifeños; que se decía bajaba a unírsele otro hermano con ocho mil montaraces para pasar a Marruecos llevando consigo dos morteros y seis cañones de pequeño calibre; y finalmente que Zeid no había hecho ningún mal en Tetuán, más que prender y llevarse consigo al anterior gobernador de Tetuán Asach y a un hijo suyo, exigir una multa de treinta y cinco mil duros a los hebreos y decapitar a treinta y cinco moros del partido contrario que había aprisionado.

Esto es, todo lo que pudo adquirir el que suscribe sobre el particular, y lo que transmite a V.S. para su conocimiento y debiendo igualmente exponerle que dichos señores comisionados, le hicieron muchas ofertas en nombre del gobernador y le encargaron hiciese a V.S.presente sus respectos y deseos de complacerle en cuanto dependiese de su nuevo destino. Ceuta 11 de Abril de 1821. Catur Ben-Onzar Almanzor".

"El Universal" apostillaba la información diciendo: "NOTA. Esta es la ocasión no solo de hacer en Ceuta un emporio del comercio de Africa y Levante, admitiendo mediante la ley de asilo a cuantos capitalistas mahometanos o hebreos quieran refugiarse en ella, huyendo de la guerra civil. También podrían enajenarse los presidios menores (y el que los tomara primero decidiría a su favor la contienda) por terrenos inmediatos a Ceuta, al Este de Sierra Bullone.El mejor negociador sería Butrón y así se podría sacar de la vecina Africa, cuanto vamos a perder en la remota América".

En el parte de Catur se citaba la presencia en la playa de Martín del vicecónsul de España en Tetuán. Este, Abraham de Jacob Pariente envió un recibo a Zenón de Orué en el que puso: "18 reales por mandarme el gobernador de Tetuán a la marina a hablar con el falucho venido de Ceuta por orden del gobernador a tomar

noticias de esta ciudad[13]".

El 27 de Abril "Gaceta de Madrid" recogía noticias fechadas el 16 en Ceuta. Decían así: "El resultado de las últimas indagaciones practicadas ayer sobre el estado político del imperio, si bien son lisonjeras en cuanto a la tranquilidad manifiestan al mismo tiempo la discordancia de opinión que hay entre los moros acerca de la corona. En Tetuán y sus dependencias está reconocido y sostenido Mawlay Zeid, al paso que nada hay de cierto contra los designios y operaciones de su tío Mawlay Sulaymán en Tánger. Las disposiciones de las autoridades actuales de Tetuán respecto de la España son las más favorables, según lo indican las demostraciones de cordialidad que han hecho a la expedición indagatoria y que habrían sido mayores a no impedirlo las estrictas e inviolables precauciones sanitarias con que se procede en ella". A continuación reproducía casi exactamente los datos del informe firmado el 11 de Abril por el jefe de mogataces. Luego hacía estos comentarios: "Al mismo tiempo que los tetuaneses manifiestan su decisión por Mawlay Zeid, convienen en que no es tan suave y blando su carácter como el del difunto Ibrahim, puesto que ha preso, confiscado bienes y cortado cabezas, llevándose consigo muchos presos de la facción de Sulaymán: en cuyo favor dirán quizás los tangerinos otro tanto de lo que respecto de Zeid hemos sabido por los de Tetuán. De todos modos es importante saber, como sabemos, que están respecto de nosotros en buen sentido estos perjudiciales vecinos, y que se disfruta completa salud por todas estas inmediaciones".

Haciendo una breve digresión, diré que "las estrictas e inviolables precauciones sanitarias" a que refería el periódico, se aplicaban con todo rigor. Valga de ejemplo lo que sucedió en el Otoño de 1820 a Hugo M.Chadwick, un acaudalado súbdito británico, muy aficionado a los viajes por el extranjero. Estuvo en Ceuta y salió del recinto de la plaza para recorrer el territorio fronterizo. Al volver de su excursión, tras haber conversado con unos marroquíes, no le permitieron entrar por temor al contagio. Tuvo que tomar el camino de Tetuán y aquí fletó un barco de Gibraltar, a cuyo bordo emprendió la ruta de Marsella[14].

En su número del 11 de Mayo "El Universal" recogía una información fechada en Tánger el 27 de Abril. Se decía en ella: "El 12 llegó Mawlay Alí, hijo predilecto de Mawlay Sulaymán a hacerse cargo del gobierno de la provincia. Con su llegada se ha restablecido el orden en toda ella, salvo en Tetuán, que sigue en

---

13 - A.H.N.M., Sección de Estado, Legajo 5833.

14 - A.H.N.M., Sección de Estado 6234(1).

rebeldía. Alí se prepara para ir contra ella pronto, con morteros y cañones violentos. Es de esperar que se rindan. El mismo día 12 entró Mawlay Sulaymán en Fez el Nuevo con salvas y aclamaciones. Mawlay Zeid a fuerza de sobornos e iniquidades pudo pasar por el Rif y el mismo día 12 dio vista a Fez el Viejo. Los valientes hudayas y negros que han sido siempre guardia de los sultanes cargaron contra ellos con denuedo y los ahuyentaron pronto con gran mortandad. Zeid se refugió en Fez el Viejo a uña de caballo pero todo su dinero, provisiones de boca y guerra, varios cañones y morteros, los perdió, y todos los bagajes, incluso los que pertenecían al Santón de Huasán Sidi el Hach el Arby. Mujeres y niños acudieron al botín rompiendo a fuerza de sables la cadena de más de 50 partidarios aprisionados de Mawlay Sulaymán, entre ellos Sidi Abderrahman Asach, gobernador de Tetuán. Triunfantes vuelven a Fez el Nuevo. Mawlay Sulaymán dio tres días a los de Fez el Viejo para que entregaran a su sobrino y a sus secuaces y si no destruiría a bombas la ciudad no dando cuartel ni a los niños que intentaron fugarse y echaría por tierra toda la ciudad a fuerza de bombas".

Dispuesto Mawlay Alí a acabar con la rebelión de Tetuán, dio instrucciones para cercar la ciudad, cortando sus comunicaciones marítimas. El 25 de Mayo "Gaceta de Madrid" incluía el siguiente comunicado: "Cádiz 16 de Mayo.- El encargado del consulado general de España en Tánger en oficio del 7 del corriente dice lo siguiente: "Debiendo el Príncipe Mawlay Alí, en cumplimiento de la estrecha orden que S.M.Mawlay Sulaymán le ha impuesto bloquear por mar y tierra la ciudad de Tetuán, me apresuro a poner en noticia de V.E. esta ocurrencia, a fin de que se sirva hacerla pública e impedir que ningún buque nacional se habilite para dicho punto".

El mismo periódico tomando datos enviados de Ceuta el 9 de Mao, daba noticia en su número del 29 de ese mes que no eran tan contundentes los informes comunicados por el cónsul de Tánger del 27 de Abril. Según contaba el órgano oficial "Las últimas noticias adquiridas acerca del Imperio de Marruecos en una expedición indagatoria salida hoy de esta plaza al rió de Tetuán, con las debidas protecciones sanitarias son contradictores respecto de las comunicadas de Tánger por el cónsul general de la Nación, de lo que deduce y confirma el estado de división en que está la fuerza y la opinión sel Imperio.

El gobernador de Tetuán Sidi Alarby Ben Yusef aseguró en presencia de todas las autoridades de aquella ciudad que vinieron al habla con los comisionados de esta plaza, que Mawlay Zeid se hallaba en Fez el viejo con su gente y que aquel mismo día habían recibido orden y dinero para dar la paga a todas las tropas de mar y

tierra, empleados y viudas; que Zeid tiene a su partido no sólo la comarca de Tetuán, sino las del Riff, Chelug, El Julut, Has-Zafi, Ben-Melech, Schiaguiya y Han-Mdach, y que todo era regocijo, seguridad y entusiasmo por Mawlay Zeid en Tetuán, según lo testificó el gobernador, protestando que nada se metía allí de las fuerzas del Emperador Mawlay Sulaymán.

Del paradero de éste nada dijeron de cierto, aunque convinieron en que su hijo Mawlay Alí se hallaba en Tánger, cuyo partido y el Anyara es cierto que están por su padre, pero que además de no haber en ellos fuerzas militares de consideración, daba que temer la presencia del Príncipe Alí, por ser mudo de nacimiento. El gobernador protestó que no estaba bloqueado, ni temía estarlo, y que nada se le daba de los de Tánger ni de todas las fuerzas de Sulaymán, de lo cual era una prueba bien clara la tranquilidad, orden y abundancia que reinaba en Tetuán, como podían verlo si gustaban los comisionados, a quienes renovaron sus demostraciones de amistad y buena disposición respecto del gobernador y vecindario de esta plaza".

"Gaceta de Madrid" del 2 de Junio reproducía datos remitidos desde Ceuta el 21 de Mayo. Entre ellos había algunos que ya habían tenido eco en sus páginas, a los que añadía otros nuevos. El periódico contaba: "Las últimas noticias seguras recibidas el 7 por vía de Tánger son que el Rey Mawlay Sulaymán se propone bloquear a Tetuán por mar y tierra, y que Mawlay Zeid y varios de sus partidarios han sido entregados por los de Fez el viejo a su tío Mawlay Sulaymán.

A pesar de esto manifiestan los tetuaneses la mayor seguridad en su resistencia o rebeldía al legítimo Soberano, según lo manifiestan las noticias publicadas ...y mientras no se logre tenerlas por conducto imparcial y libre del interés de ambos partidos, nada sabremos de cierto sino que hay dos facciones cuya fuerza física y moral no conocemos aún de un modo claro y positivo para formar juicio del éxito de la contienda.

Entre tanto sigue la salud pública de estas inmediaciones sin alteración alguna y en el mejor estado nuestras relaciones con el alcaide fronterizo que está por Sulaymán, y con los que mandan en Tetuán a nombre de Zeid".

El 20 de Julio "Gaceta de Madrid" recogía la siguiente noticia: "Ceuta 9 de Julio.- El Ramadán o Cuaresma de los moros nos ha tenido en absoluta suspensión de comunicaciones, y sin saber cosa alguna acerca del estado político del Imperio. Tampoco parece que ha habido en todo este tiempo operaciones importantes entre ambos partidos, y en fuerza de las última diligencias practicadas ha podido averiguarse que noticioso Mawlay Zeid de que su tío Sulaymán

había puesto en movimiento una considerable expedición contra él, salió en persona de Fez el Nuevo con sus tropas, y que derrotadas las del tío se apoderó de todo el tren, consistente en 16 cañones, 3 morteros y gran porción de municiones. Con todo ésto entró Zeid en Fez el Nuevo, de donde se preparaba para salir con su ejército en la próxima semana, dirigiéndose a Tetuán y a este campo, sin duda con el designio de obrar contra los de Tánger y la cábila de Anyara, que se mantienen fieles a Sulaymán".

En una breve reseña "El Universal" del 28 de Julio daba cuenta de un combate liberado entre las dos banderías rivales. Decía lo que sigue: "Noticias de Ceuta del 16 refieren una batalla dada en Palmona, entre el nuevo y el viejo Fez por las tropas de Sulaymán en número de 30.000 y las de Mawlay Geize, su sobrino con 28.000. El primero fue vencido y perdió 5.000 hombres, el otro sólo 600. La noticia se supo el 15 el Tetuán y fue celebrada con públicos regocijos".

"Gaceta de Madrid" del 7 de Agosto y "El Universal" del día siguiente ampliaban los datos sobre esa batalla, tomando como fuente un escrito remitido de Ceuta el 23 de Julio. Los textos de ambas crónicas eran prácticamente iguales por lo que me limito a copiar la inserta en el segundo diario que decía así: "Las salvas y regocijos en Tetuán eran por la victoria de Mawlay Zeid en el Palmar. Zeid había hecho cortar las cabezas de 5 generales de Sulaymán del cuerpo de los Hudayas y también la de un famoso artillero cristiano. Murieron 600 de Zeid y 5.500 de Sulaymán, inclusos los prisioneros. La batalla se dio el día primero de su pascua que fue el 7 y la noticia llegó el 13 a Tetuán con oficios de Zeid y las cabezas de los decapitados que con un rótulo indicaba de quien eran, las colocaron en las puertas de la ciudad.

Zeid con la mitad de su ejército está en Mequinez, la otra mitad en Fez el viejo, pero todos se reunirán en Mequinez e igualmente un cuerpo de negros que ha reconocido a Zeid como Sultán. Mawlay Sulaymán se replegó a más de 20 leguas de Fez el nuevo. Zeid después de la batalla cargó contra esta ciudad y habiéndole cerrado las puertas puso a su frente dos baterías de 4 morteros y 8 cañones, con las que empezó a batirla arruinando el Palacio de su tío y muchas casas. A los 5 días de fuego salieron los vecinos desarmados y las mujeres y los niños con las tablillas de la ley, pidiendo perdón y misericordia. Zeid los indultó después que lo reconocen como Emperador. Pero sabiendo que dentro de la ciudad está malherido el principal ministro de Sulaymán, obligó que se lo entregase y le cortó la cabeza y quiso se colocase en uno de los parajes más públicos de Tetuán para escarmiento.

Hubo mucha alegría en Tetuán, con calles adornadas,

iluminación general, coros de músicos y otras fiestas que siguen. La última vez que Zeid estuvo en Tetuán sacó preso a Abderrahman Asach, generalísimo de Sulaymán y lo hizo su principal ministro, pero después de la última victoria, un hermano de este general huyó a Gibraltar con todas sus riquezas y ésto causó que Zeid despidiera a Abderrahman y lo tratara con el mayor desprecio. Es tal el furor de Zeid contra su tío que puestas las manos en los libros de su ley juró no dejar las armas hasta ver vertida su sangre y ya lo hubiera conseguido si éste no huyese y encontrara gente que lo ocultan.

En la noche del 14 mandó pedir a Tetuán los dos mejores artilleros que allí había y salieron inmediatamente llevando 50 caballos de escolta. Hoy 15 sale de Tetuán, de orden de Zeid un general con proclamas para Tánger en que manifiesta a sus habitantes, que si no lo reconocen al punto, no aleguen después ignorancia. Todo el país de Anyara ya estaría sometido a Zeid si no fuera por los cónsules europeos que sostienen a Sulaymán, como lo acredita un correo que dirigían al viejo Emperador interceptado por Zeid. Tuvo un consejo con sus ministros sobre ésto y querían matar al correo pero Zeid lo indultó por respeto y consideración a los cónsules y no sólo no le hizo daño sino que mandó darle 100 pesos para que volviera a Tánger e hiciera ver a los cónsules como lo trató por miramiento hacia ellos. Zeid llevó muy mal la conducta de los judíos de Tetuán por haber alarmado a los de Gibraltar e inspirando de este modo temor a los ingleses, los cuales han cortado todo tráfico con Berbería por lo que se teme que si gana lo pasarán mal los judíos. Tras su victoria Zeid envió vestuarios completos a las tropas de Tetuán y una gratificación de 5 duros para cada soldado y parece que se propone aumentar su partido y afirmarlo, usando alternativamente del rigor y de la clemencia. Se acaba de saber en Tetuán que se declaran por Zeid las provincias de Abda,Dukala y El Julut".

Desmintiendo la información precedente, "Gaceta de Madrid" del 10 de Agosto incluía una misiva enviada desde Tánger por Zenón de Orué, Cónsul de España a Fernando de Butrón, Gobernador de Ceuta. Se decía en ella: "Ayer me fue entregado el oficio que se sirve V.E. dirigirme con fecha 16 del corriente y en obsequio de la verdad debo decir a V.E. que las noticias que a V.E. el agente consultar de Tetuán son apócrifas y dictadas por el despotismo. Aseguraré también a V.E. que Zeid no ha interceptado un solo correo de los cónsules: que ninguno de dichos empleados se ha movido de este pueblo y que está por verificarse el generoso rasgo que se refiere de haber gratificado Zeid con 100 pesos al correo de los cónsules.

Es cierto empero que entre Mawlay Sulaymán y Zeid ha

habido algunos choques durante los ocho últimos días; y aunque no se puede decir con corteza las ventajas que hayan resultado en favor del primero, no tengo la menor duda de que han sido muy grandes, atendidos los festejos que ha habido aquí durante varios días por dicha causa, y por haber sido muerto en el Garb por un soldado de Mawlay Sulaymán el generalísimo de las tropas de Zeid llamado Lashy que según opinión de estos naturales era el único que por su fuerza y pericia militar sostenía a su jefe. La cabeza y manos de dicho faccioso fueron llevadas a Fez a presentarlas a Sulaymán y el cuerpo, después de haber sido paseado por varios pueblos grandes y chicos fue descuartizado y puesto por los caminos. Al valeroso soldado que acabó con Lashy le han sido entregados 1.000 pesos por el mismo Emperador en premio del servicio que ha hecho.

En breves días debe salir S.A. Mawlay Alí, hijo de Sulaymán, con unos 4.000 hombres a sujetar a los de Anyara (efectivamente se están haciendo muchos y acelerados aprestos militares) y S.A. se deja ver en ese campo. No dudo que V.E. se servirá disponer que desde esa plaza se le hagan los honores militares y que se presentará a hacerle los acatamientos debidos - Dios guarde a V.E. muchos años. Tánger 18 de Julio de 1821 - Zenón de Orué- Excmo. Sr.D.Fernando Butrón".

Próximo a finalizar el Verano el gobernador de Ceuta creyó conveniente enviar por mar un emisario a Tetuán. En esta ocasión confió la tarea al militar José Rellán. En un informe redactado por éste el 2 de Septiembre, comunicaba a su jefe que fue a la rada del Martín en el barco "San Antonio y Animas", mandado por el teniente José Cano. En la playa vió al gobernador de Tetuán, acompañado por el vicecónsul hebreo. El jerarca marroquí le dijo que Zeid, con ocasión de la Pascua del Cordero habló con gentes de Larache y de Tánger y les amenazó con emplear las armas si no lo acataban como Sultán. Un grupo de gente de la cábila de Wad Ras se presentó a Ben Yusef, gobernador de Tetuán, y como mostraron su adhesión al pretendiente, les fueron entregados 4 quintales de pólvora, balas, piedras, comestibles y armamento. Traicionado su palabra, se mostraron proclives a someterse a Mawlay Sulaymán. Ignorando esta conducta, otros campesinos de Wad Ras se presentaron en Tetuán para vender su trigo y como represalia les quitaron las bestias de carga y el grano. La cábila de Anyara se mostraba hostil a las tropas de Mawlay Alí. Los rifeños estaban divididos en sus opiniones. Los que se encontraban en los contornos de Tánger eran partidarios del Sultán, en tanto que los de las partes de Levante estaban por Zeid y dando muestra de su solidaridad con los tetuaníes, acudían a la playa de Martín en cárabos cargados de trigo. Hasta treinta y dos se presentaron allí a

fines de Agosto. La guarnición de Tetuán contaba con 100 jinetes armados de bayonetas y 200 sin ellas, más 600 infantes. Todos los alcaides de barrio se ocupaban en la formación de milicias y podían movilizar hasta 45.000 hombres. El día antes de llegar el oficial se ordenó poner en alerta seis jaumas distribuyéndose a cada hombre 17 balas y 12 onzas de pólvora. Los movilizados se disponían a salir para luchar contra las gentes de Wad Ras y de Yebel el Jabib. Ben Yusef, gobernador de Tetuán no quiso conceder audiencia al oficial español porque el máximo jerarca de Ceuta no había contestado a una carta que le envió por mano del comandante de mogaces. La impresión que daba la población de Tetuán era de ser firme valedora de la candidatura del pretendiente, de cuyo éxito no dudaba. No obstante, el vicecónsul judío no compartía ese optimismo y estaba convencido de que acabaría imponiéndose el Emperador. En un inciso Rellán estimaba que en el curso de la pasada epidemia habían perecido 17.000 tetuaníes[15].

En un aviso firmado en Tánger el 8 de Septiembre, Zenón de Orué advertía al gobernador de Ceuta que en la rada tangerina estaba aparejado un místico con instrucciones de situarse frente a las playas de Tetuán con el fin de mantener bloqueada la ciudad por su flanco marítimo. El cónsul recomendaba a Butrón que diera instrucciones a las embarcaciones españolas que navegaban por aquellos parajes, en evitación de posibles incidentes[16].

"Gaceta de Madrid" publicaba el 2 de Noviembre un despacho de Ceuta del 22 de Octubre.Este era su contenido: "Las últimas noticias adquiridas del estado político de lo interior del Imperio alcanzan al 13 y son: que Mawlay Sulaymán se ha puesto en movimiento con su ejército hacia Mequinez, noticioso de que su sobrino Mawlay Zeid tenía intención de sorprender la capital y apoderarse del tesoro de su tío. En Zejern hubo un encuentro entre ambos partidos y en él fue completamente derrotado Zeid, que no tuvo más arbitrio que acogerse al santuario de Mawlay Dris, donde se asegura que entró descalzo de pie y pierna, y que permanece en él implorando el perdón de su tío. El santón de Huazzan Sidi Jachel Arby, principal motor de los disturbios ocurridos en este imperio, acabó sus días en dicha acción de resultas de un balazo que recibió al montar a caballo para huir. Se asegura que el príncipe ha recibido orden de S.M. de ponerse en camino, con el ejército destinado a atacar a Tetuán y de no emprender las operaciones militares hasta que S.M. en persona llegue en su auxilio con 12.000 hombres. Lo cierto es que varios sujetos fidedignos hemos sabido que S.M. se

15 - A.H.N.M., Sección de Estado, Legajo 6234(2).
16 - A.H.N.M., Sección de Estado, Legajo 6234(2).

hallaba en el Garb el día 8 del corriente, de cuyas resultas antes de ayer salió S.A.para Tetuán a la cabeza de unos 3 a 4.000 hombres, conduciendo un obús y un mortero de a placa".

En "El Eco de Ceuta" del 19 de Noviembre podía leerse: "Noticias Marruecos.- El 7 del corriente se oyó hacia Tetuán una gran salva de artillería que duró toda la tarde y habiendo preguntado a los moros del Campo fronterizo el motivo de ella dijeron: que Mawlay Abd Salam, sobrino de Mawlay Zeid había entrado en Tetuán con una división de infantería del ejército de su tío, que a la sazón dejaba con el resto del ejército en Benijasem. El 11 también se oyó otra salva de 22 cañonazos y se supo por diferentes moros (aunque del mismo partido de Anyara) que habiéndose aproximado una división de caballería del ejército de Zeid luego que los habitantes de Tetuán la divisaron en los Aduares de Beni Maadan, al sur del río, la saludaron con salvas de artillería. No se ha podido averiguar el número de caballos de que consta esta división, ni quien sea su comandante pero sabemos que viene a formar el cuerpo de tropas de todas armas que Zeid pone a las órdenes de su sobrino Mawlay Abd Salam. Parece que los mil hombres con que Mawlay Sulaymán entró en Tánger (véase el Eco anterior) se han retirado a sus casas cansados ya de trabajar, y que Alí marchó con sus tropas hacia Poniente, no sabemos con que objeto. Según estas noticias se acerca ya la época en que se decida la suerte del tío y del sobrino".

En su ejemplar del 7 de Diciembre "Gaceta de Madrid" publicaba el informe que reproduzco: "Algeciras 30 de Noviembre. Se han recibido de Tánger las noticias siguientes: Ayer y hoy han llegado a ésta varios xerifes de Mawlay Abdesalam (uno de los santuarios privilegiados de este imperio) con cartas de los principales habitantes de Tetuán para S.M. marroquí, en las que después de reconocerle por soberano y someterse a su obediencia, le piden perdón por la infidelidad en que han incurrido y permanecido por seducción. El generoso corazón de Mawlay Sulaymán no ha podido menos de inclinarse a acceder a las súplicas de aquellos incautos; y por medio de varios personajes distinguidos, a quienes han acompañado algunos de los indicados xerifes le ha enviado cuantas pruebas penden desear de la total reconciliación con S.M.".

De ser cierta la sumisión al Sultán de esos próceres tetuaníes era de prever un próximo fin de la guerra civil, al menos en el Septentrión del Imperio. Contradiciendo tal supuesto, "Gaceta de Madrid" del 12 de Diciembre daba cuenta de éxitos cosechados por los partidarios del pretendiente, aunque la verosimilitud de los mismos la ponían sus rivales en entredicho. El periódico indicaba

que su información procedía de Ceuta, por la vía de Algeciras. En ella se hacía primero un comentario sobre las violencias que sufrían los pacíficos campesinos de Anyara por parte de la soldadesca de ambas banderías. Después se decía: "En Tetuán se siguen haciendo salvas por las victorias de Zeid, pero los moros de Sulaymán que vinieron de Tánger dicen que son salvas falsas y que pronto pasará el Emperador a sitiar Tetuán. Como no nos podemos internar en el país, creemos aquello que nos parece más probable de las noticias que recibimos por una otra parte".

Cuando el año 1821 estaba próximo a su término, las espadas seguían en alto, sin que se vislumbrara una solución a corto plazo. Las tropas del Sultán que cercaban Tetuán no intensificaban su presión. El Sultán trató de enviar parlamentarios con la esperanza de concertar un pacto con los sitiados, evitando así que se empeñaran en una resistencia numantina. Por su parte los tetuaníes confiaban en que Mawlay Sa'id retornara al frente de un potente ejército o, al menos, que enviara fuerzas de socorro. Una carta de Ceuta del 26 de Diciembre publicada el 4 de Enero de 1822 en "Gaceta de Madrid" contaba lo que sigue: "Las últimas noticias oficiales sobre la guerra civil de Imperio llegan hasta el 7 del corriente son que el pueblo de Tetuán no quiso recibir a los xerifes ni a un correo procedente de Fez el Viejo con cartas de Mauley Zeid, quien según una carta confidencial que ha escrito Piloty desde Fez el Nuevo[17], no cabe duda en que hizo su entrada en 21 del mes pasado en la indicada ciudad al frente de 1.600 hombres, en medio de un numeroso concurso que salió a recibirle. Este accidente y el de Tetuán han disgustado tanto a S.M. que ha hecho salir unos 10.000 hombres de caballería para el último pueblo con suficiente número de artilleros para el servicio de cuatro morteros y un cañón de 24, todo al mando del general de los negros llamado alcaide Farastiy. Así mismo se han despachado sobre 2.000 picos, palas azadones para derribar todo lo que la artillería pueda dejar en pie en aquel desgraciado pueblo. Parece que el ataque debía principiar el 7, y que S.M. intenta dirigirse hacia Tetuán luego que pase el tercer dia de Pascua del Milud, en que entran el 8 los musulmanes".

Noticias que alcanzaban hasta el 23 de Diciembre fueron recogidas en "El Eco de Ceuta" y retransmitidas el 5 de Enero desde Algeciras al diario "El Universal", que las incluyó en su número del 16 del mismo mes. Contaban lo que sigue: "Por un barco de Tetuán, que el temporal de 23 arrojó a estas playas, se ha sabido que Mawlay Sulaymán estrechaba el sitio de aquella ciudad, la cual se hallaba falta de víveres; pero habiendo recibido un correo de

---

17 - Piloty era un cristiano renegado que servía al Sultán como artillero.

Mawlay Zeid, en que les avisaba que marchaba a socorrerlos, se habían animado los sitiados y hecho algunas salidas con pérdida de ambas partes. Las tropas de Sulaymán degollaron días pasados a un emisario de Zeid que venía con pliegos para Tetuán. Desde aquí no observamos más que el ruido de la artillería de los sitiadores y sitiados, y humo que algunas veces también se divisa; pero como las tropas no se extienden por esta parte del monte que domina a Tetuán, no podemos dar razón como testigos de vista de las acciones que se traban entre ambos partidos".

## Rendición de Tetuán

Al comenzar el año 1822 la situación seguía sin cambios notables en la región de Tetuán. Copiando una crónica inserta en "El Eco de Ceuta" del 13 de Enero, "El Espectador" del 27 del mismo mes decía: "El sitio de Tetuán sigue. Todavía no se ha presentado Mawlay Zeid, es regular que cuando se deje ver con sus tropas se retirará Mawlay Sulaymán, a no ser que se juegue en una batalla la suerte del Imperio. Creemos que no piensa Mauley Sulaymán en dar la batalla decisiva que lo hará si acaso, luego que reúna la gente y artillería necesarias".

El 5 de Febrero "El Universal"contaba lo que sigue: "Noticias de Marruecos comunican que Mawlay Sulaymán salió de Tánger el 12 (de Enero) para Tetuán y acampa en Zinat. Mawlay Abderrahman, su hijo, queda en Tánger como gobernador y bajá. Cerca de Alcázar y de Larache están acampados entre 6.000 y 8.000 hombres de caballería al mando del Príncipe Mawlay Amar, hijo del famoso Mawlay Hichem y S.M. ordena se le reúnan en Zinat. El castillo de Martín fue tomado por Sulaymán y parece que Tetuán no tardará en rendirse, atendida esta pérdida a la tardanza de Zeid en socorrerlo y dada la carestía de víveres los tetuaníes venden el trigo de oculto, temerosos de perderlo si lo sacan al mercado. El almud se vende a 18 reales y medio, equivale a tres celemines".

Confirmando la noticia del avance del Sultán sobre Tetuán, el cónsul de Tánger comunicaba que en la madrugada del 12 de Enero el soberano había salido con una pequeña escolta de caballería. Acampó en Zinat y dió instrucciones para que se le reuniera el príncipe Omar. Dos días antes se había sabido la toma del castillo de Martil, aunque en realidad no era un castillo, sino simplemente una torre de vigía. Lo guarnecían 16 hombres que decidieron entregarse sin lucha, acción que les valió la recompensa de onza de oro. Por conducto fidedigno se supo después que, de forma inesperable, Mawlay Sulayman ordenó levantar el cerco puesto en torno a Tetuán, sin que se conocieran los motivos que justificaron tal

decisión[18].

Esos motivos se aclaraban en una crónica publicada en "Gaceta de Madrid" del 19 de Febrero, recogiendo datos enviados desde Algeciras. Estos eran sus términos: "De resultas de un refuerzo de mil caballos que Mawlay Zeid envió al gobernador de Tetuán, ha levantado el sitio el ejército del Emperador Mawlay Sulaymán, dirigiéndose no se sabe donde. Los moros del Campo han dado igualmente la noticia de que Mawlay Taib, hijo de Sulaymán, había caído en poder de Zeid, el cual lo hizo degollar al momento, pero esto necesita confirmación".

El mismo periódico, en su número del 13 de Marzo, recogiendo informes procedentes de Ceuta apuntaba la posibilidad de que el Sultán intentara de nuevo debelar la rebeldía de los tetuaníes. Decía lo que sigue: "Vimos a Mawlay Sulaymán sitiar Tetuán con 10.000 caballos y al cabo tuvo que levantar el sitio. Dicen que vuelve al intento pero como no traiga cañones nada hará y su sobrino Zeid desde afuera impone al sitiador". Ese posible retorno del Emperador también lo citaba "El Universal" del 5 de Abril, copiando una crónica remitida de Ceuta el 24 de Marzo. Este era su texto: "Mawlay Sulaymán según noticias esparcidas por los suyos debió venir a sitiar otra vez Tetuán pero no se ha presentado. Zeid sigue reconocido y vitoreado en Fez el nuevo y otras poblaciones pero de todos sus adictos el más firme es Tetuán, ni intimidado por las amenazas de Sulaymán, ni recibió los scherifes que le mandó, ni cedió a las bombas y balas de un ejército numeroso que la tuvo sitiada muchos días, reducida a suma falta de víveres. La lucha ya es demasiado larga y cuanto más dure peor para Sulaymán". Pronto iba a quedar bien patente cuan desacertado era este último aserto. El artículo dedicaba un párrafo final a reflejar la triste odisea de múltiples heridos del ejército imperial que erraban por los campos tratando inútilmente de encontrar asistencia sanitaria.

El mismo periódico, en su número del 17 de Abril reiteraba la fidelidad de Tetuán al pretendiente con estas palabras: "(Ceuta 4) tío y sobrino siguen en el mismo estado. Zeid recorre las capitales del Imperio y Sulaymán sigue en las inmediaciones de Tánger. La ciudad de Tetuán presenta cada día mayores pruebas de adhesión a Zeid".

En realidad, el abandono del cerco de Tetuán había sido una decisión prudente del Sultán, quien debió pensar que para poner término al litigio suscitado por su sobrino, lo mejor era dar un golpe decisivo contra la ciudad de Fez y por ello dirigió todo su empeño

---

18 - A.H.N.M., Sección de Estado, Legajo 6234(2).

en conseguir su rendición. Sus cálculos resultaron acertados y los fasíes no tardaron en abandonar la causa de Mawlay Said. Su ejemplo sería pronto seguido por las gentes de Tetuán.

En una corta información, "El Universal" del 17 de Mayo insertaba un despacho enviado el 4 desde Ceuta con el siguiente texto: "Escriben de Tánger el 1, se han terminado los disturbios en Marruecos. Zeid ha sido entregado a Sulaymán y el antiguo Fez, donde estaba, se rindió. En carta de Tetuán se anuncia que habiendo llegado a noticia del gobernador también se rinde. Zeid está preso y la mayoría de los suyos están en un santuario e impetran perdón". Casi en los mismos términos daba la importante novedad "Gaceta de Madrid" de la misma fecha, añadiendo "queda así satisfactoriamente concluida la guerra".

Un mes más tarde, en "El Universal" del 18 de Junio apareció una crónica remitida de Ceuta el día 6, relatando las circunstancias en que se había producido la rendición de los dos últimos baluartes de los rebeldes a la autoridad del Sultán y la captura del sobrino rebelde. Decía así: "El 30 de Abril recibió el gobernador de Tetuán una carta de Sulaymán desde Fez el Viejo: "mi sobrino Zeid está a mi lado, os renuevo el título de gobernador de Tetuán. Tu hijo es el mensajero de ésta". Este hijo lo tenía consigo Zeid en premio de los buenos servicios de su padre quien expuso a éste al dárselo que los grandes y ricos de Fez el Viejo escribieron a Sulaymán ofreciéndole la entrada en la ciudad. Sulaymán marchó con los suyos a Fach, a dos jornadas de Fez el viejo y situó sus tropas a orillas del río Sevúg, una legua antes de llegar a Fez. Allí esperó noticias y bajaron unos personajes a ofrecerle homenaje por la mitad del pueblo. Cuando lo supo Zeid ordenó a sus montañeses que saquearan la parte insurgente. En la acción murieron 27 hombres de ambos partidos. Al otro día, viernes, después de ir Zeid a misa mandó a la mitad del pueblo que siempre le fue adicta que atacaran a los otros pero dijeron que no atacarían a sus hermanos. Por la noche se reconciliaron las dos facciones y acordaron abrir las puertas a Sulaymán que entró aclamado dirigiéndose al santo Mawlay Dris, donde se le presentaron todos. Zeid, abandonado ya de los suyos estaba oculto. Pidió perdón y lo mismo hizo el pueblo.

Sulaymán dio cuenta de todo a Tetuán al gobernador. Este convocó a todos por bando a la plaza del suco para leerles la carta del Sultán. En esa plaza hay una ermita y entró el gobernador con los grandes, les mostró la carta y éstos enteran al pueblo, fijándose en las esquinas. Proclaman a Sulaymán con alborozo, salvas y diversiones por tres días. Se alistan 40 principales para ir con el gobernador ante el Sultán. Se agregaron 5 cherifes prisioneros en la batalla que dieron los de Tetuán contra el Emperador en la orilla izquierda del río. Los 5 estaban presos hasta el día 1 que proclamó a Sulaymán. Los libraron y los visten a costa del pueblo. Ese día encerraron a 40 partidarios de Zeid. Nos dieron idea de que éste era

buen general con prendas morales. Sulaymán tiene dinero y ha sabido incensar a tiempo el becerro de Aarón. El dinero le ha dado el triunfo".

Anticipándose a las informaciones de la prensa, el cónsul de Tánger había dado cuenta a la Corte de Madrid del desenlace de la guerra civil. En carta de 14 de Mayo notificaba que el día 9 habían salido de Tetuán para Fez, con el fin de rendir acatamiento al Sultán, el gobernador Sidi Ben Yusef con 20 caballeros principales y 50 soldados de escolta. Antes de emprender viaje, el máximo jerarca local había mandado prender a un hijo de Gazi Zamesi, un primo suyo, 4 chiloges que estaban refugiados en la ciudad y un sherif[19].

Con la rendición de Fez y Tetuán el conflicto bélico suscitado por la rebelión de los sobrinos del Emperador parecía totalmente liquidado. No obstante, quedaban algunos rescoldos de la hoguera fratricida. De ellos daba noticia "Gaceta de Madrid" el 9 de Agosto de 1822, según despacho de Algeciras que decía así: "Avisan de Ceuta lo que sigue: Hemos sabido que el gobernador de Anchar, que se esperaba el martes 22 del pasado en el campo fronterizo, no había venido por haber tenido aviso en el camino de la sublevación en una parte de su provincia; y que los sediciosos habían muerto a la mujer de un jerife. La provincia de Anchar cuenta 30.000 hombres útiles para las armas; y tiene un particular afecto a Zeid, a quien Mawlay Sulaymán acaba de confinar en la de Tafilete.

Por el alcaide del Serrallo se sabe que Sulaymán ha llamado a todas las kábilas a Marruecos, es decir, a todas las fuerzas disponibles de las provincias, lo que indica alguna fermentación entre sus vasallos.

Mientras viva Zeid difícil será que el tío empuñe el cetro con tranquilidad, porque no podrá olvidar jamás (lo mismo que el hijo de Napoleón) que su padre fue Emperador de Marruecos, y que tiene derecho a la corona que Sulaymán, pues éste de tutor ha pasado absoluto del Imperio".

Cuando se publicó la crónica precedente le quedaba poco tiempo de vida a Mawlay Sulayman. Su muerte fue comunicada al gobierno español por carta del cónsul de Tánger fechada el 28 de diciembre de 1822[20]. El fallecimiento del soberano alauita y el advenimiento al Imperio de su sobrino Abd al-Rahman pasó prácticamente inadvertida en la prensa del Trienio. Sin duda las turbulencias políticas que levantaban graves perturbaciones en todo el Reino, desviaban la atención de los lectores hacia los preocupantes problemas internos, sin prestar atención a cuanto sucedía al sur del estrecho de Gibraltar.

---

19 - A.H.N.M., Sección de Estado, Legajo 6234(2).
20 - A.H.N.M., Sección de Estado, Legajo 6234(2).

# The Architectural Patronage of the Basha Ahmad ar-Rifi in Tetuan and its region[1]

Dr. Nadia Erzini
Oxford University

For thirty years, between 1713 and 1743, the Basha Ahmad ibn 'Ali ar-Rifi dominated the north of Morocco, governing Tetuan, Tangier, Chaouen, Larache, Qsar al-Kabir and Ouezzane[2]. After the death of the sultan Mawlay Isma'il in 1727, the Basha Ahmad enjoyed increasing military and diplomatic independence, only challenged in Tetuan where he was ousted between 1727 and 1734. The Basha Ahmad played the rival successors to Mawlay Isma'il (Mawlay al-Mustahdi, Zain al-'Abidin, and 'Abdallah) against one another. The Basha's army even advanced on the town of Fez, but he was repulsed and killed in battle outside Qsar al-Kabir in 1743. After recounting the story of the Basha's final defeat, the historian an-Nasiri as-Slawi refers to the Basha's patronage of architecture:

> Errifi a laissé à Tanger, à Tétouan et dans la région de ces villes, de nombreuses constructions, qui témoignent de la grandeur de sa situation, Dieu lui fasse miséricorde.[3]

Most of these numerous constructions of the Basha Ahmad have survived, in various states of preservation. Although they still form the key monuments of the towns of Morocco, they remain little known to this day. This article aims to bring together the published records and new and unpublished documentation of the palaces and mosques of the Basha Ahmad in Tetuan, Tangier and Ceuta, in order to understand these buildings as a coherent group, representative of a decisive period in Moroccan architectural history.

Apart from Nasiri's reference to the numerous constructions,

---

[1]This article is based on information in my D.Phil. thesis (Oxford,1989), entitled **The Domestic Architecture of Tetuan, 17th to 20th centuries**, and on research conducted since 1989.

[2] Ahmad ibn Khalid an-Nasiri as-Slawi, **Kitab al-Istiqca**, trans E.Fumey in **Archives Marocaines**,9 (1906, pp.157-9,206-7, 213,219-22,223-6; **Abu'l Qasim as-Sayyani, At-Turjman al-mu'rib 'an duwal al-Mashriq wa'l-Maghrib,** trans. O.Houdas, Paris,1889,pp.43,53,56,72,90-1,99,114; Muhammad Dawud, **Tarikh Titwan**, Tetuan, 1959-1979, passim.

[3]Nasiri, Op.Cit., p.226.

there seems to be no historical references to the Basha's patronage. Modern historians have concentrated on epigraphic studies of the Basha's palaces in Tetuan and Tangier[4], and paid less attention to the buildings themselves. These important inscriptions, on the wooden cornices and ceramic tiles of the palaces, leave no doubt as to the patron of these buildings. The inscriptions name the Basha Ahmad and not his sovereign Mawlay Isma'il nor the later rival 'Alawi princes. Indeed all the inscriptions post-date the death of Mawlay Isma'il, and give us an idea of the independence and dynastic aspirations of the Basha Ahmad after 1727. For example, the Basha is referred to as the prince (amir), prince of the human race (amir al-wara), the well-directed prince (amir muhda) and prince of the jihad ( a reference to his siege of Ceuta).[5]

Only parts of the palace of the Basha Ahmad at Tetuan have survived, and the complex history of this structure is worthy of investigation. The Basha Ahmad chose to build on a site facing the large parade ground and market square (the Feddan) and flanking the earlier residence of the Naqsis family of governors[6] . There were two periods of construction of the palace in the early 18th century. The first period was between the accession of the Basha Ahmad in 1713 and his defeat at the hands of the townspeople of Tetuan in 1727. The palace appears to have been already built by 1721 when it was included in a view of Tetuan published in John Windus' **Account of a British embassy to Mawlay Isma'il**[7] . (Figure 1) In 1727 the Tetuanies revolted against the oppressive rule of the Basha, who built lavishly and with no thought as to the expenses incurred. The Basha

...had caused them to build him Houses and

---

[4]Regarding the palace at Tangier, see E. Budgett Meakin, **The Land of the Moors**, London, 1901,pp.96-97; G.Salmon, "La Qaçba de Tanger, Description et histoire", **Archives Marocaines**, 1 (1904)),pp.97-126, especially pp.112-23; E. Michaux Bellaire, Un coin de la qaçba de Tanger", **Revue du Monde Musulman,** 35 (1917-19),pp.95-105; E.Michaux Bellaire,**Les villes et tribus du Maroc, vol.7: Tanger et sa zone,** Paris,1921, especially pp.156-81; G.S.Colin, "Une nouvelle inscription arabe de Tanger", **Hespéris**, 4,(1924)pp.93-9. Regarding the palace at Tetuan, see Dawud,vol.2 (1963),pp.188-98; F. Valderrama Martinez, **Inscripciones arabes de Tetuán**, Madrid, 1975, pp.33-46.

[5]Colin, Op.Cit., pp.94-5.

[6]Dawud, Op.Cit.,vol.2,p.188.

[7]J.Windus, **A Journey to Mequinez:The Residence of the Present Emperor of Fez and Morocco...in the year 1721,** London, 1725, plate between pages 22 and 23.

Gardens fit for a King, and had neither paid the Labourers for their work, or the People for their Materials."

"...(the Basha) had an elegant taste in his Building and Gardens, but then he never considered at whose Expense they were built, or the Poverty of the People, which occassioned him to so much Envy and so many Enemeis.[8]

The Tetuanies attacked and looted the Basha's palace at Tetuan, leaving the building partly in ruins. John Braithwaite, who accompanied the British embassy in 1727, gives a meticulous description of the empty palace, which consisted of a long entrance hall, various small courtyards, an oratory, a large central courtyard surrounded by the main reception rooms with towers or belvederes in the corners, and a garden flanking the palace. Braithwaite adds,

> The House had escaped much better than the Gardens, which were intirely rooted up. The House was intire, all but the ornaments, and it was spacious, convenient and magnificient.[9]

The second period of the Tetuan palace dates to 1734, when the Basha Ahmad returned to Tetuan, and had the looted palace redecorated. Of this redecoration there are some remaining inscriptions, one dated 1147/1734-35[10].

The Tetuan palace survived into the 19th century, when it was occupied by governors of the Ash'ash family. The earlierst visual record is a watercolour of the main courtyard ca. 1827[11]. During the 1859-60 Spanish occupation it was inhabited by various authors[12] , and important late 19th century photographs exist of the

---

[8]J.Braithwaite, **The History of the Revolutions in the Empire of Morocco upon the Death of the late Emperor Mulay Ishmael**, London, 1729,p.70 and p.12.

[9]Ibid.,p.57.

[10]Dawud, Op.Cit.,vol.2,p.195; Valderrama Martinez, Op.Cit.,p.44.

[11]Watercolour by Sir W. Gore Ouseley in the Old American Legation Museum, Tangier, no.255.

[12]It was occupied by the novelist and war historian Pedro Antonio de Alarcon, the journalist and art historian Charles Yriarte, and the diplomats Merry y Colom and B.Oliveira. See C. Yriarte, **Sous la tente, Souvenirs du Maroc; récits de guerre et de voyage**, Paris, 1863,pp. 201-2; C.Yriarte, **Les tableaux de guerre**, Paris, 1870,pp.213-21; B.Oliveira, **A Visit to**

exterior and of the main courtyard of the palace[13]. (Figure 2) In 1917, Juan Beigbeder, late High Commissioner of the Spanish Protectorate, published an extensive description of the palace, and recommended its conservation and restoration[14].

However, during the period of the Spanish Protectorate in northern Morocco (1913-1956), Tetuan served as a capital to the Spanish zone and the 18th century palace in question was largely rebuilt to serve as the residence of the **khalifas** Mawlay al-Mahdi and Mawlay al-Hassan. The secondary courtyards and some of the original reception rooms desappeared, and the main courtyard saw at least two phases of redecoration, that can be documented in photographs of the 1920's and 1940's. This redecoration in exhuberant 20th century taste has rather obscured the early 18th century structure of the main courtyard, of which the plan and elevation have survived.

The plan and elevation of the Tetuan palace courtyard are typical of the large houses in Tetuan of the 18th century; the courtyard is square with a gallery of three arches on all sides. (Figure 3) The central arch is taller than the flanking arches, and this scheme is repeated on both ground and first floors. The local architectural vernacular relies primarly on brick construction; cylindrical piers built of bricks carry pointed horseshoe arches, some cusped and ogival arches, and as we shall see below, vaults and squinches. The late 19th and early 20th century photographs and descriptions of the palace indicate the original monochome white-washed surfaces and simple decoration of the courtyard. The decoration of the courtyard was limited to miniature arches and ogival and lobed openings in the spandrels of the arches, and cusped arches over the pair of wall foundations. In this sober style, there was no carved and painted stucco. **Zallij** or panels of ceramic mosaic tiles were limited to the floor and rarely used for dadoes of rooms, with the exeption of door jams and an alcove (**bartal**) on the first floor. Some tile panels survive in situ and others in the Bab al-'Oqla Museum. (Figure 4) There were, on the other hand, luxurious carved and painted wooden ceilings and domes, described in the 19th and early 20th century sources. These ceilings have largely been lost, except for fragments in the Bab al-'Oqla Museum.[15]

---

**the Spanish Camp in Morocco,** (London),1865,p.28.

[13]Copies are in the Library and Archive of the Palacio Real, Madrid.

[14]Juan Beigbeder in J.Ortega, Guia del norte dc Africa y sur de España, Madrid,1917,p.250-6.

[15]**Bab al-Oqla Museum,** Tetuan, tile panel n.691; wooden panel,n. 1543.

(Figure 5)

The plan and elevation of this palace, as well as the sobriety of its architectural forms and decoration, are all echoed (sometimes exactly) in the few surviving 18th century houses of Andalusi notables in Tetuan, such as those of the Raghun, Madina, Labbadi and Muadin families[16]. (Figures 6 and 7) The antagonism between these Andalusi families and the Rifi governors did not prevent both factions from sharing the same local vernacular tradition in their domestic architecture. Many later palaces in Tetuan and Tangier repeated the plan and elevation of the early 18th century houses, although with different proportions and later forms of decoration. The existence in Tetuan of 18th century houses that are, very similar to the Basha's palace, and Braithwaite's account of how the Basha Ahmad did not pay for local labour and materials, suggest that the Tetuan palace was built by local artisans in a regional style. The Basha's palace at Tangier, however, presents us with a different model.

At the better preserved and better known palace of the Basha Ahmad at Tangier[17] , which presents us with a different model, the main courtyard is rectangular and has a gellery of three arches on the short sides and five arches on the long sides, on only one floor. (Figure 8) There are two dates incorporated into the inscriptions: 1145/1732-33 and 1153/1740-41, corresponding to the apogee of Basha Ahmad's power. The palace in Tangier post-dates the palace in Tetuan, and can be seen as a later phase of the Basha Ahmad's patronage, a cosmopolitan and eclectic phase, after the traditional and local style of the Tetuan palace. The striking elements of the gallery in Tangier are the bulbous marble columns and their Composite capitals[18]. (Figure 9) The Composite order is also used for the external facade of the Tangier palace. This neo-Classicism is also found in the slightly earlier palace-city of Mawlay Isma'il at Meknes, and probably indicates the presence of European marble-workers or North African artisans working in a European style[19].

---

Some ceilings from the palace are illustrated in the **Revista de Africa**, 1925.

[16]Op.Cit.,n.1,D.Phil. Thesis,chapter 3.

[17]Op.Cit., n.4.

[18]Meakin and Salmon (1904,p.166) believed the columns and capitals to be imported from Italy, which is the more likely interpretation.

[19]M. Barrucand, **Etude de l'architecture de la Qasba de Moulay ismaïl à Meknès**, vol.6 of **Etudes de l'architecture de la Qasba de Moulay Ismaîl à Meknès**, vol.6 of **Etudes et travaux d'archéologie marocaine,** Rabat, 1976, p.115-56.

This neo-Classicism or Italian style distorts Classical proportions, and combines them with Maghribi-Andalusi carved stucco and mosaic tiles. Furthermore, the Composite capitals are adorned with rosettes, circular plaques and with Ottoman (or Ottomanizing) motifs such as the cresent moon. The architectural evidence points to the presence of European, Ottoman or Algerian-Tunisian artisans in Tangier, as at Meknes, but there is as yet no published documentary evidence of such a presence.

The reception rooms and some of the secondary courtyards of the Tangier palace are lavishly decorated with mosaic tiles, inscriptions, carved stucco and elaborate carved and painted domes and artesonado ceilings[20], typical of the contemporary royal palace at Meknes. Another secondary courtyard has a distinctive plan and elevation, consisting of a small square courtyard (three to four metres square), with an octagonal courtyard cornice, open to the sky, carried by strange squinches in the form of shells in the corners of the courtyard. (Figure 10) Although vaulted and shell-shaped squinches are known in contemporary Meknes[21], they do not take this particular form. This caprice also existed at the palace of Tetuan, in a secondary courtyard of two floors, where the squinches carry the gallery of the first floor. I have also discovered a group of four small private houses in Tetuan with this same plan and elevation, with vaulted and shell-shaped squinches[22].

The courtyard with vaulted and shell-shaped squinches also occurs in the religious architecture of the Basha Ahmad; there are examples in the Jama' al-Basha in Tetuan, dated 1150/1737-38[23]. This mosque is also unique among Moroccan mosques for the covering of its prayer hall not with a pitched tiled roof, but with a series of twenty-five small domes. The use of domes and of squinches (even those not carrying domes) points to a remote Ottoman influence, via Algeria, where hypostyle prayerhalls of a Maghribi type, with pitched tiled roofs, are replaced by domed

---

[20]M.Barrucand, "Structures et décors des charpentes alaouites à partir d'exemples de Meknès", **Bulletin d'Archéologie Marocaine**, 11 (1978),pp.115-56.s

[21]Barrucand,1976,fig.151,pl.147.

[22]Op.Cit., p.n.16.

[23]Dawud,vol.2,p.198. S.Sebastian, "Las Mezquitas de al Bacha y al Quebir (Tetuán)", **Arte Español**, 21, (1957),p.55-69; A. Sierra Ochoa, "La mezquita del Baja en Tetuán", **Cuadernos de la Biblioteca de Tetuán**, no.16, (1977),pp.47-58. Another building attributed to the Basha Ahmad is the fountain outside Sidi Sa'idi in Tetuan. The date of its restoration is given in an inscription as 1134/1721-1722, but the name of the restorer is illegible (Dawud, vol.2,p.198; Valderrama Martinez, p.17).

prayerhalls in the 16th and 17th centuries.

The conclusive evidence of Ottoman architectural influence on the patronage of the Basha Ahmad is the octagonal plan of the minarets of the Jama' al-Basha in Tetuan and the Jama' al-Qasba in Tangier, also of the Basha Ahmad[24]. (Figure 11) Elsewhere in Morocco, mosques are usually faithful to the medieval prototype , with a hypostyle prayer hall with a tiled roof and a minaret that is square in plan.

The Basha Ahmad also built a villa or garden-house in the Kitan valley two kilometres to the southeast of Tetuan, where he would disappear for weeks on end, and where he enjoyed watching the women of his household boating and swimming. This house was built by 1137/1724, and like the Tetuan palace, was attacked and looted in 1727. In the same year, Braithwaite described it as even more splendid than the palace in the town, and "one of the principal Reasons for their rising up against him"[25]. From Braithwaite's description and from a plan of the gardens drawn in 1768[26] (Figure 12), we can reconstruct two large walled gardens with a formal cruciform plan and pools, leading to a large reception hall with a dome, described as a "Banqueting-house about fifty foot high"[27], and a park leading down to the Kitan river. The poems decorating the main reception hall, by Muhammad ibn Ya'qub, have been preserved, and refer to the Basha Ahmad.[28]

The site of the garden-house at Kitan is known today as Saniyat as-Sultan, the sultan's spring or fountain. Like the Tetuan palace, it too was occupied by the **khalifas** during the Protectorate, and has been considerably rebuilt[29]. A large rectangular enclosure, the principal gate and a small bath-house probably retain their

---

[24]About the dating of the Jama' al-Qasba, Nasiri claimed that the Basha Ahmad rebuilt all the mosques of Tangier, and Nasiri is quoted by Salmon who confuses Ahmad with his father. Michaux Bellaire (1921,p.169-70) also says the mosque was rebuilt by the Basha Ahmad. About octagonal minarets, see Sebastian, Op,Cit.,p.17-19. See also my forthcoming article on the octagonal minaret in Morocco.

[25]Braithwaite, Op.Cit.,p.71

[26]"A Plan of one of the Squares in Bashaw Hamet's House in the Grove near Tetuan, before it was destroyed. A. The Terrasse,B.Cold baths, C.Orange trees, D.Walk around the Baths, E.Steps to Descend." in Thomas James, **History of the Herculaean Straits**,London, 1771,vol.2, opposite p.32.

[27]Braithwaite, Op.Cit.pp.76-9.

[28]Dawud,vol.2, Op.Cit., pp.188-92.

[29]Ibid.,p.99,n.2.

original architectural features (domes, squinches, doors and windows), which can be dated to the early and mid-18th century, by comparison with other buildings in Tetuan.

The Basha Ahmad also built a garden-house outside Tangier, and we can perhaps identify some substantial ruins in what is known today as "Brooks' Park" with this house[30]. These ruins have never been investigated.

Finally, the Basha Ahmad built a residence and mosque outside Ceuta, of which the house owed little to its function as the seat of a military camp, but has all the attributes of the urban palaces of Tangier and Tetuan. The palace and mosque outside Ceuta were destroyed in the late 19th century, but graphic documents and descriptions dating from the 1859 Spanish capture permit a substantial reconstruction[31]. (Figure 13) The main courtyard was rectangular, with an arcade of twelve arches, and was lavishly decorated with tiles, stucco and carved and gilt wood. Unlike the mosque mentioned above, the mosque outside Ceuta had a minaret that was square in plan. The Basha Ahmad and his father besieged Ceuta for thirty-years during the reign of Mawlay Isma'il, and the Basha Ahmad's residence probably dates to 1722. If this date is correct, then the square, not octagonal plan of this minaret can be explained by its relatively early date. The height of Ottoman influence in the religious architecture of northern Morocco can then be dated to no earlier than the 1730's.

Architecture in late 17th and early 18th century Morocco is dominated by the large and numerous constructions built for the sultan Mawlay Isma'il. However, the Basha Ahmad is a unique figure in this period, a non-royal patronage. Although the Basha built under the authority of Mawlay Isma'il in the period 1713 to 1727, the inscriptions of between 1731 and 1741 leave us in no doubt that it was the Basha Ahmad and his family that these later buildings are intended to glorify. The Basha Ahmad's "Houses and Gardens fit for a King" are indicative of the rebellious and independent tradition of government of northern Morocco in the early 'Alawi period. The architecture of these buildings testifies to the strong local building tradition, and to this region's geographical and cultural proximity to Europe and the western provinces of the Ottoman empire.

---

[30]This country house with a tower or belvere was apparently known as 'Saniya el Hashti', and in the 19th century was owned by the Danish consul Mr. Carstensen, the British minister Sir John Drummond Hay, and Drummond Hay's daughter, Louisa Brooks. See L.A.E.Brooks, **A Memoir of Sir John Drummond Hay**, London, 1896,p.223, and illustration on p.229.

[31]See my forthcoming article about this palace in **Hespéris-Tamuda**.

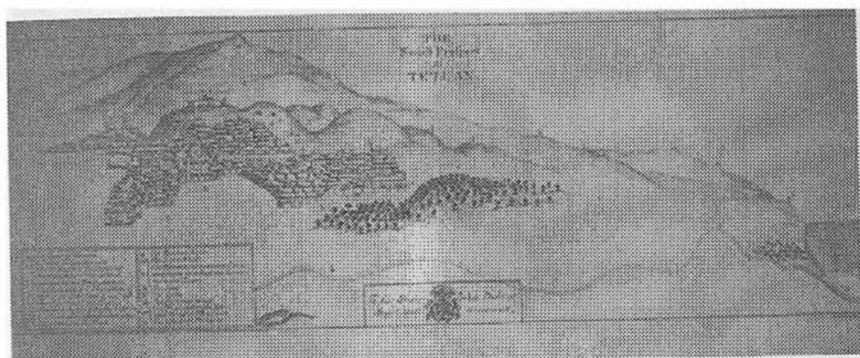


**Figure 1.** A view of Tetuan from the south in 1721, showing the Basha Ahmad ar-Rifi's palace marked "g" and its tower of belvedere overlooking the Feddan square. From J.Windus' **A Journey to Mequinez; the Residence of the Present Emperor of Fez and Morocco...in the year 1721**, London, 1725, plate between pp.22 and 23. Courtesuy of the Bodleian Library, Oxford.

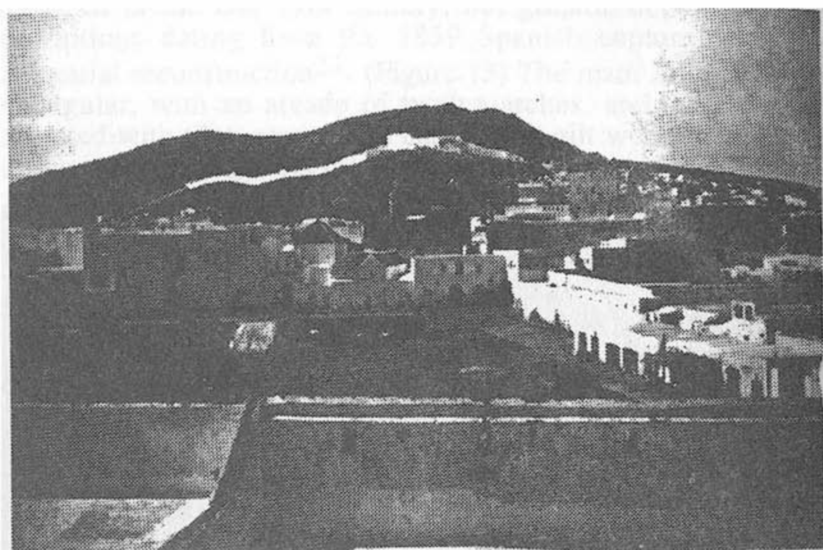


**Figure 2.** The Feddan square in Tetuan, with the octagonal minaret of Jama' al-Basha in the centre of the photograph, and to the right, the palace of the Basha Ahmad in Tetuan, photographed from a roof-top in the Mellah in the late 19the century. Courtesy of the Library and Archive of the Palacio Real, Madrid.

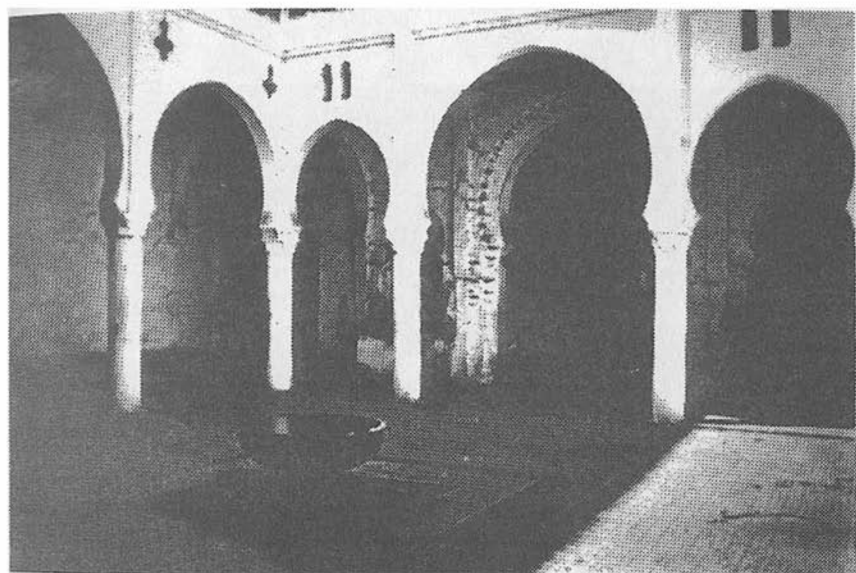


**Figure 3.** The courtyard of palace of the Basha Ahmad in Tetuan, photographed in the late 19th century, prior to the 20th century rebuilding of the palace. Courtesy of the Library and Archives of the Palacio Real, Madrid

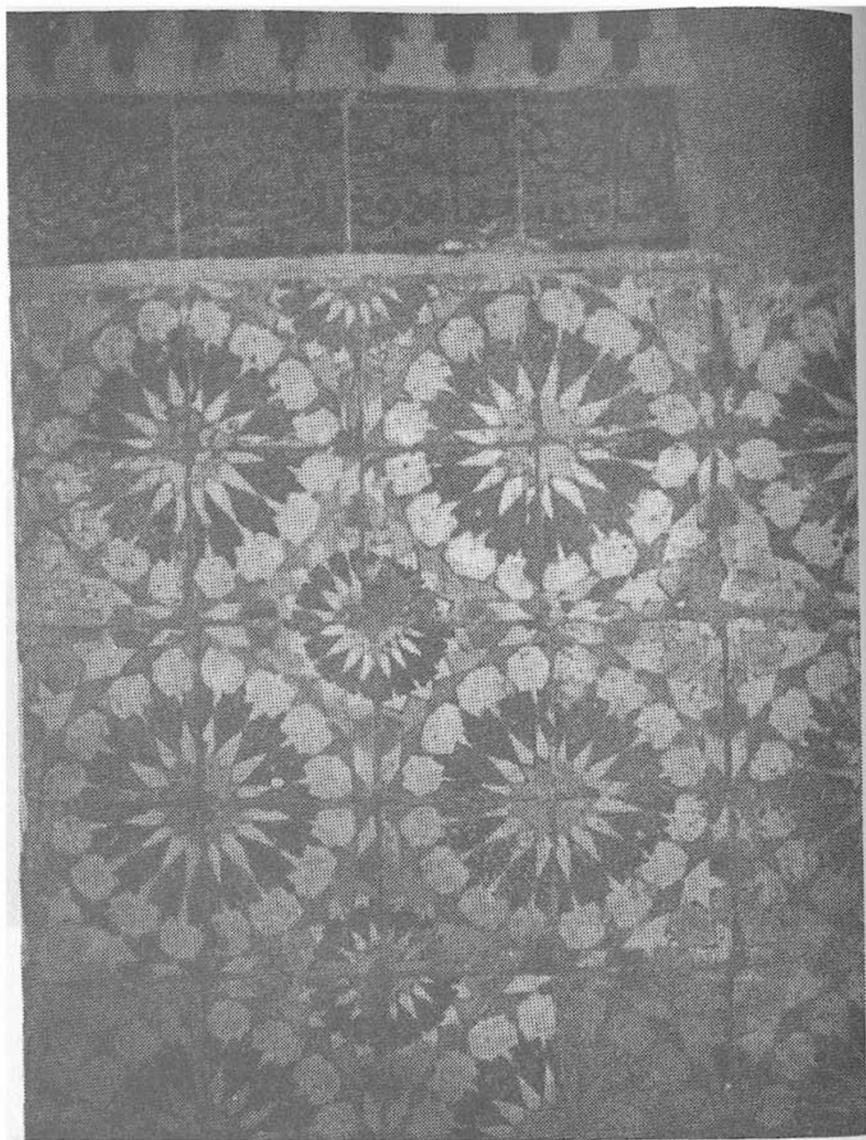


**Figure 4.** A tile panel from the palace of the Basha Ahmad in Tetuan, measuirng 55x73 cm., now in the Ethnographic Museum at Bab al-'Oqla, Tetuan, catalogue number 691. Courtesy of the Bab al-'Oqla Museum, Tetuan.

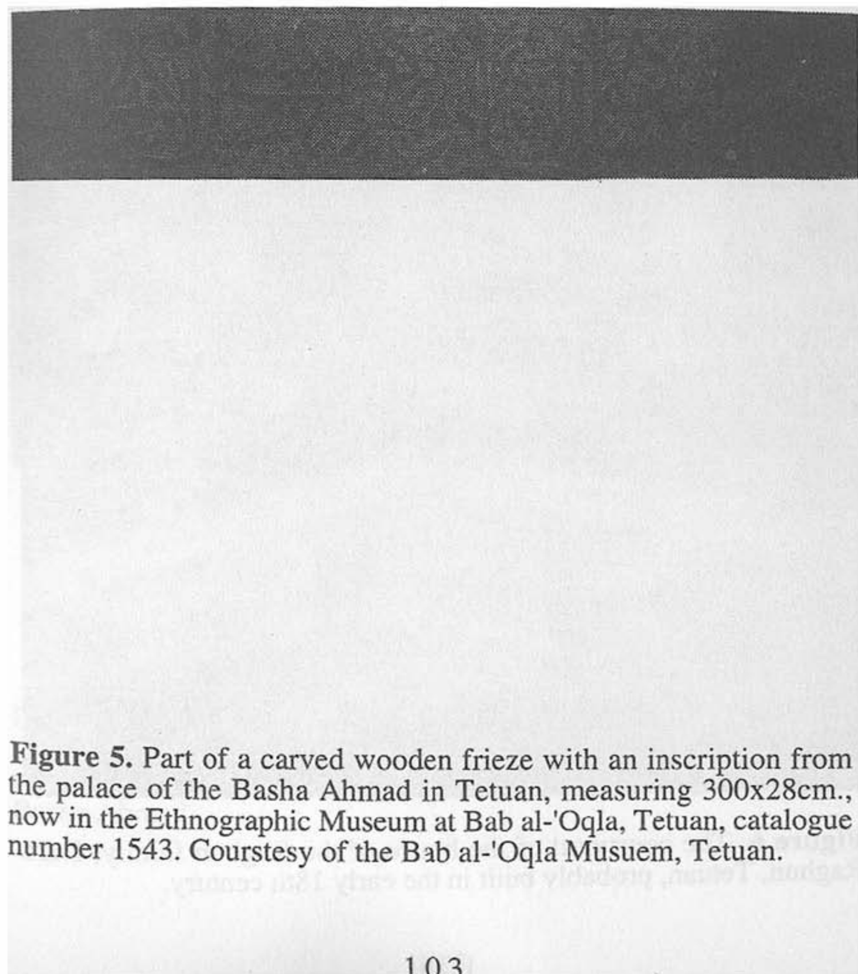


**Figure 5.** Part of a carved wooden frieze with an inscription from the palace of the Basha Ahmad in Tetuan, measuring 300x28cm., now in the Ethnographic Museum at Bab al-'Oqla, Tetuan, catalogue number 1543. Courstesy of the Bab al-'Oqla Musuem, Tetuan.

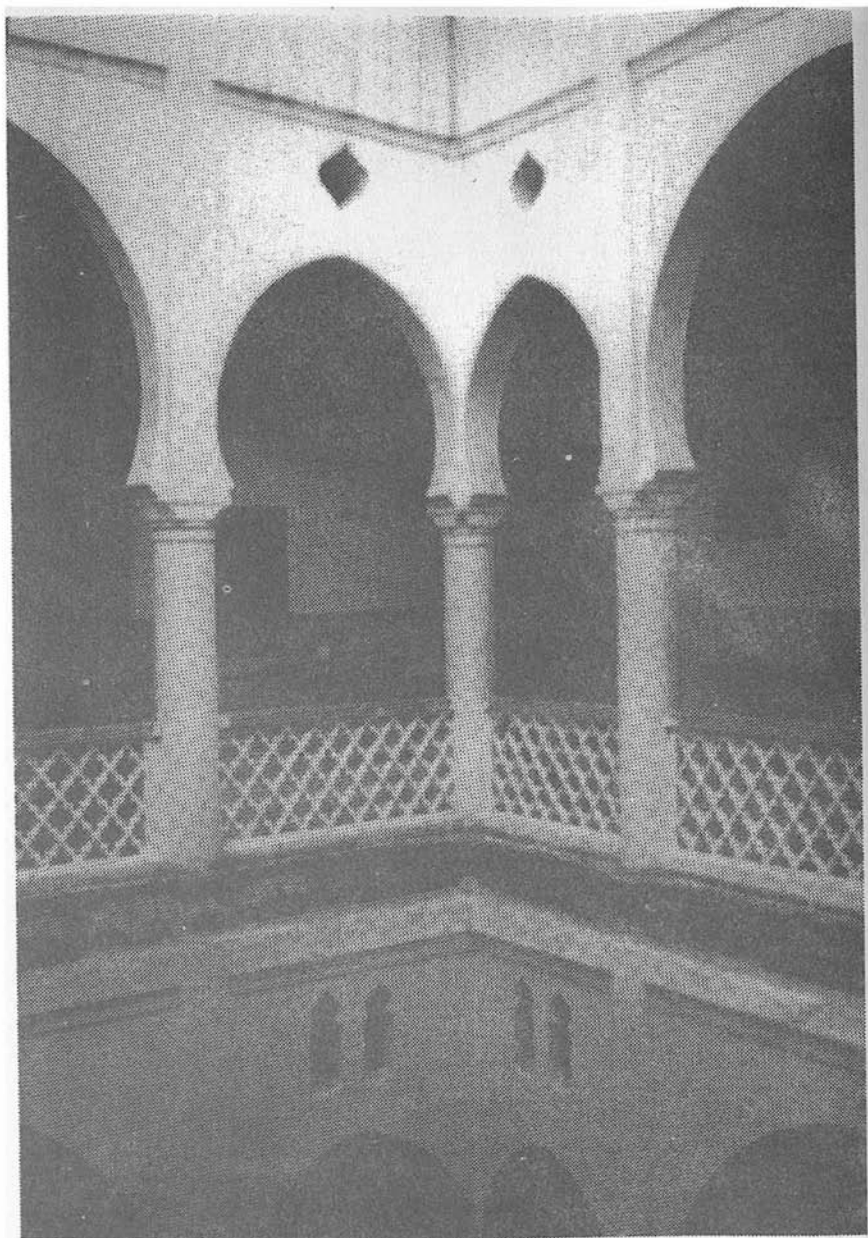


**Figure 6**. The courtyard of the house of the Raghun family, Darb Raghun, Tetuan, probably built in the early 18th century.

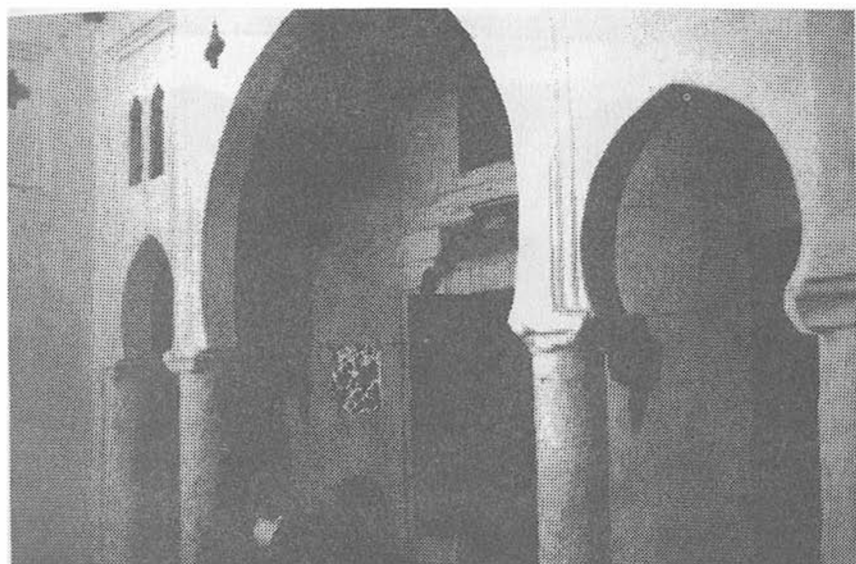


**Figure 7.** The courtyard of a house in the Watya, al 'Uyun quarter, Tetuan, probably dating to the early 18th century. Notice the openings in the arcade, identical to those in the palace of the Basha Ahmad.

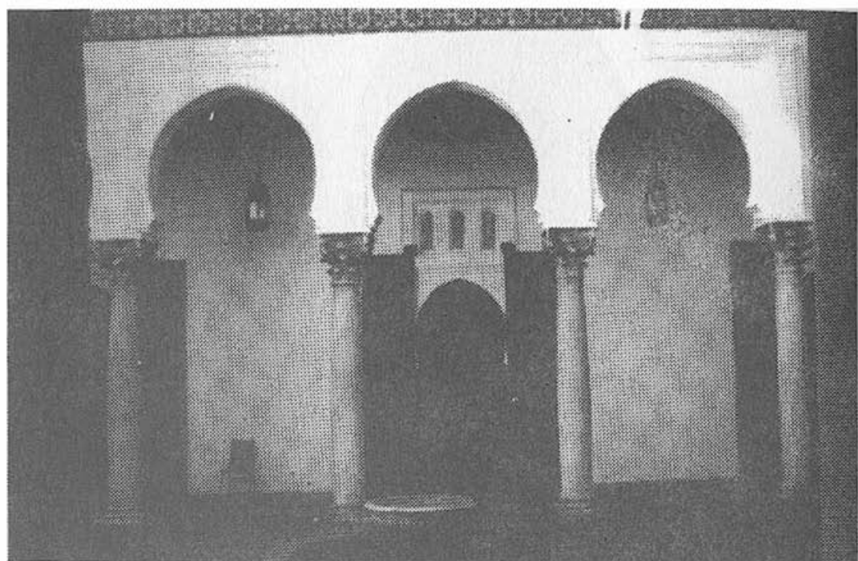


**Figure 8.** The main courtyard of the palace of the Basha Ahmad in Tangier, dating to 1153-41, today the Museum of the Qasba.



**Figure 9.** A capital in the main courtyard of the palace of the Basha Ahmad in Tangier, combining classical and orientalizing elements.

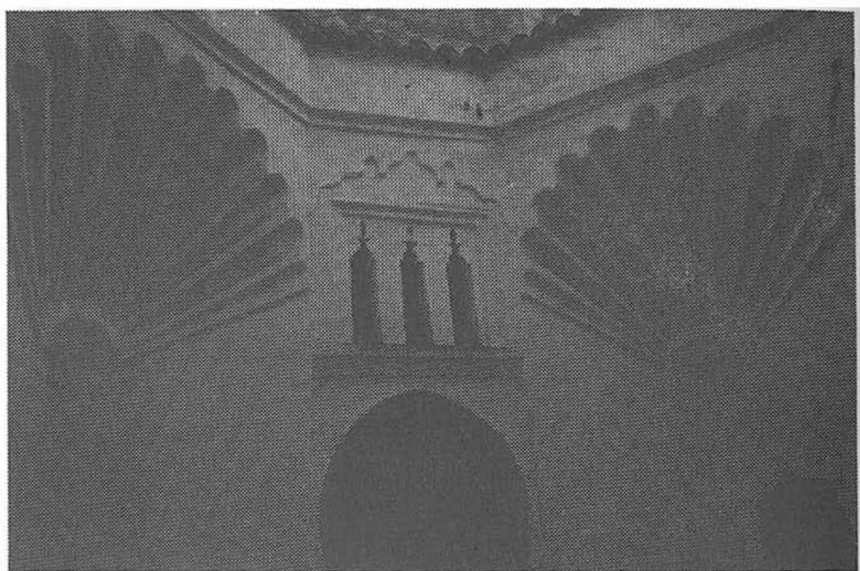


**Figure 10.** A small courtyard in the palace of the Basha Ahmad in Tangier, with the cornice supported on four shell squinches.

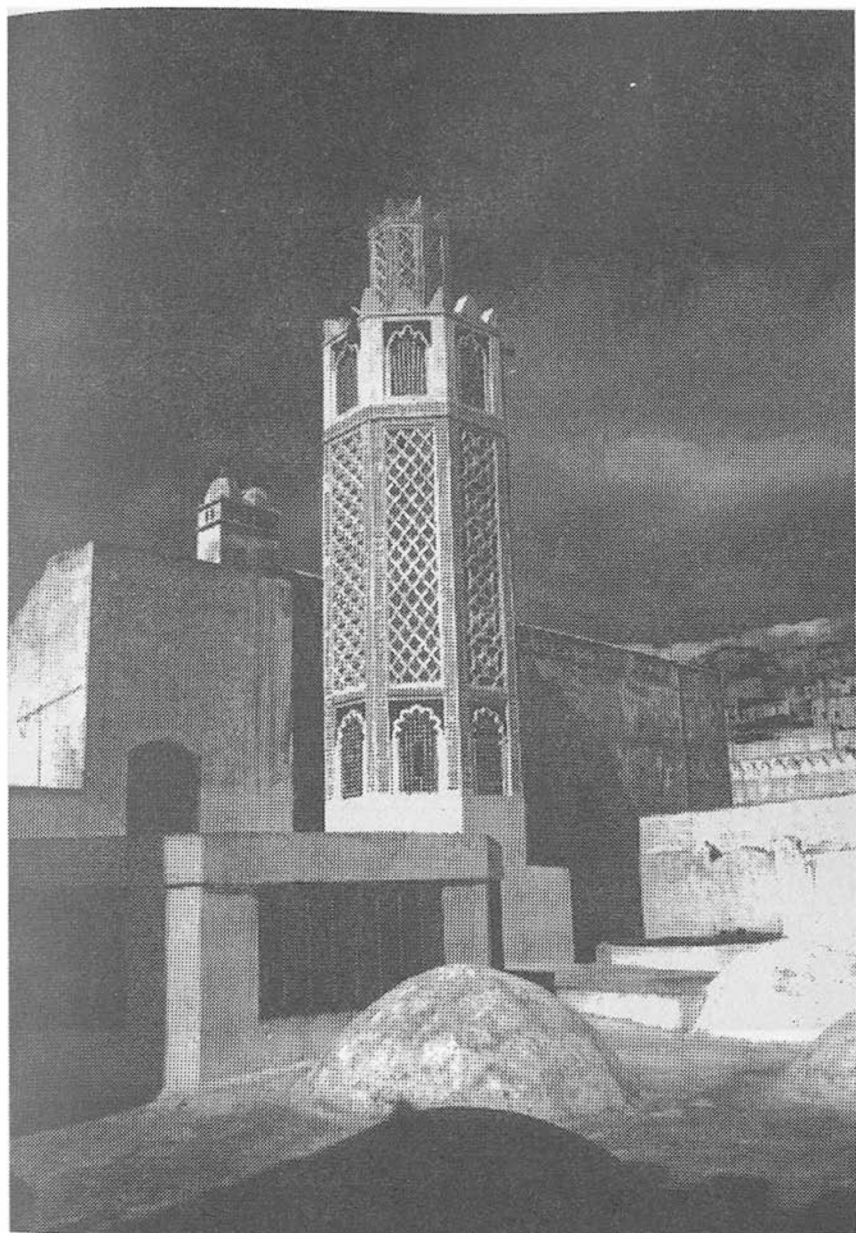


**Figure 11.** The octagonal minaret of the Jama' al-Basha, Tetuan, built in 1150/1737-38. The domes covering the prayer hall appear in the foreground.

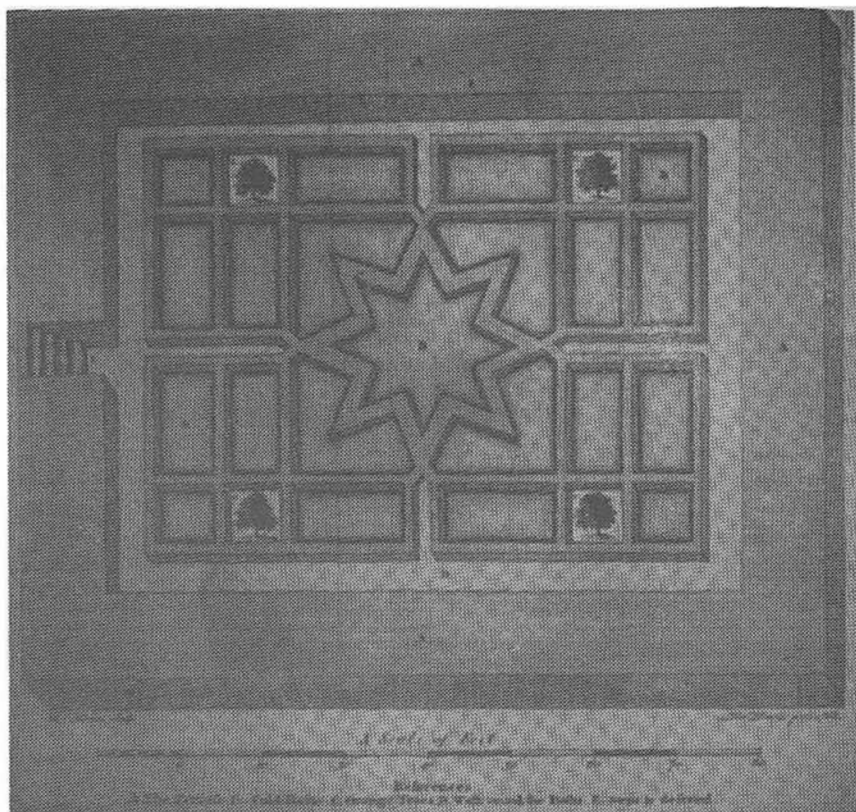


**Figure 12.** Plan of the palace of the Basha Ahmad at Kitan: "A Plan of one of the Squares in Bashaw Hamet's Summer House in the Grove near Tetuan, before it was destroyed. A. The Terrasse, B. Cold baths, C.Orange trees, D.Walk arount the Baths, E. Steps to Descend." in Thomas James, **History of the Herculaean Straits**, London, 1771, vol.2, plate opposite p.32. Courtesy of the Bodleian Library, Oxford.

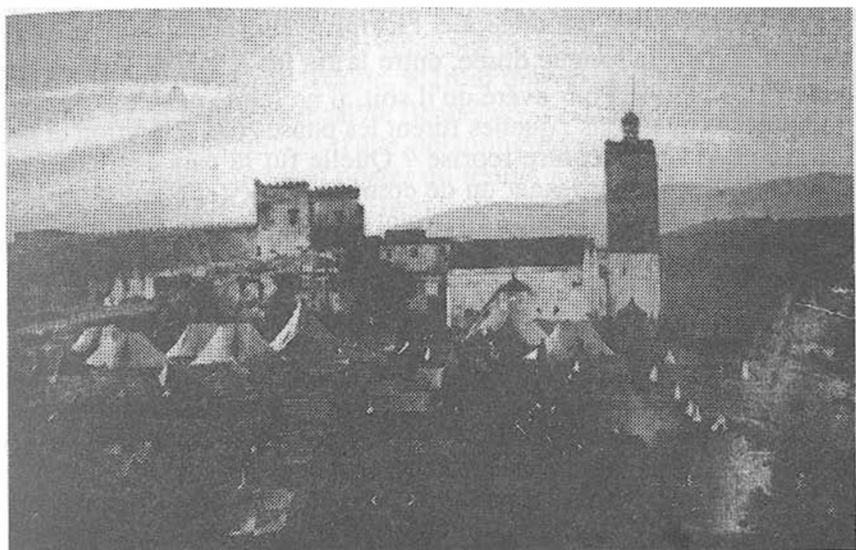


**Figure 13.** View of the Basha Ahmad's palace and mosque outside Ceuta, with Spanish troops camped outside it. Photographed in 1859 by E.Facio. Courtesy of the Library and Archive of the Palacio Real, Madrid.

# Moulay Sliman et la Révolte de Tétouan

Dr. Jean Louis Miège
(Université de Provence)

Le déclin de Tétouan au XIXème siècle pose un problème historique, déja évoqué lors de précédentes rencontres[1]. Si le rôle de la ville fut éminent au XVIIIème siècle, la classant parmi les ports et les cités les plus notables de l'Empire chérifien, son déclin s'affirme, dans la longue durée, entre la fin du XVIIIème siècle et celle du XIXème. Pour avéré qu'il soit, il ne laisse pas de poser de nombreuses questions : quelles furent les phases d'accélération et de récession, voire de contre-reprise ? Quelle fut la part des facteurs économiques -de l'artisanat ou de commerce- et celle des données politiques ? Le Makhzen, en retirant les consuls en 1770, agit-il sciemment contre la ville, et quelles furent, ultérieurement, ses rapports avec une cité souvent accusée de fronde à l'égard du pouvoir central ?

Dénouer, dans l'écheveau de toutes ces causes, les éléménts déterminants à un moment donné, chercher à dégager une périodisation en soulignant le rôle respectif des facteurs endogènes et exogènes, contraint au recours aux sources les plus nombreuses et les plus diverses, tant marocaines qu'européennes.

Nous le tenterons pour une période peut-être décisive de l'histoire de Tétouan, qui, semble-t-il, infléchit son destin en accélérant le processus de la crise structurelle qui commençait de la frapper, la période de sa lutte contre Moulay Sliman en 1821-1822.

Aux témoignages bien connus marocains, classiques tel l'Istiqça[2], nouveaux comme les apports de Daoud[3] et d'autres historiens[4], il est nécessaire d'ajouter ceux des sources européennes. Du moins ceux des grands dépôts, ceux des Archives

---

[1] J.J.Miège, **La crise économique de Tétouan dans la deuxième moitié du XIXe siècle, Colloque sur l'Histoire de Tétouan au XIXe siècle**,Tétouan,1992.

[2] In Naçiri, **Kitab al-Istiqça, Archives marocaines,** vol.X, 1907, **Chronique de la dynastie alaouite du Maroc.** L'historien est fort bref pour la période.

[3] Muhammad Daoud, **Tarikh Titwan**, Rabat,1959,sq.

[4] Je pense, entre autres, aux travaux du Professeur Abd-Allah Targhi M'rabet.

Nationales des trois éternels rivaux au Maroc, Espagnols, Français et Anglais[5], que de fonds moins connus ? Les documents sont de plusieurs origines. Ce sont d'abord les papiers de Peter Schousboe, consul du Danemark à Tanger depuis près de trois décennies, remarquable connaisseur du pays et toujours bien informé par ses employés marocains, collecteurs de plantes, qu'entretenait sa passion de botaniste[6].

Non moins riches sont les lettres personnelles du consul Delaporte, excellent et célèbre arabisant qui, échappant au conformisme officiel dont se revêtent ses dépêches consulaires, proviennent d'un témoin, aux amitiés marocaines nombreuses[7]. A côté d'eux, fort différent des relations du premier, des observations plus primesautières du second, le froid relevé quotidien des faits tels que les enregistre le journal de Bendelac[8] .

Autre témoignage d'une personnalité consulaire, et non des moindres, sinon par son poste, du moins par ses aventures (et ses écrits) celui de Graberg de Hremsoë, dont la correspondance vient seulement d'être exhumée[9]. Ajoutons les notes, plus "littéraires" et moins sûres de Comyn qui, de Tanger où il réside provisoirement, envoie des nouvelles régulières à ses amis[10].

En n'ayons garde d'oublier deux documents britanniques, d'ordre très différent, les courtes notes, qui semblent avoir été prises sur le vif, d'un médecin anonyme, les chroniques régulières du *Gibraltar Chronicle and Commercial Intelligencer,* le journal officieux de la place toujours si avisé des événements marocains[11].

---

[5]Pour la France, **Archives Nationales de Paris, ANP**; pour l'Espagne, **Archivo Historico Nacional**, Madrid, AHM; pour la Grande Bretagne, Public Record Office, Londres, ROL; pour les Etats Unis, Archives de la Légation à Tanger, TAL.

[6]Sur la personnalité de Schousboë et ses archives, voir J.L.Miège, Un bicentenaire: Schousboë , botaniste et consul, in Maroc-Europe, no.5, p.201-204.

[7]AOML Aix en Provence, Papiers Delaporte.

[8]Sur le Journal de Bendelac, voir la présentation de J.Louis Miège, **Chronique de Tanger.**

[9]Sur le Journal de Bendelac, v. la présentation de J.L.Miègc, **Chronique de Tanger 1820-1830, Le Journal de Bendelac** in **Maroc-Europe**, no.1, 1991,pp.15-27.

[10]Comyn, Tomas, **Ligera ojeada o breve idea del Imperio de Marruecos en 1822.**

[11]Le **Gibraltar Chronicle and Commercial Intelligencer** s'intéressent d'autant plus à Tétouan que la place est en relation commerciale étroite avec le

La moisson est abondante. Elle permet de reconstituer la trame d'une des périodes les plus confuses de l'histoire du Maroc et des plus importantes de la vie de Tétouan.

## Tétouan en 1820

Contrairement à ce qui est généralement affirmé, le transfert des rares consulats européens de Tétouan à Tanger, qui deviendra à terme un handicap, n'eut, sur le moment, aucune réelle incidence sur la vie de la cité[12]. Les guerres européennes, le blocus et le contre-blocus sont, commercialement, féconde au port du Rio Martil. L'essor maritime de la première décennie du siècle est certain et se lit dans les statistiques des ports espagnols du Levant[13] surtout, mais aussi à Livourne, à Marseille même, et bien sûr à Gibraltar.

Ces années 1810-1815 sont commercialement parmi les plus brillantes de la ville. Elle est considérée comme la plus importante, économiquement, du Royaume, après Fès, en concurrence avec Marrakech, le grand emporium du sud, et avant tous les autres ports, précédant même, certaines années, Mogador[14].

Dans ces années Tanger reste une bourgade de 4 à 5000 habitants à peine, Tétouan, selon les recoupements les plus sérieux en compte quelque 25 OOO au moins[15].

Cette prospérité tenait, en fait pour grande part aux circonstances. Les difficultés de passage du détroit favorisaient le port. Il profitait de toutes les difficultés des navigations atlantiques. Cet avantage ne survécut pas longtemps au rétablissement de la paix. Le port souffrit aussi du ralentissement, allant jusqu'au dépérissement, de la course marocaine.

---

port marocain dont elle reçoit une partie de son ravitaillement en vivres frais, boeufs, légumes et fruits.

[12]Les consulats étaient alors éparpillés dans les différents ports, à Mogador, Rabat-Salé,etc...

[13]Corrales, E.M., **La flotte marocaine et le commerce de cabotage espagnol (1797-1808)**, in **Le Maroc et la mer, Revue Maroc-Europe**, no. 2, 1992,pp.71-81.

Les chiffres de l'époque sont gonflés par le rôle de relais qu'est amenée à jouer l'Espagne dans le commerce franco-marocain par suite du blocus anglais.

[14]Le témoignage de Potocki, pour juillet 1761, et, pour les premières années du siècle, de Schousboë.

[15]Burel pour 1808-1809 donne le chiffre de 28 000. Graberg de Hemsoë variera dans ses estimations de 11 à 20 000. Les rapports français avancent le chiffre de 25 à 30 000. ............ en 1825 ira jusqu'à 90 000.

Dans ce renversement de conjonctures des années 1815-1818 l'épidémie fut un brusque et brutal accélérateur. Elle ravagea la ville de septembre 1818 au début de 1819. Graberg de Hemsoë en a laissé de terribles descriptions et une effroyable comptabilité hebdomadaire, que recoupe le *Gibraltar Chronicle* et les lettres des agents français au service de santé de Marseille[16]. L'épidémie durait encore en mai 1819, ayant fait alors plus de 1 500 victimes. Elle s'apaisa pour reprendre avec violence, alors qu'elle disparaît à Tanger. Le total des relevés hebdomadaires donne, en un an, de septembre 1818 à 1819, le chiffre énorme de 6 259 décès, redevable à la surmortalité dûe à la maladie[17]. Ainsi disparaît environ le quart de la population de la ville.

Ses effets directs, économiques et sociaux, difficiles à évaluer, en l'état des connaissances, ne purent être que considérables. Aggravés d'une émigration de la peur[18] qui entraîna, sans doute, une immigration compensatrice, l'une et l'autre ne pouvant qu'être porteuses de troubles sociaux. Une réapparition de la maladie en juin 1820 suscita un moment de panique, témoignant de l'ampleur de la perturbation apportée par la crise précédente[19].

Les quarantaines provoquées par la maladie avaient quasi arrété les relations maritimes et les transactions commerciales extérieures. Les échanges avec Gibraltar, à l'accoutumée si vifs, s'étaient pratiquement taris: d'août à décembre 1818 quatre navires seulement (moins d'un par mois) vinrent de Tétouan à Gibraltar, dont 2 sur lest[20].

L'interdiction faite par le Sultan aux consuls de visiter la ville (en 1817), le refus d'embarquer des pélérins dans le port (en fin 1819) sont à la fois des mesures aggravant les difficultés de la ville et semblant marquer, à son égard, la suspicion du Makhzen. Ajoutée aux crises démographiques, sociales et économiques et aux troubles qu'elles entraînent, elle va créer une situation favorable aux

---

[16]Archives des Bouches du Rhône, 200 E 456.

[17]L'épidémie ne s'arrête qu'en septembre 1819; on ne comptablilise plus que 20 morts de la peste dans le mois.

[18]Nos observateurs évoquent tous le refuge dans les collines voisines, et surtout à Gibraltar.

[19]Il y eut en juin 1820 quatre vingt morts par l'effet de ce que l'on appela un "retour de peste" qui semble dû à des fièvres.

[20]**Gibralter Chronicle and Commercial Intelligencer**, relevés quotidiens: en juillet 4 navires apportent 167 boeufs, aôut et septembre zéro, octobre un navire avec gomme, cire et bougies, novembre 2 dont 1 sur lest et 1 avec des peaux de chèvres, décembre 1 sur lest.

turbulences politiques.

## Le conflit

Les causes intrinsèques locales de la rupture qui va intervenir restent mal connues. Les sources européennes mettent en cause le mécontentement des notables, la misère du petit peuple, les ambitions surtout du gouverneur Benyasef et la crainte qu'il a de voir l'étendue de son governorat réduite[21].

La rivalité montante avec Tanger n'est peut-être pas absente du choix opposé à la ville voisine que font, le vendredi 18 mars 1821, Benyasef, l'armée et les notables[22]. L'antagonisme entre les deux cités éclate ce jour là : si Tétouan reconnaît comme sultan Moulay Saïd, Tanger "retournait au giron" de Moulay Sliman[23].

Les deux compétiteurs se rendirent le plus vite possible à Fès, lieu de toute véritable consécration. Ils y arrivèrent le même jour. Moulay Sliman s'établit à Fès le Neuf, son rival à Fès le Vieux. La bataille s'engageait entre les deux ensembles de la ville. Comme elle sévissait entre Tanger et Tétouan.

Elle peut, à grands traits, se résumer, de février à avril 1821 à mai 1822 à trois phases: d'avril à août 1821, de septembre à février 1822, de février à avril 1822.

Les antagonismes cherchent, d'abord, à renforcer leurs troupes et à s'attacher des alliés, en évitant tout fort engagement risquant de ruiner un possible compromis. Moulay Sliman, reconnu officiellement par tous les représentants européens, non sans, pour certains, quelques réserves d'arrière-pensée[24], profite de leur aide, importante de la part de l'Angleterre qui lui livre des cartouches. Ses moyens financiers lui permettent des achats réguliers dont Bendelac note, au jour le jour, l'arrivée à Gibraltar. Il exige le paiement immédiat des tributs dûs par les puissances du Nord. 65 000 piastres lui sont ainsi versées en quelques mois qui alimentent un trésor de guerre qui s'augmente des envois exigés des douanes des ports. L'amane des oumanas de Mogador lui adresse 50 000 piastres. Il fait aussi largement appel au capital juif de Tanger. La

---

[21]La menace portait sur l'administration de l'Andjera.

[22]L'adhésion de la population , ........de maux, aurait été, d'après Delaporte, de simple résignation. Delaporte, Tanger;18.4.1821. Les tribus des environs furent pour l'essentiel hostiles.

[23]Moulay Sliman avait résidé à Fés du 1er novembre 1821 au 10 février 1822, voir Bendelac, Op.Cit.

[24]Le consul général français Sourdeau exprime dans sa correspondance quelques hésitations dûes aux chances, qu'il estime égales, de chacune des deux parties.

communauté lui est favorable par réaction face aux exactions dont sont victimes les juifs de Tanger. Par intêret aussi : le sultan leur vend de fructueuses licences d'exportation.

L'ampleur de ces moyens permet en particulier de renforcer l'artillerie, point fort de Moulay Sliman, sous le commandement d'Antonio Piloti d'Emanuel, converti à l'islam[25]. Les finances achètent autant des ralliements que des armes.

Le trésor de guerre du prétendant, pour être moindre, n'est pas mince. Il a pu s'emparer des sommes conservées à la douane de Tétouan, 80 000 piastres. Il a frappé les juifs d'une écrasante contribution de 35 000 piastres. Il dispose ainsi initialement de plus de 640 000 francs or. Il ne manque pas non plus d'appuis européens. Moins officiels que ceux du Sultan, mais efficaces. L'intrigant Graberg de Hemsoë joue sa carte, de même que son compagnon d'affaires Simpson[26] . Des affairistes de Gibraltar voient dans sa tentative la possibilité de fructueuses transactions. Qu'il y eut "complot étranger", le Sultan en était persuadé[27] . Il expulse Graberg et Simpson de Tanger le 21 janvier 1822. Graberg, installé à Gibraltar, ne put jamais, malgré tous ses efforts, revenir au Maroc.

Se faisant argument de son armement et ses appuis, chaque partie tache à rallier des partisans. Moulay Saïd gagne les Andjera, Moulay Sliman les Ghomara. Les Chorfa furent particulièrement sollicités, surtout ceux d'Ouazzane[28].

Parallèlement des efforts de médiation étaient tentés, à l'aide de négociants (mission confiée par Moulay Sliman à Abarodi[29] ,

---

[25]Le consul de France le dit espagnol, né en Biscaye, échappe du préside de Melilla, AEP Maroc 18 Tanger 1.5.1982; v. également ADN Tanger 17.11.1985. La plupart des auteurs le présentent comme piémontais, à la suite de Calderon. Son origine espagnole est formellement attestée par le consul d'Espagne, ANM, et par Graberg qui le connaissait bien.

• Son rôle, militairement déterminant, ne laissa pas d'être ambigü. Tout en servant Moulay Sliman, il aurait entretenu des intelligences avec Moulay Saïd. Il trempera dans différentes intrigues et trafics et finira exécuté par ordre du sultan Moulay Abderahman en février 1826 (en non en 1825 comme l'écrit Graberd, p.90).

[26]Simpson, ancien consul des USA, trafiquait avec Tétouan et était lié d'affaires avec Graberg.

[27]Comme certains consuls, v.ALT Tanger, Mullowny 15.5.19882, Mullowny avait remplacé Simpson.

[28]La mission du frère du chérif d'Ouezzane, Mohamed ben Sosud el Wazzani est relatée en détails par Schousboë.

[29]Sur la mission d'Abarodi, v. le Journal de Bendelac. Sur l'attitude des

tentatives par les négociants de Fés bali)[30].

L'échec des pourparlers, l'assurance de Moulay Slimane du soutien de l'Angleterre mirent fin à la phase d'expectative et ouvrirent celle du conflit militaire. Une véritable déclaration de guerre à Tétouan et aux partisans du prétentant fut lue dans les mosquées le 25 novembre 1821 [31].

Les détails du conflit montrent la pression des troupes du Sultan acharnées à battre par tous les moyens les murailles; les tentatives de sortie des assiégés voulant se donner de l'air, le rôle, minimisé ou ignoré par les historiens, de la marine du sultan. En voie de reconstitution elle assure le blocus maritime, entravant le ravitaillement de la place depuis l'étranger et, à l'inverse apportant armes et provisions au corps débarqué à l'embouchure du Rio Martil qui s'est assuré la possession du bastion qui commande, au nord, son estuaire.

Le conflit se déroulait sur les deux fronts de Fés et de Tétouan. Sans événements décisifs mais non sans pertes importantes[32].

L'artillerie du sultan était supérieure en nombre et en qualité et ses destructions sensibles. Si la partie politique se jouait à Fès, le rôle de Tétouan était essentiel, tant vis à vis de l'opinion publique, compte tenu de "l'aura" de la cité, que du point de vue économique par des ressources "industrielles" et par ses liaisons extérieures, si limitées qu'elles fussent par le blocus. Des armes continuaient de lui parvenir de Gibraltar et, disait on, d'Alger, voire de Tunis.

Pour animer et mieux surveiller la lutte contre la ville voisine, Moulay Slimane s'installa lui même à Tanger où il résida du 1er novembre 1821 au 10 février 1822[33].

Sa présence, le ralliement désormais sans arrière pensée de tous les représentants européens, le secours de Gibraltar en armes et en ravitaillement (notamment par l'envoi de plusieurs cargaisons de farine) insinuaient le doute dans la résistance tétouanaise.

---

négociants de Fés les lettres de Delaporte. Tajer est sultan à Tanger. Abarodi encourera la disgrâce de Moulay Abderahman.

[30]A.O.P. Papiers Delaporte, octobre 1821.

[31]Journal de Bendelac.

[32]Elles sont comptabilisées, au jour le jour par Bendelac d'après les renseignements des couriers venus des deux villes. Moulay Slimane avait fait venir de Gibraltar un médecin qu'il envoya sous les murs de Tétouan soigner les très nombreux blessés. Le docteur Lotler partit de Tanger pour Tétouan le 3 janvier 1822 et resta près d'un mois "en campagne".

[33]Tous les rapports des consuls sont riches en détails sur ce séjour de plus de trois mois.

Un certain nombre de négociants, sensibles aux craintes de désordres ultérieurs comme à l'actuel ralentissement des affaires firent, dès le 22 novembre 1821 passer un message au Sultan l'assurant de leur intime fidélité. Les juifs surtout, accablés d'imposition, envisagaient avec terreur d'éventuels pillages. Bravant les interdits et trompant les gardes, ils s'enfuyaient par petits lots; 4 le 31 janvier, 3 le 8 février, 3 le 12, 3 le 19, etc...[34]

Dans la masse même les mécontents devenaient plus nombreux; tous les métiers qui vivaient de la mer étaient ruinés par le conflit. Un certain nombre de pêcheurs purent s'enfuir avec leurs barques et rejoindre Tanger[35].

Au début de février, Moulay Slimane jugea que Tétouan ne posait plus de véritable problème et qu'étant "neutralisée", tout l'effort devait porter désormais sur Fès. Si le blocus fut maintenu, la pression fut allégée autour de Tétouan, prés de la moitié des troupes en furent rappelées. Les combats diminuèrent jusqu'à s'éteindre à la fin du mois de mars.

Le ralliement de Fès entraîna celui de Tétouan et la reddition du pacha Benysef en avril 1822. Le sultan, par souci d'apaisement, le maintint comme gouverneur de la ville[36].

## Les conséquences.

Le conflit, par moment fort rude, avait duré plus d'un an. Il sera de lourdes conséquences pour la ville.

Economiques d'abord, sa navigation entravée s'était reportée vers sa voisine et désormais de plus en plus concurrente. Les besoins de la guerre avaient gonflé le commerce de Tanger. Dès lors, leur évolution sera inverse. Des intérêts s'étaient déplaçés, qui ne reviendront pas. Le transfert des maisons juives les plus importantes se poursuivra. Les effets sociaux ne furent pas moindres. Après les désastres de l'épidémie de 1819-1820, la guerre entraîna des pertes importantes, certains observateurs les estimaient à plusieurs milliers[37]. Chiffres exagérés sans doute. Mais qui ne laissaient pas la ville reprendre vraiment souffle avant que ne s'abattent sur elle les ravages de la famine de 1825, une des plus terribles qu'elle ait enregistrée.

---

[34]Détail comptable minitieux de ces arrivées dans Bendelac.

[35]Arrivée de 4 barques en mi février, de deux autres à la fin du mois...

[36]En février 1823 lui fut adjoint le commandement de l'Anjera. Cependant la disgrâce n'était pas loin et il fut bientôt remplacé par Achache.

[37]**Giblraltar Chronicle**, 31 mars 1822.

Ces chocs conjoncturels, combinant les trois fléaux de l'épidémie, de la guerre et de la disette, accumulés en moins de six ans amorçaient les renversements strucuturels. La crise fondamentale, celle qui se dèploira au long de la deuxième moitié du siècle s'annonça. La guerre de 1821-1822 en est un des préludes.

Tétouan avait renforcé aussi son image de cité indocile, soupçonneuse à l'égard du pouvoir central, qui n'était pas lui même sans craindre ses réactions frondeuses.

Les événements de 1821-1822 dépassent ainsi la chronique ; ils constituent un des temps forts de l'histoire de la ville.

## Annexe

Lettres de Delaporte.
Tanger 15 / 1 / 1822

Depuis le 1er Novembre jusqu'au 12 de ce mois de janvier nous avons joui de la présence du Sultan. Il est parti le 12 pour presser le siège de Tétouan dont les habitants paraissent déterminés à s'ensevelir sous les ruines de leurs maisons. S.M. est à Zinat, situé à deux heures de Tanger, dans une plaine belle et vaste où elle a fait dresser son pavillon. Elle vient de faire publier aux tribus maures au milieu desquelles elle se trouve l'ordre de venir le rejoindre avec les pioches, pelles, haches et autres instruments de destruction afin de l'aider à démolir la cité rebelle dont il veut que les habitants égalent le sol afin que soient accomplies les paroles du prophète maure El Maghrani... "Ou était Tétouan s'écria un jour le voyageur s'adressant au laboureur qui conduira sa charrue sur des oubliés?"

Cependant Tétouan est décidé à tenir. Moulay Séîd est toujours à Fez le vieux. Il en sort et rentre comme il veut sous les yeux de Fez nouveau qui l'observe sans presque oser l'attaquer.

Si l'affaire de Tétouan se termine on s'occupera plus sérieusement de celles de Féz......;

Tanger 13 / 5 /1822

Depuis le 13 février (date de ma dernière lettre) il s'est passé ici des événements. Le souverain ne cessa de demander des instruments pour détruire la ville rebelle. S. M. cependant se rendit à Larache où il entrait dans ses plans d'établir son quartier général. Son départ fut pris pour une retraite précipitée par les gens des montagnes et même pour la troupe de Tanger employée au siège de Tétouan. Les soldats ne voulaient plus se battre ou se battaient mal.

L'armée, affaiblie par l'escorte qu'elle fut obligée de fournir à S. M. dans son voyage de Tanger à Larache se trouva obligée de soutenir les sorties répétées des assiégés plus nombreux qu'elle et de livrer des combats où elle faisait des pertes inutiles. Elle se battit pourtant courageusement et tint ferme autant qu'elle crut pouvoir le faire ; mais craignant d'être trahie par les gens de la montagne qui venaient d'attirer dans un piège et de s'emparer de 200 noirs qui, de Larache, accouraient à son secours, elle crut qu'il était prudent de lever le siège. Elle a abandonné donc Tétouan et battit en retraite à Zinat et y reçut l'ordre de rejoindre le quartier général.

Le Roi sembla faire peu de cas de cette espèce de revers que Dieu voulait, méprisa Tétouan et changea son plan de campagne. Il laissa Larache et à la tête de ses troupes des tribus arabes il se porta sur Tazza. Tazza tenait fortement au parti de Moulay Seid ; il parut important de l'en détacher. Moulay Ettayeb fut chargé par le roi, son père de cette expédition. Il attaqua Tazza et l'enleva. Cette prise fut suivie de près par la reddition de Fez. Fez se donna, avant sa soumission, le 19 avril dernier, un petit combat de convention dont l'avantage tournait pour la forme à l'avantage de Moulay Sliman et à la suite duquel les habitants de Fez vinrent lui livrer Moulay Seid... Tétouan attaché à Fez par les liens de commerce a suivi son exemple; elle a ouvert ses portes en proclamant Moulay Sliman. La communication interrompue depuis plus de 20 mois entre cette ville et Tanger vient d'être rétablie...

# Le pouvoir personnel et l'autonomisme dans le Tétouan de la première moitié du XVIIIème siècle : l'exemple significatif du caïd Ahmed Ben Ali Riffi.

Dr. Abdelmajid Benjelloun
(Faculté de Droit de Rabat)

Nous ne pouvons entamer ce modeste travail sans donner une explication préliminaire au pourquoi de son élaboration. En effet d'aucuns nous reprocheraient d'y participer, en nous déniant jusqu'au principe d'être présent parmi vous, et la raison en serait que je suis un contemporaniste qui n'a rien à voir avec l'histoire de Tétouan au XVIIIème siècle. Cela est incontestable, mais je suis tellement attaché à la ville blanche que je me souviens avoir dit à mon très cher ami et frère Sidi M'hammad Benaboud, alors qu'il venait d'organiser un colloque sur le thème de "Tétouan du temps du protectorat" que je serais extrêmement heureux et honoré de prendre part à tout symposium sur Tétouan, y compris sur la préhistoire de la ville.

Donc cette ville me concerne, et si je n'avais pas de la sympathie pour elle et ses habitants, je n'écrirais rien sur elle, moi qui n'ai pas encore écrit une seule ligne sur ma propre ville natale, que j'aime pourtant à un point que vous ne sauriez deviner. Donc, celui peut-être présent parmi nous, qui prétend me donner une leçon sur le métier d'historien, peut garder ses opinions pour lui, dans le cas où il croirait que l'objectivité du chercheur dans les sciences sociales consiste pour lui à adopter une froideur de rigueur face à l'objet de son étude. et dans ce cas, il ne s'agirait rien d'autre que de tuer avant l'oeuf -je ne dit même pas "tuer dans l'oeuf"- la connaissance historique. Et si mon argument ne lui suffit pas, je lui ajouterais que le grand Piaget a expliqué admirablement dans quelle mesure l'action humaine quelle qu'elle soit, y compris la recherche scientifique, ne s'explique pas elle même, mais plutôt par l'affect. Et j'emploie exprès cette expression, pour bien marquer le coté primitif de ce qui détermine les actions humaines.

Et si le recours à Piaget ne suffit pas, je voudrais faire état à l'intention de mon contradicteur cette citation de Theodor W. Adorno une fois supprimée la dernière trace d'émotion, il ne restera que la tautologie absolue.[1] Commentant ces propos lumineux,

---

[1] - **Minima moralia,** Paris, Payot, 1980, p.118.

Michel Guérin fait observer ce qui suit : " Si la raison pouvait expliciter entièrement ses raisons, elle se supprimerait ipso facto comme telle, ou plutôt elle déboucherait dans le vide. Vider la pensée de sa charge " affective" reviendrait à l'acculer au désert"[2]

Mais que l'on s'entende bien "je ne fais pas ici l'apologie systématique du subjectivisme, tant il est vrai qu'il ne faut pas se laisser emporter par le courant de l'émotion, auquel cas il n'y aurait alors plus de connaissance possible. Ce que je veux marquer sans la moindre équivoque, c'est que lorsque l'émotion est vécue par le chercheur, non pas de manière primaire, mais en quelque sorte au second degré, en ce qu'il lui arrive non seulement de ressentir en lui même l'impact de celle-ci, mais également de la transcender, alors il n'y a plus de dérapage possible; au contraire, cette émotion a une vertu simulatrice. Mais phénomène tout à fait logique, il ne peut pas rester comme des petites miettes de cette émotion dans les développements de leur acteur, en vertu de ce que nous savons du "dépassement hegélien".

Et pour ne pas rester dans le vague des propositions précédentes, je voudrais prendre des exemples précis. Prenons exprès deux attitudes miennes opposées, une appréciative et une dépréciative.

Que j'aie montré de la sympathie pour Fkih Daoud ou pour Haj Ahmed Balafrej, cela n'a rien enlevé à l'objectivité vers laquelle s'étaient efforcées de tendre mes études les concernant. La sympathie déclarée de ma part à leur endroit était le stimulant de départ, sans laquelle je n'aurais rien écrit sur eux.

Que j'aie exprimé un jugement sévère sur l'attitude du P. R. N. relativement à son silence au sujet de l'enrôlement de Marocains dans les rangs des Franquistes, j'ai suffisamment montré que mon jugement était un jugement de fait et non de valeur. Et si mon faux ami ne veux rien comprendre à mes explications et bien tant pis pour lui.

Je voudrais m'excuser auprès de mes amis, les vrais qui n'auraient peut-être pas aimé que j'utilise cette tribune pour régler mes comptes académiques avec un camarade. Mais à la vérité, je n'aurais rien fait d'autre que recourir à mon droit de réponse. Mon confrère à utilisé un journal de large diffusion pour me faire une parodie de critique, par définition publique, et il est donc naturel que je lui réponde tout aussi publiquement.

Pour revenir à notre communication, nous devons spécifier que nous avons choisi la première moitié du XVIII$^{ème}$ siècle comme cadre de notre étude parce qu'il est opéré une sorte de concentration

---

2 - **L'affectivité de la pensée**, Arles, Actes-Sud, 1993, p. 20.

de la matière historique, comme par condensation.

Pour ce qui est par ailleurs des données que nous avons pu recueillir pour les besoins de ce travail, il nous faut indiquer qu'elles sont relativement abondantes et que nous n'allons nous en servir que d'une manière sélective. D'ailleurs, cette méthode se prête bien à l'objectif que nous avons assigné à notre communication, dans la mesure où nous ferons plus oeuvre, modestement du reste, de politologue que d'historien : pour dégager des régularités politiques significatives à partir de cette masse historique, il nous était nécessaire de rassembler autant d'informations que possible pour ne pas prendre le cas particulier pour le cas général. Nous avions écrit quelque part, et cela est un truisme, que des modèles du type "science politique" ne sont possibles que si on connaît bien la réalité historique, matrice indispensable pour toute analyse en matière de sciences sociales.

C'est dire que notre problématique est simple : il s'agit pour nous de nous appuyer sur l'histoire pour essayer d'élaborer une sorte de modèle au sujet de l'autonomisme et du pouvoir personnel qui ont caractérisé, au fil des âges, la vie publique à Tétouan en particulier, et dans sa région en général. C'est pourquoi il nous semble utile de remonter dans l'histoire pour essayer de montrer dans une certaine mesure en quoi cette espèce de particularisme tout au moins politique constitue comme une tradition ancienne. Ces développements constitueront la première partie de notre travail. Sur quoi, nous aborderons dans une deuxième partie la personnalité du caïd Ahmed Ben Ali au regard d'un certain nombre de facettes pertinentes pour notre propos, que nous évoquerons et détaillerons alors.

## I) L'autonomisme et le pouvoir personnel à Tétouan et dans sa région : une tradition ancienne perpétuée à travers les siècles ?

Lorsqu'on se penche sur l'histoire de Tétouan au XVIII$^{ème}$ siècle et même avant, surtout avant, l'on constate une chose très frappante, c'est que le destin de cette ville semble lié au plus haut point à une individualité déterminée, qui se trouve bien entendu être son autorité principale.

D'aucuns pourraient nous rétorquer d'entrée de jeu que ce phénomène n'est pas propre à la ville de Tétouan. Cela est vrai, mais il nous apparaît que cette confusion de destin en quelque sorte, entre une communauté et son chef, est encore plus poussée en ce qui concerne Tétouan.

Lorsqu'on ouvre la monumentale histoire de Tétouan de Mohammed Daoud, on lit que cette ville existait avant l'islamisation du Maroc[3]. Donc encore heureux qu'on n'aie pas posé dès l'abord que la ville a été fondée par quelque valeureux guerrier berbère ou autre. Mais peut être que ce fait sera historiographié un jour.

La suite de nos développements vous donnera la raison de cet amusement quelque peu narquois nôtre.

Autrement, aussi bien à la lecture de Tarikh Tétouan que des autres traités relatifs à l'histoire de la ville, qu'apprend-on sinon que celle-ci a été consubstantielle à travers les âges à toute une série d'individualités.

Fkih Daoud nous indique également que Tétouan existait du temps des Idrissides, ou du moins, continuait à vivre[4]. Quant au Fkih Rhoni, il avait carrément commencé sa liste des Gouverneurs, (caids et pachas) de Tétouan à travers les siècles par Sidi Al Mandri[5] (sur lequel nous reviendrons dans les lignes qui suivent ). Mais il est vrai que cet auteur, s'appuyant sur le célèbre Kirtas de Ibn Abi Zaraa, avait aussi signalé que Tétouan existait déjà du temps des Idrissides.

Le Fkih Rhoni ajoute qu'après certaines péripéties historiques, la ville périclita, jusqu'à ne plus être qu'un petit village. C'est alors, selon lui, qu'entra en scène le Roi mérinide Abou Yacoub Youssef Ben Abdelhaq, qui construisit en 1286-87 la Kasba de Tétouan, sachant que le neveu de celui-ci, Abou Tabit Amer Ben Abdellah Ben Youssef, entreprit sa reconstruction, en 1308-9, afin de faire d'elle un quartier général destiné à attaquer la place de Sebta qui était entre des mains ennemies[6].

Puis survient le tristement célèbre épisode de la destruction de la ville par le roi castillan Henri III, en 1400. [7]

---

3 - **Tarikh Titwan,** t.2, Publications de la Faculté des Lettres de Rabat et l'Institut Moulay el Hassan de Tétouan, 1963, p.37.

4 - Ibid., p. 64. Fkih Daoud ajoute que Tétouan fut détruite par les Idrissides en 960, Ibid., p. 66.

5 - **Historia de Tetuán,** Instituto General Franco de Estudios e Investigacion Hispano-arabe, Editora marroqui, 1953, p. 83.

6 - Ibid., pp. 25 -26 ; nous retrouvons la même information chez Mohammed Ben Azzouz Haquin, Mais celui - ci donne davantage de précision à cet égard " le sultan Abi Tabit Amer vécut son régne dans le nord du Maroc, de sorte qu'il créa en 1308 la ville de Tétouan " **Revue Titaouene,** n° 1, Août 1990, p.14 (traduction de l'auteur)

7 - Téodoro Ruiz de Cuevas, **Apuntes para la historia de Tetuán,** Tétuán, Editora Marroquíe, p.5.

Donc, on voit par cet inventaire initial que c'étaient des acteurs historiques déterminés qui faisaient et défaisaient à leur guise la ville.

On peut nous objecter, d'ailleurs à juste titre que cet état de choses n'avait rien d'original en ce que c'était le cas dans de très nombreux établissements humains. Mais attendons la suite pour nous prononcer.

Puis, semble-t-il, la ville resta dans son allègre état d'inexistence, jusqu'à l'arrivée de Sidi Al Mandri, le Sérénissime andalou, qui procéda, en 1483-85, à la reconstruction de la ville[8]. Dorénavant la ville blanche est attachée au nom de Sidi El Mandri, un individu, certes illustre, mais un individu en tout état de cause, un peu comme Fès l'est à Moulay Idriss, rejoignant dans une certaine mesure cette longue tradition humaine qui lie l'origine des villes à un saint, dont elles font d'ailleurs leurs saints-protecteurs.

Nous savons qu'on peut nous objecter que Sidi El Mandri n'était pas un saint au sens étroit du terme, ou pour employer un terme à l'honneur au temps des colonialismes, qui s'étaient abattus sur le Maroc, un marabout. Mais nous voudrions répondre à nos ineffables détracteurs éventuels que des actions illustres (actes de courage représentés par une résistance "chevaleresque" ou "héroïque" à l'ennemi valent presque à leurs auteurs des titres de sainteté, tout au moins à titre posthume. Écoutons d'ailleurs ce que dit à cet égard le Fkih Daoud : "Les historiens se sont accordés pour affirmer que le chef des andalous qui construisirent le Tétouan nouveau est le commandant (al caïd al-moujahid) Abou l'Hassan Ali Al Mandri, le Grenadin, un des chefs de Beni Al-Ahmar, et que c'est lui qui la gouverna étant demeuré le responsable du jihad dans sa région, jusqu'à ce qu'il décède et qu'il soit enterré à l'extérieur de Bab Al Mqaber. Et sa tombe est visitée jusqu'à présent. "[9]

Et comment peut-on encore visiter aujourd'hui une tombe d'un personnage, si ce n'est pas dans l'imaginaire populaire, pour bénéficier de sa "baraka"?

Et attendez, la liste n'est pas terminée, et nous n'en sommes encore qu'à la fin du XVème siècle. Et d'abord, nous n'en avons pas fini avec les Mandri, puisqu'il ne s'agit pas uniquement du "reconstructeur de la ville", mais également de la petite dynastie qu'il avait fondée, qui non seulement, comme son nom l'indique, gouverna Tétouan pendant un certain temps, mais le fit dans le cadre d'une grande autonomie.

---

8 - Mohammad Daoud, **Tarikh Titwan**, t.1, p.90.

9 - Ibid. même page (traduction de l'auteur).

Ainsi donc, cette espèce de chefferie individuelle transmissible d'un membre à un autre de la même famille, se voit renforcée par cette semi-indépendance vis à vis des sultans chérifiens qui gouvernaient alors le Maroc.

Assit Al Horra, un individu, et pas n'importe lequel puisqu'il s'agit évidemment d'une femme, s'est aussi illustrée également en tant qu'autorité suprême de la ville.

Qui était cette "dame de fer" de notre Tétouan moyen-âgeux ? Mais dites-moi quel droit a-t-on d'appeler ainsi cette cheftaine, qui incarnait peut être un pouvoir à visage humain, pardon féminin! Toujours est-il qu'elle est la propre fille du Prince Moulay Ali Ben Rachid, fondateur de la ville de Chefchaouen en 1471. Elle gouverna Tétouan de 1525 à 1542. [10]

Plus tard, un certain nombre d'individualités présidèrent au destin de la ville, mais nous n'allons pas les citer tous faute de place, préférant nous limiter à ceux qui à l'instar des Mandri fondèrent une véritable petite dynastie. Nous commencerons cette nouvelle liste par les Negssis, d'après le Fkih Daoud, les Negssis étaient des moujahidines tétouanis, dont l'autorité était transmissible d'un membre à un autre de la même famille. Grosso modo, presque tout le XVII$^{ème}$ siècle leur a appartenu, c'est à dire à peu près tout le XI$^{ème}$ siècle de l'Hégire.

Notre digne Fkih ajoute que cette famille de gouvernants était indépendante des Sultans du Maroc de l'époque[11]. Puis ce fut le tour d'une autre petite dynastie, composée plus ou moins comme les autres, de quelques membres, qui se sont transmis à travers les décennies le relais du pouvoir. Il s'agit de la Famille Riffi, et avec elle, nous allons enfin entamer ce sympathique XVIII$^{ème}$ siècle qui nous réunit dans ce non moins sympathique colloque.

## II. Le Caïd Ahmed Ben Ali, homme d'Etat, dans la première moitié du XVIII$^{ème}$ siècle.

Cette deuxième partie de notre travail se subdivisera en trois sections, traitant respectivement de l'appartenance du Caïd à une petite dynastie de potentats et de sa personnalité propre, de sa qualité d'homme politique puissant, à la fois au niveau du nord-ouest et du pays tout entier, et enfin du rôle diplomatique marqué que ce

---

10 - Mohammed Ben Azzouz Haquim, **Assit Al Horra**, Rabat, Imprimerie de la côte, p (en arabe).

11 - Mohammad Daoud, **Tarikh Titwan**, t; p, 173 et s.

personnage a joué dans le Maroc de la deuxième moitié du XVIIIème siècle.

Evidemment nous aurions pû ajouter d'autres sous-titres correspondants à des facettes particulières du caïd, telles que sa participation éventuelle à la course, mais pour que notre communication bénéficie de dimensions bienséantes dans les Actes du colloque, nous limiterons aux points évoqués ci-dessus. Nous avons éliminé sur ce registre des traits distinctifs du caïd, celui de moujahid, pour la simple raison que nous en avons écarté l'éventualité, ainsi que cela apparaît au travers des lignes qui suivent.

## A) L'appartenance du caïd Ahmed à une petite "dynastie" caïdale et sa personnalité propre.

### 1) L'appartenance du caïd Ahmed à une dynastie caïdale.

Avant d'entrer donc dans le vif du sujet, il nous importe d'abord de situer le personnage qu'était le caïd Ahmed ben Ali, à la fois pour ce qui est du fait qu'il appartenait au moins par son père à une famille de commandement et de celui qu'il hérita en quelque sorte de ce pouvoir, sachant que nous utiliserons pour caractériser cette situation le terme de "petite dynastie" sur quoi nous pencherons, sans quitter ce premier registre, sur la personnalité de ce célèbre caïd.

Avant toute chose, il convient de lever une équivoque attachée au nom de la famille de notre célèbre caïd. Nous savons certes qu'il porte celui de Riffi, mais nous ne sommes pas beaucoup avancé tant il est vrai que tout habitant du rif est dans ce cas. Pour y voir plus clair, nous avons eu recours d'abord à Fkih Rhoni qui a établi une sorte d'inventaire des chefs (caids ou pachas) de Tétouan depuis le XVème siècle. Nous trouvons notre caïd Ahmed Ben Ali à la seizième place, sur la liste ainsi établie par cet historien de la ville blanche, et cela sous le nom de Ahmed Ben Ali Al Hammami[12]. Celui -ci est précédé dans le même inventaire par son père, Ali Ben Abdallah Al-Hammami, lui même devancé par le cousin de ce dernier, Haddou Al-Hammami At-Temsamani Ar-Riffi. Et pour compliquer davantage le tableau, Chantal de la Véronne note dans

---

12 - **Apuntes para la historia de Tetuán**, Op.Cit., p.85.

l'introduction qu'elle a faite pour le récit de Joseph de León, qui a résidé au Maroc du temps de Moulay Ismael, que le caïd Ali Ben Adballah Riffi était un membre d'une famille "déjà influente dans le Rif, les Haddou"[13]. Et pour ceux qui ne se sont pas encore lassés de ces détails quelque peu confus, nous leur ajouterons que le même Fkih Rhoni appelle le fils de Haddou al Hammami, Omar "El Bettioui", qui à la tête d'une armée de moujahidine, dit-il, récupéra Mehdia en 1681"[14].

Mais trêve de complications et tenons-nous en au fait que ces trois personnages appartiennent à la même famille au sens large et que celle-ci s'appelle Ali Hammami-Riffi[15]. Il faut aussi souligner qu'une multitude d'autres auteurs qu'il serait fastidieux de citer ici se contentent du nom de Ahmed Ben Ali Riffi.

Quoi qu'il en soit, ce qu'il nous importe de retenir avant toute chose, c'est que nos trois personnages qui nous ont donné tant de fil à retordre pour ce qui est de leur nom, constituent une petite dynastie de chefs. Et c'est cela qui compte, pour reprendre ce que nous notions au début en rapport avec l'existence au travers des siècles de séries de chefs à Tétouan.

Le fondateur de cette dynastie des Hammami (ou Hamami) Haddou, est un chef rifain qui avec ses fils Omar et Ahmed, récupéra vers la fin du XVIII^ème^ siècle, à la tête d'une armée de moujahidine, Larache, Asila et Mehdia des mains des Espagnols. Salmon qui a dressé un bon tableau de cette famille des Hammami, nous apprend que Ahmed Ben Haddou a été nommé par Moulay Ismael à la tête des assiégeants de Sebta notamment, à la suite de la mort de Omar Ben Haddou, son frère, et que ce nouveau chef militaire a associé Ali Ben Abdellah, son cousin, au siège de Tanger occupé par les Anglais. [16]

La question qu'il nous faut poser est la suivante : est-ce que notre Ahmed Ben Ali était aussi un combattant de la foi ?

D'après Salmon, qui s'appuie sur "L'Anonyme de Fès" qui est un manuscrit célèbre qui n'a plus rien d'anonyme, le siège de Sebta qui était assuré par une armée placée notamment sous l'autorité de Ali Ben Abdellah, fut conduit à la mort de celui-ci, par son fils

---

13 - **Vie de Moulay Ismael, D'après Joseph de León**, Paris, Geuthner, 1974, p.18.

14 - **Historia de Tetuán,** p.85.

15 - En fait, même en tranchant la question par le recours à ce nom unique de Hammami, nous ne résoudrions pas le problème, car si Rhoni l'écrit avec 2 "m", Chantal de la Véronne, elle la transcrit avec un seul "m".

16 - **Archives marocaines,** t, II ; 1905 ; P, 25.

Ahmed. Mais par-delà les dates, ce qui compte pour nous, c'est cette affirmation de Salmon : "lorsque Ali ben Abdellah mourut en 1125 (1713) son fils Ahmed continua cette paisible campagne (le siège de Sebta) jusqu'en 1720"[17].

D'autres données dont nous ne pouvons faire état par faute de place, montrent que notre Ahmed ben Ali n'était pas un moujahid de la trempe de son père et du cousin de celui-ci. Nous savons certes qu'il entreprenait de temps à autres des attaques contre Sebta[18], mais c'était sans commune mesure avec le combat accompli à cet égard par son père et le cousin de celui-ci.

Toujours est-il que Ali Ben Abdellah avait été nommé par Moulay Ismael, Gouverneur des provinces septentrionales[19] comprenant Tanger, Tétouan, les Jbbala, le Rif occidental, le reste du Rif vivant semble t-il alors sous le régime de la siba. D'après Fkih Daoud, Ali Ben Abdallah a occupé ce poste durant plus de 30 ans[20]. Ali remplace son père dans le gouvernement de ces régions du nord[21]. Ahmed demeura à ce poste jusqu'en 1743.

Dans les autres sources que nous avons consultées, Ahmed Ben Ali est appelé indifférement gouverneur, caïd, pacha, voire les trois à la fois.

Nous supposons que pour le deuxième titre, les auteurs qui en ont fait usage, visaient peut être le commandement militaire, dont notre personnage était investi. Mais comme à l'époque et d'ailleurs même plus tard-jusqu'à l'orée du XXéme siècle-il régnait une confusion entre les notions de gouverneur et de caïd, il est fort probable que notre Ahmed Ben Ali était aussi caïd dans le sens de gouverneur du nord, du moins d'après certains auteurs.

Toujours est-il qu'il a été également Pacha de Tétouan, poste qui n'a pas été sans vicissitudes, que certains collègues s'évertueront certainement à expliciter.

Enfin, il convient d'apporter ici d'autres informations en relation notamment avec ce que nous notions à propos de la petite

---

17 - Ibid., p. 59.

18 - Chantal de la Véronne, **Sources françaises de l'histoire du Maroc au XVIIIème siècle,** t. 3, repris in **Revue d'Histoire Maghrébine**. n° 43 - 44, nov. 1986, pp.126 - 127.

19 - Salmon, Op.Cit., p. 65.

20 - **Tarikh Titwan,** t. II, p. 46.

21 - D'Après Chantal de la Véronne in **Sources françaises de l'histoire du Maroc**, repris in **Revue d'Histoire Maghrébine**, n° 43 - 44, p.127, Ahmed ben Ali gouvernait tout le nord du Maroc. Ce point reste donc à éclaircir.

dynastie des Riffi à laquelle a appartenu notre Ahmed Ben Ali. Si celle-ci a été horizontale puis verticale-étant donné le cousinage entre son père et le véritable fondateur de cette lignée de chefs, c'est à dire, Ahmed Ben Haddou, il reste qu'elle a été verticale et horizontale à la fois à partir de Ahmed Ben Ali, puique son frère gouverna Tanger, son fils ainé Larache, un autre fils Asila, sans compter que les charges du chateau étaient assurées par ses oncles et ses cousins. [22]

Ceci étant, il convient de consacrer quelques développements à la biographie et plus particulièrement à la personnalité de notre caïd -pacha-gouverneur.

## 2) La personnalité du caïd Ahmed

Pour ce faire, nous disposons d'un nombre assez important d'ouvrages, mais à la vérité, ceux-ci ne sont pas tous utiles, car un nombre infime d'entre eux ont été rédigés par des témoins oculaires. Parmi ces derniers, le capitaine anglais John Braithwaite, qui a accompagné le Consul Général Jean Russel, son compatriote, dans une mission diplomatique au Maroc en 1727. Le capitaine anglais affirme que Ahmed Ben Ali avait environ 45 ans, lorsqu'il le rencontra à Tétouan cette année là[23]. Un calcul simple nous révèle qu'il est né autour de 1682, et comme nous savons par ailleurs qu'il est mort en 1743, il a donc vécu à peu près 61 ans. Mais il ne s'agit là que d'une approximation. Et d'ailleurs, un autre témoin qui l'a approché également, John Windus, qui a fait partie de l'Ambassade anglaise au Maroc de Stewart, en 1721, affirme qu'il était alors âge de 40 à 50 ans[24], ce qui nous donne entre 62 et 72 ans.

Par ailleurs, voici la description qu'en fait Braithwaite : (il) "eut l'avantage de recevoir une éducation plus belle et une connaissance plus complète des Chrétiens[25] qu'aucun More en charge dans ce pays. Il a l'air noble et l'abord gracieux, il est d'une moyenne taille, mais bien proportionnée"[26].

---

22 - Salmon, Op.Cit., p. 67.

23 - **Histoire des révolutions de l'empire du Maroc depuis la mort du dernier empereur,** Amsterdam, Pierre Mortier, 1731, p. 66.

24 - **A Journey to Mequinez,** 1721, Londres, 1735, p. 66.

25 - Salmon, bon connaisseur de Ahmed Ben Ali, affirme : il avait été dès son jeune âge en relation avec des chrétiens, sous le gouvernement de son père à Tanger, aussi était-il considéré par eux comme le personnage le plus raffiné de l'empire, p. 65.

26 - Braithwaite, Op.Cit., p. 42.

Nous ne voulons pas tomber dans l'anecdote, mais nous ne pouvons résister à l'envie de noter que Braithwaite le décrit comme étant quelqu'un de très sobre, c'est à dire qui ne boit jamais d'alcool[27].

Salmon en complète en quelque sorte ainsi le portrait : "Il n'était pas d'une extrême bravoure et n'aimait guère à s'exposer en personne, ne tenait pas toujours sa parole et n'exécutait pas ponctuellement toutes ses promesses, mais il était encore un des plus honnêtes parmi les hommes d'Etat de son époque..."[28]. Cette citation appelle de notre part les remarques suivantes :

- Pour ce qui est du courage dont n'était pas doté tellement notre caïd, qui devait éventuellement ce titre à sa qualité de chef militaire (ce qui vide de sa substance celle-ci) nous ne pouvons nous empêcher de penser à la théorie khaldounienne de la naissance et de la mort des dynasties, sachant qu'à mesure qu'on avance dans le temps, les descendants des souverains-fondateurs d'Etats, d'empires ou autres lieux de puissance, perdent de leur vigueur, étant responsables de l'affaiblissement de ces derniers, par-delà la contradiction qui se dégage immédiatement des propos ci-dessus de Salmon, il faut souligner que Braithwaite avait affirmé que notre caïd ne tenait parole qu'à condition que cela ne fût pas contraire à ses intérêts[29].

Cette constatation ne prendra peut être son véritable sens qu'une fois que nous aurons fait valoir -dans les lignes qui suivent que le caïd était un homme d'Etat et qu'en tant que tel il devait peut-être user de faux-fuyants, voire de mensonges pour défendre les intêrets de son pays vis à vis des puissances étrangères. Mais à la vérité un tel état éventuel se complique dans la mesure où il y avait une certaine confusion entre les inérêts propres de Ahmed Ben Ali et ceux du Maroc. Nous espérons pouvoir démontrer cela plus loin.

Ce qui nous amène tout naturellement à la deuxième section de cette deuxième partie de notre communication consacrée au caïd Ahmed Ben Ali, potentat à la foi à l'échelle du nord -ouest et du reste du pays.

## B) Le caïd Ahmed, potentat à la fois du nord-ouest (ou du nord tout court, le cas échéant) et du reste du pays.

---

27 - Ibid., p.37.

28 - Salmon, Op.Cit., p. 65.

29 - Braithwaite, Op.Cit., p. 43.

Avant d'aborder ces deux points, il est une question préalable de pure méthodologie--qu'il convient de régler, c'est celle de l'articulation entre les deux qualités de notre Ahmed BenAli, mentionnées dans le titre de cette subdivision. En effet, faut-il les traiter ensemble, dans la mesure où elles entretiennent des relations organiques, où au contraire, séparément, parce qu-il n'y a pas de liens entre elles?

La question est d'importance. L'on pourrait supposer dans le premier cas que lorsqu'on était (au XVIIIéme siècle) un potentat local, l'on ne pouvait pas ne pas l'être également à l'échelle du pays, et dans le deuxième, que l'on pouvait parfaitement être un homme puissant sur le plan local, sans l'être à l'échelle du pays. Ne pouvant malheureusement résoudre ce problème, étant donné le cadre étroit que nous nous sommes prescrit pour l'élaboration de ce papier, nous ne pouvons donc que traiter séparément les deux qualités respectives de notre caïd -pacha-gouverneur, sachant que cette manière de faire nous est dictée par le seul souci d'essayer de bien structurer notre travail, sans conséquences sur les types de liens que nos deux variables sus-visées ont pu entretenir entre elles.

Quoi qu'il en soit, il nous faut indiquer avant de traiter les pouvoirs locaux ou nationaux de notre personnage, que nous disposons à cet égard d'une foule d'informations sur cette question, et que naturellement nous pouvons utiliser, étant donné la problématique de type "science politique" et nullement historique pour laquelle nous n'avons opté au début, que d'une manière très sélective.

## 1) Ahmed ben Ali, le potentat du nord

Une autre mise au point s'impose encore : nous allons nous contenter de vous proposer un certain nombre d'aperçus rapides qui n'ont pas d'autre raison d'être que de constituer des indices d'une réalité historique plus riche, mais qui ont au moins le mérite d'être révélateurs de cette dernière.

Nous préférons être laconiques au début, afin de nous ménager suffisamment d'espace pour une question à notre sens intéressante, que nous analyserons par la suite, et qui est la suivante : Ahmed Ben Ali était-il un feudataire?

Nous ne traiterons pas en détail les postes administratifs que notre personnage a occupés soit de jure soit de facto dans la zone nord. Tout ce qu'il nous faut souligner c'est qu'il a été l'homme fort de cette règion, fait qui illustrent les particularités suivantes, qui méritent d'être énumérées :

- outre ce que nous suggérions plus haut au sujet de moujahid éventuel qu'a été notre personnage, lequel était obligé, le cas échéant, d'entretenir une armée chargée de lancer des assauts contre l'ennemi (espagnol de Sebta), celui-ci disposait peut-être des mêmes forces militaires, qui guerroyaient pour la défence de ses intérêts propres, maitenant une espèce de pax ben aliana qui n'allait pas sans exactions contre les populations soumises à son autorité.

Ahmed Ben Ali se comportait un peu comme un seigneur de la guerre. A titre purement indicatif, Braithwaite nous fait savoir que notre personage était obligé de tenir garnison à ses frais de quelques centaines de abids, de 800 cavaliers et de plusieurs milliers de rifains[30].

Evidement, notre espèce de seigneur de la guerre mettait sur pied des armées autrement importantes, en d'autres circonstances.

-Pour bien marquer qu'il était un homme à poigne, et pour être en harmonie avec notre colloque portant sur le Tétouan du XVIIIème siècle- faisant d'une pierre deux coups- il nous faut préciser que les tétouanis eurent à subir de plein fouet son autorité oppressive, du temps où il était leur Pacha- avec des interruptions de reste et même une reprise[31]; d'où les vicissitudes que nous évoquions, d'ailleurs vaguement, au préalable.

- Elément fondamental de la puissance, la richesse peut-être soit la cause soit la conséquence des pouvoirs politiques conséquents qu'une autorité peut posséder. Cette constatation tombe sous le sens et elle s'applique à notre Ahmed Ben Ali. L'on sait qu'il a amassé une fortune considérable en se livrant à l'agriculture dans les plaines de l'Anjera et en faisant notamment le commerce des grains et des bestiaux avec Gibraltar[32].

Ceci étant, il nous faut nous pencher sur la question de savoir si Ahmed Ben Ali était un feudataire.

Sachant bien évidemment que la féodalité est attachée à des circonstances particulières de l'histoire de l'Europe occidentale, l'on peut nous reprocher de poser ici un faux-problème. C'est un point de vue que nous pourrions accepter. Mais qu'est ce qui nous empêche au fond d'approfondir la question?

Dans notre modeste cours d'histoire des institutions et des faits sociaux, nous avons fait valoir, arguments à l'appui, qu'on peut

---

30 - Ibid., p.14 et Salmon, p. 67.

31 - A. Yebbour Oddi, **Una ojeada sobre la historia de Tetuán y sus familias oriundas del Andalus**, Conférence prononcée le 17 - 5 - 1948 au Centro de Estudios Marroquíes, Tétouan, Imprimerie Al Mahdia, 1948, p.12.

32 - Salmon, Op.Cit. p.68.

parfaitement affirmer que la Chine ancienne a connu un régime féodal, au sens large. [33]

Alors, dans ces conditions, pourquoi n'en serait-il pas de même pour le Maroc des siècles passés?

Salmon, après avoir.affirmé que le gouvernement d'Ahmed Ben Ali rappelle "celui de tel ou tel duché Fancais du moyen-âge"[34], écrit ce qui suit : "A la faveur des troubles politiques, de l'affaiblissement de la discipline et du relâchement général des moeurs, un chef militaire a réussi à s'imposer dans une province éloignée du centre de l'empire. Appuyé sur un parti d'aventuriers rifains auxquels il distribue des fiefs, enrichi par ses exactions aussi bien que par le commerce et l'agriculture..., il a pu atteindre une indépendance presque absolue..."[35]

Voici entre autres un argument de taille plaidant pour l'application de la notion de féodalité à Ahmed Ben Ali : le morcellement de la souveraineté. Mais l'on nous rétorquera à juste titre d'ailleurs que la féodalité est caractérisée également par l'homme vassalique, qui est une relation de dépendance d'homme à homme, "un vrai contrat"[36] comme a dit Marc Bloch, qui insiste sur le caractère bilatéral de celui-ci : "Le seigneur, s'il manquait à ses engagement, perdait ses droits."[37]

L'on pourrait nous rétorquer aussi que les fiefs n'existaient pas véritablement au Maroc, en dépit de l'affirmation ci-dessus de Salmon. Voici un argument qui ne manque pas de poids, dans la mesure où l'attribution de fiefs en régime pleinement féodal s'effectuait d'une manière institutionnelle déterminée, à l'inverse du Maroc.

Mais cette citation suivante de Marc Bloch nous montre d'une certaine manière que le fief est peut-être une composante de la féodalité moins importante que le morcellement de la souveraineté : "Contemporains de la monarchie absolue, Boulainvilliers et Montesquieu tenaient le morcellement de la souveraineté, entre une multitude de petits princes ou même de seigneurs de villages, pour la plus frappante singularité du moyen âge. C'était ainsi qu'en prononçant le nom de féodalité ils pensaient tantôt principautés

---

[33] - Polycopié d'Histoire des Institutions et des faits sociaux, Faculté de Droit de Rabat, 1990, p.67.

[34] - Salmon, Op.Cit., p.64.

[35] - Ibid.

[36] - **La Société Féodale**, Paris, Albin Michel, Collection " l'Evolution de l'Humanité, 1968, p.617.

[37] - Ibid.

territoriales, tantôt seigneuries. Mais ni ces principautés, en fait, n'étaient des fiefs, ni toutes les seigneuries, en fait, n'étaient des fiefs, ni tous les fiefs des principautés ou des seigneuries. Il est permis de douter qu'un type d'organisation sociale très complexe puisse être politique, soit, si l'on prend " fief " dans toute la rigueur de son acception juridique, par une forme de droit réel, entre beaucoup d'autres...". [38]

Pourtant, Marc Bloch qui semble assurer dans les lignes précédentes quelque peu inintelligibles, surtout vers la fin, que la composante politique (morcellement de la souveraineté) et l'existence de fiefs formels doivent converger pour que la féodalité soit, dit à peine quelques lignes plus loin : " les mots. . . sont comme des monnaies très usées, à force de circuler de main en main, ils perdent leur relief étymologique. Dans l'usage d'aujourd'hui,"féodalité" et "société féodale" recouvrent un ensemble inbriqué d'images où le fief proprement dit a cessé de figurer au premier plan... A condition de traiter ces expressions simplement comme l'étiquette, désormais consacrée d'un contenu qui reste à définir, l'histoire peut s'en emparer sans plus de remords que le physicien n'en éprouve, lorsqu'au mépris du grec, il persiste à dénommer "atome" une réalité qu'il passe son temps à découper"[39].

Autant de réflexions auraient tendance à nous inciter à appliquer légitimement la notion de féodalité - au sens large il est vrai - au Maroc d'il y a quelques siècles.

Et ce qui nous conforte dans notre attitude, c'est que certains puissants de ce monde s'attribuaient des terres, l'équivalent de facto des fiefs féodaux qui existaient par le passé dans l'Europe occidentale.

Un autre argument plaidant en faveur de l'incarnation par notre Ahmed ben Ali et les siens d'un rôle féodal "c'est un certain caractère héréditaire des charges assumées par la petite dynastie que constituait sa famille. Son père était caïd , et ses fils l'étaient quoique dans une mesure moindre, ainsi que nous l'avons déjà vu. Mais quoi qu'il en soit, ce fut parce qu'il était un grand chef qu'il imposa des proches à des postes de commandement. A noter ici tout particulièrement que ce fut lui qui nomma son frère gouverneur de Tanger.

Par ailleurs, comme illustration des faveurs qu'un suzerain fait à son vassal, il y a lieu de rappeler que le roi Moulay Ahmed

---

[38] - Ibid., p.13.

[39] - Ibid.

Eddahbi lui envoya un corps de abids comme garde personnelle [40].

Enfin, last but not least, on peut supposer que le régime politique et social du Maroc de l'époque était féodal au sens large, dans la mesure où le morcellement de la souveraineté en vigueur alors chez nous, est l'élément le plus important de ce régime.

## 2) Ahmed Ben Ali, potentat à l'échelle de la nation

L'idée centrale devant déterminer nos développements dans cette rubrique est que le Maroc de notre Ahmed Ben Ali a été celui de l'anarchie. En effet, n'oublions pas que la mort de Moulay Ismael en 1727 a été le début d'une trentaine d'années d'anarchie, favorisée tout à la fois par la quasi dictature exercée alors par les abids de même que les incessantes luttes pour le trône entre ses divers fils.

Les lignes qui suivent vont précisément montrer dans quelle mesure notre personnage s'est "positionné", comme on dit aujourd'hui, sur l'échiquier en quelque sorte renversé du pays, et comment également les troubles qu'il y avait alors au Maroc, ont fait de lui une figure politique nationale.

Ici encore, nous sommes obligé de concentrer nos propos autant que possible. Ceci étant fait, voici les idées que nous avons retenues pour les besoins de cette subdivision :

Ahmed Ben Ali a été plus ou moins un faiseur et un défaiseur de rois dans cette période trouble. Il a été ainsi partie prenante dans les rivalités sanglantes pour le trône intervenues entre les fils de Moulay Ismael. C'est ainsi qu'on le vit imposer aux abids la proclamation du roi Al Mostadi ; ce fut chose faite en 1738. [41]

Chantal de la Véronne nous précise que le concours de Ahmed Ben Ali Mostadi n'était pas sans arrières pensées : (il) soutenait ce dernier prince, mais de façon à ce que les deux frères (Al Mostadi et Moulay Abdallah, supplantés), occupés à lutter l'un contre l'autre avec des forces égales, lui abandonnent le territoire dont il avait le gouvernement, c'est à dire la région de Melilla jusqu'à Larache". [42]

- Puis Al Mostadi étant écarté du trône, en 1740, par son frère Moulay Abdallah, qui entamait alors sa troisième période de règne, notre Ahmed Ben Ali fit en 1742 la paix avec les Espagnols de Sebta notamment, événement sans précédent de la part d'un homme d'Etat

---

40 - Ibid., p. 59.

41 - Chantal de la Véronne, **La vie de Moulay Ismael**, p.16.

42 - Ibid, p. 17.

marocain assiégeant les présides. Le but en était pour notre personnage d'assurer ses arrières au nord, afin d'intimider Moulay Abdallah et de l'amener à se démettre de son trône au profit de son frère Al Mostadi. Il lança à cette fin son armée en direction de Fès. Moulay Abdallah tenta de le convaincre de faire marche arrière, en lui promettant qu'il resterait gouverneur du nord, sans compter d'autres avantages pour Al Mostadi.

Mais notre Ahmed ben Ali ne voulait pas en démordre : il avait bel et bien l'intention de chasser Moulay Abdallah de Fès. Des combats eurent lieu entre les deux parties. Le 6 août 1743, il y eut une ultime attaque de Ahmed ben Ali contre les forces du Souverain, mises en déroute. Le potentat rifain fut tué, apparemment par un des siens, en pleine bataille. [43]

- Etant donné sa puissance, Ahmed ben Ali aurait pu être roi, de l'avis de certains observateurs. Parmi ces derniers, citons Braithwaite, ce témoin oculaire de certains faits et gestes de notre personnage : "tout le monde convient qu'après la mort du dernier empereur (Moulay Ismael), le Bacha Hamet (Ahmed ben Ali) aurait pu se faire Souverain des Provinces dépendantes de son gouvernement, s'il avait eu moins de dureté, plus de courage et moins d'avarice". [44]

Quoi qu'il en soit, il se présentait en son temps comme le deuxième personnage de l'Etat, après le roi.

S'il n'a pas été roi, ou du moins s'il ne s'est pas proclamé lui même tel, il a été au moins apparenté par alliance à certains rois. Il a été notamment le beau-frère de Moulay Ismael qui avait épousé entre autres femmes une de ses soeurs[45], le beau- père de Mohamed Ben Arbiya, ce fils de Moulay Ismael qui n'a d'ailleurs pas gouverné longtemps.

- Ahmed ben Ali a été un grand de ce monde, certes, mais il l'a été uniquement dans son fief. Sa puissance avait beau déborder le territoire de son gouvernement, pour les raisons qui tenaient à sa volonté de jouer un rôle politique à l'échelle de la nation, que nous avons déjà évoquée plus haut, il n'en demeure pas moins vrai que son pouvoir trouvait ses limites dans les murs du palais du roi. Témoin la crainte qu'il a éprouvée lorsqu'il a été convoqué à Meknes par le roi Moulay Ali, en 1735. Ayant eu peur de subir un sort peu enviable, notre personnage se réfugia à Tanger. [46]. Si nous avions

---

[43] - Ibid.

[44] - Braithwaite, Op.Cit., p. 45.

[45] - Windus, Op.Cit., p.90.

[46] - Chantal de la Véronne, "Les sources françaises de l'histoire du Maroc au

à résumer à l'emporte-pièce cette situation du potentat local qui ne se rend jamais auprès de sultan sans de très grandes appréhensions, nous dirions : potentats étaient des lions chez eux et des agneaux craintifs au palais du roi. Windus a assisté en 1721 à l'audience que Moulay Ismael a accordée à Ahmed Ben Ali. Voici son récit y afférent, en bref : "The Emperor speaking to the Basha of Tetuan, the latter prostrated himself upon the Earth and kissed at his Horse's Feet, and arising went upon the Emperor and kissed his foot. "[47]

Et d'ailleurs, Moulay Ismael reprochant à Ahmed ben Ali de s'être très mal défendu contre les Espagnols de Sebta, qui avaient écrasé son armée, le frappa à cet égard d'une amende de 300 quintaux d'argent, sans compter que notre pacha-caïd-gouverneur s'était présenté au Souverain muni d'un cadeau somptueux à l'intention de ce dernier, composé d'or, d'argent, de marchandises, de centaines de jeunes chevaux, etc...[48]

Par ailleurs, ces potentats locaux avaient tant à se reprocher, non seulement au plan des exactions qu'ils commettaient sur leurs administrés, mais également et surtout à celui des pouvoirs qu'ils s'arrogeaient, trop exorbitants aux yeux des Souverains, qu'ils devaient nécessairement ressentir une très grande peur à se rendre auprès de ces derniers.

Pour terminer ces développements sur une note littéraire de bonne facture, nous dirions que si déjà une personne a peu ou beaucoup à craindre d'elle-même, en raison de ces "innombrables causes qui plongent continuellement un homme dans la boue, s'il n'y prenait garde"[49], comme dit Henri Michaux, qu'en serait-il de ces potentats locaux dont l'histoire du Maroc des temps passés a été particulièrement foissonnante, et qui ont été pour le moins de véritables malfaiteurs.

## C) Ahmed Ben Ali, diplomate de haut rang dans le Maroc de la première moitié du XVIIIème siècle

Nous sommes en possession d'un grand nombre de

---

XVIIIème siècle", **Revue d'histoire Maghrébine**, n. 43 - 44 novembre 1986, pp.142 - 143.

47 - Windus, Op.Cit., p. 98.

48 - Ibid.

49 - **Un barbare en Asie,** Paris, Gallimard (Collection l'Imaginaire) 1992, p. 20.

documents relatifs aux activités diplomatiques d'Ahmed Ben Ali, et bien entendu nous ne pouvons être que sélectif à leur endroit.

Mais si nous avions à résumer ces dernières, sans risque de beaucoup nous tromper, nous dirions qu'il était une sorte de Ministre des Affaires Etrangères des différents rois qu'il a servis, soit Moulay Ismael et ses fils, nombreux, qui se sont d'ailleurs entredéchirés pour lui succéder après sa mort. Nous traiterons successivement sous cette rubrique les points suivants :

-Le côté un peu formel des charges diplomatiques qu'assumait Ahmed Ben Ali.

- Ahmed Ben Ali dans l'exercice de ses activités diplomatiques.

- Le détournement par Ahmed Ben Ali de ces mêmes activités, pour la promotion de ses intérêts propres aussi bien matériels que politiques.

- Et enfin, le rôle en quelque sorte de capitale consulaire - avant Tanger - que Tétouan a joué au XVIIIème siècle.

## 1) Le côté un peu formel des charges diplomatiques de Ahmed Ben Ali.

A titre d'illustration unique, une lettre de Moulay Ismael à Ahmed Ben Ali, en date du 8 juillet 1734, charge celui-ci des négociations avec l'Ambassadeur anglais Solicoffre au sujet du rachat de captifs. Nous ne disposons que de la traduction en espagnol de cette lettre. En voici un extrait pertinent : ".. Nos Ilego su carta y la léimos y entendimos su contendio, y todo por quanto vino[50] y quanto desea le sera contenido conforme las reglas y costumbres, y quanto a la redempcion y el hablar por los christianos, sera conforme estava acostumbrado en el tiempo de nuestro difunto padre.

Y Quando Ilegara el Embaxador a nuestra corte, lo bolveré a tus manos para tratar y ajustar todo, tanto por lo demas...". [51]

Cette lettre de Moulay Ismael comporte une mission diplomatique pour notre Ahmed ben Ali. Elle est ponctuelle, c'est-à-dire bien évidemment qu'elle ne constitue nullement un mandat universel. Mais l'œuvre accomplie en la matière par notre personnage dépasse largement les limites de la lettre ci-dessus du

---

50 - L'Ambassadeur anglais.

51 - Chantal de la Véronne, "Les sourses françaises de l'histoire du Maroc au XVIIIème siècle", in **Revue d'Histoire Maghrébine.** n° 25 - 26, juin 1982, p. 32.

grand roi Alaouite. Naturellement on pourrait trouver dans les archives d'autres missions ponctuelles. Mais là n'est pas notre propos, car ce que nous voulons montrer au contraire, c'est qué en dépassant ces limites, notre personnage agissait soit en service commandé en quelque sorte, soit de son propre chef.

Comme le titre de cette division l'indique, nous traiterons dans les lignes qui suivent du premier cas, sachant que le deuxième sera abordé juste après.

## 2) Ahmed Ben Ali, diplomate officiel, ministre des Affaires étrangères plus au moins explicite du Royaume

L'exemple précédent relatif à la négociation avec l'Ambassadeur anglais au sujet du rachat de captifs n'est qu'un exemple parmi d'autres, dans la mesure où l'histoire nous a conservé des archives très nombreuses sur le rôle que notre Ahmed Ben Ali a joué en la matière, et cela avec nombre de puissances étrangères, naturellement concernées par le phénomène. [52]

Ce qui signifie que nous n'allons pas parler ici de ce problème, préférant changer de sujet.

Nous aurions pu parler de l'action diplomatique accomplie par notre personnage, au plan des relations disons politiques avec certaines puissances européennes. [53] Mais après réflexion, nous avons opté pour les relations commerciales du Maroc avec ce pays que les liens y afférents étaient alors conséquents.

Léon Godard nous apprend à la lettre ce qui suit, "en 1665, L'Angleterre avait obtenu le renouvellement de quelques privilèges acquis dès 1585, mais ils ne furent concédés en forme de traité qu'en 1721, sous George 1er. Une convention en 15 articles fut signée à Fès le 23 janvier, fin de Rabia I, par Charles Stewart et Albumazar.[54] Moulay Ismael déclare qu'un navire anglais arrivé dans un port du Maroc avec une cargaison impossible à vendre dans ce port, peut la transporter dans un autre sans payer de nouveaux

---

52 - Il faut se reporter notamment aux **Sources françaises de l'histoire du Maroc au XVIIIème siècle**, fourmillantes de ce type de documents.

53 - N'était le manque de place, nous aurions abordé le rôle de Ministre des Affaires étrangères joué par Ahmed Ben Ali dans les négociations menées entre le Maroc et la France en vue de la conclusion d'un traité. Voir notamment sur ce sujet Chantal de la Véronne, **Documents inédits l'histoire du Maroc. sources françaises,** Paris, Geuthner, 1975, 70 pp.

54 - Nous n'avons pu identifier cette autorité.

droits. Les Anglais auront un cimetière à eux là où ils sont établis, et ils peuvent librement voyager par terre. L'empereur seul jugera le cas d'une dispute entre un Anglais et un musulman...". [55]

Le même Godard note : Tandis que le Maroc était en révolution et divisé entre les deux chérifs, John Russel, consul général d'Angleterre au Maroc, retenu à Tétouan, eu beaucoup de peine à négocier un traité qui fut signé le 14 janvier 1728, 1111. Ce traité complète celui de 1721 : Les marocains maures ou juifs sont autorisés à séjourner un mois à Gibraltar et à Mahon, quand ils reviennent pour le commerce, les sujets anglais au Maroc relèvent du consul et non du cadi, etc...[56]

Chantal de la Véronne, évoquant semble-t-il avec plus de précision ces deux traités de commerce maroco - anglais, note : "Le traité anglo-marocain de Meknes... de 1721, sera maintes fois repris comme base pour les futurs traités par les autorités anglaises. Les articles additionnels apportés à ce traité par John Russel, en 1728, seront au nombre de six ; ils précisaient ou complétaient les quinze articles antérieurs... [57]

Ces deux faits historiques bruts, en vérité, ne nous intéressent pas en eux -mêmes autant que nous tient à coeur le rôle éventuel que notre Ahmed Ali y aurait joué.. Godard est cependant muet sur cette question, à l'inverse de Chantal de la Véronne, ainsi que nous le verrons plus loin.

Or une simple référence à Charles Stewart et à John Russel, et à leurs missions respectives au Maroc, en 1721 et en 1727-28, nous renvoie automatiquement, ainsi que nous l'avons déjà dit auparavant, à notre Ahmed ben Ali, qui a été leur interlocuteur. . Mais de là à prouver que c'est lui qui a mené toutes les négociations commerciales avec eux, en vue des deux traités précités, il ne faut pas aller trop vite en besogne. .

Nous pensions trouver des éléments de réponse à cet égard dans l'ouvrage de Dominique Meunier : "Le consulat anglais à Tétouan sous Anthony Hatfeils (1728), négociant anglais, qui y a résidé de 1715 à 1729 et qui y a été consul de son pays de 1717-

---

55 - **Description et Histoire du Maroc,** Paris, Tanera, 1860, pp. 523 - 524.

56 - Ibid. p. 537.

57 - Dominique Meunier, **Le consulat anglais à Tétouan sous Anthony Hatfeild (1717-1728)** préface par Chantal de la Véronne publications de la **Revue d'Histoire Maghrébine**, vol.4, Tunis, 1980, p. 11.

Pour ces articles additionnels, ibid. même page. Et pour l'intégralité du texte du traité de 1728, Braithwaite, pp.340 - 343.

1728[58], mais en vain. Il faut croire que les négociations et la conclusion des deux traités de commerce maroco-anglais, qui datent rappelons le, de 1721 et de 1728 respectivement, et qui coincident donc tout à fait avec la mission de Hatfeild, ont été menées par des plénipotentiaires exprès pour cette affaire.

Mais un simple coup d'oeil dans le tome II des "Documents inédits sur l'histoire du Maroc, sources françaises" nous apprend que le traité commercial de 1721 a été signé, côté marocain, par Ahmed Ben Ali. [59]

Quant à celui de 1728, Braithwaite nous indique qu'il a été également conclu par Ahmed Ben Ali, pour le compte du Maroc[60].

## 3) Le détournement par Ahmed Ben Ali de la diplomatie à des fins propres

La confusion entre les intérêts publics et les intérêts privés chez les agents de l'administration de l'Etat ne date pas d'aujourd'hui. Et il est aussi banal de le souligner que d'ajouter qu'elle a été constante dans l'histoire de l'homme, avec toute fois plus d'exagération dans les temps anciens qu'actuellement" Et Ahmed Ben Ali n'a pas fait exception à cette quasi- règle.

Pour démontrer notre affirmation précédente, nous nous contenterons de nous fonder sur les relations privilégiées qui existaient entre notre personnage et les Anglais de Gibraltar, sachant qu'il a pu également le cas échéant profiter des relations diplomatiques qu'entretenait alors le Maroc avec d'autres pays occidentaux, pour promouvoir ses intérêts personnels.

Nous avions noté au préalable que le caïd -pacha- gouverneur devait son immense fortune notamment au commerce florissant qu'il faisait avec Gibraltar.

Mais le commerce entrait dans le cadre de relations plus larges, que nous allons expliciter dans les lignes qui suivent. Ainsi que le suggère Salmon, ce commerce, dont le commissionnaire était un juif de gibraltar, Benider, "favorisait naturellement l'existence de rapports cordiaux entre le gouverneur de Gibraltar, qui envoyait fréquemment son escadre à Tanger" En revanche, la garnison anglaise fournissait au pacha de la poudre et des bombes pour son artillerie, e et lui apportait une aide Considérable dans ses luttes

---

58 - Ibid.

59 - Chantal de la Véronne, Paris, Geuthner, 1984, p.81.

60 - Braithwaite, Op.Cit., pp. 340 - 343.

contre Tétouan". [61]

Nous avions à deux reprises laissé entendre que le pouvoir que Ahmed Ben Ali exerçait en tant que pacha sur la ville blanche ne s'est pas fait sans vicissitudes, étant persuadé que quelques collègues traiteront de cette question en profondeur... Mais afin que cette aide anglaise dont notre personnage a bénéficiée dans ses luttes contre les tétouanais, ne reste pas vague dans notre papier, il nous faut préciser, du reste sommairement, que ce dernier a occupé le poste de pacha de Tétouan avec des interruptions et qu'il existait entre lui et cette ville, conduite par un autre chef, Omar Loukache, une sorte d'inimitié historique[62].

En bref, Ahmed Ben Ali, était comme le disait Salmon "soutenu en sous- main par une puissance européenne "[63], en l'occurrence les Anglais de Gibraltar.

## 4) Tétouan était-il avant la lettre une sorte de capitale consulaire du Royaume ?

Nous espérons que ce papier a montré que Tétouan, de par la présence dans ses murs de Ahmed Ben Ali, lequel se comportait un peu comme le ministre des affaires étrangères, a joué dans une large mesure, dans cette première moitié du XVIIIème siècle, le rôle de capitale diplomatique du pays.

Cette ville a vu notamment l'installation chez elle du consulat anglais de 1717 à 1728, à une époque où le Maroc et l'Angleterre pouvaient parfaitement se trouver des affinités politiques du simple fait qu'ils avaient un ennemi commun, c'est à dire l'Espagne.

Mais en vérité les choses étaient plus compliquées que cela car les déchirements entre les fils de Moulay Ismael après la mort de ce dernier, étaient tels que l'un d'entre eux pouvait facilement rechercher l'aide des Anglais de Gibraltar pour écarter un rival. Cela fut le cas d'El Mostadi[64]. Mais là n'est pas notre propos.

Toujours est-il, pour revenir à notre sujet, que peut-être Tétouan aurait pu jouer ce rôle de capitale consulaire du Maroc, mission que remplira Tanger quelques dizaines d'années plus tard.

L'on pourrait disserter sur les raisons pour lesquelles Tétouan

---

61 - Salmon, Op.Cit., p. 69.

62 - Il est à signaler d'ailleurs que ce Omar Loukache l'a supplanté dans son poste de pacha de Tétouan.

63 - Salmon, Op.Cit., p. 64.

64 - Ibid., p. 69.

n'a pas été choisie pour cette fin. Mais peut-être une des causes les plus importantes de cet état de fait tient à ce que la ville blanche ne donne pas directement sur la mer.

L'histoire nous a conservé beaucoup de ces rivalités virulentes entre des couples de villes importantes voisines, Rabat - Salé, Fès Meknes, Tétouan - Tanger.

Et à propos de Tétouan - Tanger, Ahmed Ben Ali a été pour quelque chose dans ces scissions, sans compter que les tétouanis n'ont pas été non plus tendres avec lui. Ils lui ont notamment détruit son palais, qui se trouvait dans leurs murs.

Nous ne savons pas si du temps où Tanger à commencé a abriter de plus en plus les consulats étrangers, jusqu'à devenir la capitale consulaire du Maroc (titre qu 'on lui a donné bien entendu après coup) quelques voix se sont élevées dans la ville blanche pour regretter que leur cité n'ait pas été choisie à cette fin en lieu et place de Tanger. Peut-être que des manuscrits anciens font état de ce mécontentement des tétouanis.

## Conclusion

Nous espérons avoir mis en évidence dans notre modeste communication l'esprit d'indépendance dont Ahmed Ben Ali a fait preuve vis-à-vis du pouvoir central. Nous avons vu que même la diplomatie qui en principe pouvait parfaitement ne pas entrer dans la problématique de notre papier, axé principalement sur l'autonomisme et le pouvoir personnel d'un chef du nord au XVIIIème siècle, l'a aidé dans son entreprise d'auto-renforcement et partant de particularisme politique.

Nous avons même soulevé le problème de savoir si Ahmed Ben Ali n'était pas en fin de compte un feudataire au sens large, et nous avons répondu par l'affirmative, sans toutefois en avoir la certitude absolue, car l'on ne peut pas résoudre la question aussi facilement que nous l'avons fait.

Par ailleurs, ce cas d'élévation de potentats locaux n'était par ailleurs sûrement pas isolé au Maroc de l'époque, et l'on pourrait essayer de faire d'autres monographies pour d'autres régions.

Enfin, nous nous demanderons, et notre question à cet égard serait peut-être sans objet, pourquoi le nord au sens large (de Tétouan à Oujda) a produit beaucoup de chefs particularistes ou plutôt autonomistes ? ou en tout cas un peu plus que la moyenne nationale, si nous pouvons nous exprimer ainsi.

Nous pensons en particulier à Raissouni, à Mohammed Ben Bachir Ben Messaoud, et il y en a sûrement d'autres.

# Tétouan devant la conscience des rédempteurs, des captifs et des voyageurs européens au XVIII^ème^ siècle

Boussif Ouasti
(Faculté des Lettres de Tétouan)

Au-delà des consuls, des ambassadeurs et des négociants, la ville de Tétouan était visitée au XVIIIème siècle par les rédempteurs, les captifs et les voyageurs européens.[1] Elle occupait à ce titre une place non négligeable dans les écrits de ces voyageurs occasionnels, officiels ou forcés.

Nous avons sélectionné d'un grand corpus certains auteurs en tenant compte du critère de la représentativité et des contraintes des autres communications des participants à ce colloque.[2] Notre

---

[1] - Cf. à ce sujet:H.de Castries, **Sources inédites de l'histoire du Maroc,** Paris, Geuthner, 1927.

**Agents et voyageurs français au Maroc**, Paris, Leroux,1913.

C.Pens, **Personnalités et familles françaises d'Afrique du Nord. Maroc,** Paris, S.A.G.F.,1948.

P.Masson, **Histoire des établissements du commerce dans l'Afrique barbaresque,** Paris, Hachette, 1903.

R.Lebel, **Les voyageurs français du Maroc. L'exotisme marocain dans la littérature des voyages,** Paris, Larose, 1936.

[2] - Nous avons travaillé sur le corpus suivant:

- M.Berg,**Description de l'esclavage barbaresque dans l'empire de Fès et au Maroc,** Stockhom, L.L.Grefing, 1757.
- Braithwaite, (Capitaine), **Histoire des révolutions de l'empire du Maroc depuis la mort du dernier empereur Muley Ismaël,** Amsterdam, Pierre Mortier, 1931.
- Moette, **Histoire de la captivité du sieur Mouette dans les royaumes de Fès et du Maroc,** Lyon, 1683,in-12.

**Relation en forme de journal de voyage pour la rédemption des captifs aux royaumes de Maroc et d'Alger pendant les années 1723-1724-1725,** (collectif), Paris, 1726, in-12.

**Relation de ce qui s'est passé dans le royaume de Maroc, depuis l'année 1727, jusqu'en 1737,** (anonyme), Paris, Chaubert, 1742.

- J. Potocki, **Voyage dans l'empire du Maroc,** Paris, Fayard, 1980.

Nous avons retranché notre étude sur Potocki car elle a fait l'objet d'une

objectif serait une sensibilisation des chercheurs à ce sujet en leur fournissant quelques jalons et voies de recherches susceptibles d'être traités avec plus de détails dans des études ultérieures.

Il ne serait pas inutile de rappeler de manière succincte et indicative le champ de recherche qui reste à notre connaissance sinon vierge, du moins évoqué de façon superficielle et partiale; nous pensons notamment aux travaux de Roland Lebel sur les voyageurs français et anglais au Maroc et de Charles Pens, sur les captifs français aux XVIIème et XVIIIème siècles.[3] Sans souscrire à un travail essentiellement historique, nous nous interrogeons, en tant qu'historien de la littérature, sur le fonctionnement et la fonctionnalité de ces textes, loin de toute illusion référentielle.[4]

Tétouan constitue une étape incontournable dans l'itinéraire des récits des captifs et des rédempteurs, comme ville d'accès au Maroc ou de sortie de terre de l'Islam. Elle servait également de marché aux esclaves capturés en Algérie, en Tunisie ou au Maroc. Plusieurs marchands juifs et protestants, qui y vivaient, servaient d'intermédiaires entre les Pères rédempteurs et les autorités tétouanaises et Marocaines, dans l'affaire des négociations des captifs qui commençaient déjà à Cadix. Cette ville réputée par ses matemores servait de zone d'initiation, soit aux captifs soit aux rédempteurs.

Le problème des captifs est à la fois politique et culturel. Pour les gouvernements marocain et français, les captifs des deux pays ont largement contribué au rapprochement des deux pays en les opposant.[5] Les négociations légendaires de la captivité entre Meknès et Versailles, par l'intermédiaire des ambassadeurs respectifs, fournissent un exemple des plus probants sur les relations entre le Maroc et l'Europe. Même si le problème de l'esclavage semble être résolu en 1757, il n'en demeure pas moins que les captifs existaient jusqu'à la fin du siècle des Lumières et

---

communication à part par une collègue. Pour les textes en espagnol, nous nous sommes contenté de laisser ce soin aux différents intervenants en langue espagnole.

3 - Ces ouvrages s'inscrivent dans les travaux de l'Ecole des Hautes Etudes Marocaines à Rabat, instaurée par Lyautée, dont les présupposés ne sont plus à démontrer.

4 - Cf. à ce sujet l'introduction de notre thèse d'Etat:
B. Ouasti, **Images (s) du pays des Pharaons dans le récit de voyage égyptien de Denon à Nerval (1802-1850),** Thèse d'Etat soutenue devant l'Université de Fés, 1991.

5 - Cf. C. Pens, **Les captifs français du Maroc au XVIIIème siècle**, Rabat, Imp. Officielle, 1944.

leur retentissement nourrit sans cesse la littérature orientale.[6]

La captivité qui était affaire privée était vite devenue affaire d'Etat, dans la mesure où elle fournissait tout d'abord le dixième de la prise des corsaires au sultan comme dîme régulière, puis la moitié en sa qualité de propriétaire du bateau. Elle servait par la même occasion à pourvoir les bateaux marocains et européens en chiourme, tout en permettant des mesures de représailles utilisées par les pays respectifs en vue de l'établissement des traités de commerce.

Sur le plan culturel, les captifs européens, une fois retournés à leur pays natal, avaient répandu une image de leur pays par divers moyens : processions triomphales du retour des captifs allant à pied de Marseille à Paris à titre d'exemple, récits oraux et écrits exotiques soutenus par le pouvoir, dans le but d'édifier l'opinion publique, sur un pays quasiment inconnu en Europe et ne faisant point partie de l'Empire Ottoman, parangon de l'Islam dans l'imaginaire occidental.

La course salétine et tétouanaise[7] trouve sa force dans un esprit de vengeance contre les Espagnols des Maures expulsés d'Espagne et de France :

"Il faut distinguer au moins deux catégories de Maures ou Moriscos : les Andalous et les Hornacheros, ceux-ci plus riches que ceux-là, et plus entreprenants. Les Hornacheros venaient d'Estrémadure; ils apportaient au Maroc tous leurs instincts pillards et batailleurs qui leurs avaient permis de tenir tête à Philippe II; même ils avaient obtenus de lui le droit de porter les armes. Désormais installés à Salé-le-Neuf [...] les Hornacheros vont acheter des vaisseaux et organiser la course. La Hollande leur fournira les navires dont ils auront besoin, et leurs équipages seront composés de façon hétéroclites : très peu de vrais marocains, mais des pirates internationaux, et des esclaves surveillés par quelques Moriscos. Leurs entreprises, par un désir de vengeance très compréhensible, sont dirigée surtout contre l'Espagne".[8]

---

[6] - Le Docteur Lemprière espère libérer des captifs anglais en échange de ses soins au fils de l'empereur Sidi Mohammed Ben Abdallah à la fin du XVIII[éme] siècle.

[7] - La course salétine a été étudiée, alors que celle de Tétouan reste à faire:
R.Coindreau, **Les corsaires de Salé,** Paris, Soc. d'Ed. Géo. Mar. et Col.,1948.
P.Cosse, **Histoire de la piraterie,** Paris, Payot, 1933.
**Los corsarios berberiscos. Los Piratas del Norte,** Paris. Madrid, Espasa-Calpe, 1947.

[8] -C. Pens, **Les captifs français...** , Op.Cit.,p.11.

S'explique ainsi le zèle réitéré des religieux qui rivalisent de charité pour racheter les captifs européens. Les bateaux des corsaires étaient équipés en grande majorité des munitions récupérées durant la piraterie et par un équipage et des matelots composés souvent de renégats et de galériens. Les captifs parqués à Fès, Meknès, Rabat, Salé ou Tétouan, fournissaient également une main d'oeuvre gratuite et bonne à tout faire : chiourme, pilotes, chirurgiens, scribes, bourreaux, Caïds, mignons, concubines, épouses exotiques... En outre, ils constituaient une valeur marchande pour leurs propriétaires, les consuls, les intermédiaires juifs et huguenots... Les transactions passent par tout un imbroglio de machinations où s'affrontent l'avidité des rançonneurs arabes et européens et la parcimonie des rédempteurs soucieux de racheter un maximum de captifs avec l'argent ramassé des familles des esclaves, des aumônes et du trésor royal.

Dans cet univers de personnages multiples et de jeux d'intérêts bizarres, se meuvent deux ordres religieux français qui ne vont pas sans antagonismes. Dans le cas de la France, les Pères rédempteurs vont prendre la relève des missions d'ambassades avortées le plus souvent et leur tentatives s'avèrent plus efficaces, et moins coûteuses que les démarches officielles :

"Pour ne pas abandonner les captifs à leur sort, sur lequel tout le monde s'apitoie même lorsqu'on ne fait rien pour eux, le mieux est d'employer les religieux des ordres qui ont été créés spécialement en vue du rachat des esclaves. Telle est la solution qui reçoit l'agrément de la cour de France : les rédempteurs seront des intermédiaires plus honnêtes et plus dévoués que les marchands, et moins coûteux que des ambassadeurs officiels. A d'aussi humbles négociateurs, les maîtres des captifs n'oseront pas présenter des prix majorés. Enfin, les religieux se chargent de trouver eux-mêmes les fonds nécessaire à la rédemption par des quêtes effectuées dans toute la France".

Les trinitaires nommés également les Mathurins (appartenant à Saint-Mathieu) entrèrent en conflit avec les mercédaires, qu'ils appelaient les "mercenaires", à cause des lieux de collecte. Favorisés par la Régente Marie de Médicis, les mercédaires se réservèrent la rédemption la plus glorieuse, celle du Maroc.[9] Il

---

9 - Au-delà de Lebel et de Pens, cf. au sujet des rédempteurs:A.C.Germain, **L'oeuvre de la rédemption des captifs à Montpellier d'après les documents originaux...**, Montpellier, J. Martel, 1865.
P.Calixe de la Providence, **Corsaires et rédempteurs,** Lille, Desclez, 1884.
P.Deslandres, **L'ordre des Trinitaires pour le rachat des captifs,** Toulouse-Paris, 1903.

semble que les pères rédempteurs entreprenaient leurs missions pour des fins religieuses où entraient en jeu la crainte de l'Islam et de l'abjuration de la foi catholique. Leur mission d'évangélisation n'était point destinée, à l'instar des autres pays de l'Afrique aux Marocains; ces pasteurs arrivaient à peine à sauver l'âme des captifs intéressés qui ne cessaient d'user de tous les expédients pour se faire racheter beaucoup plus que d'aspirer à la béatitude de la foi.

Il va sans dire que le récit issu de ces voyages de rédemption entretient une ambiguïté à tous les niveaux et se singularise par une spécificité qui s'alimente de plusieurs sources. Le récit des captifs possède une multiplicité d'auteurs : captifs, pères rédempteurs, anonymes, ensemble d'auteurs (collectif)... Il met souvent en oeuvre une variété et une multiplicité de narrateurs-relais, si bien qu'il se fonde sur un système de crédibilité romanesque complexe et performant.

Ce sont généralement des récits écrits sous patronage officiel dédicacés au Roi ou à la Reine et qui bénéficient à ce titre du privilège royal. Au-delà du titre, le discours préfaciel insiste sur plusieurs procès de légitimation : dédicace, objet du livre, présentation de l'expérience sous forme romancée, buts pratiques de l'ouvrage, noms des captifs, insistance sur la qualité du témoin oculaire, datation des événements relatés, enchâssements de récits de captifs, style non apprêté...

Le texte des récits des captifs est lourdement chargé d'à priori et se montre extrêmement hostile au Maroc.[10] Il s'agit d'emblée d'une image dénigrante dans la mesure où le sujet concerne le rachat des esclaves ou la relation de leurs supplices en terre d'Islam. Le récit est en fait l'aboutissement de la mission et l'étape finale de la captivité. Tout le récit est fortement dramatisé : le pathétique et le dramatique, solidaires et complémentaires, caractérisent le récit : affrontement de risques multiples, sous forme d'aventures recommencées, qui frôlent la mort; les héros principaux exposés constamment à la cruauté et à l'avidité, récit de captivité (code narratif du roman oriental), traversée de l'Espagne et de la Méditerranée. Il s'agit en fait d'un récit d'initiation avec ses multiples épreuves, sa quête et sa révélation.

Le récit des épreuves diverses et démultipliées, faisant appel

---

G.Turbet-Delof,**L'Afrique barbaresque dans la littérature française,** Genève, Droz, 1973.

10 - "Entre 1640 et 1740, on peut dire que toutes les publications de la librairie française touchant le Maroc tournait autour de la captivité de nos malheureux corrèligionnaires". Lebel, Op.Cit., p.27.

à une instance narrative équivoque, tend à édifier le lecteur par des récits des martyrs endurés sur la terre d'Espagne, mal famée, et sur la terre d'Islam honnie. Aussi le discours sur le barbaresque est dépréciatif sans nuance. Une mise en accusation de plusieurs personnages types (renégats, juifs, protestants), réputés pour leur avidité sans frein quand ils choisissent le "chrétien pour proie". Le récit détaille les souffrances physiques et morales que subissent les voyageurs ou les captifs dans leur prison. Une hantise de la peur se traduit par la mort qui pourrait surgir à n'importe quel moment (sur mer dans les environs de la côte marocaine et sur terre par les agents d'autorité). Partout l'agression malmène le rédempteur ou le captif : voleurs, passants, patrons, maîtres...

Le Maure, dans la conscience française, partage avec l'Espagnol le forfait du "vol "et de l'agression. Arrivés à Tétouan, les rédempteurs étaient sommés d'attendre une autorisation pour pénétrer à la ville. Ceci les astreignait à un séjour forcé à Martil, sous peine d'un tribut à payer au Caïd. Il en va de même des captifs qui allaient être embarqués en Europe. Rédempteurs et captifs rachetés pouvaient fort bien être incarcérés dans les fameuses matemores de Tétouan, comme d'ailleurs les ambassadeurs et les consuls.[11] Ces pratiques très courantes au XVIIème siècle se poursuivaient au siècle des Lumières. Ces escales forcées permettaient aux agents d'autorité de saigner à blanc les rédempteurs. Tant que les captifs étaient au Maroc, ils étaient soumis à tous les risques. La relation de ces pratiques concourt à insister sur le péril et la gradation des épreuves, si bien que le récit tourne résolument en littérature apologétique ou de propagande religieuse. A l'avidité sans freins des autorités Marocaines s'oppose la célèbre vertu chrétienne la "constance". Le captif subit à Tétouan la pénultième épreuve, avant de passer à la révélation dans le parcours initiatique.

Le récit des captifs développe amplement le supplice des esclaves. Au Maroc, il s'agit d'un esclavage absolu, où les captifs, enchaînés, sont soumis à une corvée insoutenable, sous le soleil brûlant et sous les coups qui pleuvent. Ils ont droit à un morceau de pain noir que même les chiens refusent, et un peu d'huile qu'ils vendent pour acheter de la graisse. Ils passent la nuit dans des sagènes, [12] des matemores souterraines à la merci de toutes les

---

[11] - "En 1790, Moulay Yazid enferme le consul d'Espagne avec les captifs et les missionnaires pour avoir déclaré la guerre au sultan."C.L.Montalban, y Mazas, **Las Mazmorras de Tetuán, su limpieza y exploración,** Madrid, Mundo Latino, 1 l MCMXXIX, p.59.

[12] - Les matemores ou silos, étaient également appelés Bitto Sagène, "Vite",

vermines et les maladies.

"La nuit, les chrétiens étaient parqués dans des "matamores"(nous disons aujourd'hui des silos). C'étaient des prisons souterraines, creusées en rond, avec un orifice très étroit en haut que l'on fermait avec une grille de fer. Pour descendre dans cette basse fosse, il y avait une corde. L'humidité de la terre jointe à l'air vicié, faisait qu'il était presque impossible d'y durer, à cause de l'odeur infecte; et ces lieux étaient remplis de vermines et d'ordures. Il arrivait qu'en temps de pluie, le fond de la matemore se remplisse d'eau. Aux misères déjà souffertes s'ajoutaient alors les maladies. Mais les moyens employés pour guérir les malades étaient aussi barbares que les traitements qu'ils subissaient par ailleurs. On chauffait au rouge des bouts de fer, avec lesquels on brûlait les patients sur les parties du corps à soigner".[13]

Cette situation intenable des esclaves met en scène un discours sur l'exil en terre d'infidélité qui constitue la forme paroxystique de l'exil. Celui-ci est ressenti comme une détention et présente les captifs comme des martyrs au sens chrétien du terme. Privés de liberté, éloignés de leurs familles, se consumant sous la férule de la tyrannie la plus irrationnelle, les esclaves chrétiens sont aussi exposés aux vices les plus tentants.

Le récit des captifs développe une image du martyr où entrent en jeu les mauvais traitements, la peinture de la mort violente et la description suggestive des supplices des captifs, mâles et femelles, avec une composante sexuelle : captives torturées par des esclaves noirs à coups de verge, de fouet, au moyen de brûlures dans les endroits du corps les plus sensibles. Ils étaient obligés d'apostasier, d'abjurer la foi catholique. Tout un imaginaire pétri de fantasmes occidentaux sur le risque de la corruption morale travaille le texte des captifs. Les Pères rachètent d'abord les "beaux esclaves". Deux esclaves à Tétouan confient aux pères que des "pièges ont été tendus à leur chasteté", dans une ville où l'homosexualité règne en maîtresse. Plusieurs captifs sont devenus des "mignons" de leurs maîtres; d'autres des amants de

---

Canute (Canuto)... Ibid.,p.8.

"Las mazmorras de Tetuán devieron existir desde el momento que los musulmanes que salieron de Granada empezaron la edificacion de Tetuán, y el lugar donde estuvieron las Mazmoras devio ser el mismo que existe en la actualidad.(...) Las mazmoras de Tetuán las constituyen tres departamentos, situados debajo del pavimiento de una plaza que hoy quedo reducida a una calle estrecha: los departamentos recibian la luz por unas claraboyas con fuertes rejas de hierro y estan con un cadada". Montalban, **Las Mazmorras de Tetuán...** Op.Cit., p.35.

13 - R.Lebel, Op.Cit., p.35.

leurs maîtresses.

Les belles femmes deviennent des concubines et se vendent chèrement par des Juifs au marché des esclaves à des personnages riches ou influents. Elles sont destinées à enrichir le harem des notables ou à être offertes comme présent au sérail impérial. Elles doivent se convertir à l'Islam pour être épousées. A Tétouan, au marché des esclaves se vendent les prises de la région et celles de l'Algérie et de la Tunisie.

Toujours est-il que la moralité des captifs est très douteuse. Aussi le récit exploite le conte galant et le roman amoureux, source inappréciable pour distraire le lecteur à la suite de la peinture des supplices. La corruption des moeurs marocaines est imputée à une religion permissive qui autorise la polygamie et la pratique des échansons. Ce procès de la religion islamique, topos obligé du genre, alimente le discours oriental consacré par les philosophes des Lumières.[14]

La cérémonie de l'abjuration de la foi catholique est rendue publique. La conversion du renégat est entérinée par des juges et implique l'affranchissement de l'esclavage. Le renégat est promené en une procession en ville pour rendre publique sa conversion à l'Islam dans une ambiance de festivités : le Comte Jean Potocki a assisté à Tétouan à une semblable céremonie d'un renégat portugais. Les récits dénoncent ce genre de festivités et accablent par la même occasion les huguenots qui manifestent une haine inexpugnable envers les rédempteurs. Rénégats et protestants partagent la même condamnation des Péres rédempteurs.

A ce discours éthico-religieux s'ajoute un discours politique qui dénonce le despotisme aveugle du gouvernement marocain et sa politique spoliatrice et décourageante. Ayant approché de très près les instances du pouvoir dans leur négociations (rédempteurs) ou dans leur service au sein du palais (captifs), ces auteurs occasionnels affirment être mieux placés pour parler des formes du gouvernement. Cette légitimation du discours politique se fait à partir des expériences et des contacts. On dénonce le noyau du pouvoir et les satellites. Le récit de captivité et de la rédemption développe tout un diagnostic d'ensemble, à la fois politique, économique et historique. Au récit ressassé sur le personnage du souverain, s'ajoute la relation des arbitraires impunis, les Pachas et

---

[14] - Cf. à ce sujet au delà de notre thèse d'Etat, celle du 3e cycle: B.Ouasti, **Image de l'Egypte dans la relation de Vivant Denon: Voyage dans la Basse et la Haute Egypte pendant les campagnes du Général Bonaparte, (1802)**, Diplôme des Etudes Supérieures soutenue devant l'Université de Fès 1988, notamment le chapitre : **Un discours sur le despotisme oriental.**

les caïds, rançonneurs avides, parfois révoltés contre le palais ou affrontés au soulèvement populaire :

"La province de Tétouan était une des plus agitée. Quoique les peuples n'y eussent pas refusés ouvertement de reconnaître Deby pour Roi, ils s'étaient révoltés contre le Bacha Hamet Gouverneur de cette Province, sous prétexte que celui-ci les opprimait par des exactions et des injustices. Les habitants de Tétuan le chassèrent de leur ville, ruinèrent sa maison, ravagèrent ses jardins."[15]

Aidé par son frère, le gouverneur de Tanger, le Bacha de Tétouan revient et conquiert la ville qu'il met à sac, essuie un second échec par le soulèvement de la population :

"Lorsque les Bourgeois de Tétuan, revenus de leur frayeur, se mirent en devoir de réparer la faute que leur lâcheté venait de leur faire commettre. Comme si en un moment ils fussent, pour ainsi dire, devenus de nouveaux hommes, les uns attaquèrent avec une vigueur les Soldats victorieux, qui embarrassés de leur butin, ne pouvaient presque se défendre; & les autres du haut des terrasses, des toits & des maisons, en tuèrent un grand nombre à coups de fusils & de pierres [...] Après avoir ainsi chassé de leur Ville l'Armée du Bacha, qui ne faisait que d'y entrer, comme en triomphe, ils portèrent l'inhumanité jusqu'à couper par morceaux les corps morts de leurs ennemis, qu'ils trouvèrent dans les rues de Tétuan, & à les donner a manger aux chiens"[16]

La relation de tels actes insiste sur l'insécurité du pays et la faiblesse du gouvernement & fonctionne comme une invitation à une intervention de l'Europe en terre d'Islam.

En somme, le récit de rédemption et des captifs développe une triple vision du Maroc : une image éthico-religieuse destinée à faire appel à la compassion des lecteurs chrétiens afin d'accroître les aumônes; une image politique noire qui ne va pas sans des présupposés de conquête militaire et une vision littéraire qui produit l'intérêt romanesque tenant en éveil l'imagination du lecteur.

L'espace de la ville de Tétouan est traité selon la pratique anthropologique, intitulée "sacration de l'espace" : certains lieux sont investis de valeur négative : Martil, le marché aux esclaves, les fameuses matemores... D'autres sont essentiellement euphoriques et permettent toute une peinture pittoresque de la ville qui embellit par ses touches exotiques le récit. Tétouan est située

---

15 - **Relation de ce qui s'est passé dans le Royaume du Maroc,** Op. Cit., pp.58-59.

16 - Ibid.,pp.60-61.

sur une petite montagne, construite en maisons bâties en terrasses. Ses murs blanchis à la chaux lui confèrent un bel aspect fort agréable. La ville pittoresque domine des plaines charmantes, arrosées par une rivière qui se jette à la mer. Les campagnes alentours sont fertiles, mais non cultivées à cause de l'incurie et de la paresse des Maures. Cette peinture répétitive se retrouve amplement développée par les voyageurs.

Lemprière qui y séjourna en fin du siècle en donne un tableau du genre :

"Tétuan est agréablement située à l'entrée du détroit sur les bords de la Méditerranée [...] La belle vallée qui est au-dessous de Tétuan est remplie de vignobles et de jolis jardins qui sont arrosés par la rivière qui serpente dans la plaine.

La stérilité des hautes montagnes qui dominent la ville, contraste avec la belle verdure de la plaine, la vue rapprochée de la mer, et sa qualité prodigieuse de barques qui remontent jusqu'à Marteen, produisent les scènes les plus pittoresques et les plus variées".[17]

Ce tableau digne de la peinture orientaliste est recomposé par les différents stéréotypes qu'on retrouve chez maints voyageurs de Tétouan.

Si les récits des captifs sont défavorables à Martil, les relations des voyageurs anglais en font une peinture positive qui rappelle l'agrément d'une ville italienne qui présente bien des analogies avec la ville de Grenade : Braithwaite la décrit en ces termes :

"Nous continuâmes notre route le long des bords d'une rivière petite, mais d'un aspect très agréablement diversifié. Au dessus de la Barre, a deux milles d'une place nommée Merteen, où l'embarque & l'on voiture les provisions de toute espèce pour la ville, cette rivière porte de grosses barques; &, avec fort peu de depenfe, il serait facile de rendre navigable jusqu'à la ville & beaucoup au-delà, on pourrait encore en tenir l'embouchure toujours nette par le moyen de bateaux & d'écluses convenables".[18]

Le capitaine Braithwaite peint une ville animée et vivante dans leur entrée solennelle à Tétouan :

"De Merteen à Tétuan, nous marchames dans une belle plaine, assez vaste pour camper vingt mille hommes, & de tous côtés, la perspective est plus gracieuse [...] A l'entrée de la ville nous eûmes à percer une foule de vieillards, de femmes, & de

---

17 - W.Lemprière, **Voyage dans l'Empire du Maroc...** , Op.Cit.,p. 347.

18-Braithwaite, Op.Cit.,p.70.

jeunes garçons, tous de la plus vile populace; ainsi nous ne pouvons qu'à grande peine nous faire passer dans les rues, qui sont extrêmement étroites, & nous étions tellement pressés, que nous souffrimes beaucoup des jambes & des genoux. Les toits des maisons étaient couverts de femmes, qu'elles avaient plutôt l'apparence de spectres & de fantômes, que d'objets destinés à charmer le coeur & les yeux : on ne leur voyoit qu'un oeil, une longue mante de laine blanche les entortilloit du haut en bas & un morceau de toile cachoit leurs visages"[19]

Il est inutile de rappeler le voyeurisme déçu des voyageurs européens qui abhorent le costume féminin qui couvre tout le corps, souvent comparé à un fantôme.

Le personnage féminin semble r&enir longtemps le regard du voyageur anglais qui poursuit inlassablenent la Tétouanaise : rivé sur les terrasses des maisons, le regard de convoitise traque les silhouettes désirées :

"Au dessus de l'appartement des femmes; on a pratiqué une très belle terrasse, qui a la vue sur la ville, la vallée, la rivière, la plaine & le grand chemin jusqu'à la mer : & au haut dans chaque tourelle il y a un bélvédère, à deux étages, avec des treillis, ou les femmes avaient coutume de travailler & jouissoient du plaisir d'une charmante perspective tout autour, sans qu'on put les voir".

Pour ce faire elles prenoient les plaisirs de la promenade dans les jardins, où les allées étoient couvertes de vignes, & par le moyen d'une arcade, qui tournoit au dessous du chemin, tous les jardins se communiquaient, les allées étaient si hautes, qu'il n 'était pas possible d'y voir les femmes"[20]

Or les femmes marocaines, toujours soustraites au regard de l'etranger, pourraient être contemplées à loisir à Tétouan comme le rapporte l'auteur :

"Et quoique nous n'eussions pas la liberté de nous entretenir avec les femmes des Mores, il nous était facile de les voir du haut de notre maison, toutes les fois que nous en avions envie : car les More de cette ville, ne sont pas si jaloux de leurs Femmes, que dans tout le reste du pays."[21]

A défaut de femmes tétouanaises, le voyageur comme tous les voyageurs européens pourrait satisfaire son voyeurisme par la beauté israëlite :

"Par rapport aux Juives, qui sont parfaitement belles et bien

---

19 - Ibid.,p.72.
20 - Ibid.,p.90.
21 - Ibid.,p.92.

faites, il n'y en avait point que nous puiffions voir et entretenir chez elles avec autant de familiarité, que si nous eussions été dans notre propre maison."[22]

Le docteur William Lemprière affirme également la beauté des filles de Moïse :

"Les femmes juives de Tétouan sont très belles; elles sont remarquables par la fraîcheur de leur teint et la régularité de leurs traits."[23]

Le capitaine Braithwaite rapporte même des aventures galantes à Tétouan :

Nous eûmes cette fois une aventure galante, des moresques nous accrochèrent, après avoir attentivement examiné s'il n'y avoit point de Mores aux environs. Elles nous joignirent d'un air libre, elles levèrent leur voile, ou plutôt le linge qui couvrait leurs visages, elles riaient, babilloient, sautoient, & faisoient mille cabrioles autour de nous de la manière la plus enjouée. Mister Hatfield nous dit qu'il croyoit que c'étoient des femmes de joye, dont on ne manque pas dans ces cantons de Barbarie, comme il est facile de le remarquer par la qualité des gens sans nez qu'on rencontre à Tétouan, en plus grand nombre, qu'aucune autre ville."[24]

Cette façon d'attirer les femmes de Tétouan se retrouve même chez les missionnaires qui viennent racheter les captifs. En effet, Jean Russel qui était venu racheter des captifs écrit :

"Dans la nuit au clair de lune, à Tétouan, notre médecin avait la complaisance de jouer de la flûte sur la terrasse, et comme il jouait à la perfection, il ne manquait pas d'attirer une nombreuse assemblée de juives et de mauresques, charmées de l'entendre."[25]

Le voyageur anglais décrit un dîner offert par Hadj Lucas agrémenté par un concert à la tétouanaise :

Pour rendre le divertissement complet à la manière du pays, on fit danfer des jeunes garçons, qui figuroient avec des postures auffi grotefques que la mufique était bizarre. Ces danfeurs partaient en cadence dans le même temps, ils accompagnoient les instruments de la voix, par intervalles, ils battoient des mains,

---

22 -Ibid.

23 - Lemprière, Op.Cit., p.350.

24 - Braithwaite, Op.Cit., p.119.

Nous rappelons que l'influence de la France au XVII[ème] siècle au Maroc décline au XVIII[ème] siècle au profit des anglais.

25 - Cité par R.Cruchet, **La conquête pacifique du Maroc**,Paris: Berger Levrault, 1934, p.29.

quelquefois ils frappoient du pied contre la terre."[26]

Cette danse lascive, exécutée par des adolescents ne charme point les convives britanniques.

Un voyage à Tétouan ne se fait pas sans la visite des maisons de campagnes des caïds ou des riches de Tétouan. La description du Mellah est incontournable et celle de la foule tétouanaise constitue un topos obligé du genre. Tous les voyageurs, à l'exception des rédempteurs et des captifs, reconnaissent la tolérance de la population tétouanaise à l'égard des étrangers. Le Capitaine Braithwaite affirme à ce sujet : Malgré la foule qui nous attendoit on nous laissoit paffage libre, nous n'étions ni houspillés, ni regardés en face."[27]

Lempriére distingue les tétouanais du reste des Marocains à ce sujet :

"La foule me suivait, mais sans me faire la moindre insulte. Le peuple était bien éloigné de vouloir m'accabler d'injures, comme faisoit l'horrible canaille du Maroc"[28]

Potocki qui a été agressé par les Egyptiens, reconnaît le respect des Tétouanais envers les étrangers :

Les voyageurs s'accordent sur l'activité économique de la ville de Tétouan jusqu'à la fin du siècle. Lemprière affirme :

"On peut regarder la ville de Tétouan comme la plus commerçante de l'empire du Maroc après Fés."[29]

Au début du siècle, à la suite de la mort de Moulay Ismaël, l'activité économique de la ville diminue à cause de l'insécurité :

"Depuis la nouvelle révolution, le commerce de Tétouan étoit considérablement touché; les hostilités inséparables d'une guerre civile, empêchoient les caravanes de Fès de venir toutes les semaines suivant leur coutume en temps de paix."[30]

Le capitaine britannique concède que tout le commerce de Tétouan passe par les mains des Juifs, habiles négociants malhonnêtes. Il développe une longue digression sur deux marchands anglais établis à Tétouan :

Mrs. Nash & Parker. Enrichis, ils regagnaient leur pays natal, mais ils tombaient dans les mains des corsaires qui les réduisirent beaucoup plus que la première fois, avant de quitter la Barbarie.

---

26 - Braithwaite, Op.Cit., p.105.

27 -Ibid.

28 - Lemprière, Op.Cit., p.349.

29 -Ibid.

30 - Braithwaite, Op.Cit., p. 85.

Autant de considérations constituent un ensemble de topoï qui composent le voyage à Tétouan au siècle des Lumières.

Les récits de la captivité entretiennent un discours équivoque et font appel à toutes les expériences narratives pour composer un texte mélodramatique destiné à exciter la charité des chrétiens. Il opère un partage net du monde. D'un côté, la terre d'Islam, de la turpitude, de la fausse religion, de la tyrannie la plus irrationnelle, d'un peuple ignorant et fanatique; de l'autre, le pays chrétien de la foi, de la Raison conformément à l'éthique des Lumières. Le captif une fois racheté, est solennellement réinséré dans un ordre politique et religieux des "vérités divines".[31]

Les Maures, les Juifs et les protestants convergent dans une cupidité qui les conduit à persécuter le chrétien. Le récit de la capidité tient un discours politique ayant une légitimation spécifique et un discours sur l'exil, un exil particulier, en terre d'esclavage, hostile au christianisme. Tétouan partage dans ce contexte le même contre-modèle : c'est une ville réputée pour ses pirates, ses matemores, son marché aux esclaves, pour ses gouverneurs rapaces, sa population ignorante, fanatique et vicieuse. Néanmoins, c'est une belle ville au charme pittoresque. Elle constitue une étape liminaire ou terminale d'un parcours initiatique du captif, comme pour le rédempteur, offrant le modèle du martyr.

Le personnage du captif, avec celui d'écumeurs des mers, devient vite un personnage littéraire qui selon Coindreau :

"appele l'événement et alimente le conte. Il a cette qualité éminente de devenir facilement conventionné, de passer à l'état de type, de faire image. Et par cet aspect simple, il émeut l'imagination et provoque une attente fièvreuse."[32]

Ce genre de voyage se mue en roman où se mêlent la documentation, l'histoire et la fiction comme chez La Martinière dans son Heureux esclave.[33] ou Les esclaves de Méquinez de Nancy-Georges. Dans ces récits supposés de captifs, "l'histoire devient un roman d'aventures maritimes", une sorte de roman historique à la Dumas ou à la Walter Scott, voire un roman à fonds géographique tel que Robinson Crusoe. Ainsi, le récit des captifs

---

31 - Il serait intéressant de se pencher sur les captifs marocains en France et dans toute l'Europe. Ils servaient de chiourme et n'étaient échangés qu'une fois devenus vieux ou impuissants. On s'arrangeait toujours pour ne pas les montrer aux ambassadeurs marocains.

32 - R.Coindreau, **Les corsaires de Salé**, Paris, S.E.G.C., 1948, p.8.

33 - **La Martinière, l'heureux esclave, ou la relation des aventures du sieur de la Martinière en Barbarie,** Paris, 1674.

offre à bien des égards un champ fécond d'investigation qui nécessite un objet à sa mesure.

Les voyageurs européens qui avaient visité la ville de Tétouan semblent procéder du même imaginaire. Ils ont décrit le charme de la ville et de ses alentours. La peinture de la foule et des types de la population indissociable du personnage du juif, habile commerçant et adjuvant incomparable des voyageurs étrangers. La beauté de la femme orientale en général, et tétouanaise en particulier, juive ou mauresque, l'une à la portée et l'autre extraite du regard voyeur, n'a pas laissé insensible les voyageurs européens, toujours à la quête de la splendeur légendaire du charme de la femme orientalo-musulmane. Ces récits de voyage insistent sur l'activité économique de la ville, mais déplorent la politique spoliatrice et décourageante des autorités. Le voyage de Potocki, à titre d'exemple, présente une structure complexe et s'inscrit dans un projet particulier du comte polonais, ce voyageur éclairé et déroutant. Cet admirateur de Rousseau pensait que le Maroc différait dans sa structure politique de l'Empire Ottoman. En arrivant au Maroc, il croyait que la cour marocaine était purement arabe, sans mélange de turquerie. Déçu, il se montre très critique à l'égard du pays visité et notamment dans le procès virulent adressé à Moulay Yazid, qui d'ailleurs a été l'objet d'éloges chez le docteur Lemprière.

A l'instar de la vision du Maroc au siècle des Lumières, la ville de Tétouan, encore à son apogée, offre un modèle réduit, au sens anthropologique du terme, du pays dont elle représente la région nord. Il serait intéressant d'en étudier les différentes représentations dans une dimension pluridisciplinaire.

# Intervention du professeur J.L.Miège lors de la séance de clôture

Je dois remercier les uns et les autres; ceux qui ont posé des questions, ceux qui ont répondu aux questions. Je voudrais , au terme de nos travaux, vous faire part des impressions que je ressens. La nature des communications de ce matin illustre parfaitement, comme une sorte de symbole, ce que furent ces trois journées de travail. En effet, nous avons eu deux communications qui unissaient deux disciplines tout à fait différentes, puisque l'une portait sur la culture, l'autre l'économie, et toutes deux fort riches.

La première impression ou notion que je retiens est ce caractère multidisciplinaire, et qui répond bien à l' histoire d'une cité. Une ville, c'est un microcosme, c'est un corps vivant avec toutes les activités de la vie, celle de l'esprit, celle du corps, celle de l'architecture du cadre et de ceux qui y vivaient en l'animant. Nous avons eu l'impression de cette richesse de Tétouan à travers la richesse des communications. Cette ville, vous l'avez montrée dans sa dimension économique, vous l'avez montrée dans sa dimension culturelle. Elle vit d'une façon intense et large avec une respiration qui lui vient de la mer et de très loin de la mer, jusqu'à l'Orient et jusqu'aux brumes du Nord, qui lui vient aussi de son intérieur, car il y a tous les prolongements jusqu'en Afrique Noire, et puis d'une ville qui a ses lettres, ses commerçants, ses classes sociales.

Nous trouvons au carrefour de ce que je voudrais appeler les forces endogènes de la cité et les forces exogènes, celles qui viennent des grandes impulsions de l'histoire .Vous avez bien montré, par exemple , comment le rôle de Gibraltar a pu infléchir, à un certain moment, le destin économique de la ville.

Cette richesse et ce complexe d'influences, on les aperçoit très bien dans deux domaines que je voudrais rappeler. C'est, d'une part, celui des biographes qui ont été esquissées. On a vu Ar-Rifi et sa puissance, Ben Youssef et son humilité. On a rencontré les lettrés brillants, les commerçants actifs; nous avons ici peut-être l'une des plus belles galeries de portraits, de types humains que l'historien puisse rêver trouver.

D'autre part, ce qui frappe, c'est la rencontre de toutes ces influences extérieures, en doses diverses. Ces carreaux, venus de Hollande, cet ivoire venu du Soudan, tous ces apports créent, dans leur mélange, dans leur composante, ce que l'on pourrait appeler "l'esprit des lieux". Un esprit particulier où flotte un petit peu, encore aujourd'hui, de toutes ces influences subies ou adaptées.

Voilà, je crois, les premiers éléments qui m'ont peut-être le

plus frappé.

Le deuxième aspect que je retiens, c'est que notre science est une science minutieuse avec des apports ponctuels. Sur tel ou tel détail les faits ont été rectifiés, précisés par une date, une impression, une interprétation. De là sont apparues des problématiques nouvelles et des modèles d'explication.

On peut essayer (je crois que c'est une des tâches essentielles de l'Historien de donner un ordre logique et intellectuel à un passé qui ne l'apparraît guère), grâce à nos travaux, de mieux périodiser à l'intérieur des grandes époques de l'histoire marocaine les phases propres à la vie tétouanaise. Finalement apparaissent deux grands pôles entre lesquels se seraient déplacées les réflexions de notre colloque; de l'apogée, en quelque sorte, de l'affirmation d'une supériorité, ce que j'appelerai l'heure de certitude, les années 1730 jusqu'aux années de doute, de l'inquiétude et de la perplexité que montrent très bien les affrontements de la fin du XVIIIème siècle et du début du siècle suivant.

Je pense aussi que ce colloque nous a beaucoup apporté quant à la réflexion sur nos sources. Plus que jamais il est apparu qu'il n'y a pas de source unique, mais une variété de sources pour l'historien, à condition qu'il sache les interpréter. Des sources de la littérature à l'architecture, en passant par les données proprement historiques.

L'histoire est un goût, une passion. C'est aussi, je crois, et pour moi ceci l'est de plus en plus, un amusement. Celui qui naît d'abord des comédies passées comme des palais maudits, car c'est parfois l'amusement (il faut bien le dire) un peu sadique des tragédies auquelles on ne participe pas et qu'on voit avec beaucoup de recul, et puis c'est l'amusement des énigmes, des questions que l'on pose et des pistes pour résoudre ces énigmes. Double jeu des énigmes et des pistes auxquelles nous nous sommes livrés avec beaucoup de goût, chacun trouvant son bonheur dans ses sources préférées en mettant à la disposition d'autrui les richesses publiques et privées du Maroc et l'Europe, les archives littéraires arabes et européennes.

Je ne citerai pas les interventions qui m'ont le plus frappé. Je voudrais mettre l'accent sur le collectif, et notamment sur l'ampleur, grâce aux efforts du Professeur M'hamed Benaboud, du corpus historique qui est en train de se constituer sur le passé de Tétouan.

Voici donc terminé le troisième colloque sur le passé de la ville, dont déjà se dessine mieux, grâce à eux, son profil et sa vie. Nous attendons tous le quatrième colloque sur le XVIème siècle. J'oserai même dire que j'appelle de mes voeux un cinquième

colloque, après cette étude chronologique si intéressante, qui répond véritablement à la notion que nous avons de plus en plus d'une histoire régressive.

Partir des problèmes du présent pour analyser les problèmes du passé, et non plus faire comme autrefois, respectueux d'abandonner au fleuve de l'histoire qui allait des sources paisibles ou troublées à l'embouchure. Nous remontons donc pour trouver ces sources. Mais, quand nous serons arrivés jusqu'à elles, je pense qu'il serait intéressant que nous essayons de reprendre de façon différente notre réflexion sur cette ville à laquelle nous nous attachons à chaque rencontre, nous, qui n'en sommes pas citoyens, un peu plus jusqu'à la considérer un peu nôtre.

D'abord il nous faudrait reprendre de façon thématique les problèmes. Ils naissent car ils sont ceux de la spécificité tétouanaise à l'intérieur d'une originalité marocaine, elle-même prise dans l'histoire universelle. L'histoire, c'est toujours un exemple particulier d'une grande évolution. Les aspects n'en sont pas les mêmes ici et là, ne prennent pas une semblable intensité ou n'ont pas les mêmes dates.

Je pense aussi, bien que je n'ai pas l'esprit directif, que nous pourrions peut-être nous fixer quelques axes de réflexion et surtout voir dans ces mailles que nous avons nouées, dans ce tissu historique reconstitué, les trous, les manques, et nous attacher, collectivement, à essayer de combler ces silences de l'histoire. Qu'ils soient les silences des archives ou les silences des questions non posées, ou simplement dûs au fait que le temps a manqué pour les remplir.

Il n'y a d' Histoire que globale. Nous l'avons montré. Tous les facteurs devant être pris en compte, tantôt le culturel l'emportant sur l'économique, tantôt celui-ci dominant parfois le politique. Il ne peut y avoir d'histoire aussi que comparative; je pense qu'un jour il sera intéressant d'essayer de voir ce que Tétouan représente parmi les cités marocaines, par comparaison et par différences.

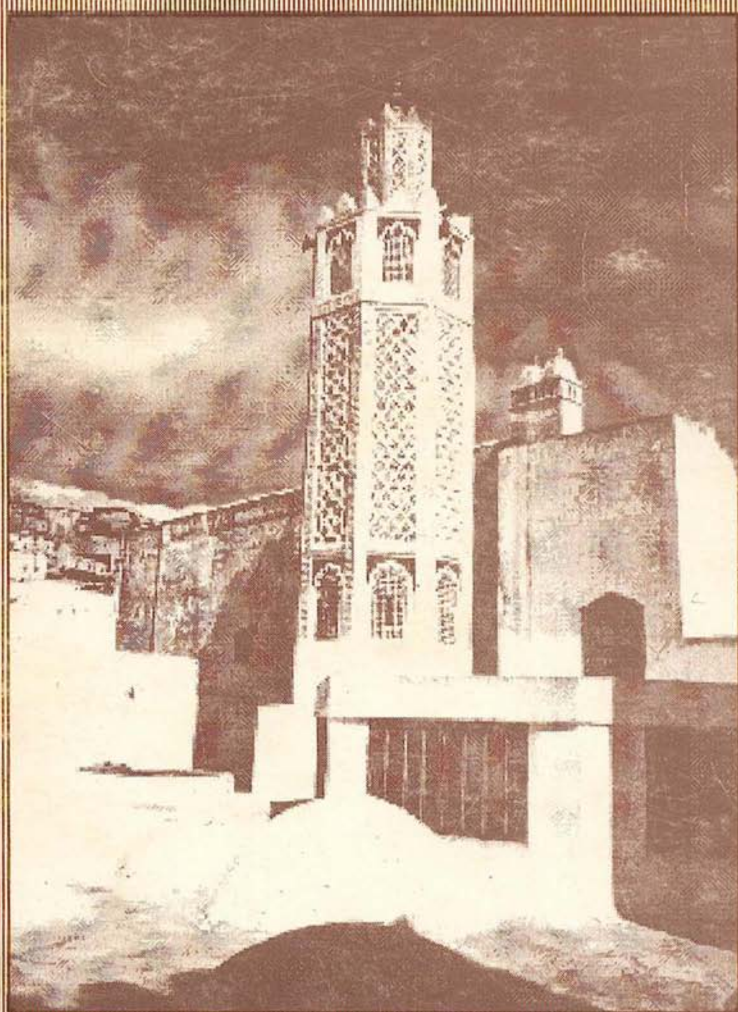
Dans les rencontres de ce colloque nous nous rendons tous compte que, si grande que soit la richesse des communications écrites, plus grande encore est la richesse des communications personnelles, des rencontres de couloirs ou des repas, les échanges d'informations où s'amplifient à la fois la connaissance de l'autre, l'estime réciproque, où naît et se développe l'amitié. L'on voit ici, à travers ce colloque, que l'histoire n'est pas forcément comme le disait Valéry, le produit le plus dangereux de l'intellect humain, mais qu'il peut être aussi le produit le plus chaleureux de nos contacts personnels.

*Université Abdelmalek Es-Saâdi*
Faculté des Lettres et des Sciences Humaines
Tétouan

*Université Abdelmalek Es-Saâdi*
Ecole Supérieure Roi Fahd de Traduction
Tanger

Groupe de Recherches sur l'Histiore
du
Maroc et d'Al-Andalus

# *Tétouan au 18ème siècle (1727-1822)*



Actes du Colloque ; Tétouan au 18ème siècle
Organisé du 21 au 23 Octobre 1993